الافتراءات الواردة على الرسول ﷺ والقرآن

– دراسة قرآنية –

إعداد
طارق علي محمد عصفور

المشرف
الدكتور أحمد نوفل

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير

كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

كانون ثاني ، ٢٠٠٨م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إهداء

إلى والدتي الحبيبة الغالية التي لم تكلّ ولم تملّ من الدعاء لي ، وإلى أختيّ العزيزتين على قلبي ، وإلى زوجتي التي كانت إلى جانبي في رحلة الدراسة وحملت معي همّها وعناءها ، وإلى ولديّ الحبيبين نور الدين وبهاء الدين اللذّيْن أدعو الله عز وجل أن يجعلهما من علماء دينه العاملين ، أُهدي هذا العمل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر الجزيل إلى فضيلة المشرف على رسالتي الدكتور أحمد نوفل – وفقه الله إلى كل خير – لما أسدى عليّ من نصحه وتوجيهه ونقده البناء ، ولأصحاب الفضيلة من الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة – جزاهم الله خيرا – ، ولكل من سهل عليّ مهمة البحث ، على رأسهم فضيلة الأستاذ الدكتور زياد خليل الدغامين ، عميد كليتي السابق الذي لا أنسى له معروفه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير............	د
فهرس المحتويات............	هـ
الملخص باللغة العربية	ز
المقدمة	١
التمهيد	٦
المبحث الأول : فرية السحر	٧
تمهيد	٧
المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته	١٨
المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية	٢٤
المطلب الثالث : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن	٢٧
المطلب الرابع : الرد على الفرية	٢٩
المطلب الخامس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردها	٣٤
المبحث الثاني : فرية الشعر	٤١
تمهيد	٤١
المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته	٤٥
المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية	٤٧
المطلب الثالث : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن	٤٨
المطلب الرابع : الرد على الفرية	٤٩
المطلب الخامس : أسلوب القرآن في ردّ الفرية	٥١
المطلب السادس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردها	٥٤
المطلب السابع : شبهة ورد	٥٧
المبحث الثالث : فرية الكهانة	٦٠
تمهيد	٦٠
المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته	٦٨
المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية	٦٩
المطلب الثالث : الردّ على الفرية	٧١
المطلب الرابع : أسلوب القرآن في رد الفرية	٨٠
المطلب الخامس : أنموذج من بلاغة القرآن في رد الفرية	٨٣
المبحث الرابع : فرية الجنون	٨٦
تمهيد	٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته	٩٨
المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية	١٠٣
المطلب الثالث : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن	١٠٦
المطلب الرابع : الرد على الفرية	١٠٨
المطلب الخامس : أسلوب القرآن في رد الفرية	١٢٤
المطلب السادس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردها	١٢٨
المطلب السابع : شبهة وردّ	١٣٥
المبحث الخامس : فرية التّعلم من البشر	١٤٤
تمهيد	١٤٤
المطلب الأول : القرآن بين فرية الأساطير وفرية النقل عن أهل الكتاب	١٥٦
المطلب الثاني : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته	١٥٨
المطلب الثالث : طريقة القرآن في عرض الفرية	١٦٢
المطلب الرابع : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن وأسلوبه في ردّها	١٦٦
المطلب الخامس : الردّ على الفرية	١٦٧
المطلب السادس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردها	١٧٧
المطلب السابع : شبهة وردّ	١٨٠
المبحث السادس : فرية اختلاق القرآن	١٩٤
تمهيد	١٩٤
المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته	٢١٢
المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية	٢١٦
المطلب الثالث : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن	٢١٩
المطلب الرابع : الرد على الفرية	٢٢٠
المطلب الخامس : أسلوب القرآن في رد الفرية	٢٤٩
المطلب السادس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردها	٢٦٧
المطلب السابع : شبهة وردّ	٢٧٢
المطلب الثامن : ردود قرآنية عامّة على جميع فرى المشركين	٢٨٨
الاستنتاجات والتوصيات	٢٩١
قائمة المصادر والمراجع	٢٩٣
الملخص باللغة الإنجليزية	٣٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الافتراءات الواردة على الرسول ﷺ والقرآن

– دراسة قرآنية –

إعداد

طارق علي محمد عصفور

المشرف

الدكتور أحمد إسماعيل نوفل

ملخــص

تناولت هذه الدراسة الافتراءات التي وجهها كفار مكة إلى الرسول محمد ﷺ في بداية دعوته ، وهي ست افتراءات : السحر والشعر والكهانة والجنون والتعلم من البشر واختلاق القرآن . وقد هدفت الدراسة إلى بيان الكيفية التي تعامل بها القرآن معها إيرادا وردّا ، من حيث الأسلوب وطريقة العرض وبيان الأسباب وكيفية الردّ ، مع ذكر الدلالة التي تحملها كل فرية ، إلى جانب دراسة أنموذج قرآني مختار من الآيات التي تحدثت عنها دراسة بلاغية بيانية يَظهر فيها إعجاز القرآن وعظمته في إيراد الفرية وردها . ولا تُغفِل الدراسة ما أضافه العلماء من تعليلات وردود متصلة بهذه الافتراءات ، كما لا تُغفِل ما تجدد منها على ألسنة خصوم ظهروا فيما بعد كالمستشرقين ، والرد عليهم بالردود المناسبة .

وقد توصّل الباحث من دراسته إلى عدد من الاستنتاجات ، أهمها : **أولا** : الحرب الإعلامية أسلوب أصيل في مواجهة أهل الباطل لأهل الحق في كل زمان ، وهي ذات أشكال وألوان متعددة ، والهدف منها تزوير الحق وتشويهه تنفيرا للناس عنه ؛ كي يحافظ الكبراء على حظوظهم الدنيوية الدنيئة ، وإرضاءً لكوامن نفوسهم من الكبر والعناد والحسد . **ثانيا** : اغترار معسكر الباطل بقوته ، فلا يبالي بما يصدر عنه في سبيل القضاء على الحق وأهله . **ثالثا** : ثبوت حقيّة القرآن وإعجازه وأنه كتاب الله ووحيه بدليل تهافت جميع ما وُجّه إليه من طعون وافتراءات قديما وحديثا ، والعجز عن معارضته من وقت نزوله حتى وقتنا الحاضر . **رابعا** : السيرة النبوية غنيّة بالبراهين والأدلة الدامغة على صدق محمد ﷺ وحقيّة ما جاء به من عند الله . **خامسا** : تشابُه ما وجهه المشركون قديما من افتراءات باطلة على الرسول ﷺ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقرآن مع ما ردده المستشرقون حديثا ، ما يدلّ على تماثل الدوافع والأغراض لدى الفريقين .

كما وجّه الباحث في ختام رسالته بعض التوصيات إلى الباحثين وإلى الأمة المسلمة جمعاء ، أهمها : **أولا** : ضرورة اهتمام الباحثين بالدراسات التفسيرية للنص القرآني لاستخراج ما فيه من كنوز وهدايات . **ثانيا** : أن يتناول الباحثون بالدراسة ما واجه به خصوم الدعوة هذا الدين مما أورده القرآن وردّ عليه من اعتراضات متعددة الأشكال والأنواع – وما موضوع الافتراءات إلا واحد منها– من احتجاجات وطعون واقتراحات ، إضافة إلى المزاعم والأمانيّ الباطلة . **ثالثا** : ألا تجزع الأمة أو تَهن رغم كل المؤامرات والافتراءات الموجهة إلى الإسلام ونبيّه ﷺ ، فإن القرآن فيه أعظم عبرة ودلالة على أن العاقبة لهذا الدين لا محالة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

مشكلة الدراسة وأهميتها :

كان للصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر جانب كبير من البيـان فـي القـرآن الكريم ، بما في ذلك ما كان يلقاه رسول هذه الأمة محمد ﷺ من قومه المـشركين مـن أذى وصد متعدد الجوانب ، على رأسها الجانب الإعلامي ، الذي تمثل في مجموعة مـن الفِـرى والاتهامات التي وجهها كفار قريش إلى شخصه ﷺ والقرآن الذي جاءهم به ، كوصـفه بأنـه ساحر وما جاء به سحر ، ووصفه بأنه شاعر وما جاء به شعر ، وهكذا . وقد أورد القـرآن هذه الفرى مع الرد عليها في مواضع متفرقة فيه ، فأحببت أن تكون أطروحتي لنيـل درجـة الماجستير في دراسة هذه الفرى ، وذلك بجمع المقاطع القرآنية المتصلة بها ثم القيام بدراستها من حيث طريقة العرض وأسلوبه ، والرد القرآني والبلاغة القرآنية ، إلـى جانـب بعـض الموضوعات وثيقة الارتباط بموضوع الدراسة ، مع عدم إغفال ربط الماضي بالحاضر مـن خلال دراسة ما تجدد على ألسنة خصوم أخر من فرىً مشابهة .

إن هذه الدراسة تجيب عن مجموعة من الأسئلة ، أهمها : ما هي الفرى التي وجههـا خصوم الدعوة – وأقصد هنا بشكل خاص كفار مكة – إلى الرسول والقـرآن ؟ وكيـف رد القرآن عليها ودحضها ؟ وما هي الأسباب التي حدت بالمفترين لاختيـار تلـك الفـرى دون غيرها ؟ وهل تعدّ تلك الفرى ضربا من الماضي المنتهي أم أنها متجددة على ألسنة خـصوم الدعوة على مدار الزمان ؟

أما سبب اختياري لهذا الموضوع ، فهو أنني أحببتُ الكتابـة فـي جانـب التفـسير الموضوعي للقرآن ، فقلبت الكثير من المواضيع القرآنية ، ثم استقررت على هذا الموضوع ؛ كونه جزءا من أساليب الخصوم في الصد عن سبيل الله ، وجزءا مـن الاعتراضـات التـي أوردوها على الرسول ﷺ ورسالته بغية القضاء على الدعوة في مهدها . فهو إذن موضـوع جدير بالدراسة ، وله من الفوائد والدلالات الشيء الكثير ؛ ولذا كان توجهي إليه .

الدراسات السابقة :

لم أجد من الباحثين أو الكتّاب من أفرد موضوع الفرى الـواردة علـى الرسـول ﷺ والقرآن بدراسة مستقلة ، وكلّ ما وجدته دراسات تتطرق إليهـا بإيجـاز دون تفـصيل ولا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استيعاب ، حيث كان الغرض من ذكرها خدمة الموضوع العام الذي أراده الكاتب أو الباحث في دراسته . ومن تلك الدراسات :

أولا : أحمد سليمان العوض ، **الحجج العقلية لأولي العزم من الرسل في القرآن الكريم ٠** رسالة ماجستير بإشراف د. عبد الجليل عبد الرحيم ، قدمت إلى قسم أصول الدين – كلية الشريعة – الجامعة الأردنية ، وأجيزت سنة ١٩٨٧ م ، وعدد صفحاتها (٤٠٤) .

أورد الباحث في رسالته تحت عنوان : الشبهات التي أوردها المشركون على الرسول ﷺ والرسالة ، الشبهات التالية : قولهم أساطير الأولين ، وقولهم شاعر ، وقولهم كاهن ، وقولهم ساحر وقوله سحر ، إضافة إلى أسطورة الوحي النفسي ، مع بعض الردود على شبهة التعلم من البشر كبحيرا الراهب وورقة بن نوفل . وقبل ذلك كله أورد الباحث قولهم بأنه مجنون . لكنه لم يستوعب جميع الجوانب المتصلة بتلك الفرى ، واكتفى بالرد عليها ببعض المفندات ، بعضها قرآني وبعضها عقليّ . كما لم يستوعب جميع النصوص القرآنية المتصلة بالفرى إيرادا وردا . فكانت دراسته للفرى موجزة ، غير شاملة ولا موسعة .

ثانيا : سماهر عوض محمد الزينات ، **المضامين التربوية لقصص الجبابرة في القرآن الكريم** . رسالة ماجستير بإشراف د. محمد أمين بني عامر ، قدمت في جامعة اليرموك وأجيزت سنة ١٩٩٨م ، وعدد صفحاتها (٢٠٤) .

تحدثت الباحثة في رسالتها عن أساليب الجبابرة في محاربة الرسل ، ومنها أسلوب الاتهام بالكذب والسحر والكهانة والجنون والسفاهة والفساد والشعر ، لكنه كان حديثا مختصرا موجزا عاما لا يتجاوز ثلاث صفحات ، شمل ما وجّه من اتهامات إلى الرسول ﷺ وغيره من الرسل مع عدم اشتماله على الردود عليها ، ودون استيعابه للنصوص القرآنية الواردة بشأنها ولا دراستها .

ثالثا : سامي وديع عبد الفتاح شحادة ، **الآيات القرآنية الواردة في المستهزئين بالإسلام ودعاته – دراسة موضوعية** . رسالة ماجستير بإشراف د. عبد الرحيم أحمد الزقة ، قدمت إلى قسم أصول الدين – كلية الدراسات الفقهية والقانونية – جامعة آل البيت ، وأجيزت سنة ٢٠٠٢ م ، وعدد صفحاتها (١٦٠) .

ذكر الباحث في رسالة تحت عنوان : استهزاء الكفار بالرسل وبالمؤمنين ، استهزاء الكفار بسيدنا محمد ﷺ ، مُمثلاً له بما وجهوه إليه ﷺ من فرية الجنون ، مستدلا على ذلك بآية قرآنية واحدة مع تحليل أسلوبهم من خلالها . فالباحث لم يدرس الفرية من جميع جوانبها ، ولا تطرق إلى غيرها من الفرى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعا : زياد عادل عبد الرحيم الزعبي ، **آيات الملأ في القرآن الكريم – تفسير موضوعي .** رسالة ماجستير بإشراف د. زياد خليل الدغامين ، قدمت إلى قسم أصول الدين – كلية الدراسات الفقهية والقانونية – جامعة آل البيت ، وأجيزت سنة ٢٠٠٣ م ، وعدد صفحاتها (٢١٨) .

تحدث الباحث في رسالته تحت عنوان : مهاجمة الأنبياء والدعاة ، عن أساليب الملأ في الصد عن سبيل الله ومحاربة دعوة الرسل ، ومنها أسلوب المهاجمة باتهام الرسل بالجنون والسفاهة والضلال والكذب والافتراء على الله ، والسحر والشعر والبحث عن المصالح الشخصية . لكنّها كانت دراسة موجزة غير شاملة ولا مستوعبة للجوانب المتصلة بتلك الاتهامات ، وللنصوص القرآنية الواردة في ذلك ، كما أنها كانت عامّة تعم جميع الرسل ولا تختص بمحمد ﷺ .

خامسا : عبد المحسن بن زبن بن متعب المطيري ، **الطعن في القرآن الكريم والرد على الطاعنين في القرن الرابع عشر الهجري .** رسالة دكتوراة بإشراف أ.د إبراهيم عبد الرحيم ، قدمت إلى قسم الشريعة الإسلامية – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة .

تحدث الباحث في رسالته فيما تحدث عنه عما وُجّه إلى القرآن والرسول ﷺ من تهم وافتراءات ، كالقول بأن القرآن من اختلاق محمد ﷺ ، أو أنه نقله عن غيره ، وكاتهامهم له ﷺ بأنه شاعر أو ساحر أو مجنون . وردّ على كل ذلك بردود من القرآن ومن خارجه ، لكنها كانت إجمالية غير مفصلة ولا مستوعبة جميع الردود سواء منها القرآنية وغير القرآنية . ثم إن الباحث ذكر ردودا مفصلة على فريتين من تلك الفرى هما القول باختلاق القرآن ، والقول بأنه منقول عن الغير ، لكنه في ردوده الكثيرة عليهما لم يورد من النصوص والردود القرآنية إلا القليل ، حيث كان أغلب ردوده إما عقلية أو من السيرة أو نحو ذلك . ومن ذلك يظهر أن هذه الرسالة ليست دراسة قرآنية بالمعنى الحقيقي ، علاوة على كونها عامة لا تختصّ بالفرى التي أوردها القرآن ، فلم تحتل هذه الفرى والاتهامات سوى جزء محدود منها . إلى جانب كونها في الأصل جاءت ردا على المستشرقين وأشباههم من العلمانيين والحداثيين الطاعنين في حقية القرآن كما يظهر من عنوانها ، لا أنها تدرس تلك الفرى بخصوصها كظاهرة بارزة في القرآن .

أما ما يميّز رسالتي عما جاء في هذه الرسالة فيتلخص في نقطتين هما :

أولا : أنّ دراستي بالدرجة الأولى قرآنية ، تختصّ بدراسة الفرى التي أوردها القرآن وردّ عليها من خلال النصوص القرآنية نفسها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : أنها تحاول استيعاب النصوص القرآنية المتصلة بتلك الفرى ، وتدرسها دراسة مفصلة من حيث إيرادها للفرى وردها لها ، إضافة إلى ما تظهره من دوافع وشبهات كانت وراء إطلاقها ، وكذا تدرس أسلوب الطاعنين في طعنهم وأسلوب القرآن في الرد عليهم ، وتتطرق كذلك للبلاغة القرآنية في الإيراد والرد . لكنها مع كونها دراسة قرآنية لم تغفل الردود المستخلصة من مصادر أخرى كالسيرة النبوية والسنة المطهرة والتاريخ ... ، وكذلك فإنها ربطت بين الماضي والحاضر ، فكما ردت فرى المشركين قديما ، كذلك ردت أشباهها من فرى المستشرقين حديثا .

سادسا : الشيخ منصور محمد محمد عويس ، كتاب : **الرسول والحرب النفسية** . مكتبة النجاح ، طرابلس – ليبيا ، دار القرآن للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة .

أورد الكاتب أثناء حديثه عن أساليب أعداء النبي ﷺ في الحرب النفسية ، أسلوب (حملات الدعاية الزائفة) ، مستدلا له ببعض النماذج والحوادث من السيرة النبوية ، دون أن يتطرق إلى النصوص القرآنية الواردة في هذا الشأن . فدراسته ليست قرآنية ، كما أنها غير شاملة لجميع الفرى الواردة .

سابعا : د. عبد الوهاب كحيل ، كتاب : **الحرب النفسية ضد الإسلام في عهد الرسول ﷺ في مكة** ، ط١ ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

لم يركز الكاتب في كتابه على تلك الفرى التي وجهها مشركو مكة نحو النبي ﷺ ، وإنما ذكرها بإيجاز ، كما أنه اكتفى ببعض الردود عليها .

ثامنا : د. أحمد نوفل ، كتاب : **الحرب النفسية من منظور إسلامي** . دار الفرقان ، عمان – الأردن .

ذكر الكاتب من وسائل الحرب النفسية في مرحلة الدعوة المكية أسلوب حرب الإشاعات والافتراءات ، وتطرق من خلاله إلى الفرى التي وجهها المشركون إلى جناب النبي ﷺ الشريف ، لكن بإيجاز ودون تفصيل ولا استيعاب للنصوص القرآنية الواردة في ذلك . كما ذكر أسلوب الافتراء على القرآن ، وتعرض بإيجاز من خلاله لفريتي السحر والأساطير فقط .

منهجية البحث

إنّ منهجي في هذه الرسالة هو استنباطيّ واستقرائيّ . استنباطيّ لأنه يقوم على دراسة نصوص مسلّم بصحتها ، وهي النصوص القرآنية ، ثم استنباط النتائج منها . واستقرائيّ لأنه يدرس بعض الجزئيات – وهي هنا فرى الخصوم وما يتصل بها – ثم يتوصل من خلالها إلى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استنتاجات هي بمثابة أحكام عامة ومعانٍ كلية . هذا إلى جانب التحليل ، بدراسة كل فرية معزولة عن غيرها كي يمكن إدراكها بوضوح . ثم التركيب والتأليف بين الأفكار المتمخضة عن عملية التحليل من خلال عدد من الاستنتاجات .

أما الخطوات التي اتبعتها في عملية البحث فأجملها في النقاط الآتية :

أولا : جمع النصوص القرآنية ذات الصلة بموضوع الدراسة .

ثانيا : فرز النصوص ، بأن أجعل كل فرية من فرى الخصوم مع النصوص القرآنية المتصلة بها على حدة .

ثالثا : تفسير هذه النصوص تفسيرا إجماليا بالرجوع إلى أمهات كتب التفسير ، وانتقاء الصحيح مما جاء فيها ، بما يتلاءم مع سياق الآيات ، وأسباب النزول وجوّه العام ، وموضوع البحث . ويكون هذا التفسير بمثابة أساس أنطلق منه في دراستي .

رابعا : لدراسة أيٍّ من الفرى أقوم بدراسة الأمور التالية : أسباب اختيار الفرية ، والدلالة التي تحملها ، وأسلوب إلقائها والرد عليها ، وطريقة القرآن في عرضه لها ، والرد القرآني عليها ، مع دراسة أنموذج قرآني دراسة بلاغية بيانية يظهر فيها إعجاز القرآن وعظمته في إيراد الفرى وردّها ، إلى جانب دراسة ما يفنّد الفرية من الردود التي ذكرها العلماء زيادة في الفائدة ، وكذلك دراسة الشبهة أو الشبه المماثلة أو المشابهة لفرية المشركين ، التي صدرت من خصوم ظهروا فيما بعد ، والبحث عن الردود المناسبة عليها .

خامسا : استخلاص عدد من الاستنتاجات الهامة مما سبقت دراسته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

إنّ من فضل الله تعالى على البشرية أن أرسل إليها رسوله محمدا ﷺ مبلغا رسالته – عز وجل – ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . لكن الناس حيال هذه الدعوة وهذا الرسول قد انقسموا ما بين مؤمن وكافر . فأما المؤمنون فالتفوا حول نبيّهم ينهلون من نبعه الشريف ما أوحاه الله إليه من الآيات والشرائع والحِكَم ، مع النصرة له ولدينه ، وبذل المهج والأرواح والأموال في سبيل ذلك . وأما الكافرون فقد وقفوا منه موقف الخصوم ، يبتغون إطفاء نور هذه الدعوة الوليدة ، صادّين أنفسهم وغيرهم عنها بأساليب متعددة ، منها القمعيّ ومنها الفكري . فأما القمعي فكانت مواجهته بالصبر حينا ، وبالهجرة حينا ، وبالقتال والمواجهة حينا . وأما المواجهة الفكرية فقد تصدى لها القرآن وكفى المؤمنين همها وعناءها ، بحيث تحطمت كل أساليب التضليل الإعلامي والحرب النفسية أمام صواعق القرآن ، فانقلب الخصوم مهزومين مدحورين خائبين ، قد انطفأت نارهم وأضاء نور الإسلام على العالمين .

هذا ، وكانت أساليب الخصوم في التضليل متنوعة ، وكان أبرزها أسلوب الافتراء والتشويه الذي اختصّ به المشركون عبدة الأوثان من أهل مكة القرشيين ، قوم النبي ﷺ ، الذي نشأ بينهم ، وأعلن دعوته أول ما أعلنها فيهم ، فكانوا بموقفهم المعادي لدعوته خط العداء الأول أمام دعوة الإسلام الوليدة . وقد اختصوا بهذا الأسلوب من بين باقي خصوم الدعوة من منافقين وأهل كتاب ؛ لأنهم كانوا أصحاب القوة والمنعة والعلو والاستكبار ، في مقابل قلة مستضعفة من المؤمنين ، مما أغراهم وجرأهم على استعمال الأساليب القذرة في مواجهتهم والتعامل معهم ، على رأسها هذا الأسلوب ، وذلك بإلصاق التهم والأوصاف الباطلة بالدعوة وصاحبها ﷺ ؛ رغبة منهم في الصد عنها وإضعافها إلى أن تضمر وتموت ، ولكن هيهات أن يتحقق لهم ذلك ما دامت عناية الله ورعايته ونصرته لهذا الدين باقية ، وهي باقية ما بقي الليل والنهار .

وقد تمثل هذا الأسلوب الذي اتبعوه في ست فرى وجهوها نحو القرآن العظيم – لكونه المعجزة والآية الدالة على صدقه ﷺ في دعوى النبوة والرسالة عن الله – والرسول المبلغ له ﷺ ، وهي : فرية السحر ، وفرية الشعر ، وفرية الكهانة ، وفرية الجنون ، وفرية التعلم من البشر ، وفرية اختلاق القرآن . وقد جعلت فيما يأتي لكلٍّ منها مبحثا مستقلا أدرس فيه جوانبها والكيفية التي تعامل القرآنُ بها معها ، وبالله التوفيق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الأول : فرية السحر

تمهيد :

معنى (السِّحْر) لغة :

هو من سَحَر يسحَر سِحْرا ، قال الأزهري : " وأصل السِّحْر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره ، فكأن الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق ، وخيّل الشيء على غير حقيقته ، قد سحر الشيء عن وجهه ، أي صرفه[(١)] . إذن فالسِّحْر هو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني ، فيخيّل للمسحور أنها بخلاف ما هي عليه[(٢)] .

الآيات القرآنية محور الدراسة[(٣)] :

المقطع الأول : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ ﴾ (يونس : ٢ – ٣)

المعنى الإجمالي :

ينكر الله – تعالى – على كفار مكة[(٤)] تعجبهم من إرساله رسولا من البشر إليهم ، فيقول : أكان عجبا لكفار مكة إيحاؤنا إلى رجل من البشر بأن أنذر الناس وخوفهم من عذاب الله حال إصرارهم على الكفر أو المعصية ، وخص المؤمنين منهم بالبشارة بأن لهم عند ربهم سابقة فضل ومنزلة رفيعة . فما كان جواب كفار مكة بعد هذا الإنذار إلا أن اتهموا رسول الله بأنه ساحر لا يخفى على أحد أنه كذلك . وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر

---

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري ، (ت:٧١١هـ) . **لسان العرب** ، ط٤، ٩م ، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٥ م ، ج٧ ، ص ١٣٥ .

(٢) ينظر : القرطبي ، ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري،(ت:٦٧١هـ) . جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان ، المعروف بـ(**الجامع لأحكام القرآن**) ، ط١ ،١٠م ،(تحقيق سالم مصطفى البدري) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠م ، ج٢ ، ص ٣١ .

(٣) منهجي في ترتيب ذكر المقاطع القرآنية المتصلة بالفرى الواردة في هذه الرسالة هو أن اقدم الآيات الموردة للفرية ثم الآيات الرادة عليها ردا مباشرا ثم الرادة عليها ردا غير مباشر ، بقطع النظر عن ترتيب ذكرها في المصحف . كما أن منهجي في ذكر أسباب النزول للآيات القرآنية محور الدراسة هو إثبات ما صح منها في المتن ، وإلا أوردته في الهامش .

(٤) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : " لما بعث الله محمدا رسولا أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم . فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد . فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ الآية ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ﴾ الآية (النحل :٤٣) ". ينظر :الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت : ٣١٠ هـ) . **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، ط١ ، ١٦م ، (ضبط و تعليق محمود شاكر) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠١م ، ج١١، ص٩٥، وابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ، (ت : ٣٢٧ هـ) . **تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ و الصحابة والتابعين** ، ط٢، ١٠م ، (تحقيق : أسعد محمد الطيب) ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٩٩٩م ، ج٦ ، ص١٩٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعقوب(سِحْر)[١] إشارة إلى القرآن . فردّ الله تعالى عليهم بكلام يبطل تعجبهم ، معناه : إن ربكم الذي خلقكم وبيده تصريف أموركم هو الله الذي خلق السماوات والأرض وأبدعهما في ستة أيام ثم استوى على عرشه . بيده ملكوت السماوات والأرض ، يدبر أمر الخلائق كما يشاء وفق حكمته ، فكيف يكون إرساله رسولا إلى الناس من جنسهم محلا للتعجب ؟![٢].

المقطع الثاني : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾(هود : ٧)

المعنى الإجمالي :

يذكر الله تعالى في هذه الآية من دلائل قدرته العظيمة خلقه للسماوات والأرض بما فيهما وما بينهما في مدة يسيرة هي ستة أيام ، مستدلا بذلك على قدرته على البعث والنشور . قال الطبري : " أفيعجز من خلق ذلك من غير شيء أن يعيدكم أحياء بعد أن يميتكم ؟ "[٣]. وكذلك فهو يورد ذكر هذا الخلق تذكيرا بالعلة من وراء ذلك ، وهي ابتلاء الثقلين الإنس والجن واختبارهم ليظهر المحسن من المسيء ، ثم يجازي الله المحسن بالثواب ، ويجازي المسيء بالعقاب . ثم قال الله بعد ذلك ما يثير العجب من سلوك كفار مكة تجاه الدعوة ونبيهاﷺ ، ومعناه : ولئن قلت يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك : إنكم مبعوثون أحياء من بعد مماتكم ، فتلوت عليهم القرآن المصرّح بذلك ، ليقولُن : ما هذا الذي تتلوه علينا مما تقول إلا سحر لسامعه ، مبين حقيقته أنه سحر . وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر : (ساحر) [٤]. والمعنى : أنهم وصفوا رسول الله ﷺ بأنه فيما أتاهم به من ذلك الكتاب العظيم المثبت لحقيقة البعث ساحر مبين[٥] .

---

(١) ينظر : ابن الجزري ، محمد بن محمد بن محمد ،(ت:٨٣٣ هـ) ، **تقريب النشر في القراءات العشر**، ط٢ ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص ١٠٨ ، ومحمد فهد خاروف ، **الميسر في القراءات الأربعة عشرة** ، ط١ ، دار ابن كثير ، ودار الكلم الطيب ، دمشق – بيروت ، ١٩٩٥ م ، ص ٢٠٨ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١١، ص ٩٥- ٩٨ ، والبقاعي ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر ، (ت: ٨٨٥هـ) ، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** ، ط٣ ، ٨م ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ٢٠٠٦م ،ج٣ ، ص ٤١٤، وأبو السعود ، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي،(ت: ٩٨٢هـ) ، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ، المعروف بتفسير أبي السعود ، ط١ ، ٦م ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٩م ،ج٣، ص٢٠٧ – ٢١٠، والشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ،(ت:١٢٥٠هـ) ، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، ط١ ، ١م ، دار ابن حزم ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠م ، ص ٧٤٨ ، وابن عاشور ، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير من التفسير**، ١٢م ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس،ج١١، ص ٨٣ - ٨٥ .

(٣) الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٢ ، ص ٧.

(٤) ينظر : ابن الجزري ، **تقريب النشر** ، ص ١٠٨، و محمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ٢٢٢ .

(٥) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٢ ، ص١٠، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع الثالث : ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأنبياء : ٣ – ١٠)

المعنى الإجمالي :

يذكر الله تعالى في هذه الآيات بعض مواقف المشركين تجاه النبي ﷺ وما جاءهم به من القرآن العظيم ، ومنها إسرارهم بالحديث فيما بينهم مبالغين في إخفائه قائلين : ألا ترون أن هذا الذي يزعم أنه رسول الله هو بشر مثلكم ، فكيف تأتونه وتستمعون منه لهذا الكلام الذي ما هو إلا سحر يريد أن يسحركم به ، وأنتم ترون بأعينكم أنه بشر . فأجابهم رسول الله ﷺ بأن ربي سبحانه يعلم قول كل قائل في السماء والأرض ، لا يخفى عليه منه شيء ، وهو السميع لذلك كله، ولما تقولون من الكذب، العليم بصدقي وحقيقة ما أدعوكم إليه .

ولم يقتصر كفار مكة على نعت القرآن بالسحر ، بل نعتوه بأنه أخلاط أحلام رآها محمد في منامه[١] ، ثم أضربوا عنه إلى اتهامه باختلاقه من تلقاء نفسه . ثم أضربوا عنه فقالوا : بل هو شاعر ، وما أتى به شعر ، ثم جاءوا بما يفيد شكهم وعدم تيقنهم مما قالوه فيه ، فقالوا : وإن لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى ، فليأتنا بآية حسيّة كآيات الرسل السابقين كاليد والعصا والناقة وغيرها حتى نؤمن به ، فردّ القرآن عليهم بأنه لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة – كعاد وثمود وغيرهما – عند إعطائهم ما اقترحوه من الآيات ، أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوا وأعطوا ما اقترحوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى ؟! ، كلا . ثم رد القرآن على إنكارهم بشرية الرسول ، فقال : وما أرسلنا من الرسل قبلك يا محمد إلا كانوا رجالا من البشر نوحي إليهم ما نريد من أمرنا ونهينا لا ملائكة ، فلماذا أنكروا كونك رسولا بشرا وأنت رجل كسائر الرسل قبلك ؟! . ثم التفت القرآن إليهم قائلا: فإن أنكرتم وجهلتم أمر الرسل السابقين فلم تعلموا أكانوا إنسا أم ملائكة ، فاسألوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى

---

(١) لم تذكر هذه الفرية إلا في هذا الموضع من سورة الأنبياء ، والمشركون أنفسهم قد أبطلوها ولم يستقروا عليها كما يشعر بذلك استعمالهم حرف الإضراب (بل) في الآية ؛ ولذا لم أفرد لها مبحثا أو مطلبا مستقلا في هذه الرسالة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليخبروكم عنهم . ثم أكد بشريتهم قائلا : وما جعلنا هؤلاء الرسل الكرام أجسادا مستغنية عــن الأكل والشرب ، بل محتاجة إليهما . كما أنهم لم يكونوا خالدين بل ماتوا بانتهاء آجالهم فــي الدنيا كحال بقية الناس . ثم توعدهم فقال متابعا حديثه عن الرسل : ثم صدقنا رسلنا وعــدنا الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم الذين كذبوهم بعد رؤيتهم الآيات التي سألوها الدالة على صدقهم ، وإنجائهم وأتباعهم ممن شاء الله هدايته للإيمان بهم .

ثم عرفهم بمنزلة القرآن قائلا : والله لقد أنزلنا اليكم يا معشر قريش كتابا فيه شــرفكم وعزكم حال اتباعكم له . ثم وبخهم بما يفيد بعثهم على التفكر والتدبر في أمر القرآن فقال : أفلا تعقلون ما فضلتكم به على غيركم من ذلك فتؤمنون ؟!(١) .

المقطــع الرابــع : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾(سبأ :٤٣ – ٤٤)

المعنى الإجمالي :

يبين الله تعالى موقف كفار مكة من القرآن ومبلّغه ﷺ حال قيامه بتلاوته عليهم ، فيقول عنهم أنهم إذا تتلى وتقرأ عليهم آيات كتابنا واضحات أنهن حق من عندنا ، ظاهرات المعاني والدلالات على التوحيد ، دفعهم الجحود والتكبر على الحق والإصرار على التقليــد الأعمــى للآباء والأجداد في عبادة الأوثان على إنكار التوحيد والطعن في آيات القرآن وفــي شــخص تاليه ﷺ ؛ رغبة في صد غيرهم عن اتباعه أو التأثر بدعوته ، فلجأوا إلى إثارة العصبية للآباء في نفوسهم ، محتجيّن بأن محمدا ما يريد بدعوته هذه إلا صدهم عن عقيدة آبائهم وعبــادتهم الأوثان ، فيغير دينهم ودين آبائهم . ولم يكتفوا بهذا بل توجهوا إلى القرآن المعجز فنعتوه بأن ما فيه من معان ودلالات وقصص ما هي إلا محض كذب اختلقه محمد وافترى على الله أنــه منزل من عنده . وأما إعجازه البياني والتأثيري في النفوس ، فحكموا عليه بأنــه ما هــو إلا سحر ظاهر يبين لمن رآه وتأمله أنه سحر . فرد القرآن على تلك التعلّلات والتهم الباطلة بأن الله سبحانه لم ينزل على هؤلاء المشركين كتبا قبل القرآن ، حتى إذا قارنوا بينه وبينها وجدوه مخالفا لها ، فحكموا عليه بأنه كذب مفترى ، وأن أثره الذي يحدثه في النفوس سحر ! كــلا ،

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٧ ، ص ٦ –١٠ ، و أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٤ ، ص ٣٢٢- ٣٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فما عذرهم وحجتهم إذن في تكذيبهم بهذا الكتاب وردّه ؟! . كما أنه سبحانه لم يرسل إليهم قبل محمد ﷺ أي رسول ، حتى إذا قارنوا بين دعوته ودعوة محمد ﷺ وجـــدوهما متناقــضتين ، فحكموا على محمد ﷺ بالكذب والافتراء والسحر ! كلا ، فما عذرهم وحجتهم في تكذيبـــه ﷺ ورميه بتلك التّهم ؟! . والنتيجة أنه ليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول ﷺ وجه ولا شبهة معقولة يتشبثون بها [(١)].

المقطع الخامس : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ (١٥) أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ (١٦)
أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ (١٧) قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾
(الصافات :١٥– ١٩)

المعنى الإجمالي :

أي : وقال مشركو مكة لمحمد ﷺ : ما هذا الذي تأتينا به من القرآن وسائر الخـــوارق والمعجزات إلا سحر واضح ظاهر يبيّن لمن تأمله أنه سحر. وأردفوا هذه التهمة بالسبب الذي دعاهم لإطلاقها ، وهو إنكارهم لبعث الأجساد بعد بلائها ، فقالوا منكرين مستهزئين : أنبعث أحياء من قبورنا بعد أن متنا وصارت أجسادنا بالية ، قد تفتتت أجزاؤها إلى تراب وعظـــام . وبالغوا في الإنكار بقولهم : وآباؤنا أيضا يبعثون ؟! ، يعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل . فردّ القرآن على إنكارهم هذا فقال : قل لهم يا محمد : نعم تبعثون وأنتم صـــاغرون ذليلـــون مقهورون على أمر الله ومشيئته ، فإن أمر البعث سيتحقق بمجرد صيحة واحدة حين يُنفخ في الصور النفخة الثانية ، فإذا هم أحياء قيام شاخصة أبصارهم ينظرون إلى ما كانوا يوعدونـــه من قيام الساعة و يعاينونه[(٢)] .

المقطع السادس : ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ (٢) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن
قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ (٣) وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ
إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (٥) وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ
(٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (٧) أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٢ ، ص ١٢٢- ١٢٣ . وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٥ ، ص ٢٦٥ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٤٤٣ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٣ ، ص ٥٤ – ٥٥ . والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٤٨٤، والصابوني ، محمد علي ، **صفوة التفاسير** ، ط١، ٣م ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٦م ،ج٣ ، ص ١١٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ ﴾ (ص : ١ – ١٠)

سبب النزول :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " مرض أبو طالب فجاءته قريش ، وجاءه النبي ﷺ وعند أبي طالب مجلس رجُل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ، وشكوه إلى أبي طالب . فقال : يا ابن أخي ، ما تريد من قومك ؟ قال: إني أريد منهم كلمة واحدة ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم العجم الجزية . قال: كلمة واحدة ؟ قال : كلمة واحدة . قال : يا عمّ ، قولوا : لا إله إلا الله . فقالوا : إلها واحدا؟! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق . قال : فنزل فيهم القرآن: ﴿ ص ، والقرآن ذي الذكر۞ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ إلى قوله: ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق۞ ﴾ " هذا لفظ الترمذي . وفي رواية عند الطبري : " فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ، وهم يقولون : أجعل الآلهة إلها واحدا ، إنّ هذا لشيء عجاب". قال الراوي: "ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿ لمّا يذوقوا عذاب﴾" (١) .

المعنى الإجمالي :

---

(١) أخرجه أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ،(ت:٢٤١ هـ)، **المسند** ، ط١ ، ٤٥م، (تحقيق وتخريج وتعليق : شعيب الأرناؤوط وجماعة معه) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢٠٠١ م ، ج٣ ، ص ٤٥٨ ، (رقم: ٢٠٠٨) . وج٥ ، ص٣٩٣ – ٣٩٤ ، (رقم: ٣٤١٩) . قال محققو المسند : إسناده ضعيف . وأخرجه الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، (ت : ٢٧٩هـ) . الجامع المختصر من السنن عن النبي ﷺ ، ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل ، المعروف بـ(جامع الترمذي) أو (**سنن الترمذي**) . ١م ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ص ٥١٣ ، (رقم:٣٢٣٢) . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وحكم عليه الشيخ الألباني بالضعف ، ينظر : الألباني ، محمد ناصر الدين ، **ضعيف سنن الترمذي** ، ط١، ١م ، المكتب الإسلامي ، بيروت – دمشق – عمان، ١٩٩١ م ، ص ٤٠٩ ،(رقم: ٦٣٦ – ٣٤٦٢) . وأخرجه الحاكم ، أبو عبد الله محمد بن محمد النيسابوري ، (ت: ٤٠٥ هـ) . **المستدرك على الصحيحين** ، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي ، ٤م ، دار المعرفة ، بيروت ، ج٢ ، ص ٤٣٢ . والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي . وأخرجه ابن حبان ، أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، (ت: ٣٥٤ هـ) . المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها ، المعروف بـ(**صحيح ابن حبان**) بترتيبه المسمّى : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، لأبن بلبان ، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ،(ت :٧٣٩ هـ) . ط١ ، ١٦ م ، (تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرناؤوط) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ج ١٥ ، ص ٨٠ ، (رقم: ٦٦٨٦) . وأخرجه أبو يعلى الموصلي ، أحمد بن علي بن المثنّى ، (ت : ٣٠٧ هـ) . المسند الصغير ، المعروف ب(**مسند أبي يعلى الموصلي**) ، ط١ ، ٦م ، (دراسة وتحقيق : مصطفى عبد القادر عطا) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨ م ، ج٢ ، ص ٤٩٩– ٥٠٠ ، (رقم: ٢٥٧٦) . وأخرجه ابن أبي شيبة ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم ، (ت: ٢٣٥هـ) . **المصنف** ، ط١ ، ١٤م ، (تحقيق : حمد بن عبد الله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ٢٠٠٤ م ، ج١٣ ، ص ٢١١– ٢١٢ ، (رقم : ٣٧٥٦١) . وأخرجه النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ، (ت: ٣٠٣ هـ) . **كتاب السنن الكبرى** ، ط١ ، ٦م ، (تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١م ، ج٦ ، ص٤٤٢ ، (رقم: ١١٤٣٦) . وأخرجه الواحدي ، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري ، (ت: ٤٦٨ هـ) . **كتاب أسباب النزول** ، ط١، دار ابن الهيثم ، القاهرة ، ٢٠٠٥م ، ص١٨٠– ١٨١ . وأخرجه الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٣ ، ص١٤٧ – ١٤٨ ، وص١٥٠ . و صحّحه عصام بن عبد المحسن الحميدان في كتابه (**الصحيح من أسباب النزول**) ، ط١ ، دار الذخائر – مؤسسة الريان ، بيروت ، ١٩٩٩م ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ . وكذا صححه إبراهيم محمد العلي في كتابه (**صحيح أسباب النزول**) ، ط١ ، دار القلم ، دمشق ، ٢٠٠٣ م ، ص ١٨٩ . والحديث في رواياته زيادة ونقصان . وهو مختلف في صحته – كما مرّ – ولذا آثرت ذكره في المتن اعتمادا على قول من صححه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقسم الله تعالى بالقرآن العظيم ذي الشرف والتذكير بالله وبالآخرة وما يحتاج إليه من أمور الديانة ، ما الأمر كما يقول كفار مكة من اتهامهم للنبي محمد ﷺ بأنه ساحر وكذاب ، بل هم في عزة نفس وكبرياء ، وخلاف وعداوة معه ومع المؤمنين . ثم هددهم – تعالى– بأن كثيرا من الأمم الماضية أهلكناها بتكذيبها لرسلها ، فلما جاءهم العذاب نادوا صارخين مستغيثين ، لكن الوقت ليس وقت نجاة ولا هرب بعدما عاينوا العذاب . وعجب كفار مكة من مجيء منذر من البشر إليهم ينذرهم عذاب الله في الدنيا والآخرة وهو محمد ﷺ ، وقالوا عنه : هذا ساحر يسحر الناس بهذا الكلام العجيب الجاذب للقلوب والعقول– أي القرآن – ، وكذاب مبالغ في كذبه لادعائه أن هذا السحر الذي جاء به حق من عند الله . وأردفوا قائلين : أصيّر محمد الآلهة المتعددة إلى إله واحد فقط ؟! ، إن هذا لأمر يُتعجب منه غاية العجب . وخرج زعماء قريش من بيت أبي طالب وهم يقولون لعامتهم وأتباعهم : سيروا واستمرّوا واثبتوا على عبادة آلهتكم المتعددة ، فلا تتخلوا عنها ؛ إن دعوة التوحيد هذه يراد منا اتباعها لتكون لمحمد السيادة والقيادة والأمر والنهي ؛ فنحن ما سمعنا بهذا التوحيد في الدين السماوي الأخير ، وهو دين النصرانية القائلين بالتثليث ؛ فما هذا التوحيد إلا كذب اختلقه محمد ، لم ينزل عليه و لم يوح به إليه . وواصلوا كلامهم فقالوا : ءأنزل القرآن ذو الشرف العظيم على محمد من بيننا، وليس هو بأكبرنا سنا ، ولا بأشرفنا نسبا ، ولا بأكثرنا مالا وولدا ، فكيف يكون هذا ؟!.

لكن الله – تعالى – أضرب عن اتهامهم و تبريراتهم وبيّن أن القوم لم يكونوا يجهلون صدق محمد ﷺ في قوله وسلامة عقله ، وإنما حملهم على ذلك : أولا : شكهم من وحينا إلى أحد بالرسالة . وثانيا : أنهم لم يذوقوا عذابنا بعد ، إذ لو ذاقوا عذاب الله على تكذيبهم وشكهم ما كذبوا ولا شكوا ، ولعلموا وأيقنوا صدق وحقيقة ما هم به مكذبون. ثم رد على اعتراضهم على نبوة محمد ﷺ باستفهام إنكاري توبيخي قائلا : هل جعلهم الله وكلاء على خزائن رحمته حتى يتصرفوا فيها فيعطون النبوة من يشاءون ، و يحرمون منها من يشاءون ؟! . أم أن لهم الملك والسلطان في هذا الكون دون الله حتى يعترضوا على اصطفاء الله محمدا ﷺ لمنصب النبوة والرسالة ؟! . ثم تهكّم بهم قائلا : فإن كان لهم هذا الملك حقا فليصعدوا إلى السماوات – إن استطاعوا – حتى يبلغوا العرش فيستووا عليه ؛ لتكون لهم السيطرة على هذا الكون فيحكموا فيه بما يريدون !!![1] .

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٣ ، ص ١٥١- ١٥٢ ، والزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ،(ت:٥٣٨هـ) ، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** ، ط٢ ، ١م ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٥ م ، ص ٩١٨ – ٩١٩ ، وابن عطية ، أبو محمد عبد الحق الأندلسي ، (ت : ٥٤١ هـ) . **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ، ط١ ، ١م ، دار ابن حزم ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٢م ، ص١٥٩١ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٣٥٩ ، والجمل ، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع السابع :﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٠ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢ ﴾(الزخرف :٢٩ –٣٢)

المعنى الإجمالي :

يذكر الله تعالى نعمته على أهل مكة ، من حيث أنه – سبحانه– أمهلهم فلم يعاجلهم بالعقوبة ، وأسبغ عليهم نعمه مع إقامتهم وآبائهم قبلهم على الشرك وعبادة الأوثان من دون الله ، حتى جاء اختبار شكر النعمة ، فأرسل الله رسوله محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ، مؤيَّدا بالبينات والآيات الدالة على صدقه ، على رأسها القرآن المعجز ، فأنكروا نبوته ﷺ ونعتوا القرآن بأنه سحر ، معلنين كفرهم به . وعللوا قدحهم في القرآن بأنه لو كان حقا من عند الله لأنزله الله على أحد عظماء مكة أو الطائف دون محمد ﷺ [(١)]. فردّ القرآن على تعللهم هذا بالإنكار والتوبيخ قائلا : كيف لهؤلاء أن يتدخلوا في قسمة الله تعالى وتوزيعه لرحماته وأفضاله بين عباده ؟! ، إنها لله وحده ، فهو – سبحانه– يقسم رحمته وكرامته بين من شاء من خلقه ، كما قسم بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاق والأقوات ، فجعل بعضهم فيها – حسبما تقتضي حكمته– أعلى وأرفع من بعض بدرجات متفاوتة من الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، حتى يصرّف بعضُهم مصالح بعض ، فيستعملونهم ويستخدمونهم في أشغالهم ومهامهم فيتعايشوا ويتبادلوا المنافع ، فتستقيم المعيشة وتسير الحياة . وإن رحمة الله – وهي الجنة وما يستلزم دخولها من الهداية إلى الإيمان والتوحيد – هي خير مما يجمعونه من حطام الدنيا الفانية[(٢)].

المقطع الثامن : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

– الشهير بالجمل - ، (ت : ١٢٠٤ هـ) ، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، المعروف **بحاشية الجمل** ، ط١، ٨م ، دار الفكر ، بيروت ،٢٠٠٣م ، ج٦ ، ص ٣٧٧ - ٣٨١ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٥٠٦ – ١٥٠٨ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ٢١٤ – ٢١٥ ، والجزائري ، أبو بكر جابر ، **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير** ، وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير ، ط١ ، ١م ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ٢٠٠٢ م ، ص ١٣٠٧ – ١٣٠٨ .

(١) لما كرر القرآن على قريش الحجج على بشرية الرسول قالوا : وإذا كان بشرا فغير محمد كان أحق بالرسالة : ﴿ لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ، يقولون : أشرف من محمد ، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة ، و مسعود بن عمرو الثقفي من الطائف ، فأنزل الله ردا عليهم : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ الآية . ينظر : الواحدي ، **أسباب النزول** ، ص ١١٥ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٥ ، ص ٧٧ – ٨١ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٦ ، ص ٣٢ – ٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الأحقاف :٧)

المعنى الإجمالي :

أي : وإذا تقرأ على مشركي مكة آيات القرآن وحججه حال كونها واضحات المعـاني ظاهرات الدلالات ، قال الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله في شأن هذا القرآن : هـذا كلامٌ خادع يأخذ بقلوب من سمعه؛ فهو سحر ظاهر ، مبين لمن تأمّله ممن سمعه أنه كذلك[١].

المقطع التاسع : ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ ۝ ﴾(القمر:١ –٣)

سبب النزول :

" سأل أهل مكة النبي ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين ، فنزلت : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ إلى قوله : ﴿ سحر مستمر﴾ ، يقول : ذاهب "[٢].

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى : دنت القيامة وقد انشق القمر . وإن ير كفار مكـة علامـة واضـحة ومعجزة ساطعة تدل على صدق محمد ﷺ كانشقاق القمر ، يعرضوا عن الإيمان بها وبـه ، ويقولوا عن هذه الآية : سحر مطّرد دائم يأتي به محمد على مر الزمان ، أي هو مستمر على سحره لم يتركه . أو هو بمعنى سحر محكم موثق قوي أثّر على العيون حتى رأت القمر ينشق فلقتين . أو بمعنى سحر مارّ ذاهب زائل عن قريب[٣] . وكذبوا رسول الله ﷺ وكـذبوا بمـا أظهره الله تعالى له من الآيات – كانشقاق القمر– ، واتّبعوا أهواءهم التي زينها الشيطان لهم .

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٦ ، ص ٩ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦٢٨ .

(٢) أخرجه الترمذي ، **السنن** ، ص٥٢٠ ، رقم (٣٢٨٦) ، وقال : حديث حسن صحيح ، وإبراهيم العلي ، **صحيح أسباب النزول** ، ص ٢٠٦ . وأصله في الصحيحين ، ولفظ البخاري : " انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا " . البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، (ت : ٢٥٦ هـ) . الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه ، بشرح الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، (ت :٧٧٣هـ) ، المسمى : **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ، ١٥م ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت ، ٢٠٠١م ، ج٩ ، ص ٥٦٦٣ (رقم:٤٨٦٤) . ومسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، (ت: ٢٦١هـ) ، **الجامع الصحيح** ، بشرح الإمام أبي زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي الدمشقي الشافعي ، (ت: ٦٧٦هـ) ، المسمى بـ(المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج) ، ط١، ٩م ، (تحقيق الشيخ عرفان العشا حسونة) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠ م ، ج٩ ، ص ٨٢ – ٨٣ ، رقم (٢٨٠٠) .

(٣) خلاف التفسير في قوله (مستمر) مبني على الخلاف في أصلها ، فمن قال أن معناها ذاهب زائل ، فأصلها من (مرّ) أي ذهب ، والسين والتاء لتقوية الفعل . ومن قال إن معناها المحكم القوي فأصلها من المِرّة ، أي القوة ، و السين والتاء للطلب ، أي طلب لفعله قوة وتمكنا . ومن قال إن معناها دائم مطرد فعلى المعنى المشهور للاستمرار وهو الدوام والاطراد . ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٧٠٤ ، و ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ١٧٢ ، و الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، (ت : ٨١٧هـ) . **القاموس المحيط** ، ط١ ، ١م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤م ، ص ٤٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فردّ القرآن عليهم بأن كل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ، ومن جملتها أمر النبي ﷺ ، فسيصير إلى غاية يتبيّن عندها حقيّته وعلو شأنه[٤].

المقطع العاشر : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ **(المدثر :١٨ – ٢٥)**

المعنى الإجمالي :

يصور هذا المقطع القرآني حالة أحد صناديد المشركين من قريش ، وهو الوليد بن المغيرة المخزومي ، عندما استمع للقرآن من النبي ﷺ[١] ، فأراد أن يقول في القرآن قولا يبطل بموجبه أنه وحي من عند الله . لكنه تريث فيه ولم يتعجل ، وأخذ يفكر في وصف يصف به القرآن ، وجعل لكل وصف يخطر بباله قدْرا من التفكير كي يعرضه على القرآن فيرى مدى ملاءمته وقربه منه أو مباعدته عنه . كأن يقول في نفسه: نقول محمد مجنون ، وهذا الكلام يلقيه الجن على لسانه ، ثم يقول : المجنون يخنق ويتخالج ويوسوَس ، وليس محمد كذلك . ثم يقول في نفسه : هو شاعر ، وهذا الكلام شعر ، ثم يقول : لقد عرفت الشعر وسمعت كلام الشعراء ، فما هو بشعر . ثم يقول في نفسه : هو كاهن ، وكلامه من وحي الشياطين إليه ، ثم يقول : ما كلامه بزمزمة[٢] كاهن ولا بسجعه . قال الله تعالى معترضا

---

(٤) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٧ ، ص ٩٩ ، ١٠٣ – ١٠٤ ، والشوكاني ، **فتح القدير**، ص ١٧٠٣ – ١٧٠٤، و الآلوسي ، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ، (ت : ١٢٧٠ هـ) . **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني** ، ط١ ، م١٥ ، (تحقيق:الشيخ محمد أحمد الأمد والشيخ عبد السلام السلامي) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٩م ، ج٢٧ ، ص ١٠٩ –١١٠ . والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٤٢٢.

(١) ورد في أسباب النزول أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فقال: أي عمّ ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لمَ ؟ فقال: يعطونكه ، فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قِبَله . قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالا . قال: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له . قال : فما أقول فيه ، فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه مني ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجنّ . والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو ولا يُعلى . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال: فدعني حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره ، فنزلت :﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا ﴾ . أخرجه الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٩، ص ١٨٦ . والحاكم في **المستدرك** وصححه ، ج٢، كتاب التفسير ، ص٥٠٦ – ٥٠٧ . والبيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي ، (ت : ٤٥٨ هـ) . **دلائل النبوة و معرفة أحوال صاحب الشريعة** ، ط١، (تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان) ، المكتبة السلفية – المدينة المنورة ، و دار النصر- القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص٤٤٥ . والواحدي في **أسباب النزول** ، ص٢١٥. والسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت: ٩١١ هـ) . **لباب النقول في أسباب النزول** ، ط١ ، دار ابن الهيثم ،القاهرة ، ٢٠٠٥ م ، ص ٢٠٤ . وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس وروي مرسلا عن عكرمة ، وقد رجح الشيخ مقبل بن هادي الوادعي كونه مرسلا ، فالحديث - كما يقول- ضعيف . ينظر : الوادعي ، أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي ، **الصحيح المسند من أسباب النزول** ، ط٢ ، دار ابن حزم – بيروت ، مكتبة دار القدس – صنعاء،١٩٩٤م . وأقول : علاوة على ضعف الرواية فإن سياق الآيات لا يتلاءم مع هذا السبب ، فهي تشنع على الوليد بن المغيرة وتصفه بالعناد والاستكبار ، وتتوعده أشد التوعد ، مما يدل على أنه ارتكب جرما عظيما يستحق بموجبه كل هذا . لكن لو نظرنا إلى السبب المروي لوجدنا الوليد فيه مادحا للقرآن ، واصفا له أبلغ الوصف في الجمال والعظمة ، لكنه ضعف أمام قومه ، فاتجه إلى الطعن في القرآن ، وليس هذا الجرم كذاك . كما أن السياق يدل على أن مقالته تلك كانت في مواجهة النبي ﷺ بعد استماعه للقرآن منه ولم تكن أمام قريش ، بدليل قوله تعالى عنه : ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ .

(٢) الزمزمة : صوت خفي لايكاد يفهم . ويطلق على تراطن العلوج – أي حمر الوحش – عند الأكل وهم صموت لا يستعملون اللسان ولا الشفة في كلامهم ، لكنه صوت تديره في خياشيمها وحلوقها ، فيفهم بعضها عن بعض . ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج٧ ، ص ٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكلام : فلُعِن وكُذِّب على أي حال قدر ما قدر من الكلام . ثم كرر لعنه مبالغة وتأكيدا . ثم عاد إلى الحديث عنه قائلا : وبعد أن أعيته التقادير أخذ ينظر ويتأمل فيما يقوله ، حتى يئس من أن يجد مطعنا في القرآن ، فقطَّب بين عينيه عابسا ، وتغير لون وجهه بعد فشله فيما قصد إليه ، حتى خطر بباله أن يقول عن القرآن أنه سِحْر ؛ لما له من تأثير في القلوب ، ولأنه في نظره يفرق بين المرء وذويه ، فولّى وأعرض ذاهبا إلى أهله متعاظما عن الإيمان ، وتفوّه بما خطر بباله بعد جهده اليائس في التفكير والتقدير قائلا : ما هذا الذي أتى به محمد إلا سحر ينقله عن غيره من سحرة بابل ونحوهم . وأردف قائلا : ما هذا إلا كلام البشر ، لا كلام الخالق كما يزعم محمد(١) .

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٩ ، ص ١٨٥ – ١٨٨ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٨٥١ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٩ ، ص ١٩٣ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ٣٠٧ – ٣١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته

أورد القرآن عدة أسباب كانت وراء تفوّه المشركين بفرية السحر على شخص النبـــي الكريم ﷺ وما جاءهم به من القرآن العظيم ، والتي تتدرج ضمن ثلاثة محاور رئيسة :

الأول : التصورات الخاطئة عن حقيقة الرسول المبلغ عن الله .

الثاني : الإنكار لبعض مضامين الرسالة .

الثالث : الدوافع الكامنة في نفوس القوم .

أما المحور الأول فيتضمن ما يلي :

أولا : الشك في الوحي الإلهي . فكفار مكة لم يصدقوا بأن الله تعالى يوحي إلى أحد برسالة إلى البشر يأمرهم فيها وينهاهم . ويظهر هذا من قوله تعالى في مقطع (ص) : ﴿ بل هم في شك من ذكري ﴾ .

ثانيا : إنكار بشرية الرسول . فالقوم كانوا شاكين في أصل الوحي ، أما كون الموحى إليه بشرا فكان عندهم أمرا منكرا ؛ لأنهم تصوّروا أن الرسول المبلغ عن الله لا يكون إلا من جنس الملائكة ؛ لما لهم من القدرة على الصعود إلى السماء لتلقي الأوامر من الله – تعالى – ، ثم الهبوط بها إلى الأرض . وهذا الدافع هو الرئيس من بين سائر دوافع القوم ، ولذا تكرر ذكره في عدة آيات كما في مقاطع يونس والأنبياء وص .

ثالثا : أن القرآن الذي جاءهم به ﷺ كان وحيا خفيا ، تلقاه ﷺ دون أن يرى الناس مُنزِله ، أو يسمعوا صوته وكلامه . مما كان دافعا لهم إلى التساؤل – بناء على ضعف عقولهم وقلة فقههم – : إن كان الرسول بشرا ، فكيف يصله خبر السماء ؟! ، وإن كان الموصل ملكا فنحن لا نراه ولا نسمعه !! . مما زادهم عجبا وإنكارا . وهذا الدافع يظهر من قوله تعالى في مقطع يونس : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ ؛ لإيثاره ذكر الوحي دون ما يقاربه في المعنى كالقول أو الإعلام ؛ لأن كل لفظ في القرآن مقصود بذاته ومعناه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعا : كان مما تصوره كفار مكة أن الله – تعالى– راض عنهم ، وعلامة ذلك عندهم كثرة ما أنعم عليهم من الأموال والأولاد ، كما قال الله عنهم : ﴿ و قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾(سبأ : ٣٥) . فكان تبشيره ﷺ للمؤمنين بدعوته – وأغلبهم من الفقراء والضعفاء والعبيد – بالثواب والنعيم والنجاة من العذاب ، مع وعيده للكافرين بدعوته بالعذاب والحرمان من الثواب ، يخالف ما اعتقدوه من أفضليتهم وتقدمهم على غيرهم . ويظهر هذا الدافع من قوله تعالى في مقطع يونس : ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ .

خامسا : تحكيمهم الموازين المادية الدنيوية الراسخة في نفوسهم وعقولهم . ويظهر هذا من قولهم في مقطع الزخرف : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ ، وقولهم في مقطع ص : ﴿ ءأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ . فأنكروا أن يختص ﷺ من بين أشرافهم وساداتهم بنزول القرآن عليه ، وليس هو بأكبرهم سنا ولا بأكثرهم مالا وولدا . قال الرازي : " وتمام الكلام في تقرير هذه الشبهة: أنهم قالوا : النبوة أشرف المراتب ، فوجب أن لا تحصل إلا لأشرف الناس ، ومحمد ليس أشرف الناس ، فوجب أن لا تحصل له النبوة . والمقدمتان الأوليان حقيّتان ، لكن الثالثة كاذبة . وسبب رواج هذا التغليط عليهم(١) أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان ، وذلك باطل ؛ فإن مراتب السعادة ثلاثة ، أعلاها هي النفسانية ، وأوسطها هي البدنية ، وأدونها هي الخارجية وهي المال والجاه ، فالقوم عكسوا القضية وظنوا بأخس المراتب أشرفها ، فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه ، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم "(٢).

وأما المحور الثاني فيتضمن قضيتين هما :

أولا: إنكارهم وحدانية الإله ؛ لأنها " خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على تعدد الآلهة وواظبوا على عبادتها . وقد كان مدارهم في كل ما يأتون ويذرون التقليد ، فيعدّون خلاف ما اعتادوه عجيبا ، بل محالا "(٣). ويظهر هذا من قولهم في مقطع ص : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا ﴾ ، وقولهم في مقطع سبأ : ﴿ ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ .

---

(١) المقصود من التغليظ عليهم هو الرد القرآني بعد ذلك : ﴿ بل هم في شك من ذكري ، بل لما يذوقوا عذاب ... من الأحزاب ﴾(ص : ٨ - ١١) .

(٢) الرازي ، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الشافعي الطبرستاني الأصل، (ت:٦٠٦هـ) . مفاتيح الغيب ، المعروف بـ(**التفسير الكبير**) ، ط٤ ،١١م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان ، ٢٠٠١م ، ج٢٦ ، ص ٣٦٩ .

(٣) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٣ ، ص ٢٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : إنكارهم البعث بعد الموت وبلى الأجساد ، فقالوا في مقطع الصافات : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ۞ أوَ آباؤنا الأولون ﴾ . ولهذا فإنهم يوبّخون على فريتهم هــذه يوم القيامة عند معاينة العذاب ، قال تعالى : ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ۞ الذين هم في خوض يلعبون ۞ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ۞ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ۞ أفسحر هــذا أم أنتم لا تبصرون ۞ ﴾(الطور :١١- ١٥) ، أي أفسحر هذا الذي ترون وتشاهدون كما كنــتم تقولون في الدنيا عندما تتلى عليكم آيات القرآن تذكركم بالبعث والجزاء والحساب يوم القيامة ، أم أنتم عميٌ لا ترون ، كما كنتم عميا عن الحق في الدنيا[١] .

وأما المحور الثالث فيتضمن الدوافع الآتية :

أولا : الحرص على الرياسة والزعامة والمكاسب الناتجة عنهما . فإنه ﷺ لما جاء منذرا مــن جحد رسالته بالعذاب في الآخرة ، فعلاوة على أن فيه تهديدا لما ألفوه واعتقدوا صوابه مــن عبادة الأصنام وغيرها من الأباطيل ، فإنّ الاستجابة لهذا الإنذار تهدد مكانتهم ورياستهم ؛ فهم إن دخلوا في الإسلام صاروا تابعين له ﷺ فيما يأمرهم و ينهاهم . فحرصهم هذا دفعهم إلــى مواجهة الإنذار بالتكذيب والقدح والطعن . و يفهم هذا من قوله تعالى في مقطــع يــونس : ﴿ أن أنذر الناس ﴾ .

ثانيا : الكبر والعزة والشقاق ، فالقوم كان في قلوبهم كبر ، فلما جاءهم محمد ﷺ بالرســالة ، ولّد الكبر عندهم شعورا بالعزة والرغبة في الغلبة وعدم التراجع أو التنــازل عــن قناعــاتهم وتصوراتهم . ولما كان ﷺ مؤيدا بالدلائل القاطعة والآيات الدامغة على صدقه ، مع ما يتحلى به من صفات وخصال لا يتصف بها أحد من هؤلاء ، تولد عن كبرهم وعــزتهم شــعورهم بالحسد تجاهه . وهذه الأخلاق الذميمة بدورها دفعتهم إلى سلوك طريق الشقاق والمخالفــة ، والعناد والمحاربة ، وكيل الاتهامات ومحاولات الصد . وهذا كله كان مانعا لهم مــن النظــر والتفكر فيما جاء به ﷺ من دلائل وبينات ، مما مكّن تصوراتهم الخاطئة من نفوسهم وعقولهم ، فصارت تشكل قناعات راسخة لا تقبل التغيير ولا التبديل ؛ ولذا قال الله تعالى عنهم بأنهم : ﴿ صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾(البقرة:١٧١) . ويظهر هذا الدافع من قوله تعالى في مقطــع ص : ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ ، وقوله قي مقطع المدثر : ﴿ ثم أدبر واستكبر ۞ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ .

---

(١) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : الحسد . ويفهم من قولهم في مقطع ص : ﴿ءأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ ، فأنكروا أن يختص ﷺ من بين أشرافهم وساداتهم بنزول القرآن ذي الشرف والتذكير عليه . وهذا الإنكار ناشئ عن حسد عظيم انطوت عليه صدورهم فنطقت به ألسنتهم(٢) . والحسد خلق ذميم ينشأ عن العُجْب ثم الكبر ، لأن المعجب بنفسه يشعر أنه خير من غيره ، فيولد هذا الشعور في نفسه التكبر على الغير ، فإن رأى غيره قد سبقه في أمر من الأمور حسده ، وتمنى في نفسه زوال تلك النعمة عنه ، فإن هو أخبر بزوال أو نقصان تلك النعمة عن المحسود فرحت نفسه واستبشر . والحسد بدوره أيضا يدفع إلى الكبر والشقاق ، فالحاسد إن سمع نصيحة من المحسود أو توجيها نفر قلبه وضاق صدره ، مما يدفعه دفعا إلى رد النصيحة على صاحبها دون تردد أو تفكر . فالحسد والكبر خلقان متعانقان متبادلان ، كل منهما يؤدي إلى الآخر .

رابعا : اغترارهم بسنة الإمهال وترك المعاجلة بالعقوبة التي كان ﷺ يحذرهم منها إن هم أصروا على كفرهم ، مع وفرة النعم وبسط العيش لديهم . ويظهر هذا الدافع من قوله تعالى في مقطع ص :﴿ بل لما يذوقوا عذاب﴾ ، أي : إنما اغتروا بطول الإمهال ، ولو ذاقوا عذابي على الشرك والتكذيب لعلموا أن ما قاله محمد ﷺ حق ، ولما كان منهم إلا الإقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات(١). قال ابن عاشور: " لما تأخر حلول العذاب بهم ظنوا وعيده كاذبا ، فأخذوا في البذاءة والاستهزاء ، ولو ذاقوا العذاب لألقمت أفواههم الحجر "(٢) . ولم يعلم القوم أن ذلك كان استدراجا لهم ، بحيث لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يقفون موقف التفكر والتأمل ، بل يظلون سائرين في غيهم وضلالهم حتى يأخذهم العذاب الموعود الذي لا رجوع بعده . و يعزز هذا الدوافع الأخرى كالكبر والحسد والحرص على الدنيا وملذاتها .

خامسا : اتباعهم الهوى وتزيين الشيطان لباطل أعمالهم ، كما قال تعالى عنهم في مقطع القمر : ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ .

هذا ، وقد بيّن العلماء – إضافة إلى ما سبق – أسبابا أخرى محتملة كانت وراء فرية السحر ، هي :

أولا : أنه ﷺ فرّق كلمتهم وحال بين القريب وقريبه، فأشبه بهذا فعل الساحر ، فظنوه كذلك(٣).

---

(٢) ينظر : أبو حيان ، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، (ت : ٧٥٤هـ) . **البحر المحيط في التفسير**، ١٠م ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ج٩، ص ١٣٩.

(١) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج ٢٦ ، ص ٣٦٩ ، والقرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٥ ، ص ١٠٠- ١٠٠١ .
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ٢١٥ .
(٣) ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص٨٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : اختلاط الدين بالسحر في الجاهليات القديمة . قال سيد قطب : "ولقد كان يختلط عندهم الوحي بالسحر، لاختلاط الدين بالسحر في الوثنيات كلها ، ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله ، فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها"(٤).

ثالثا : كان من طرق السحر عندهم أن يقول الساحر كلاما غير مفهوم للناس يوهمهم أن فيه خصائص وأسماء غير معروفة لغير السحرة ، وأن يقول أقوالا تستنزل عقول المسحورين ، فسارعوا إلى وصف القران بالسحر ولمبلغه بأنه ساحر من غير تفكر ولا تدبر ، مع الفرق الشاسع بين القرآن العربي المبين وكلام السحرة المشتمل على الطلاسم والكلام غير المفهوم ؛ لأنه لم تقبل عقولهم ما كلمهم به ﷺ من أمر التوحيد والبعث والحساب وغير ذلك ، فنسبوه إلى السحر من هذا الباب(١).

رابعا : أنهم اتهموه ﷺ بالسحر بناء على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكا ، فكل ما جاء به ﷺ من الخوارق هو عندهم من قبيل السحر(٢) .

خامسا : تأثير القرآن في النفوس وجذبه للقلوب . فكون السحر له تأثير خفي في المسحور ، فقد رأوا أنه أقرب التهم التي توجه إلى القرآن .

سادسا : إن تهمة السحر لم تكن عن قناعة منهم بها ، بل هي حيلة المعاند ، فما أن وجدوا شَبَهًا بوجه من الوجوه بين القرآن والسحر حتى عقدوا عليها قلوبهم وعقولهم ، وأشاعوها بين أمثالهم ، بدافع الاستكبار عن الخضوع للحق والرغبة في تشويهه والصد عنه ، فكان سلاحا من أسلحة التشويش والتضليل وحرب الخداع التي يتقنها الكبراء ، ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق المتمثل في عقيدة التوحيد ، والذي يزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التي يستند إليها أولئك الكبراء(٣) . ويدل على حرب الدعاية هذه وأنها الهدف من وراء ما رموه به ﷺ من السحر ما روي في السير من أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش – وكان ذا سن فيهم– وقد حضر الموسم . فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأيا نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول: كاهن . قال لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول:

---

(٤) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ط٣٢ ، ٦م ، دار الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م ، ج١١ ، ص ١٧٦١ .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ٨٦ ، و ج ٢٣ ، ص٢١٠ .
(٢) ينظر: الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٧ ، ص١٤، و الصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٨٢٣ .
(٣) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٣ ، ص ٣٠٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السُحّار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعَذْق[١] ، وإن فرعه لجَنَاة[٢] . وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس – حين قدموا الموسم – لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره[٣] .

وأما دلالة هذا الاتهام فهي اعترافهم بأن القرآن خارق للعادة ، معجز لهم عن الإتيان بمثله ، ومعجز لهم عن الطعن بمطاعن في لفظه ومعانيه[٤] . قال الآلوسي : " وفي هذا اعتراف بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر، نازل من حضرة خلاق القوى والقُدر، و لكنهم يسمونه بما قالوا تماديا في العناد "[٥] .

---

(١) العذق :" كل غصن له شعب " . الفيروز آبادي ، **القاموس المحيط** ، ص ٩٢١ .
(٢) جناة : ما كان فيه ثمر يُجنى . ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج٣ ، ص ٢٢٢ ، وسيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٣ ، ص ٣٠٠٩ (الهامش) .
(٣) ابن هشام ،أبو محمد عبد الملك المعافري ، (ت:٢١٨هـ) . **السيرة النبوية** ،٤م ،(تحقيق : الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطه) ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت ،٢٠٠١ م ، ج١ ، ص ١٩٨ ، وسيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٣ ، ص ٣٠٠٩ .
(٤) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ٨٦ .
(٥) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية

من خلال ما سبق من المقاطع القرآنية التي وردت فيها فرية السحر يظهر للمتأمل أن ذكر هذه الفرية في القرآن يقوم على ثلاثة عناصر ، الأول : تهمة السحر ، الثاني : الشبهة والدافع[١] وراء التهمة ، الثالث : الرد القرآني . ولقد كان للقرآن طريقة في ترتيب ذكر هذه العناصر ، تعتمد في الغالب على ما قدّمه أصحاب الفرية وما أخروه ، توخيا للدقة في النقل ، وتجلية لمقاصد القوم وأهدافهم . وبيان ذلك في النقاط الآتية :

أولا : لما كانت تهمة السحر أفسد التهم وأسقطها في الاعتبار[٢] ، كان الأصل أن يقدّم أصحاب التهمةِ الشبهة الممهّدة لها عليها حتى تكون أكثر قبولا في نفوس العامة ، خاصة إذا كانت التهمة موجهة إلى شخص النبي ﷺ ؛ لأنه كان في عيون قومه الصادق الأمين ، المُنتفي عنه كل نقيصة وشائبة ، وهم يعلمون أنه لم يتعلم السحر من أحد ، فلو قدمت التهمة لربما قوبلت بالإنكار من أول وهلة ؛ ولذا قدمت الشبهة عليها كي تروج وتنطلي على النفوس . أما حال توجّه التهمة إلى القرآن أو غيره من المعجزات ، فلما كانت هذه أمورا جديدة على القوم لم يألفوها ، فلو قُدّمت التهمة لم تواجه إنكارا منهم ، لكنها قد تثير استفهاما عن وجهها وعلتها ، خاصة وأن الطاعنين هم الملأ و السادة وأصحاب الرأي فيهم ، فإذا أطلقوا حكما فيعني هذا أنه نابع من خبرتهم وعلمهم بحقائق الأشياء ، فيكون تقديم التهمة في هذه الحالة أولى عند أصحابها ، ويؤخرون الشبهة أو يضربون عنها اكتفاء بمكانتهم في نفوس قومهم ، وبما أشاعوه من شبه في مواقف سابقة . ويستثنى من هذا لو كان بعض القوم قد استمع للقرآن أو رأى معجزة وتأثر بها ، وخُشي عليه من الدخول في دين محمد ﷺ ، فحينها يقدمون الشبهة على التهمة ليقنعوهم بها ، كما في مقطع الأنبياء . وأحيانا يقدمون الدافع والشبهة على التهمة ، وتكون متوجهة إلى القرآن أو غيره من المعجزات ؛ لأن الغرض الأول

---

(١) أقصد بالشبهة ما أورده القرآن على لسان المشركين تعليلا لفريتهم وتمهيدا لها ، كإنكار التوحيد أو البعث أو بشرية الرسول ... ، وأقصد بالدافع ما أورده من كوامن نفوسهم كالكبر والحسد والحرص على الزعامة والجاه ... .

(٢) كون فرية السحر أفسد التهم وأسقطها في الاعتبار؛ لأن السحر خداع وتزوير للحقائق، فهو كذب ينافي ما عرف عنه ﷺ من الصدق والأمانة والاستقامة وخصال الخير، ولأنه لم يتعلم السحر من أحد، ولا مارس أفعال السحرة . أما غيره من الأوصاف والفرى فقد تشتبه على بعض العقول ، فهي اقل فسادا وسقوطا من السحر، أما الشعر فلم يكن نظمه عندهم قدحا في صاحبه ، بل كان مفخرة له بين العرب ، والبيئة العربية آنذاك كانت منبعا للشعر والشعراء ، فوصفه ﷺ به لا ترفضه العقول من الوهلة الأولى إلا بعد أن تتأمل في كلامه وفي القرآن الذي أتى به ، فتتيقن من كونه ليس شعرا ، أما السحر فترفضه حتى قبل أن تتأمل وتتفكر فيه ، وهذا فرق دقيق . وكذلك الحال بالنسبة للكهانة ، حيث أن الكهان كانوا ذوي مكانة عند العرب آنذاك ، وكانوا يسألونهم عن الأخبار المستقبلية ، وكان الكاهن يتلقى أخباره من وحي الشياطين إليه بعد استراقها السمع من كلام الملائكة في السماء ، فوصفهم له ﷺ بالكهانة قد ينطلي على بعض الناس للوهلة الأولى لكونه ﷺ يأتيهم بالأخبار من جهة السماء بواسطة الوحي . وأما الجنون فهو داء وبلاء يطرأ على المرء ، لا يد للمصاب به فيه وقد تشتبه للوهلة الأولى على بعض العقول إصابته ﷺ به ، خاصة مع ما يصيبه أثناء تلقيه الوحي من أعراض ، وما يأتيهم به من تعاليم لا توافق تصوراتهم وقناعاتهم . والتعلم من البشر شرف لا ترفض العقول اتصافه ﷺ به إلا بعد التأمل والتفكر في حاله . وأما اختلاق القرآن، فلكونه كلاما عربيا ، لا ترفض العقول من الوهلة الأولى أن يكون من كلامه ﷺ إلا بعد التأمل والتفكر فيه ، والله أعلم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكون هو الطعن في نبوة محمد ﷺ ، وأما الطعن في المعجزة فهو تابع . فيقولون لهم – كما في مقطع سبأ– ليس هذا بنبي ؛ لأنه يدعو إلى ترك عبادة الآلهة التي ورثناها عن آبائنا ، وأما هذا الكلام العجيب الذي بهركم وأثر فيكم ، فما هو إلا سحر يسحركم به لتتبعوه .

ثانيا : الأصل في الرد القرآني أن يتأخر عن التهمة والشبهة ، فلا يتقدم إلا لعلة وسبب . مع التنبيه على أن هذا الرد كان منصبا على الشبهة دون التهمة نفسها ، إهمالا لها على اعتبار فسادها وسقوطها من الاعتبار – كما مر– ، وكذا على اعتبار كون السحر أمرا خفيا غير ظاهر للناس ، فإذا أبطلت الشبهة بطل ما يقوم عليها ، والله أعلم .

ثالثا : سلك القرآن– بناء على ما سبق– طرقا عدة في إيراد عناصر الفرية وترتيبها ، هي :

أولا : تقديم الشبهة ، ثم إيراد التهمة ، ثم الرد القرآني . وورد هذا الترتيب في مقاطع : يونس والأنبياء وسبأ وص ، ففي مقطعي يونس وص يتوجّه القرآن بالتعجيب من الشبهة الفاسدة التي قدمها كفار مكة تمهيدا وتقوية – في ظنهم– لتهمة السحر الواهية ، فقال في يونس : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ إلى قوله :﴿ قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين﴾ . و أما في ص فقال: ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ ، وأتبَعوا التهمة بشبهات أخرى زيادة في تقرير التهمة في نفوس العامة ، خاصة وأن حادثة مجلس أبى طالب التي نزلت آيات ص على إثرها كانت نتيجة لما علمه كفار مكة من إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١) ، فخافوا أن يتبعه آخرون فيسلموا مثله ، فاتجهوا إلى المبالغة في تقرير التهمة فقالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا ﴾ ، وقالوا : ﴿ إنّ هذا لشيء يراد﴾ ، وقالوا : ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة﴾ ، وقالوا : ﴿ ءأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ . ولما بالغ الملأ من كفار مكة في ذكر الشبه ، ناسب هذا الإضرابَ عنها إلى ذكر الدوافع الحقيقية التي من أجلها كذبوا وافتروا ، فقال : ﴿ بل هم في شك من ذكري ، بل لما يذوقوا عذاب ﴾ . وفي مقطع الأنبياء أورد القرآن مقالتهم لبعضهم ممن استمع للقرآن وتأثر به ، يذكّرونهم بالشبهة الفاسدة ليقنعوهم أن هذا القرآن ما هو إلا سحر ، فقالوا لهم : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ . وأما مقطع سبأ فسبق بيان وجهه .

ثانيا : تقديم التهمة ، ثم إيراد الشبهة ، ثم الرد القرآني . وورد هذا الترتيب في مقطعي الصافات والزخرف . والطعن فيهما متوجه إلى القرآن ، فقدموا التهمة على الشبهة – كما مر– ، ففي الصافات قالوا : ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ۝ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا

---

(١) ينظر : الواحدي ، **أسباب النزول** ، ص ١٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لمبعوثون ۞ أو آباؤنا الأولون﴾ . وفي الزخرف قالوا : ﴿ هذا سحر وإنا بــه كــافرون ۞ وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ ، أي : لو كان هذا القرآن حقا من عند الله لأنزله على أحد عظماء مكة أو الطائف .

ثالثــا : إيراد التهمة دون شبهة ، وطريقة الإيراد تغني عن الرّد . وورد هــذا فــي مقــاطع الأحقاف والقمر والمدثر . ففي الأحقاف قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴾ ، فالطعن هنا متوجه إلى القرآن فلم يحتاجوا لتبرير ذلك اكتفاءً بما أشاعوه في مواقف سابقة ، أو لكون الطاعنين ذوي مكانة في نفــوس قــومهم – كما مر – . وطريقة الإيراد تغني عن الرد ؛ لما فيها من إظهار لعنادهم وعتوهم عن الحق والإيمان بعد رؤية الآيات البينات . وفي المدثر قال : ﴿ إنه فكر وقدر۞ فقتل كيف قدر۞ ثم قتل كيف قدر۞ ثم نظر۞ ثم عبس وبسر۞ ثم أدبر واستكبر۞ فقــال إن هــذا إلا ســحر يؤثر۞ إن هذا إلا قول البشر ﴾ ، والطعن هنا – أيضا – في القرآن ، وطريقة الإيراد تغني عن الردّ لما تظهره من تكبر عن الحق بعد طول التفكير وتكرر التقدير بحثــا عــن مطعــن صحيح دون جدوى ، ولأن مقام العناد والاستكبار بعد ظهور الأدلة والبراهين هو أحوج إلى الوعيد والتهديد منه إلى الحوار والحجاج ؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك : ﴿ سأصــليه ســقر﴾ . وأما في القمر فالطعن متوجه إلى آية انشقاق القمر ، قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانــشق القمر۞ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر۞ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكــل أمــر مستقر﴾ . وطريقة الإيراد تغني عن الرد لما تظهره من عناد القوم واستكبارهم عن الإيمــان بعد رؤيتهم آية هي من أعظم الخوارق في الكون . وأما تركهم إيراد الشبهة هنا وفي المــدثر فالقول فيهما كالقول الذي مر في الأحقاف .

رابعا : الرد القرآني ، ثم إيراد الشبهة ثم التهمة . وهذا خاص بمقطع هود ؛ لأنه لمــا كــان المقام مقام تجلية لمظاهر القدرة الإلهية في الكون بقوله تعالى قبل المقطع : ﴿ وما من دابــة في الأرض إلا على الله رزقها ... ﴾ الآية ، وقوله هنا :﴿ وهــو الــذي خلــق الــسماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ متبعا هذا بذكر علة هذا الخلق وهي الابتلاء والاختبار بقوله : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ ، وكان في كل ما سبق دليل على حقيّة البعث وردّ على منكريه ، ناسب ذلك التعريج على ذكر ما يثير العجب فــي النفــوس مــن إنكــار المشركين للبعث بعد الموت ، وهي الشبهة وراء تهمة السحر التي قالوها هنا ، فقال تعالى : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ . وأما تقديم الشبهة على التهمة مع أنها متوجهة إلى القرآن ؛ فلأن المقام يقتضي هذا ، ولأن المورد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للشبهة هو الله تعالى ، أما هم فقد أطلقوا التهمة دون أي تعليل ، والله أعلم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الثالث : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن

اعتمد أسلوب المشركين في إلقائهم فرية السحر على أمرين ، هما التأكيد والتحقير ، أي : التأكيد للفرية والتحقير للمفترى عليه . أما استعمالهم أسلوب التأكيد فلأنهم لمّا كانوا هم الملأ والكبراء ، وكلمتهم مسموعة وأمرهم مطاع ؛ لكونهم عند قومهم أصحاب الرأي الرزين الثاقب ، كان استعمالهم لهذا الأسلوب في فريتهم ادعى إلى التسليم بها ، ووقوعها في نفوس قومهم موقعا لا يقبل الرد ولا حتى التفكير فيه . كما أن تلك الفرية لما كانت متجهة إلى الصادق الأمين ﷺ ، صاحب الخصال الكريمة والصفات النبيلة ، مع علمهم بأنه لم يتعلم السحر من أحد ، وأنه أميّ لا يقرأ ولا يكتب ، وأنه منفي عنه كل نقيصة وشائبة ، أدّى بهم ذلك إلى تأكيد افترائهم كي يغلب كل هذه القناعات .

ويؤخذ تأكيدهم للفرية من استعمالهم عددا من المؤكدات اللغوية في إلقائها ، فاستعملوا أربع مؤكدات في قولهم في يونس :﴿ إنّ هذا لساحر مبين﴾ ، هي : إنّ ، واللام المزحلقة[(١)] ، والجملة الاسمية ، والمبالغة في الوصف بقصد التهويل بقولهم : (مبين) . واستعملوا في هود وسبأ والصافات والمدثر أسلوب القصر ، فقالوا واصفين القرآن : ﴿ إنْ هذا إلا سحر مبين﴾ أو ﴿ إنْ هذا إلا سحر يؤثر﴾ ، وهو قصر قلب[(٢)] . والقصر درجة عليا من درجات التأكيد[(٣)]. وكذا مبالغتهم في الوصف بقولهم (مبين) هو من أساليب التأكيد[(٤)] . واستعملوا في الأنبياء الاستفهام التوبيخي في مواجهة من تأثر بالقرآن من قومهم ، فأنكروا عليهم حضورهم واستماعهم له فقالوا لهم : ﴿ أفتاتون السحر ﴾ ، وزادوا في التوبيخ فقالوا :﴿ وأنتم تبصرون﴾ ، أي تبصرون بأعينكم أنه بشر لا يأتي بمثل هذه الخوارق إلا إذا كانت سحرا . وهذا النوع من الاستفهام إنما يدل على الثقة التي تملأ نفس صاحبه منه ؛ لأنه يلقي كلامه وهو يدرك أنه لو كان في كلامه أدنى ريب لرُدّ عليه جوابا على استفهامه ، فهو إذن متأكد تمام التأكد من قوله[(٥)].

---

(١) اللام المزحلقة هي الداخلة على خبر (إنّ) لتؤكده ، وتسمى لام إنّ . ينظر : د. محمد التونجي و أ. راجي الأسمر . **المعجم المفصل في علوم اللغة** ، ط١، ٢م، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١م ، ج١ ، ص ٤٩٥ .

(٢) قصر القلب : هو تخصيص أمر بأمر بطريق مخصوص حال كون المخاطب به يعتقد عكس ما يقال ، فيراد قلب معتقده رأسا على عقب بهذا التخصيص . ينظر : د.فضل حسن عباس . **البلاغة فنونها وأفنانها - علم المعاني** ، ط٤، دار الفرقان، عمان- الأردن ، ١٩٩٧م ، ص ٣٥٨ ، ٣٦٥.

(٣) هذا ما ذهب إليه الدكتور حسن طبل في كتابه : **علم المعاني في الموروث البلاغي – تأصيل وتقييم** . ط٢ ، مكتبة الإيمان ، المنصورة – مصر، ٢٠٠٤ م ، ص ١٧٨ .

(٤) ينظر : الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله ،(ت : ٧٩٤هـ) . **البرهان في علوم القرآن** ، ٤م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١م، ج٣ ، ص ٥٧ ، ٦١ .

(٥) ينظر : د.فضل عباس . **البلاغة فنونها وأفنانها - علم المعاني** ، ص ١٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واكتفوا في مقطع ص بالجملة الاسمية فقالوا :﴿ هذا ساحر كذاب﴾ ، لكنهم بالغوا في وصفه بالكذب . وكذا في مقطع الزخرف اكتفوا بالجملة الاسمية فقالوا : ﴿ هذا سحر﴾ لكنهم بالغوا في تأكيد كفرهم به[١] فقالوا :﴿ وإنا به كافرون﴾ . وأما في مقطع القمر فاستعملوا الجملة الاسمية فقالوا : ﴿ سحر﴾ أي هو سحر . وبالغوا في وصفه فقالوا : ﴿ مستمرّ﴾ ، أي محكم موثق قوي ،أثر في العيون حتى رأت القمر ينشق فلقتين – على أحد الأقوال وقد مر–.

وأما أسلوب التحقير فاستعمله المشركون تجاهه ﷺ تعزيزا لجانب الحرب النفسية كي يؤثروا عليه فيترك دعوته . ويظهر هذا الأسلوب من استعمالهم اسم الإشارة للقريب(هذا) من أجل تحقير المشار إليه والحطّ من شأنه ، فقالوا في مقطع يونس :﴿ إنّ هذا لساحر مبين﴾ ، وقالوا في مقطع ص :﴿هذا ساحر كذاب﴾ تحقيرا للنبي محمد ﷺ . وكذا فإن اتهامهم له عن قرب بحيث يسمعهم ، مع عدم مخاطبته بذلك ، بل بالكلام بين بعضهم ، فيه من الإيذاء والتحقير والتجاهل ما فيه . كما أنهم استعملوا اسم الإشارة (هذا) أيضا للقرآن للتقليل من شأنه ، فقالوا: ﴿ إنْ هذا إلا سحر مبين﴾ ، أو ﴿ هذا سحر﴾ ، أو ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ . ولو أرادوا لسموه باسمه فقالوا : ما هذا القرآن إلا سحر ، أما الاكتفاء باسم الإشارة (هذا) فهو كما ذكر .

المطلب الرابع : الرد على الفرية

---

(١) تفهم هذه المبالغة في التأكيد من استعمالهم عدة مؤكدات في كلامهم ، وهي (إنّ) التوكيدية ، والجملة الاسمية ، والقصر بتقديم ما حقه التأخير من الجار والمجرور (به) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تركز رد القرآن على الشبهات التي تذرع بها القوم في اتهامهم وتكذيبهم دون التهمة نفسها ، نظرا لظهور سقوطها وخفاء أمر السحر– كما مر – ، ولكونها معتمدة في الأساس على بعض التصورات الخاطئة ، على رأسها إنكار كفار مكة بشرية الرسول ، والذي دفعهم إلى اعتبار كل ما يأتي به ﷺ من آيات ودلائل على صدقه من قبيل السحر ؛ ولذا توجه القرآن لنقض تلك الشبهة وغيرها ؛ لأن نقض الشبهة هو نقض للتهمة[١] .

أما الشبهات التي تركز الرد القرآني عليها فهي ، **أولا** : إنكار المشركين بشرية الرسول– كما مر– . **ثانيا** : اعتراض المشركين على اختيار محمد ﷺ للنبوة دون سائر عظمائهم . **ثالثا** : إنكارهم البعث بعد الموت وبلى الأجساد .

أما إنكارهم بشرية الرسول فرد القرآن عليها في مقطع يونس بأن هذا ليس من شأن كفار مكة ولا غيرهم ، بل هو لمن له التصرف المطلق في هذا الكون ، يدبره كيف يشاء ، وفق حكمته – جل وعلا– ، فقال : ﴿ إن ربكم الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾ . وردّ عليها في مقطع الأنبياء بردّين اثنين ، الأول : إظهار تناقض كفار مكة في إنكارهم بشرية الرسول مع اعترافهم بالرسل السابقين ، بدليل طلبهم معجزة حسية كمعجزاتهم ، فقالوا :﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ ، وما كان هؤلاء الرسل إلا بشرا ! . والثاني : تأكيد القرآن على بشرية الرسل جميعا بعد اعتراف الكفار بإرسالهم ، بدعوتهم إلى سؤال أهل الكتاب ، فقال : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ ، وبوصف هؤلاء الرسل بأوصاف البشر فقال :﴿ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ .

وأما اعتراضهم على اصطفاء محمد ﷺ لمقام النبوة دون سائر عظمائهم وزعمائهم بقولهم في ص :﴿ءأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ ، وقولهم في الزخرف :﴿ لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ، فرد القرآن عليه في مقطع ص بأن الله تعالى لم يجعلهم وكلاء على خزائن رحمته حتى يعطوا النبوة من شاءوا ويحرموا منها من شاءوا ، وليس لهم الملك والسلطان في هذا الكون حتى يعترضوا على الله تعالى اصطفاءه لمحمد ﷺ ؛ فخزائن الرحمة بيد الله وحده ، والملك والسلطان في هذا الكون هو لله وحده ، والخلق جميعا خاضعون لأمره ،﴿ ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ﴾(الأعراف:٥٤) . وردّ

(١) لذلك لم أجعل مطلبا لأسلوب القرآن في رد الفرية ؛ لأنّ ردّه كان منصبّا على الشبهات والدوافع دون الفرية نفسها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليهم في الزخرف بأن من قسم المعايش بين الناس في الدنيا هو الله لا أنتم يا كفار مكة ، فكما لا دخل لكم في القسمة الدنيوية ، فكذا لا دخل لكم في القسمة الدينية من باب أولى .

وأما إنكارهم البعث بعد الموت وبلى الأجساد ، فرد القرآن عليه في هود بالاستدلال بالخلق العظيم للكون على قدرة الله تعالى على البعث ، ومستدلا أيضا بالهدف الكامن وراء ذلك الخلق ، وهو الاختبار ، فلم يخلق الله – سبحانه– هذا الخلق عبثا ، إنما خلقه وسخره للثقلين من أجل الاختبار والامتحان ؛ ليظهر المحسن من المسيء ، ثم يجازي الله المحسن بالثواب ويجازي المسيء بالعقاب . وهذا ظاهر لكل من تفكر وتأمل في هذا الخلق . وردّ عليه كذلك في الصافات بقوله :﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ ، أي إنه جِدّ هيّن على الله تعالى ، فبمجرد صيحة واحدة حين يُنفخ في الصور يقوم الخلق أحياء ينظرون . ثم إن هناك بعض الردود الأخرى التي أوردها القرآن على ما قالوه ، هي :

أولا: ما ورد في مقطع الأنبياء من قوله تعالى :﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾ ، أي أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، فلا تخفى عليه خافية في هذا الكون ، وهو لا يقرّ من كذب عليه ، فضلا عن أن يصدقه ويؤيده بالمعجزات . وقد أنزل على محمد ﷺ هذا القرآن المعجز المشتمل على خبر الأولين والآخرين ، دليلا على صدقه وتأييدا لنبوته ورسالته[١] .

ثانيا : ما جاء في مقطع الأنبياء أيضا من قوله تعالى عنهم بعد ما قالوا بتهمة السحر : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ ، فاضطراب كفار مكة في وصف القرآن تارة بالسحر وتارة بأضغاث الأحلام، ومرة بالاختلاق، وأخرى بالشعر ، ثم الإضراب عن ذلك كله إلى طلب المعجزة الحسية ، فيه رد على تهمة السحر وغيرها من التهم ، فاضطرابهم فيها دليل بطلانها . وهذا من أسلوب القرآن في دحض الشبهات من خلال كلام الخصم ، كما قيل : من فمك أدينك ، وهو أقوى في رد الشبهات ودحضها .

ثالثا : ما جاء في مقطع سبأ من قوله تعالى :﴿ وما ءاتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ ، فالله تعالى لم ينزل على هؤلاء المشركين كتبا قبل القرآن ، حتى إذا قارنوا بينه وبينها وجدوه مخالفا لها فحكموا عليه بأنه كذب مفترى ، وأن أثره الذي يحدثه في النفوس سحر! . كما أنه سبحانه لم يرسل إليهم قبل محمد ﷺ أي رسول حتى إذا قارنوا بين دعوته ودعوة محمد ﷺ وجدوهما متناقضتين ، فحكموا على محمد ﷺ بالافتراء والسحر ! .

---

(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٦٦ ، وابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، (ت : ٧٧٤هـ) ، **تفسير القرآن العظيم** ، ط١ ، ٤ م ، دار الفيحاء – دمشق ، دار السلام – الرياض ، ١٩٩٤ م ، ج٣ ، ص ٢٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنتيجة أن ما قالوه في النبي ﷺ والقرآن ليس صادرا عن علم ، وإنما عن الظنون والأوهام المعشعشة في عقولهم . وهذا يشبه رده – تعالى– في قوله :﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾(الأحقاف :٤) .

رابعا : ما ردّ القرآن به على وصفهم آية انشقاق القمر بأنها سحر ، فقال :﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر﴾ ، أي لا فائدة لهم في كل تكذيبهم وتشويههم ، ولا يمنع علو شأنه ﷺ وتمام نور الإسلام ؛ لأن كل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ، ومن جملتها أمر هذا الدين ومبلغه ﷺ ، فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيّته وعلو شأنه [١] . ففي هذا الرد إظهار للثقة بالمنهج والطريق[٢] ، كأنه يقول لهم : انتظروا أيها المعاندون وسترون .

أما الرد القرآني على الشبهات والدوافع الأخرى التي تقوم عليها تهمة السحر فقد تنوعت طريقة القرآن في ردها ، فأما الكبر والعزة والشقاق الواردة في مقطع ص ، فرد عليها القرآن بالتهديد بقوله : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ ، أي كثيرا من الأمم أهلكناها بعد تكذيبها لرسلها ، فنادوا بالصراخ والاستغاثة فلم ينفعهم ذلك . وهذا الرد فيه قتل لكبريائهم وغطرستهم ، فهم الآن مستكبرون وغدا – إن لم يؤمنوا– أذلاء صاغرون ، يتوسلون ولا مجيب .

وأما كون القرآن وحيا خفيا ، المشار إليه في يونس ، فيرد عليه قوله تعالى : ﴿ إنّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾ ، فخفاء الوحي من حكمة الله وتدبيره في هذا الكون ، ولا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه .

وأما إنذارهم بالعذاب مع تبشير المؤمنين بالثواب المناقض لتصورهم رضى الله عنهم الوارد أيضا في مقطع يونس ، فترد عليه نفس الآية السابقة ؛ لأن هذا من شأن من له التدبير في هذا الكون ، فالخلق كلهم خلقه ، وهم عنده سواسية ، لا فضل لأحد على أحد منهم إلا بتقواه – سبحانه – وطاعته . أما كون الاستجابة لذاك الإنذار ستفقدهم بعض المكاسب الدنيوية كالزعامة والرياسة ، فالرد عليه من الآية بأنكم مربوبون لله الخالق لكم ولغيركم ؛ فلا زعامة ولا رياسة أمام أمره .

أما شكهم في أصل الوحي الإلهي الوارد في ص ، فكان الرد عليه بقوله : ﴿ بل لمــّا يذوقوا عذاب ﴾ . فالله تعالى لمّا متعهم وآباءهم حتى طال عليهم العمر ، ولم يأتـــهم في تلك

(١) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٢٧ ، ص ١١٠ . والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٤٢٢ .
(٢) استعمل القرآن عدة أساليب في إيراده و رده ، منها : أسلوب التعجيب الإنكاري في يونس ، و أسلوب التهكم والرد ببيان السبب في ص ، و أسلوب إظهار الثقة بالمنهج والطريق في مقطع القمر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المدة أيّ رسول إلهي ظنوا ذلك هو الأصل ، فما عليهم إلا أن يأكلوا ويشربوا ويتمتعوا حتى يموتوا ، وهكذا الحياة ! . فاغترارهم بسنة الإمهال مع التوسيع في المعاش دفعهم إلى هذا ، فردُّ القرآن هنا كان ببيان السبب ، وهو أسلوب قرآني ، وكما قيل : إذا عرف السبب بطل العجب .

أما اغترارهم بسنة الإمهال نفسه فكان الرد عليه من نفس الآية السابقة الموردة له . فالتعبير بحرف (لمّا) في الآية يعني أن العذاب على شرف الوقوع ، فلا تغتروا أيها المعاندون. وورد هذا الدافع في الزخرف أيضا ، ولم يذكر القرآن هناك ردا عليه ، لكن طريقته في الإيراد كانت مغنية عن الرد ، فقال تعالى : ﴿ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ۞ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ . فالله تعالى متعهم وأمهلهم مع شركهم وكفرهم ، فلما أرسل إليهم رسوله وأنزل إليهم كتابه ، كفروا بهما بدل أن يقوموا بشكر النعمة ويقابلوا الإحسان بالإيمان . فالآيتان مغرقتان لهم في الشعور بالخزي والعار والخجل .

وأما ما ورد في مقطع ص من إنكارهم وحدانية الإله محتجين عليه بعدم سماعهم ذلك في آخر الملل ظهورا وهي النصرانية ، ووصفهم – بناء عليه– عقيدة التوحيد بالاختلاق ، فقد أضرب القرآن عن الرد عليها لكونها ظاهرة السقوط ؛ لأنه لا ملازمة بين عدم سماعهم ودعوى الاختلاق ؛ لاحتمال وقوع التحريف في الديانة السماوية فلا تبقى على صفائها ، بدليل كون اليهودية كالنصرانية أصلها سماوي وبينهما من الاختلاف في الأصول والفروع الشيء الكثير ، وكفار مكة يعرفون ذلك لاختلاطهم بأهل كلا الملتين ، ويستحيل عليه بقاؤهما أو بقاء إحداهما على الصفاء الأول مع وجود ذلك التناقض ، فيلزم منه إمكانية دخول التحريف على الديانة السماوية . هذا مع وجود بقايا من أهل الكتاب كانوا على التوحيد آنذاك بدليل قوله ﷺ في الحديث الصحيح: " وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب "[(١)]. قال النووي :" والمراد بهذا المقت والنظر ما قبل بعثة رسول الله ﷺ . والمراد ببقايا أهل الكتاب الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل "[(٢)] .

وأما قولهم في المقطع نفسه: ﴿ إن هذا لشيء يراد﴾ زاعمين رغبته ﷺ بالاستعلاء عليهم عن طريق دعوته الجديدة ، فكذا هي ظاهرة السقوط ؛ لأنها شبهة تعتمد على سوء الظن دون دليل أو برهان ، فأضرب القرآن عنها .

---

(١) أخرجه مسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٩ ، ص ١٣٠ ،(رقم : ٢٨٦٥) .
(٢) المصدر نفسه ، ج٩ ، ص ١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبهذا ينتهي الحديث عن الرد القرآني . وزيادة في الفائدة ، وزيادة في دحض فرية السحر، فإنّي رأيت أن أورد عددا من الردود التي ذكرها العلماء ، المفندة لهذه الفرية ، وهي:

أولا : لو كان النبي ﷺ ساحرا ، والقرآن الذي جاء به سحر ، لأمكن الكفار تعلم هذا السحر ، ثم المعارضة به ، خاصة مع توفر الأسباب والدواعي وشدة الحاجة عندهم ، بعد أن سفه القرآن أحلامهم وعاب آلهتهم وحارب عقائدهم وعاداتهم[١] ، مع تزايد الأتباع والأنصار ، ومع بروز القرآن للتحدي ، فأي شيء منعهم من ذلك لو كان هذا الاتهام صحيحا .

ثانيا : **لم يكن في كلامه ﷺ ولا في القرآن الذي جاء به ما يشبه كلام السحرة المشتمل على الطلاسم والتمتمات والكلام غير المفهوم حتى يشتبه عليهم الأمر ، وإنما كان كلاما عربيا فصيحا واضحا مبينا .**

ثالثا : **أن السحر قد تقرر لكل ذي لب أنه شر محض ليس فيه شيء من الحكمة ، والقرآن قد بلغ الذروة فيها ، وهو منبع الهدى والنور ، فأين ذاك من هذا ؟! .**

رابعا : **وقوعهم في التناقض ، فادعاء السحر الذي يعني أن القرآن من قول البشر، يتناقض مع الاعتراف الضمني بالعجز عنه .**

خامسا : أنه ﷺ منهم ، لم يفارقهم قط ، و يعرفون صدقه وأمانته وأنه ما خالط عالما بسحر ولا بغيره حتى يخالطهم فيه شبهة[٢].

سادسا : أنّ الساحر لا يدّعي النبوة ، فالذي يصدر منه متميّز عن المعجزة ؛ فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوة والتحدي بها[٣][٤] .

المطلب الخامس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردّها

لما كان حجم الرسالة الجامعية محدودا بعدد معين من الصفحات ، كان لزاما على الباحث أن يراعي هذا في بحثه . وعليه فإن تحليل النصوص القرآنية الواردة في هذا المبحث لما كان يتطلب عددا كبيرا من الصفحات كان لابد من الانتقاء ، وإبراز عينة تكفي لبيان

---

(١) ينظر : الرماني ، أبو الحسن علي بن عيسى ، (ت : ٣٨٦ هجرية) . **النكت في إعجاز القرآن** ، ط٤ ، (تحقيق : محمد خلف الله و د. محمد زغلول سلام) ، دار المعارف ، ص ٧٥ . و د. فضل حسن عباس ، و سناء فضل عباس ، **إعجاز القرآن الكريم** ، دار الفرقان ، ص ٤٦ .

(٢) الأوجه : الثالث الرابع و الخامس ، ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ٤١٤ .

(٣) ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج٢ ، ص ٣١- ٣٣ .

(٤) هذه الردود تصلح كذلك ردا على المستشرق (مرجليوث) الذي زعم أنّ النبي ﷺ - وحاشاه مما يقوله المفترون الأفاكون – قد مارس بدقة أعمال الشعوذة وحيل الروحانيين ، وأنه كان يعقد في دار الأرقم في مكة جلسات روحانية وهو ما يسمى : (تحضير الأرواح) . ينظر : أ.د. حسن ضياء الدين عتر ، **وحي الله – حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة نقض مزاعم المستشرقين** ، ط١ ، دار المكتبي ، دمشق ، ١٩٩٩م ، ص٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلاغة القرآن في إيراد طعون الخصوم وردها . وقد توجهت إلى انتقاء مقطع هام من المقاطع الموردة للفرية هو مقطع يونس ؛ لكونه من حيث ترتيب المصحف أول مقطع قرآني أورد الفرية ، وتضمن عددا من شبهات القوم ودوافعهم وراءها ، واحتوى على عناصر الفرية الثلاث من الدافع والتهمة والرد ، كما أنه متوسط في طوله .

قال تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ ﴾(يونس : ٢ – ٣)

التحليل البياني للنص :

الهمزة في (أكان) للاستفهام ، وغرضه إنكار تعجبهم وتعجيب السامعين منه لوقوعــه في غير محله[(١)]. وفائدة إدخال الاستفهام الإنكاري على كان دون أن يقال : أعجب النــاس ، هي الدلالة على التعجيب من تعجبهم المراد به إحالة الوحي إلى بشر. والمعنى: أحدث وتقرر فيهم التعجب من وحينا ؛ لأن فعل الكون يشعر بالاستقرار والتمكن ، فإذا عبر به أشعر بــأن هذا غير متوقع حصوله[(٢)] . والمراد بــ(الناس) الأولى كفار مكة . والتعبير عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم الذي هو مدار تعجبهم ؛ لتحقيق ما فيه الشركة بينهم وبين الرسول ﷺ وهو الإنسانية ؛ لإظهار بطلان تعجبهم[(٣)]. قال الشوكاني : " وليس في هذا الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضي العجب ، فإنه لا يلابس الجنس ويرشده ويخبره عن الله سبحانه إلا من كان من جنسه ، ولو كان من غير جنسهم لكان من الملائكة أو من الجن ، ويتعذر المقــصود حينئذ من الإرسال ، لأنهم لا يأنسون إليه ولا يشاهدونه "[(١)] ؛ ولذا عبر عنهم بلفظ النــاس . ويظهر لي سرّ آخر ، هو أن التعجب من الوحي إلى رجل من الناس وإنكار ذلك أمر مضت

---

(١) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٨٢ . وإليه ذهب الرازي وأبو حيان وأبو السعود . وقال القرطبي :" استفهام معناه التقرير والتبويخ " ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج٨ ، ص١٩٥ . وقال الشوكاني : " لإنكار العجب مع ما يفيده من التقريع والتوبيخ " ، **فتح القدير** ، ص ٧٤٧. وقال محي الدين درويش : " الهمزة للاستفهام الإنكاري المشوب بالتعجب " ، **إعراب القرآن الكريم و بيانه** ، ط٧ ،٩ م ، اليمامة للطباعة و النشر و التوزيع ، و دار ابن كثير ، دمشق - بيروت ، دار الإرشاد للشؤون الجامعية ، حمص– سوريا ،٢٠٠٢م ، ج٣، ص ٣٠٠ .

(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ٨٣ . قلت: هذا مبني على القول بأن كان الناقصة تدل على الحدث إضافة إلى الزمان ، وهو الذي رجحه ابن هشام ، ينظر : ابن هشام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، (ت:٧٦١ هجرية) . **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ، ٢م، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٩٨٧م ، ج٢ ، ص٤٣٦، و محيي الدين درويش ، **إعراب القرآن الكريم وبيانه** ،ج١ ، ص ٣٠٤

(٣) ينظر: الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٨٢ .

(١) الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

به سنة الأقوام في مختلف العصور ، كما قال نوح وهود عليهما السلام لقومهما :﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ (الأعراف:٦٣ ، ٦٩) ؛ ولذا جاء بلفظ (الناس) ليبين أن هذا الإنكار هو ديدن الناس على مدى السنين . وفائدة دخول لام الاختصاص على لفظ (الناس) الأولى هي الدلالة على أنهم جعلوه – أي الوحي إلى رجل منهم– لأنفسهم أعجوبة يتعجبون منها ، ويوجهون إليه إنكارهم واستهزاءهم ، ولو قال : (عند الناس) بدل (للناس) لم يكن فيه هذا المعنى(٢) . قال ابن عاشور : " (للناس) متعلق بـ(كان) لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجب فيهم ؛ لأن أصل اللام أن تفيد الملك ، ويستعار ذلك للتمكّن ، أي لتمكن الكون عجبا من نفوسهم"(٣) . وسر تقديم الجار والمجرور (للناس) هو إرادة التبكيت والتعجيب من حالتهم(٤).

وتنكير العجب وتنوينه يفيدان بيان عظمته في نفوسهم(٥) ، فهو عجب عظيم أدى بهم إلى التكذيب ، قال ابن عطية : " ولفظة العجب هنا ليست بمعنى العجب فقط ، بل معناه : أوَصل إنكارهم وتعجبهم إلى التكذيب "(٦). قال ابن عاشور : " ولما كان التعجب مبدأ التكذيب ، وهم قد كذبوا بالوحي إليه ولم يقتصروا على كونه عجيبا ، جاء الإنكار عليهم بإنكار تعجبهم من الإيحاء إلى رجل من البشر ؛ لأن إنكار التعجب من ذلك يؤول إلى إنكار التكذيب بالأولى ، ويقلع التكذيب من عروقه "(٧). وقدم خبر كان (عجبا) على اسمها (أن أوحينا) هنا لكونه مصب الإنكار والتعجيب ، وتشويقا إلى المؤخر . وذكر الوحي دون ما يقاربه في المعنى كالقول أو الإعلام لبيان حقيقة تعجبهم من كون الرسول من البشر ، وكون المصدر الذي يلقنه هذا الكلام المعجز– وهو القرآن – خفيا غير محسوس مما زاد من عجبهم . وعبر بالفعل الماضي دون المصدر للدلالة على حدوث الإيحاء وتحققه ؛ لأن المصدر يدل على معنى مجرد لا يرتبط بزمن ، أما الفعل فيدل على حدث مرتبط بزمن فهو أقوى دلالة على الحدث من المصدر(١). وأضيف الإيحاء إلى الله – تعالى – بنون العظمة (أوحينا) لإيجاد القناعة عند المخاطبين أن هذا الوحي هو من عنده – سبحانه– .

---

(٢) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٧، ص ١٨٦، و البيضاوي ، ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي ، (ت :٦٩١هـ) . **أنوار التنزيل و أسرار التأويل** ، المعروف بتفسير البيضاوي، ط١، ٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ١٩٩٨م، ج٣ ، ص١٠٤.

(٣) ابن عاشور ، **التحرير والتوير** ، ج١١، ص ٨٣ .

(٤) ينظر : الزركشي ، **البرهان** ، ج٣ ، ص ٢٧٦ ، و د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٢٣٩ .

(٥) من أغراض التنكير التعظيم . ينظر : الزركشي ، **البرهان** ، ج٤ ، ص ١٠٨ ، و د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص٣٣٠.

(٦) ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٨٩٦ .

(٧) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ٨٤ .

(١) ينظر : د. محمد التونجي وأ. راجي الأسمر . **المعجم المفصل** ، ج١ ، ص ٤٥٢ ، وج ٢ ، ص ٥٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصفه ﷺ بالرجولية ، لإدماج ما يفيد الرد عليهم بأن الوحي كان إلى رجل من الناس ، وذلك شأن الرسالات كلها ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ﴾(النحل:٤٣)[٢] . ومجيء (رجل) نكرة لتعظيمه ﷺ . و(من) هنا لبيان الجنس[٣] . فقوله (إلى رجل) يدل على أنه بشر من جنسهم ، وهو محل تعجبهم . أما قوله : (منهم) فيدل على أنه ﷺ من جلدتهم عربي قرشي ، عاش بينهم من ولادته إلى بعثته ، ويعرفون جميع أحواله[٤] ، يعرفون صدقه وأمانته ، وأنه لم يتعلم السحر ولا الكهانة ، ولا قال الشعر ، وهذا محل إنكار تعجبهم ، فهو إثبات لصدقه في رسالته، وتبرئة له من تهمهم الباطلة . وقدم شبه الجملة من الجار والمجرور (إلى رجل منهم) على مفعول الإيحاء المقدر من (أن أنذر) ؛ لأنها تتضمن محل تعجبهم .

و(الناس) الثانية المراد بها جميع الناس ، لا ما أريد في الأول ، وهو السر في إيثار الإظهار على الإضمار[٥] ، قال ابن عاشور: "و(الناس)الثاني يعم جميع البشر الذين يمكن إنذارهم"[٦].

ومجيء الفعلين (أنذر) و(بشّر) بصيغة الأمر فيه دلالة على أنه ﷺ مأمور بالتبليغ ، ليس مختارا حتى يعترض عليه . والتعبير بالموصول (الذين) للإشعار بما في حيّز الصلة من الإيمان الذي هو سبب البشارة ، مما يوجب المسارعة إليه لنوالها . وقدم خبر (أن) من الجار والمجرور(لهم) على اسمها وهو (قدم صدق) للتخصيص ، أي للمؤمنين دون غيرهم[٧] . وحذف باء الجر مع (أنّ) بعد فعل التبشير الذي يتعدّى بالباء جريا على الغالب[٨] ، وهو من الإيجاز بالحذف . وسرّه – كما يظهر لي– أن المؤمنين لما سبقوا غيرهم في الفضل والخير ، والذي يظهر من قوله : ﴿ أن لهم قدم صدق ﴾ ، جاءت البشارة سابقة إليهم ، فناسب ذلك حذف الباء . وتعريف (قدم) بإضافتها إلى صدق هو للتشريف[١] . وفيه مبالغة لجعل الصدق كأنه صاحبها ومالكها[٢] . والفائدة من إضافتها إلى (صدق) الدلالة على تحققها[٣] . أو هو من إضافة المسبب إلى السبب ، وفي ذلك تنبيه على أن ما ناله المؤمنون من المنازل الرفيعة كان

---

(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ٨٤ .
(٣) ينظر : المرادي ، الحسن بن قاسم ، (ت : ٧٤٩هـ) . **الجنى الداني في حروف المعاني** ، ط١ ، (تحقيق : د. فخر الدين قباوة وأ .محمد نديم فاضل) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ٣٠٩ .
(٤) هذا اختيار السيوطي و البقاعي . ينظر: الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٨٤ ، و البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ٤١٣ .
(٥) ينظر : أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٢٠٩ .
(٦) ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ٨٤ .
(٧) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٢٣٥.
(٨) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ٨٥ .
(١) ينظر : د.فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٣٢٠ .
(٢) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص٨٥.
(٣) ينظر : البيضاوي ، **أنوار التنزيل** ، ج٣ ، ص ١٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسبب صدق القول والنية[٤] ، ففيه حض على الإخلاص[٥] ، ومدح للمؤمنين ، وتعريض بالكفار الذين كذبوا على الله و كذبوا بالصدق إذ جاءهم ، وكذلك هو للتنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم ؛ لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح[٦] . ويوحي قوله : (قدم صدق) بالطمأنينة والثبات والاستقرار ؛ لأنه بعد أن أنذر الناس جميعا هدّأ من روع المؤمنين ، فبشرهم بقدم صدق ، أي : قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تتزلزل ولا تتردد ، في جو الإنذار وفي ظلال الخوف ، وفي ساعات الحرج "[٧] . **و**مجيء الظرف(عند) المفيد للقرب في المنزلة والزلفى[٨] فيه المزيد من شرف المؤمنين وتعظيم شأنهم ومنزلتهم ، ففيه زيادة في البشارة[٩] . **و**التعبير بالربوبية وإضافتها إلى الذين آمنوا لمزيد من الشرف ، أي : ربهم الذي ربّاهم وهداهم . وتفيد أيضا القرب من الله – عز وجل – حيث الحضرة التي تطمئن فيها النفوس المؤمنة حينما تتزلزل القلوب والأقدام[١٠] . **و**جاءت البشارة مؤكدة بتوكيدين هما حرف التوكيد (أنّ) والجملة الاسمية (لهم قدم صدق عند ربهم) . **و**تفسير الفعل (أوحينا) بجملة (أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا...) وعدم الاكتفاء ببيان تعجب كفار مكة من الوحي إلى بشر مثلهم ؛ لأن ذلك هو الذي حملهم على التكذيب ، فالإنذار فيه صرف لهم عن ضلالة دينهم ، والتبشير فيه بيان تفضيل المؤمنين عليهم[١١].

وفي موجب فصل جملة ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ عما قبلها ، وهو قوله تعالى : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ بترك العطف بالواو أقوال : الأول : أن في الكلام حذفا ، تقديره : فلما أنذرهم وتلا عليهم الوحي قال الكافرون ...[١٢] . الثاني : أن هذه الجملة عطف بيان للتي قبلها ، فهي تبين صورة تعجبهم من الوحي إلى بشر[١] . الثالث : أن هذه الجملة بدل اشتمال من التي قبلها ، على معنى : أكان إيحاؤنا إلى رجل من الناس عجبا لهم بلغ بهم حد قولهم

---

(٤) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٨٥.
(٥) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ٤١٤ .
(٦) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٣ ، ص٣٤٥ .
(٧) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١١، ص ١٧٦٠ .
(٨) ينظر : الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد ، (ت: ٥٠٢ هـ) ، **المفردات في غريب القرآن** ، ط٤ ، (تحقيق : محمد خليل عيتاني) ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ،٢٠٠٥ م ، ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .
(٩) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ٤١٤ .
(١٠) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١١ ، ص١٧٦٠ ، و د. مصطفى المشني ، محاضرات مخطوطة في مادة التفسير التحليلي .
(١١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ٨٥ .
(١٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ١١ ، ص٩٧ – ٩٨ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٧ ، ص ١٨٧ .

(١) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص٨٩٦ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص٢٠٩ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنه : إنه لساحر مبين[٢] . والفائدة من بدل الاشتمال أنه أوفى بالغرض والمقصود من المبدل منه[٣] ؛ فالعجب أمر نفسي غير محسوس ، أما القول فمحسوس . الرابع : أن هـذه الجملـة مستأنفة استئنافا بيانيا ، فهي جواب عن سؤال مفهوم من الجملة السابقة ، كأنه قيـل : مـاذا صنعوا بعد التعجب ؟ هل بقوا على التردد والاستبعاد أم قطعوا فيـه بـشيء؟ فقيـل : قـال الكافرون ...[٤] .

و(قال الكافرون) "هم المتعجبون"[٥]. وإيرادهم بعنوان الكفر للدلالة على رسوخهم في هذا الوصف[٦] . واستعمال اسم الإشارة للقريب(هذا) من أجل تحقير المشار إليه والحط مـن شأنه[٧] . وكذلك فإن اتهامهم له عن قرب بحيث يسمعهم ، مع عدم مخاطبته بذلك ، بل بالكلام بين بعضهم ، فيه من الإيذاء والتحقير والتجاهل ما فيه . وجاء اتهامهم هـذا مؤكـدا بـأربع تأكيدات ، الأول : دخول(إنّ) التوكيدية على جملة مقول القول . الثاني : دخول اللام المزحلقة التوكيدية على خبر (إنّ) . الثالث : كون جملة مقول القول اسمية . الرابـع : المبالغـة فـي الوصف بقصد التهويل بقولهم (مبين) وهو من أساليب التأكيد[٨] . ومجيء (ساحر) نكرة يفيد التعظيم[٩] ، مما يدل على عظم محل القرآن عندهم[١٠] .

وجملة (إن ربكم الله ...) استئناف بياني سيق لإظهار بطـلان تعجـب كفـار مكـة المذكور[١١] في الآية السابقة﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلـى رجـل مـنهم ﴾(يـونس:٢) ، وللإجابة عن سؤال أثارته الآية عن سبب الإنكار والتعجيب من استبعادهم الإيحاء إلى بشر ، فجاء الجواب في هذه الآية بأن ربكم ومالك أمركم الذي تتعجبون من أن يرسل إليكم رجـلا منكم بالإنذار والتبشير وتتهمونه بأنه ساحر ، وأن ما أوحي إليه سحر ، هو الله[١٢] الذي خلق الكون وما فيه ويدبر أموره وفق حكمته ، ومن ذلك التدبير إرساله رسولا من جنسكم . وأكّـد هـذا المعنى بـ(إنّ) التوكيدية ، والجملة الاسمية ، قال الآلوسي : " والتأكيد لمزيد الاعتناء بمضمون الجملة "[١] . والالتفات من الغيبة في الآية السابقة إلى الخطاب في هذه الآية لمناسبة

(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ٨٦ .
(٣) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها – علم المعاني** ، ص ٤٠٨ .
(٤) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ٤١٤ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص٢٠٩ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٤٨ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص٨٦ .
(٥) أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٢٠٩ .
(٦) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ٤١٤ .
(٧) ينظر : أ.د توفيق الفيل . **بلاغة التراكيب- دراسة في علم المعاني** ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ص ٩٨.
(٨) ينظر : الزركشي ، **البرهان في علوم القرآن** ، ج٣ ، ص ٥٧ ، ٦١ .
(٩) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٣٣٠ .
(١٠) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٧ ، ص ١٨٧.
(١١) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٨٧ .
(١٢) ينظر :المصدر نفسه ، ج١١ ، ص٨٧.

(١) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقام ، فعندما نقل تعجبهم وكلامهم استعمل صيغة الغيبة وعمّم في تسميتهم بـــ(الناس) تلطفا بهم ، وحتى تكون نفوسهم قابلة لإقامة الحجة ؛ ليكون ذلك أدعى إلى التسليم والإذعان ، وهنا استعمل صيغة الخطاب ليناسب مقام الاحتجاج وإقامة الدليل . وجاء بذكر الربوبية هنا لأنهـــا تفيد التفرد بالتدبير وتصريف الأمور ، وفي هذا رد لإنكارهم إرسال رسول من جنسهم ، فهذا مرجعه إلى الرب – سبحانه– لا إليهم . وجاء بلفظ الجلالة (الله) لكمـــال العنايـــة بمـــضمون الجملة ولتربية المهابة في النفس[٢] . والقصر الحقيقي للصفة وهي الربوبية على الموصـــوف وهو الله ، وذلك بتقديم المسند على المسند إليه المفيد تخصيصه بالمسند إليه[٣] ، الغرض منه – مع كون المشركين يثبتون الربوبية لله – هو تنزيلهم منزلة المنكر لهـــا[٤] بعـــد تعجـــبهم وإنكارهم إرسال الله تعالى رسولا إليهم من جنسهم ؛ لأن الربوبيـــة تفيـــد التفـــرد بالتـــدبير وتصريف الأمور . وعبّر بالموصول (الذي) للإشعار بما في حيز الصلة من خلق السماوات والأرض وتدبير شؤونهما ، ما يعطي دليلا كافيا على تفرده – سبحانه– بالربوبية[٥] .

وتخصيص خلق السماوات والأرض بالذكر لاشتمالهما على جملـــة الآثـــار العلويـــة والسفلية ، وعامة الآلاء الجليّة والخفيّة[٦] . ولم يذكر هنا قوله : (وما بينهما) كما هو في عدة مواضع[٧]، قال الآلوسي: " ولعله أريد بخلقهما خلق ما فيهما أيضا ، وعدم التـــصريح بـــذلك لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات"[٨] . وذكر مدة خلـــق الـــسماوات والأرض وهي ستة أيام للدلالة على عظيم قدرته– تعالى– التي تتجلى في خلقه هـــذا الكـــون الفـــسيح بسماواته وأرضه في تلك المدة اليسيرة[٩] ، ما يزيد من التدليل علـــى تفـــرده – ســـبحانه – بالربوبية وتصريف الأمور ، كما أنه يرد تعجب الكفار من بشرية الرســـول ، بنـــاء علـــى تصورهم الخاطيء من كون الرسول لا يكون إلا مَلَكا حتى يستطيع الإتيان بخبر السماء لأهل الأرض ، فرد عليهم بأنه – سبحانه – القادر العظيم ، الخالق لهذا الكون وما فيه ، والـــذي لا يعجزه شيء ، فكيف يعجز عن أن يكون رسوله إلى الناس واحدا منهم ، وأن يوصـــل إليـــه

---

(٢) د. مصطفى المشني ، محاضرات مخطوطة .
(٣) ينظر : د. توفيق الفيل ، **بلاغة التراكيب** ، ص ١٣٠ .
(٤) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٨ ، ص١٦١.
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج٨ ، ص١٦١.
(٦) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٧ ، ص١٠٥، (آية ١ سورة الأنعام) .
(٧) ينظر : الحجر : ٨٥ ، الفرقان : ٥٩ ، الروم : ٨، السجدة : ٤ ، الدخان : ٣٨ ، الأحقاف : ٣ ، ق : ٣٨.
(٨) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٧ ، ص٢٤٧ ، (آية ٧٣ سورة الأنعام) .
(٩) ينظر : المصدر نفسه ، ج١١ ، ص ٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمره ونهيه بطريقة خفية ، بواسطة مَلَك لا يراه الناس ولا يسمعونه ؟! . والغرض من تنكير (أيام) هو التقليل[١] ، مما يدل على كمال القدرة الإلهية ، قال البقاعي : " على أن ذلك وقت يسير ، لا يفعل مثل ذلك في مثله إلا من لا يعجزه شيء "[٢] .

وذِكْر الاستواء على العرش بعد ذكر خلق السماوات والأرض فيه مزيد من التدليل على تفرده – سبحانه – بالربوبية المطلقة لهذا الكون ؛ ولهذا قال بعده : يدبر الأمر . والعرش هو شعار الملك والسلطان ، كما هي عادة الملوك ، ولله المثل الأعلى . وذكره هنا لبيان جلالة ملكه وسلطانه– سبحانه– بعد بيان عظمة شأنه وسعة قدرته بما مر من خلق تلك الأجرام العظيمة[٣] . والمراد بالتدبير هنا " التقدير الجاري على وفق الحكمة والوجه الأتم الأكمل "[٤]. وإيثار صيغة المضارع في الفعل (يدبّر) للدلالة على تجدد التدبير واستمراره منه تعالى[٥]. و(الأمر) يشمل جميع أحوال الخلق ، ويدخل فيه ما تعجبوا منه من كون الرسول بشرا دخولا ظاهرا[٦]، أي : هو الذي يدبر أمركم باختيار رسوله إليكم ، لا أنتم من تختارون ذلك . وجملة (يدبر الأمر) خبر ثان لـ(إنّ) – على الصحيح – ، أي : إن ربكم الله يدبر الأمر[٧] ؛ لأن الآية سيقت للرد على تعجب المشركين من بشرية الرسول مما دعاهم إلى تكذيبه ، فجاءت لتقول لهم : إن ربكم الله – لا غيره – يدبر أمركم وحده ، فيختار رسوله وفق حكمته لا كما تشتهون ، وهذا المعنى يستلزم أصالة الجملة في الخبرية .

قال الرازي : " قد دل بكونه خالقا للسماوات والأرض في ستة أيام ، وبكونه مستويا على العرش ، على نهاية العظمة وغاية الجلالة . ثم أتبعها بهذه الجملة [يدبر الأمر] ليدل على أنه لا يحدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي أمر من الأمور ولا حادث من الحوادث إلا بتقديره وتدبيره وقضائه وحكمه"[٨] ، ومن ذلك اختياره محمدا ﷺ نبيا ورسولا .

وهكذا تتجلى البلاغة القرآنية في إيراد الفرية والرد عليها . وبهذا أكون قد أنهيت ما يتصل بفرية السحر من مطالب ، راجيا أن أكون قد وفيتها حقها من البيان والتحليل والنقض ، والله الموفق إلى كل خير .

---

(١) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٣٣٠ .
(٢) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ٤١٥ .
(٣) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٨٨، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج٨ ، ص ١٦٥ .
(٤) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٨٨.
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج١١ ، ص ٨٩ .
(٦) ينظر : المصدر نفسه ، ج١١ ، ص ٨٨ .
(٧) ينظر : أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٢١٠ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص٨٩ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ، ج١١ ، ص ٨٧ .
(٨) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٧ ، ص ١٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الثاني : فرية الشعر

تمهيد :

معنى (الشعر) لغة :

هو من شعَر يشعُر شِعْرا ، يقال : شعَر الرجل ، أي : قال الشِّعْر . والشعر في الأصل بمعنى العلم ، يقال : شعَر به أي : علِم ، لكن غلب إطلاقه على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل علم شعرا[١] . قال الراغب : " فالشعر في الأصل اسم للعلم الدقيق في قولهم : ليت شعري ، وصار في التعارف اسما للموزون المقفى من الكلام ، والشاعر للمختص بصناعته "[٢] .

الآيات القرآنية محور الدراسة :

المقطع الأول : ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ ﴾(الأنبياء : ٥)

وقد مر تفسير هذا المقطع في المبحث السابق ، فلا داعي لإعادته .

المقطع الثاني : ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾(الصافات : ٣٥ – ٣٧)

المعنى الإجمالي :

يعلل القرآن ما ذكره قبل هذا المقطع من عذاب للمجرمين من كفار مكة في الآخرة ، بأنهم كانوا في الدنيا إذا دعوا إلى الله والإسلام له وتوحيده ، فقال لهم الرسول ﷺ أو المؤمنون بدعوته : قولوا لا إله إلا الله ، أي : لا معبود بحق إلا الله ، وما سواه فباطل ، فإنهم يتعظّمون ويتكبرون عن قبول ذلك وقوله ، مبررين سلوكهم هذا بأن محمدا ما هو إلا شاعر يقول الشعر – يريدون القرآن بقصد التكذيب به – ، ومجنون حيل بين نفسه وعقله ، فهو يهذي في كلامه ويخلط بما يدعو إليه من الإيمان بتوحيد الإله والبعث بعد الموت وبلى الأجساد وغير ذلك، فهل نترك عبادة آلهتنا المتعددة – يعنون أصنامهم– لأجل قوله ؟! ، كلا . فرد القرآن عليهم بأنه ﷺ ليس شاعرا ولا مجنونا ، بل هو نبي الله جاء بالحق من عنده وهو

---

(١) ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج٨ ، ص ٨٨ – ٨٩ ، والفيروز آبادي ، **القاموس المحيط** ، ص ٤٤١ .
(٢) الراغب ، **المفردات** ، ص ٢٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرآن الذي أنزله عليه ، المشتمل على التوحيد والوعد والوعيد ، وصدّق المرسلين الذين كانوا من قبله ، فجاء بما جاءوا به من التوحيد والوعيد وإثبات البعث والجزاء في الآخرة [١].

المقطع الثالث : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾(الطور : ٣٠ – ٣٢)

المعنى الإجمالي :

ينتقل القرآن هنا من نفيه في الآية السابقة لهذا المقطع في سورة الطور ما وصف به المشركون رسول الله محمدا ﷺ من الكهانة والجنون ، إلى نفيه فرية أخرى رموه بها هي فرية الشعر ، فيقول : بل أيقولون عنك يا محمد : هو شاعر عليم اللسان ، لا نرى أن ندخل معه في خصومة وجدل ، لكن ننتظر به حوادث الدهر وصروفه المهلكة حتى يهلك ويموت فنتخلص منه ، كما هلك من قبله من الشعراء كالنابغة وزهير ؟![٢] . قل لهم يا محمد : انتظروا موتي أو هلاكي ، فإني معكم منتظر من المنتظرين موتكم أو هلاككم . ثم وبخهم مع التهكم بهم فقال : هل ما قالوه من رميك يا محمد ﷺ بالكهانة تارة ، وبالجنون تارة ، وبالشعر تارة مع التناقض في ذلك، هو نابع من عقولهم وأحلامهم ؟! . أو المعنى : هل ما قالوه من وصفك يا محمد ﷺ بأنك شاعر ، وأن ما جئت به من القرآن شعر ، نابع من عقولهم ؟! ؛ فإن أدنى الناس علما بكلام العرب وشعرهم لا يقول بأن القرآن شعر ، فكيف يعقل أن يقول بذلك فصحاء العرب وبلغاؤهم من قريش ؟! ، أم أنهم لطغيانهم وتجاوزهم الحد في العناد قالوا ما قالوه ؟[٣] .

المقطع الرابع :﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾(الشعراء : ٢٢٤ ــ ٢٢٦)

المعنى الإجمالي :

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ٢٣ ، ص ٦١- ٦٢ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٤٨٦ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٢٨٩ ، والراغب ، **المفردات** ، ص ١٠٦ .

(٢) أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ ، قال قائل منهم : احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ . الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٧ ، ص ٤٠ ، والسيوطي ، **لباب النقول** ، ص ١٨٣ .

(٣) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ٢٧ ، ص ٣٩ ــ ٤١ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦٨٩، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٦٣ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٥٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يرد القرآن في هذه الآيات ما وصف به كفار مكة رسول الله ﷺ بأنه شاعر ، بأن حال الشعراء مخالف لحال النبوة وصاحبها ﷺ من وجهين ، **الأول** : أن أتباع الشعراء من الرواة والناقلين عنهم ، والمتعصبين لهم والمصدقين لما يقولون ، هم أهل الغواية والضلال . والدليل على هذا هو أن هؤلاء الشعراء يتخبطون في فنون الكلام ، فمن مدح إلى ذم ، ومن هجاء إلى فخر ، إلى اعتداء على أعراض الناس وقلب للحقائق ، فيمدحون من لا يستحق المدح رغبة في عطائه ، ويذمون من لا يستحق الذم ، وربما ذموا من كانوا يمدحونهم ، ومدحوا من كانوا يذمونهم . ثم إنهم يدّعون أنهم فعلوا كذا وكذا وما فعلوا ، فالكذب في شعرهم مشهور. وحال التابعين كحال المتبوعين . فهل أتباع محمد ﷺ وحالهم كحال أتباع أولئك الشعراء ؟! كلا ، بل هم أهدى الناس وأبرّهم فعلا وأصدقهم حديثا وأبعدهم عن الريبة . **الثاني** : هل حال محمد ﷺ نفسه كحال أولئك الشعراء من التخبط في الكلام والكذب في المقال ؟! كلا ، بل هو الصادق الأمين ، سيد ولد آدم وأكملهم ، وأتقاهم لله رب العالمين ، المنزه عن كل شائبة ونقيصة ، وعليه فلو كان محمد ﷺ شاعرا لماثلت حاله وحال أتباعه حال الشعراء وأتباعهم ، فبذا بطلت الدعوى من أساسها (١).

المقطع الخامس : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾(يس : ٦٩ – ٧٠)

المعنى الإجمالي :

لما قال كفار مكة إن القرآن شعر ، وأن محمدا ﷺ شاعر ، رد القرآن عليهم بقوله : ما كان هذا القرآن الذي علّمه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ عن طريق الوحي إليه به من الشعر في شيء ، ولا يصح أصلا ولا يتأتى له ﷺ أن يقول الشعر ، ولا يسهل عليه ذلك ، حتى لو طلبه وأراد قوله ، فكيف يُزعم أن ما جاء به من القرآن شعر ؟! . ما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجن ، وقرآن يقرأ في الصلوات والمتعبَّدات ، ويُنال بتلاوته والعمل بما فيه أعلى الدرجات . وهو مبين لكل من يسمعه أنه كتاب سماوي لما فيه من الإعجاز، فهو ليس من كلام البشر ، بل هو كلام الله جل وعلا ، أنزله ليخوف به ويحذر من كان عاقلا صائب الإدراك ، حي القلب مستنير البصيرة وهم المؤمنون ؛ لأنهم المنتفعون به . وليَحق ويجب به القول بالعذاب على الكافرين ؛ لأنهم لم ينتفعوا بإنذار القرآن ، فهم كالأموات لا يعقلون ما

(١) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ٢٠١ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ٢٠٨ – ٢١٠ ، و الجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٠٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يخاطبون به[١].

المقطع السادس : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾
(الحاقة : ٣٨ ــ ٤٣)

المعنى الإجمالي :

يردّ الله تعالى في هذه الآيات ما وجهه كفار مكة إلى نبي الله ﷺ من اتهامه بأنه شاعر وبأنه كاهن ، فيقسم بكل شيء ، مبصَر وغير مبصَر ، إن هذا القرآن لهو قول رسول كريم الصفات والخصال وهو محمد ﷺ ، يتلوه عليكم يا كفار مكة مبلغا له عن ربه عز وجل . وليس هو كما تقولون : شعر صادر عن شاعر ، لكنكم قليلا ما تصدقون بما أخبرتكم به ، فلن يثمر ذلك فيكم إيمانا لأنكم أهل عناد . وكذا فإنه ليس كما تقولون بقول كاهن يخبر عن المغيبات بإخبار رئي من الجانّ له وأغلبها أكاذيب ؛ فليس في القرآن من سجع الكهان شيء ، وأخباره صدق وحق ، وأحكامه عدل وحكمة . لكنكم قليلا ما تتعظون وتعتبرون بما أخبرتكم به ، فلن يثمر ذلك فيكم تذكرا ولا اتعاظا ؛ لأنكم قوم معاندون . لكن هذا القرآن منزل من رب العالمين على الرسول الكريم محمد ﷺ[٢].

---

(١) ينظر : الزمخشري ، ، ص ٨٩٩ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٤٧٦ ــ ١٤٧٧ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٢٨٠ ــ ١٢٨١ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١١٧٢ ، والراغب ، **المفردات** ، ص ٤٨٩ ــ ٤٩٠ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٩ ، ص ٧٨ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ١٣٨ ــ ١٣٩ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ١٤٢ ــ ١٤٣ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٥٦٧ ــ ١٥٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته

أورد القرآن ثلاثة أسباب كانت وراء تفوه المشركين بفرية الشعر هي : اتصافهم بالاستكبار ، ورغبتهم الجامحة في المعاندة والشقاق ، وإنكارهم بعض مضامين الرسالة كالتوحيد وعقيدة البعث .

فأما دافع الاستكبار عن الحق المتمثل بعقيدة التوحيد فيظهر من قوله تعالى في مقطع الصافات : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ . وأما دافع الرغبة الجامحة في المعاندة والشقاق فيظهر من قوله تعالى في مقطع الطور: ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾ . والطغيان هنا مجاوزة الحد في المعاندة والشقاق .

وأما إنكارهم البعث بعد الموت وبلى الأجساد ، فيظهر من قوله تعالى في مقطع الحاقة بعد بيان السورة حال السعداء وحال الأشقياء يوم القيامة المقرِّر لعقيدة البعث والجزاء في الآخرة : ﴿ إنه لقول رسول كريم ۞ وما هو بقول شاعر﴾ ، قال ابن عاشور :" وضمير (إنه) عائد إلى القرآن ، المفهوم من ذكر الحشر والبعث ، فإن ذلك مما جاء به القرآن ، ومجيئه بذلك من أكبر أسباب تكذيبهم به "(١) . وعلة هذا هي أن الشاعر يأتي بكلام مغرق في الخيال والمعاني التي لا حقيقة لها ، ولما كانوا ينكرون ما تضمنه القرآن من تقريرٍ لعقيدة البعث بعد الموت ، اعتبروه من قبيل الشعر(٢) . كما أن الشعر كان يعبّر به عن الكذب ، والشاعر هو الكاذب ، لكون الشعر مقرّ الكذب ، حتى قيل : أحسن الشعر أكذبه ، وسميت الأدلة الكاذبة عند قوم بالشِّعرية ، وقال بعض الحكماء : لم يُرَ متديّن صادق اللهجة مُفلقا في شعره ، فكان مراد كفار مكة بتهمة الشعر هو أن القرآن الذي جاء به ﷺ ، المقرِّر لعقيدة البعث ، باطل وكذب(٣) .

ويضاف إلى ما أورده القرآن من تلك الأسباب حرص كفار مكة على إبطال أمر القرآن وحجيّته ، بالتمويه على المغفلين من الناس ، فأشاعوا في العرب أن محمدا ﷺ شاعر وأن كلامه شعر ، قال سيد قطب : " ما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن والشعر ، إنما كان هذا طرفا من حرب الدعاية التي شنوها على الدين الجديد وصاحبه ﷺ في أوساط الجماهير"(٤) . ويشهد لهذا خبر أُنَيْس بن جنادة الغفاري أخي أبي ذر الصحابي المشهور ، فقد روى البخاري عن ابن عباس ، ومسلم عن عبد الله بن الصامت ، قالا : " قال أبو ذر لأخيه : اِركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء ، واستمع من قوله ثم

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ١٤١ .
(٢) ينظر: البقاعي، **نظم الدرر**،ج٥ ، ص٦٧ ، وأبو السعود، **إرشاد العقل السليم** ، ج٤ ، ص٣٢٣، والجمل ، **الحاشية** ،ج٥ ،ص١٢١.
(٣) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ٢٦٥ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .
(٤) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ائتني . فانطلق الأخ حتى قدم وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاما ما هو بالشعر . قال أبو ذر : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر، كاهن ، ساحر . وكان أنيس أحد الشعراء . قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم . ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون "[١].

أما دلالة هذه الفرية فهي إنما تدل على عجيب وقاحتهم بإصدارها ، مع انعدام الشبهة وكونهم أهل اللسان والبلاغة والمعرفة بالشعر ، وأن هذا القرآن لا يشبه الشعر ، فما قولهم ذلك إلا بهتان[٢].

---

(١) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٨ ، ص ٤٤٤٣ – ٤٤٤٤ ، (رقم :٣٨٦١) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٨ ، ص ٩٢ –٩٣ ، (رقم :٢٤٧٣) ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ٥٧- ٥٨ .
(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية

كان لعرض فرية الشعر في القرآن عدة طرق ، هي :

أولا : تقديم الدافع – أي السبب – ، ثم التهمة ، ثم الرد القرآني . وهذا خاص بمقطع الصافات ، فقوله تعالى: ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ هو الدافع ، أي الاستكبار عن عقيدة التوحيد ، وقوله : ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ هذه التهمة ، وقوله : ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ هو الرد . وإيراد هذه الآيات بهذا الترتيب بعد آيات العذاب قبلها في سورة الصافات ؛ لبيان ما استحقوا به ذلك العذاب من جرائمهم المتتالية والمتصاعدة ، فهم قابلوا دعوة التوحيد بالتكبر والدفع ، ثم زادوا بالطعن في الداعي إليها ﷺ بالشعر المنزّه عنه ، وبالجنون الطاعن في عقله .

ثانيا : تقديم التهمة ، ثم الدافع ، وطريقة الإيراد تغني عن الرد . وهذا خاص بمقطع الطور ، فقولهم : ﴿ شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ هذه التهمة ، ثم قوله تعالى : ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ هذا الدافع ، أي الطغيان . وطريقة الإيراد المتضمنة إظهار التحدي بقوله : ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ ، والتوبيخ مع التهكم بقوله : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ تغني عن الردّ .

ثالثا : إيراد التهمة ، وطريقة الإيراد تغني عن الرد . وهذا خاص بمقطع الأنبياء من قولهم : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ﴾ ، فاضطرابهم دليل على بطلان اتهامهم .

رابعا : الرد القرآني دون إيراد التهمة . وورد هذا في مقاطع الشعراء و يس والحاقة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الثالث : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن

لقد كان أسلوب كفار مكة متباينا في إلقائهم فرية الشعر تبعا لاختلاف المرحلة التي يمرون فيها ، فمن أسلوب الواثق من نفسه وما يقوله في النبي ﷺ في المرحلة الأولى ، الظاهر من قولهم في مقطع الصافات : ﴿ أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ ، حيث استعملوا الاستفهام الإنكاري الدال على تأكدهم مما يقولون ، وجمعوا بين المتناقضين من الشعر المستلزم للذكاء ودقة الفهم ، والجنون المعاكس له غير عابئين بذلك ، إلى أسلوب المضطرب القلق الذي لا يستقر على شيء في المرحلة الثانية ، كما في مقطع الأنبياء : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ﴾ ، وذلك بعد أن أضعفتهم ردود القرآن القاصمة لأقوالهم واتهاماتهم . ثم إلى أسلوب العاجز المغلوب على أمره في المرحلة الثالثة ، الظاهر من قولهم في مقطع الطور :﴿ شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ ، فآثروا تركه وشأنه على مجادلته ، ممنّين أنفسهم بهلاكه بصروف الزمان وتقلباته . ويُستأنس على هذه المرحلية في أسلوب الإلقاء بترتيب نزول السور الثلاث ، فسورة الصافات هي السابقة ثم الأنبياء ثم الطور(١) .

المطلب الرابع : الرد على الفرية

---

(١) ينظر : الزركشي ، **البرهان** ، ج١ ، ص ٢٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أورد القرآن عدة ردود على فرية الشعر ، يمكن إجمالها في النقاط الآتية :

أولا : اختلاف حاله ﷺ وحال أتباعه عن حال الشعراء وأتباعهم ، من حيث سلوكه ﷺ وأتباعه طريق الاستقامة والصدق قولا وفعلا ، وسلوك الآخرين من الشعراء وأتباعهم طريق الغواية والكذب ، قال تعالى في الشعراء : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ۞ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ۞ وأنهم يقولون مالا يفعلون﴾ . وقال في الحاقة عن القرآن : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ .

ثانيا : اختلاف القرآن في لفظه ومعانيه اختلافا كليا عن الشعر ؛ فالشعر له أوزان وقوافٍ بخلاف القرآن ، والنظم غير النظم ، وللشعر أغراض كالغزل والهجاء والمديح وغيرها ، وطرق في التعبير كالمبالغة المغرقة ، والشاعر يدعي أحوالا لنفسه في غرام أو شجاعة أو سير ليس هو منها في شيء ، كما أن الشعر مبني على خيالات وأوهام واهية فهو مقر الأكاذيب ، فأين هو من القرآن منبع الصدق ، المشحون بفنون الحكم وبالعقائد والشرائع الباهرة الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ؟![١] . وهذا يستفاد من قوله تعالى في يس :﴿ وما علمناه الشعر ﴾ . قال الزمخشري : " وأين هو عن الشعر ، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن وأين التقفية وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء عن معانيه ؟! ، وأين نظم كلامهم عن نظمه وأساليبه ؟! ، فإذاً لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت ، اللهم إلا أن هذا لفظه عربي كما أن ذاك كذلك"[٢].

ثالثا : انعدام ملكة الشعر لدى النبي ﷺ ، فما كان يتزن له بيت شعر ، وإن تمثل ببيت شعر جرى على لسانه مكسرا[٣] ؛ لأن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ، ولأنه يستدعي الكذب أو يحاكيه ، فنزه الله نبيه عن ذلك . ولكون الشعر له أغراض وأفانين كالغزل وشعر الخمر والهجاء ، فلو كان ﷺ يقول الشعر ولم يأت بتلك الأغراض في شعره لعدّ ذلك نقصانا في ملكته ، فكان الأولى أن يُحفظ مقامه الشريف عن ذلك . ومما يثبت انعدام ملكة الشعر لديه ﷺ أنه قد مضى عليه سن الصبا والشباب جميعا ولم يقل بيت شعر ، مع ما يَرى فيه من المفاخرة والمكاثرة بين بني قومه وغيرهم من العرب ، وقد وصل ببلوغه الأربعين إلى السن الذي لا يحدث للإنسان فيه غريزة لم تكن أيام شبابه[١] ، قال الآلوسي : " وليس من

---

(١) ينظر : أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٥ ، ص ٣١٠ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٣ ، ص ٦٤ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٣١٥ .
(٢) الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٨٩٩ .
(٣) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٣١٥ .

(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٢٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بني عبد المطلب – كما قيل – رجالا ولا نساء من لم يقل الشعر ، حاشا النبي ﷺ ؛ ليكون ذلك أبلغ في أمره عليه الصلاة والسلام "[٢] . كما أنه ﷺ لو قال الشعر لتطرقت إليه التهمة عند كثير من الناس في أن ما جاء به هو من قبل نفسه أو من تلك القوة الشعرية التي لديه[٣] ؛ ولذا قال الله تعالى في مقطع يس : ﴿ وما ينبغي له ﴾ ، أي لا يصح ولا يتأتى له ذلك .

رابعا : أنه ﷺ جاء بالحق المؤيد بالأدلة الثابتة الصحيحة ، بخلاف الشعر المشتمل على الأباطيل والأكاذيب والمبالغات ؛ ولذا قال تعالى عنه ﷺ في الصافات : ﴿ بل جاء بالحق ﴾ .

خامسا : أنه ﷺ جاء بما يوافق دعوة الرسل السابقين قبله ، ولم يشذ عنهم ، فقال تعالى عنه في الصافات : ﴿ وصدق المرسلين ﴾ .

سادسا : أن القرآن مع إعجازه في فصاحته و بلاغته هو ذكر مبين يفهمه الذكي والغبي والحديد والبليد ، بخلاف الشعر الذي لا يفهمه إلا الأذكياء[٤] . يدل على هذا قوله تعالى في يس : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ .

سابعا : إن اضطراب المشركين في وصفه ﷺ ووصف القرآن كما في سورة الأنبياء : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ ، وكما يشير إليه مقطع الطور من رميهم له ﷺ بالجنون والكهانة إلى جانب الشعر هو دليل على بطلان أوصافهم من الشعر وغيره ؛ لأنه مناقض لمنطق العقول ؛ ولذا قال تعالى موبخا لهم في الطور :﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ ، أي بهذا التناقض في المقال ؛ فإن الكاهن والشاعر يكونان ذوي عقل تام وفطنة وقادة ، والمجنون مغطى على عقله ، مختل فكره . وهذا يعرب عن أن القوم لتحيرهم وعصبيتم وقعوا في حيص بيص ، حتى اضطربت عقولهم وتناقضت أقوالهم وكذّبوا أنفسهم من حيث لا يشعرون[٥].

المطلب الخامس : أسلوب القرآن في ردّ الفرية

(٢) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٩ ، ص ١٩٩ .
(٣) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٣ ، ص ٦٤. وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ٦٣ – ٦٤ .
(٤) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٢٨٠ .
(٥) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٧ ، ص ٥٣ – ٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الرّغم من قلة المقاطع القرآنية المتصلة بفرية الشعر نسبيا بالمقارنة مع غيرها من الفرى ، إلا أنها اشتملت على أساليب عدة في رد الفرية ، وصلت – بحسب ما توصّلت إليه – إلى عشرة أساليب ، هي :

أولا : التوكيد . واستعمل له عدة طرق ، ففي الحاقة أكّد تعالى بالقسم فقال : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون ۞ وما لا تبصرون ﴾ ، وبـــ(إنّ) التوكيدية واللام المزحلقة بعدها في قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ، وبالباء الواقعة في خبر (ما) المشبهة بـــ(ليس) تأكيدا للنفي في قوله : ﴿ وما هو بقول شاعر﴾ ، وبـــ(ما) التي للتأكيد في قوله : ﴿ قليلا ما تؤمنون ﴾ ، وبالجملة الاسمية في قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ، وقوله : ﴿ وما هو بقول شاعر﴾ ، وقوله : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ . وفي يس أكّد بالجملة الاسمية وبالقصر فقال : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، فقصر الوحي على كونه ذكرا وقرآنا قصرَ قلب ، أي ليس بشعر كما زعموا[١] . وفي الشعراء أكّد بالجملة الاسمية وبالقصر المستفاد من تقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ ، أي لا يتبعهم إلا الغاوون ، لا الصالحون كأصحاب محمد ﷺ ، فهو إذن قصر إضافيّ[٢] . كما أكّد بـــ(أنّ) التوكيدية في قوله : ﴿ أنّهم في كل واد يهيمون ۞ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ . وفي الطور أكّد بـــ(إنّ) وبالجملة الاسمية في قوله : ﴿ فإنّي معكم من المتربصين ﴾ ، وبالجملة الاسمية في قوله : ﴿ هم قوم طاغون ﴾ .

ثانيا : النفي . جاء هذا في مقطع يس في قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ ، وفي مقطع الحاقة في قوله : ﴿ وما هو بقول شاعر﴾ .

ثالثا : الإضراب الإبطالي . وورد في مقطعين ، ففي الأنبياء أظهر تعالى اضطراب القوم وتحيّرهم وترددهم في وصفه ﷺ ووصف القرآن فقال :﴿ قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾، فكلما أوردوا وصفا أضربوا عنه بـــ(بل) الإضرابية الإبطالية. وتركوا الإضراب عن وصف الشعر كونه أضعف الأوصاف شأنا وأوضحها بطلانا ، فلم يحتج إلى إضراب عنه[٣]. وفي الصافات أضرب عن فريتهم مبطلا لها بقوله : ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾[٤].

رابعا : الإضراب الانتقالي . وورد كذلك في مقطعين هما : الأنبياء والطور . ففي الأنبياء أضرب تعالى عن وصفهم القرآن بأنه سحر منتقلا إلى ما هو أعجب منه ، وهو وقوعهم في

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ٦٥ .
(٢) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٧٧٣ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .
(٣) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص٦٧ .
(٤) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ١٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاضطراب والتناقض في وصفه ، فقال : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ ، فــ(بل) الأولى من كلامه -عز وجل- وهي للإضراب الانتقالي ، وأما الثانية والثالثة فمن كلامهم ، وهما إبطاليتان – كما مر–[١] . وفي الطور أضرب عن مقالتهم المردودة بقوله : ﴿ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ منتقلا إلى ذكر ما هو أعجب منها فقال : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ ؛ فإنهم أهل العلم بالشعر وضروبه ، ولا يخفى عليهم بعده الشاسع عن القرآن . ثم أضرب عنه منتقلا إلى التعجيب من حالهم حين سمحوا لتلك الأوصاف المتناقضة معلومة البطلان بالاستقرار في أذهانهم وهم يدعون أنهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس ، فقال : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾[٢] . ثم أضرب عن ذلك منتقلا إلى التقرير بكونهم ما بهم إلا الطغيان والعناد ؛ ولذا صدر منهم ما صدر . قال الشوكاني : " وهذه الإضرابات من شيء إلى شيء مع الاستفهام كما هو مدلول (أم) المنقطعة ، تدل على أن ما تعقبها أشنع مما تقدّمها ، وأكثر جرأة وعنادا "[٣] .

خامسا : الاستفهام الإنكاري التوبيخي . جاء هذا في مقطع الطور في قوله تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ ، وقوله : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ ، فالاستفهام المقدر بعد (أم) المنقطعة في الجملة الأولى هو لإنكار ما قالوه وتوبيخهم عليه ، وأما في الثانية فهو لإنكار وقوعه من أصله ؛ لأن أحلامهم لا تأمرهم به ولا بغيره من المقالات الباطلة المتناقضة ، مع توبيخهم عليه أيضا[٤] .

سادسا : الاستفهام التقريري . وجاء في مقطعي الشعراء والطور . ففي الأول قال تعالى عن الشعراء : ﴿ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ۞ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ ، قال ابن عاشور : " والاستفهام تقريري ، وأُجريَ التقرير على نفي الرؤية لإظهار أن الإقرار لا محيد عنه "[٥] ، وذلك استشهادا على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقريرا له[٦] . وفي الطــور جاء الاستفهام التقريري – كما مر– في قوله تعالى : ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ .

سابعا : الأمر للتهكّم مع التهديد والوعيد . وهو في قوله تعالى في مقطع الطور : ﴿ قل تربصوا﴾[١] .

---

(١) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٧ ، ص ١٥ .
(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٦٣ .
(٣) الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦٨٩ .
(٤) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ٣١٣ – ٣١٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٦٠ ،٦٣ .
(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ٢٠٩ .
(٦) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٩ ، ص ١٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثامنا : التعريض . وهو في قوله تعالى في الطور : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ ، ففيه تعريض بأنهم أضاعوا أحلامهم حين قالوا مقالتهم وتناقضوا في وصفهم ؛ لأن الأحلام لا تأمر بمثل ذلك ، فهم كمن لا أحلام لهم[٢] .

تاسعا : الكناية[٣] . ووردت في قوله تعالى في مقطع يس : ﴿ وما علمناه الشعر﴾ ، والمراد من نفي تعليمه تعالى نبيه ﷺ الشعر نفيُ أن يكون القرآن شعرا على سبيل الكناية ؛ لأن ما علمه الله إياه هو القرآن ، وإذا لم يكن المعلَّم شعرا لم يكن القرآن شعرا بطريق اللزوم . فتقدير المعنى إذن : نحن علمناه القرآن وما علمناه الشعر . أما القرينة الدالة على أن هذا هو المعنى المقصود فهو قوله تعالى عقبه : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ ، أي ليس الذي علمناه إياه إلا ذكرا وقرآنا وما هو بشعر[٤] . كما عُبّر بالكناية في مقطع الشعراء في قوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ ، فقد كنّى تعالى باتباع الغاوين للشعراء عن كون الشعراء أنفسهم غاوين[٥] بطريق اللزوم ، قاصدا من ذلك تبرئة النبي ﷺ من أن يكون من صنف الشعراء ، بدليل صلاح أتباعه مخالفا بذلك حال الشعراء .

عاشرا : التمثيل[٦] . وجاء في مقطع الشعراء في قوله تعالى واصفا حال الشعراء : ﴿ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ ، فشبّه جولانهم في أفانين القول مدحا وذما مع قلة المبالاة بالغلو في ذلك ومجاوزة حدّ القصد فيه ، حتى أنهم يفضلون أجبن الناس على عنتره ، وأشحهم على حاتم ، ويبهتون البريء ، ويفسّقون التقيّ ، ويزوّرون الحقائق ، بحال الإبل الراعية في الأودية متحيّرة ، تبحث عن الماء والكلأ في أي مكان دون مقصد محدد[٧] . ووجه الشبه هو حرص الطرفين على أمر – هو الماء والكلأ عند الإبل ، والرغبة في اختلاب النفوس عند الشعراء – يجرهم إلى سلوك طرق متعددة دون استقرار على شيء . والله أعلم .

المطلب السادس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردّها

---

(١) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٧٧٤ ، وأبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٩ ، ص ٥٧٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٧ ، ص٥٣ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ٣١٣ .
(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٦٤ .
(٣) "وهي أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي" . د. فضل حسن عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم البيان والبديع** ، ط٢ ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ١٩٩٦ م ، ص ٢٤٣ .
(٤) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٢٣ ، ص ٦٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ٥٦ – ٥٧ .
(٥) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ٢١٠ .
(٦) هو نوع من أنواع التشبيه يكون وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد ، أي من عدة عناصر مكونة لهذه الصورة . ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم البيان** ، ص ٦٤ .
(٧) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٧٧٣ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٤٠٠ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٥ ، ص ٤٢٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ٢٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جريا على طريق الانتقاء الذي سلكته في المبحث السابق فقد وقع اختياري هنا على مقطع الصافات ؛ لاشتماله على عناصر الفرية الثلاث من الدافع والتهمة والرد ، مع توسطه في الطول .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾(الصافات : ٣٥ – ٣٧)

التحليل البياني للنص :

جملة (إنهم كانوا...) جاءت عقب ما سبقها في سورة الصافات من ذكر ما يصيب المشركين في الآخرة من العذاب ، مع وصفهم بالإجرام ، مما يثير سؤالا عن سبب ذلك وعلته . فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا يفيد تعليل جزائهم وبيان إجرامهم بذكر ما كانوا عليه من التكبر عن الاعتراف بوحدانية الله تعالى ، والطعن في شخص الرسول ﷺ بوصفه بالشعر والجنون بقصد التكذيب بما جاءهم به . فحرف (إنّ) هنا ليس للتوكيد ؛ لأن كونهم كذلك لا منازع فيه ، إنما هو للاهتمام بالخبر ، فهي تفيد التعليل والربط[١] . وذكر فعل الكون (كانوا) يدل على أن ما تضمنه الخبر من وصفهم بالاستكبار متمكّن منهم ، لا يحيدون عنه[٢] . و(إذا) الشرطية تفيد تحقق دعوتهم إلى التوحيد ، لبيان أن عذابهم كان بعد قيام الحجة عليهم . وعدم التصريح بالقائل بإيراد الفعل (قيل) على البناء للمجهول هو لقصد التعميم ، أي من أيّ قائل كان[٣] ، إشارة إلى أن استكبارهم هو على مضمون الدعوة بقطع النظر عن شخص الداعي إليها . واللام في (لهم) للتبليغ ، وفيها معنى الاختصاص[٤] ، وتفيد أن الدعوة قد وجهت إليهم وخوطبوا بها ، مما يجعلها محتاجة إلى جوابهم ، وهذا يدل على أن الحجة قد قامت عليهم .

ومعنى (قيل لهم لا إله إلا الله) أي قيل لهم قولوا ... . وعدم التصريح بالفعل المقدر حتى لا يُتوهم أن استكبارهم كان على الأمر الموجه إليهم بصرف النظر عن مضمونه ، فحذفه لبيان أنهم تكبروا على التوحيد خاصة . و(لا إله إلا الله) قصر حقيقي لصفة الألوهية على الموصوف وهو الله تعالى ، فلا معبود بحق إلا هو سبحانه . وقدم النفي على الإثبات لأن التحلية لا تكون إلا بعد التخلية[١] . والاستكبار هو شدة الكبر ، فالسين والتاء للمبالغة ، أو

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ،ج ٢٣ ، ص ١٠٧ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٣ ، ص ١٠٧ .
(٣) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٣٠٨ .
(٤) ينظر : المرادي ، **الجنى الداني** ، ص ٩٩ و ١٠٩ .
(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للطلب بمعنى إظهار التكبر ، أي يبدو عليهم التكبر والاشمئزاز من دعوة التوحيد(٢) . والتعبير عنه بصيغة الفعل المضارع (يستكبرون) للدلالة على التجدد والحدوث ، أي كلما دعوا إلى التوحيد استكبروا . وفي هذا زيادة في بيان إجرامهم تعليلا لما ذكر من عذابهم .

والواو في (ويقولون) عاطفة ، تدل على مقارنة ما قالوه من طعن في شخص النبي ﷺ لاستكبارهم(٣) . وكون هذا القول موجها لبعضهم دون من دعاهم ، يشير إلى احتقارهم وتجاهلهم له وازدرائهم لقوله . وأتوا بالنفي على وجه الاستفهام الإنكاري لإظهار أن ما يدعون إليه من التوحيد أمر منكر بالنسبة إليهم لا يُطمع في قبولهم إياه . وجعلوا حرف الإنكار – وهو همزة الاستفهام– مسلطا على الجملة المؤكَّدة بإنّ واللام المزحلقة (إنّا لتاركو) للدلالة على أنهم إذا أتوا ما أنكروه فقد تحقق تركهم آلهتهم ، تنزيلا لبعض المخاطبين منزلة من يشك في أن الإيمان بالتوحيد يفضي إلى ترك الآلهة ؛ سدّا لمنافذ التردد أن يتطرق منها إلى خواطرهم(٤) . ومقصودهم من ترك الآلهة أي عبادتها ، وعدم تصريحهم بذلك لأن أصنامهم معدومة الفائدة لكونها حجارة ، فإن تركت من العبادة فقد تركت بالكلية . واللام في (لشاعر) لام العلة والأجْل ، أي لأجل قول شاعر(٥) ؛ تعليلا للإنكار ، أي أنترك ديننا لمجرد سماعنا أحد الشعراء يهجوه ؟! ، فكيف إذا كان هذا الشاعر مجنونا مغطى على عقله ؟! . ووصفهم له ﷺ بأنه شاعر لأنهم رأوه يتلو عليهم كلاما يخيل إليهم بعض المعاني التي لا حقيقة لها في تصورهم ، فيجذب بها العقول والقلوب لسماعه كما يجذبها كلام الشعراء . ووصفوه بالجنون لأنه معتقد صدق وحقيقة ما يقوله من تلك المعاني المنكرة لديهم ، على رأسها التوحيد .

و جملة (بل جاء...) معترضة ، قصد منها المبادرة بتنزيه النبي ﷺ عما قالوه فيه(٦) . و(بل) حرف إضراب ، غرضه إبطال قولهم: (شاعر مجنون)(٧) "ببيان أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام من التوحيد هو الحق الثابت الذي قام عليه البرهان"(٨)؛ لأنه قد ثبت بالعقل أن الله تعالى منزه عن الضد والند والشريك ، وبتقريره ﷺ هذا المعنى كان مجيئه بالدين الحق(٩). والباء في (بالحق) للمصاحبة والملابسة ، أي مع الحق أو ملتبسا به . و(ال) فيه للعهد الكنائي إشارة إلى التوحيد المتقدم ذكره .

---

(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ،ج ٢٣ ، ص ١٠٧ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٣ ، ص ١٠٧ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٣ ، ص ١٠٧ – ١٠٨ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٣ ، ص ١٠٨ .
(٦) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٣ ، ص ١٠٨ .
(٧) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٣ ، ص ١٠٨ .
(٨) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٣ ، ص ١١٤ .
(٩) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٦ ، ص٣٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتابع القرآن إبطال مقالتهم بتذكيرهم بأنه ﷺ ما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله وأجمعوا عليه ، وهم المُتقرَّر صدقهم ، المشتهر اتباع الناس لهم ، فكان الإنصاف أن يلحقوه بالفريق الذي شابههم دون فريق الشعراء والمجانين(١) . قال ابن عاشور : " فالمعنى : أن ما دعاكم إليه من التوحيد قد دعت إليه الرسل من قبله . وهذا احتجاج بالنقل عقب الاحتجاج بأدلة النظر "(٢) . والتعبير بفعل التصديق دون غيره كالموافقة ونحوها هو لمدحه ﷺ والثناء عليه في مقابلة ما وصموه به من الشعر والجنون ، فهو قد صدّق المرسلين ولم يكذبهم ، ودعا إلى ما دعوا إليه . وفيه تعريض بكفار مكة ببيان فضله ﷺ عليهم بكونه قد صدّق ، لكن هم قد كذّبوا . والتعبير بـ(المرسلين) جمع مُرسَل دون رُسُل جمع رسول ؛ لكون (مرسل) أدل على التكليف بالرسالة من رسول ، فالمرسل هو الذي وقع عليه أمر الإرسال ، فهم مكلفون بتبليغ الرسالة لا مختارين ، فلا يصح الاعتراض عليه ﷺ لكونه واحدا منهم . كما أنه أيضا موافقة للفاصلة القرآنية . و (ال) فيه لاستغراق الجنس ، أي كل المرسلين . والله أعلم .

المطلب السابع : شبهة ورد

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ١٠٨ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٣٠٩ .
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ١٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توجّه بعض الملاحدة قديما إلى الطعن في القرآن وفي النبي ﷺ ، بناء على مـــا أثبتـــه القرآن من تنزهه نفسه عن الشعر ، و نفيه ذلك عن شخص النبي ﷺ بقوله في مقطع يـــس : ﴿ وما علمناه الشعر ، وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ .

فأما طعنهم في القرآن فقالوا : إن فيه ما هو على أوزان الشعر وبحوره ، وهذا مناقض لقوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر﴾ . واستدلوا على هذا ببعض المقاطع القرآنية ، منها علـــى سبيل المثال قوله تعالى على لسان المسيح عليه السلام :﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ﴾ ، فقالوا : إن هذا من بحر المتقارب ، ووزنه : فعولن فعـــولن فعولن فعولن[١] . ورد عليه أهل العلم بأن هذا يكون إذا وُقِف على كلمة (كل) ، وعليه لم يتم الكلام ، وإذا تم بقوله (شيء شهيد) خرج عن وزن الشعر ، وزاد فيه ما يصير بـــه عـــشرة أجزاء من (فعولن) ، وليس في بحور الشعر ما يصل إلى هذا الحد ، إنمـــا أكثـــره ثمانيـــة . وهكذا معظم ما استدلوا به منقوض لا يقوم على أساس ؛ لأنه إما على تقدير زيادة حرف في الآية ، أو إشباع حركة ، أو تحريك ساكن ، أو بحذف حرف أو أكثر ، وهذا فيه تغيير لـــنظم القرآن فليس بقرآن ، ومتى قرئ على حاله لم يكن على وزن الشعر . أو يكون بعـــدم تمـــام الكلام ، أو تكون الآية على وزن بعض بيت لا بيت كامل[٢] ، " وقد وقع الكثير من ذلك فـــي القرآن العظيم لكن غالبها أشطار أبيات ، والقليل منها وقع وزن بيت تام"[٣] . وقد أورد الإمام الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن بعض الردود التي تنقض مقالتهم ، أذكرها بإيجاز :

أولا : أن كفار مكة من قريش كانوا من الفصاحة والبلاغة ومعرفة الشعر وضروبه بمكان لا ينكره أحد ، وقد تحداهم القرآن بأن يعارضوه ، فلو كانوا يعتقدونـــه شـــعرا لبـــادروا إلـــى معارضته ؛ لأن الشعر كان مسخرا لهم ، سهلا عليهم .

ثانيا : ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الإسلام إلى أن البيت الواحد وما كـــان علـــى وزنه لا يكون شعرا ، فأقله بيتان فصاعدا . وما كان على وزن بيتين مع اختلاف القافية فليس بشعر ، وما كان قليل الأجزاء كالرجز – على قول بعضهم– ليس من الشعر أيضا .

ثالثا : أن الشعر لا يسمى شعرا إلا حال كونه مقصودا إليه ، أما ما كان من غير قصد علـــى سبيل الاتفاق فليس بشعر ، ولا يعد صاحبه شاعرا ، وإلا لكان الناس كلهم شعراء ؛ لأن كـــل

---

(١) ينظر : السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي ، (ت: ٦٢٦ هجرية) . **مفتاح العلوم** ، ١م ، ط١ ، (تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠ م ، ص ٧٢٥ .

(٢) ينظر : ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله ، (ت: ٥٤٣ هجرية) . **أحكام القرآن** ، ٤م ، (تحقيق : علي محمد البجاوي) ، دار المعرفة و دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ج٤ ، ص ١٦١٠ – ١٦١٣ .

(٣) ابن حجر ، **فتح الباري** ، ج١٢ ، ص ٧٣٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متكلم لا بد وأن يعرض في كلامه ما قد يتزن بوزن الشعر ، كقول القائل : أغلق الباب وائتني بالطعام ، وهكذا .

رابعا : إن قيل : إن في القرآن كلاما موزونا كوزن الشعر وإن كان غير مقفى ، وهذا من أقسام كلام العرب ، فالجواب أن الموزون هو ما يتساوى أجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات ، والقرآن ليس كذلك ، مع تمام فائدته بخروجه عن الوزن ، أما الكلام الموزون ففائدته تتم بوزنه(١) . ثم إن ما وافق الوزن في القرآن مما ذكره بعض العلماء(٢) لا يوجد إلا في أماكن نادرة بالنسبة إلى مجموع القرآن ، ومن المقطوع به أن ذلك لا يرضى به شاعر ، وهو أن ينصب نفسه منصب النظم والارتهان بعهدة الوزن ، ثم يأتي بكلام أكثره غير موزون ، فيُعلم قطعا أن الذي وافق الوزن فيه غير مقصود ، فليس بشعر(٢) . قال السكاكي ردا على الطاعنين : " أليس يصح بحكم التغليب أن لا يلتفت إلى ما أوردتموه لقلته ؟ ، ويجري لذلك القرآن مجرى الخالي من الشعر "(٣) .

وأما طعنهم في شخص النبي ﷺ ، فقد قالوا : إن لم يكن في كتاب الله شعر ، فهو في كلام الذي نُفيت عنه معرفة الشعر ﷺ . ومما استدلوا به قوله ﷺ يوم حنين : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب(٤) . والرد عليه أنه وقع منه من غير قصد فلا يسمى شعرا(٥) . ومنه قوله ﷺ : "هل أنت إلا أصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت "(٦) . والرد على هذا إما أن يكون قاله ﷺ من غير قصد كالأول ، أو أنه قاله متمثلا بما روي أنه لعبد الله بن رواحة ﷺ ، قاله في غزوة مؤتة(٧) .

ولا أريد الإطالة بذكر ما استدلوا به ، لكنني أكرر ما أوردته سابقا من أن ما جرى على اللسان من دون قصد لا يعد شعرا ، وإلا لكان كثير من كلام الناس من الشعر ، فما ورد عن النبي ﷺ مما يشبه الشعر ، قال عنه الزمخشري : " ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة ولا تكلف ، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ، ولا التفات منه إليه إن جاء موزونا ، كما يتفق من كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعرا ، ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع

---

(١) ينظر : الباقلاني ، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب ،(ت:٤٠٣هجرية) . **إعجاز القرآن** ، ط١ ، دار الأمين ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص ٧٢ - ٧٣ .
(٢) ينظر : ابن حجر ، **فتح الباري** ، ج ١٢ ، ص ٧٣٣٣ .
(٢) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ١٣٨ .
(٣) السكاكي ، **مفتاح العلوم**، ص ٧٢٦ .
(٤) البخاري ،**فتح الباري** ، ج٦ ، ص ٥٣٠ ، (رقم : ٢٨٦٤) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٦، ص ٣٨١(رقم:١٧٧٦) .
(٥) ينظر : ابن حجر ، **فتح الباري** ، ج٨ ، ص ٤٩١٣ .
(٦) البخاري ، **فتح الباري** ، ج٦ ، ص ٣٤٦٩ ،(رقم: ٢٨٠٢)، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي**،ج٦، ص ٤١١، (رقم :١٧٩٦).
(٧) ينظر : ابن حجر ، **فتح الباري** ، ج١٢ ، ص ٧٣٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنها شعر"[١] . وقال ابن عطية : " وإصابته للوزن أحيانا لا توجب أنه تعلم الشعر"[٢] . ثم إن ما قاله ﷺ من ذلك فمعظمه إنما قاله متمثلا ناشدا شعر غيره لا من قبل نفسه ، وهذا جائز لا يعارض القرآن . قال الجصاص : " فإن من أنشد شعرا لغيره أو قال بيتا أو بيتين لم يُسمّ شاعرا ولا يطلق عليه أنه قد علم الشعر أو تعلمه ، ألا ترى أن من لا يحسن الرمي قد يصيب في بعض الأوقات برميته ، ولا يستحق بذلك أن يسمى راميا ولا أنه تعلم الرمي"[٣] .

وما روي عن النبي ﷺ من الأبيات التي كان يتمثل بها لبعض الشعراء ، فإنه كان غالبا يكسرها[٤] . وقد أورد العلماء عددا من الأمثلة على ذلك ، أُضرب عن ذكرها اختصارا ، ولأن معظمها لا يصح سنده[٥] . وأقول : إن ضبطه ﷺ أحيانا لوزن الشعر وكسره له معظم الأحيان أقوى في إثبات أنه ليس بشاعر ؛ لأنه لو كان يكسره دائما لأمكن أن يقال : إنه متعمد لذلك ، أما كونه يضبطه مرة ويكسره مرات فهذا دليل على أنه لا يتقن صنعة الشعر ، حتى يصير الإتقان على الدوام أو على الأكثر والأغلب .

ومثال ما روي عنه ﷺ مما ضبطه من ذلك – وهو قليل جدا – ما روي في الصحيحين من حديث البراء بن عازب قال : " لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله ﷺ ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الترابُ جلدة بطنه – وكان كثير الشَعْر – ، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا / فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا . قال : ثم يمد صوته بآخرها "[٦] . وابن رواحة هو عبد الله بن رواحة الصحابي المشهور ، وكان من شعراء الصحابة ﷺ .

المبحث الثالث : فرية الكهانة

تمهيد :

---

(١) الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٨٩٩.

(٢) ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٥٦٩ .

(٣) الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي الرازي ، (ت: ٣٧٠ هجرية) . **أحكام القرآن** ، ٣م ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٩٩٤م ، ج٣ ، ص ٤٩٤ .

(٤) كتمثله ﷺ يوما ببيت طرفة بن العبد : ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود . (طرفة بن العبد ، من شعراء الجاهلية ، **ديوان طرفة بن العبد** ، دار صادر و دار بيروت ، بيروت ، ١٩٦١ م ، ص ٤١ ، رقم ١٠٥) . فكان يقوله ﷺ : ويأتيك من لم تزوده بالأخبار . " فقال له أبو بكر رضي الله عنه : ليس هكذا يا رسول الله . فقال : إني لست بشاعر ، ولا ينبغي لي" . ينظر : الطبري : **جامع البيان** ، ج٢٣ ، ص ٣٥ ، وابن أبي حاتم ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ١٠ ، ص ٣٢٠٠ ، رواه عن قتادة معلقا ، والصنعاني ، عبد الرزاق بن همام ، (ت: ٢١١ هجرية) . **تفسير القرآن** ، ٢م ، ط١ ، (تحقيق : د. مصطفى مسلم محمد) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٩٨٩ م، ج٢ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ،

(٥) ينظر : هامش التعليقات على تفسير ابن الجوزي ، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد ، (ت: ٥٩٧ هجرية) . **زاد المسير في علم التفسير** ، ١م ، ط١ ، المكتب الإسلامي ودار ابن حزم ، بيروت ، ٢٠٠٢ م، ص ١١٧٨.

(٦) البخاري ، **فتح الباري** ، ج٨ ، ص ٤٧٢٥، (رقم: ٤١٠٦) . و رواه مسلم من دون ذكر ابن رواحة مع بعض الاختلافات خاصة في الأبيات ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٦ ، ص ٤٢٤ ، (رقم : ١٨٠٣) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معنى (الكَهانة) لغة :

هي من كَهَن يكْهَنُ ويكْهُنُ كَهانَة ، وتكهَّن تكهُّناً أي : قضى بالغيب . وفاعله كاهِن والجمع كُهّان . والكاهن : الذي يُخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الأسرار . وقد كان في العرب كهنة كشق وسطيح وغيرهما ، وكان الواحد منهم يزعم أن له تابعا من الجنّ ورئيا يلقي إليه الأخبار مما يسترق سمعه من السماء من كلام الملائكة . وكانوا يروجون أقاويلهم الباطلة بأسجاع تروق إلى السامعين ، يستميلون بها القلوب ، ويستصغون إليها الأسماع(١) .

الآيات القرآنية محور الدراسة :

المقطع الأول : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾
(الطور:٢٩– ٣٢)

المعنى الإجمالي :

أي فاثبت ودم يا محمد ﷺ على تذكير قومك بهذا القرآن وما يحمله من وعظ وهداية ووعد ووعيد ، ولا تلتفت إلى ما يقولونه فيك من أباطيل ، فما أنت بما أولاك ربك وأنعم عليك من رجاحة العقل وكمال الخُلُق وكرم الفعال وشرف النبوة بكاهن يدعي علم الغيب بما توحيه الشياطين إليه ، ولا مجنون يخلط في كلامه بما لا يُفهم عنه ولا يُعقل(٢) . وباقي المقطع قد مرّ تفسيره في المبحث السابق فلا داعي لإعادته .

المقطع الثاني : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾
(الحاقة : ٣٨ – ٤٣)

هذا المقطع مر تفسيره في المبحث السابق ، فلا حاجة لتكراره .

المقاطع الثالث والرابع والخامس : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ

---

(١) ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج١٣ ، ص ١٢٨ .
(٢) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦٨٨ – ١٦٨٩ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٥٨ – ٥٩ ، و الجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٥٣٤ – ١٥٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (الشعراء : ١٩٢– ١٩٧) ، ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾(الشعراء : ٢١٠ – ٢١٢) ،﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾(الشعراء : ٢٢١ – ٢٢٣)[١]

المعنى الإجمالي :

أي وإن هذا القرآن لتنزيل الله الخالق المربي جميع العوالم علويها وسفليها – لا غيره – بهدايتها إلى ما يصلحها . أنزله – بأمر الله – من السماء إلى الأرض جبريل عليه السلام ، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم ، الأمين على الوحي أن يزيد فيه أو ينقص . وفي قراءة : ﴿ نزّل به الروحَ الأمينَ ﴾ بتشديد (نزّل) ونصب الروحَ[٢] على المفعولية ، أي نّزل الله تعالى جبريل الأمين عليه السلام بهذا القرآن على قلبك يا محمد ﷺ لتدركه وتعيه وتحفظه ؛ كي تنذر به الناس ، فتكون من جملة رسل الله المنذِرين . نزل هذا القرآن بلغة عربية واضحة الدلالة والمعاني . وإن ذكره لمثبت في كتب الأنبياء والرسل السابقين ، قد بشرت به ، وصدقته بموافقتها لما فيه من أخبار وقصص وعقائد . أولم يكن لكفار قريش علامة دالة على أن القرآن هو كتاب الله ووحيه أن من كانوا يرجعون إليهم ويصدقونهم من علماء بني إسرائيل الذين انتهى إليهم العلم وصاروا أعلم الناس ، وهم أهل الخبرة والدراية في ديانة السماء ، قد علموا ذكره وصفته وما تضمنه مما ورد في كتبهم ؟![٣].

وبعد أن أثبت – تعالى – أن القرآن هو تنزيله ، وأن الذي أنزله على قلب محمد ﷺ هو جبريل الأمين عليه السلام، نفى ما قاله المشركون من أن من تنزّل بهذا القرآن على محمد ﷺ هم الشياطين من قبيل ما يلقونه إلى الكهان من أخبار السماء ، فقال : ليس الذي تنزل بهذا القرآن هم الشياطين – كما يزعم المكذبون – ولا يصلح لهم أصلا ، وما يستطيعونه ؛ لأنهم معزولون عن سماع الملائكة في السماء ، إذ أرصد الله تعالى لهم شهبا حالت بينهم وبين السماع من السماء[١] . ثم زاد في نقضه لما قالوه ، فقال : هل أخبركم – يا كفار قريش – الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة عن حال وصفة الناس الذين تنزل عليهم الشياطين

---

(١) التفريق بين هذه المقاطع مع أنها متصلة في المعنى هو لتطرية ذكر ما فيها ، وتنبيها على تأكيد أمرها ، كأن يحدث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه، فيظل يرجع إلى ذكره . ينظر: الزمخشري ، **الكشاف** ، ص٧٧٣ ، والبقاعي، **نظم الدرر**،ج٥، ص٣٩٩.

(٢) وهي قراءة ابن عامر وشعبة عن عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر . و قرأها الباقون (نزَل) بالتخفيف ورفع (الروحُ) على الفاعلية . ينظر : ابن الجزري ، **تقريب النشر** ، ص ١٥٢ ، ومحمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ٣٧٥ .

(٣) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٢٨٦ – ١٢٨٧ ، والسعدي ، عبد الرحمن بن ناصر ، (ت: ١٣٧٦هـ) . **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** ، ط١ ، ١م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٩م ، ص ٥٤٧ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ١٨٨ – ١٩٢ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٠٦٤ .

(١) ينظر:الشوكاني، **فتح القدير**، ص١٢٨٨، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٥٤٨ ، والجزائري ،**أيسر التفاسير**، ص١٠٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالأخبار ، وهم الكهان ؟ ، إنها تنزل على كل كذاب كثير القول للزور والإفك بالباطل ، كثير الفعل للمعاصي والآثام ، يلقي سمعه وأذنه مصغيا منصتا لما يقرّه شيطانه في أذنه . وأكثر المتصفين بهذه الصفات من الكهنة كاذبون فيما يخبرون به الناس ، فقلّ من يصدق منهم فيما يحكيه عن الشياطين ، فالأغلب على حالهم هو الكذب . هذا هو حال الكهان وما ينزل عليهم ، أما محمد ﷺ فحاله مباينة لهذه الأحوال ، فهو الصادق الأمين ، الجامع بين بر القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال ، والوحي المنزل عليه كله صدق وعدل وحكمة ، فأين حاله ﷺ من حال الكهان[٢] ؟!! .

المقطع السادس: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾(الواقعة: ٧٥– ٨٠)

المعنى الإجمالي :

يقسم الله تعالى بمغارب النجوم أو بمنازلها وأفلاكها في السماء . وفي قراءة (بموقع النجوم)[٣] ، وعليها فالقسم هو بغروب النجوم أو بجهة غروبها . وإن هذا القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم ، لو تعلمون يا كفار مكة أحوال تلك المواقع وما اشتملت عليه من دلائل وآيات وعبر لعرفتم عِظَم هذا القسم . وجواب القسم : إن هذا الكلام الذي يتلوه عليكم رسولنا محمد ﷺ لقرآن يُقرأ ويُتدبر، وهو نفيس رفيع القدر، جم المنافع غزير العلم ، مُثبت في كتاب مستور عن أعين الخلق هو اللوح المحفوظ ، لا يمسه إلا الملائكة الكتبة المطهرون من الآفات والذنوب والعيوب ؛ لانتساخ القرآن في صحفهم . أما الشياطين فلا حيلة ولا قدرة لهم إلى الوصول إلى ذاك اللوح للاستراق منه أو تغييره . وهذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل الخالق المربي لجميع العوالم علويها وسفليها بما يصلح شؤونها وأحوالها ، وعلى رأس ما يُصلحها هذا القرآن[٤] .

المقطع السابع : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾
(عبس : ١٣ – ١٦)

المعنى الإجمالي :

---

(٢) ينظر : الشوكاني، **فتح القدير**، ص١٢٨٩، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن**، ص ٥٤٩، والجزائري، **أيسر التفاسير**، ص١٠٦٨.

(٣) القراءة بالإفراد (بموقع النجوم) هي لحمزة والكسائي وخلف العاشر ، والباقون على قراءة الجمع (بمواقع النجوم) . ينظر : ابن الجزري ، **تقريب النشر** ، ص ١٧٨، محمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ٥٣٦ .

(٤) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٧ ، ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ ، والنسفي ، عبد الله بن أحمد بن محمود ، (ت: ٧١٠ هجرية) .**مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، **المعروف (بتفسير النسفي)** ، ١م ، ط١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠٠٠ م . ص ١٢٠٤ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٧٣٣ ، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٧٧٦، ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٣٣٠ – ٣٣٣ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٥٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي إن هذا القرآن مثبت في صحف مُنتسخة من اللوح المحفوظ ، مكرمة عند الله ، مرفوعة في السماء ، مطهرة منزهة عن مس الشياطين لها ؛ فلا ينالونها بأذى ولا يسترقون منها شيئا . وهذه الصحف بأيدي كتبة من الملائكة ينتسخون القرآن فيها من اللوح المحفوظ . وهم كرام على الله ، كرام عن المعاصي ، كثيرو الخير والبركة ، أتقياء مطيعون لربهم ، بررة قلوبهم وأعمالهم(١) .

المقطع الثامن : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ ﴾(التكوير : ١٥- ٢٨)

المعنى الإجمالي :

يقسم الله تعالى بالنجوم والكواكب التي تختفي نهارا ، وتظهر ليلا فتجري إلى أن تغرب في مغاربها . ويقسم بالليل إذا أدبر وذهب ، وبالنهار إذا أقبل وامتد ضياؤه . وهي أحداث متعاقبة يراها الناظر . وجواب القسم : إن هذا الكلام الذي يتلوه رسولنا محمد ﷺ عليكم – يا كفار مكة – وهو القرآن ، لقول رسولنا الكريم في أخلاقه وخصاله الحميدة جبريل عليه السلام ، أرسلناه به مبلغا إياه منزلا له على قلب نبينا محمد ﷺ ، لا قول شيطان من الجن كما تقولون . وهذا الرسول جبريل ذو قوة وقدرة عظيمة على القيام بما يكلف به من التكاليف والأوامر ، وله مكانة ومنزلة رفيعة عند الذي له الملك والسلطان في الكون ، وهو الله تعالى ذو العرش العظيم . وهو كذلك مطاع في الملأ الأعلى ، نافذ أمره في الملائكة ، مطاع رأيه . وهو أمين على القيام بما أمر به ، لا يزيد ولا ينقص ، ولا يتعدى ما حدّ له .

هذا وصف الرسول الملكي المنزل للقرآن ، أما الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن وهو محمد ﷺ ، فقال تعالى عنه: وما صاحبكم – يا كفار مكة – الذي خالطتموه وصاحبتموه وعرفتم أنه صحيح العقل ، سديد الرأي ، صادق القول ، بمجنون أصابه مس من الجن ، فما يتراءى له أنه ملك هو جني – على حد زعمكم – . كيف ذاك ؟! ، ولقد رأى محمد ﷺ هذا الرسول الملكي جبريل عليه السلام بعينيه على صورته التي خُلق عليها جهة مطلع الشمس

---

(١) ينظر : النسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ١٣٢٢ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٨٩٢ ، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٨٤٢ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٧٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حيث يتجلى كل شيء فيها واضحا بينا، لا مجال فيه للتخيلات والتهيؤات التي تبدو للمجانين . كما أنه ﷺ ليس ببخيل بتبليغ ما غاب عن الناس علمه من الوحي وخبر السماء ، كما يبخل الكهان رغبة في الأجر والحلوان ، بل يعلّمه كما علم ، لا يكتم منه شيئا . وفي قراءة (بظنين) بالظاء [١] ، أي ليس بمتهم بسوء أو كذب فيزيد على ما أوحي إليه أو ينقص منه ، كما يفعل ذلك الكهان الذين يخلطون ما أوحته الشياطين إليهم بأضعاف أضعافه من الأكاذيب . وهذا القرآن الذي يتلوه ﷺ عليكم – يا كفار مكة – ليس بقول شيطان مسترق للسمع ملعون ، مبعد في غاية البعد عن الله وعن قربه ، ويتباعد الناس من شره ، فأي طريق تسلكون في طعنكم في هذا القرآن وتكذيبكم به ؟!! . ما هذا القرآن إلا موعظة لمن شاء الاستقامة على الحق من الإنس والجن ، وتذكير لهم ، يتذكرون به ربهم ، و ما له من صفات كمال ، وما ينزه عنه من النقائص ، ويتذكرون به من الأوامر والنواهي أحكمها وأرشدها ، إلى غير ذلك من مصالح الدارين ؛ لينالوا به السعادتين . فأين هذا من كلام الكهان ووحي الشياطين[٢] ؟!! .

المقطع التاسع : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ (الحجر : ٩)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى مؤكدا في هذه الآية أنه هو المنزّل للقرآن لا غيره ، كما أنه يؤكد أنه حافظ له حال إنزاله وبعده ، ففي حال إنزاله حافظ له من استراق كل شيطان رجيم ، وبعد إنزاله أودعه في قلب رسوله ﷺ واستودعه في قلوب أمته ، فحفظ ألفاظه من التغيير والتبديل والزيادة والنقص ، وحفظ كذلك معانيه بما قيض له من العلماء الذين يبينون الحق وينصرونه ، ويدحضون الباطل ويزهقونه[٣] .

المقطع العاشر : ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨ ﴾(الحجر : ١٦ – ١٨)

المعنى الإجمالي :

---

(١) القراءة بالظاء هي لابن كثير وأبي عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب ، والباقون على قراءة الضاد (بضنين) . ينظر : ابن الجزري ، **تقريب النشر** ، ص ١٨٦ ، ومحمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ٥٨٦ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٣٠ ، ص ٩٣ – ١٠٥ . والنسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ١٣٢٥ – ١٣٢٦ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٨٩٧- ١٨٩٩ ، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٨٤٤- ٨٤٥ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٣٠، ص ١٥٢ – ١٦٥ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٧٣٢ – ١٧٣٣ .

(٣) ينظر: النسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ٥٧٨ ، و السعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص٣٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول الله تعالى مؤكدا أنه خلق وأوجد في السماء الدنيا منازل للشمس والقمر والكواكب السيارة ، بها تعرف الطرقات والأوقات والفصول الأربعة[١] . وأنه زين هذه السماء بالنجوم لتتمتع بالنظر إليها عيون الناظرين في الليل . كما أنه سبحانه حفظ السماء من الشياطين الملعونة أن تسمع شيئا من الوحي وغيره ، إلا في بعض الأوقات حين يسترق مارد من الشياطين خبرا يسمعه من الملائكة لينزل به إلى وليه من كهنة الإنس ، فإنه يتبعه شهاب ظاهر منير فيقضي عليه مبينا أثره فيه حرقا أو تمزيقا أو إفسادا[٢] .

المقطع الحادي عشر: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ ﴾ (الصافات : ٦ – ١٠)

المعنى الإجمالي :

يؤكد الله تعالى أنه وحده قد زين السماء الدنيا القريبة من الأرض بزينة هي الكواكب السماوية التي تلمع في الليل – عدا الشمس والقمر– ، وهي النجوم ، فأعطتها ذاك المنظر البهي الحسن . كما أنه تعالى جعلها حفظا تحفظ السماء من كل شيطان عاد متمرد عن طاعة الله ، وتحول بينهم وبين استراق السمع من الملأ الأعلى من الملائكة سكان السماوات ، فصار حالهم أنهم لا يتسمعون إليهم لينقلوا أخبار الغيب إلى أوليائهم من كهان الأرض ، ويُرمَون – لدحرهم وإبعادهم عن السماء – بالشهب من كل جهة وجانب من جوانب السماء أرادوا استراق السمع منه . ولهم في الآخرة عذاب موجع دائم لا ينقطع . ويستثنى من نفي تسمعهم مَن تمكّن منهم من اختطاف بعض الكلام بسرعة ، فيتبعه ويلحقه شهاب مضيء خارق فيقتله أو يحرقه أو يفسده . وبهذا حُميت السماء من دخول الشياطين إليها واستراق السمع[١] .

---

(١) كانت العرب تعد العلم بهذه المنازل والبروج من أجّل العلوم ، و أسماءها عندهم هي : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت . وسميت بروجا لأنها كالمنازل للشمس والقمر والنجوم السيارة ، يتخيل للناظر أنها تنزل فيها ، وهي مع علوها في السماء وظهورها سميت بالبروج على سبيل الاستعارة ؛ لأن البروج في الحقيقة هي المباني الكبيرة المحكمة البناء التي تظهر من بعيد كالقصور والحصون ، قال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾(النساء : ٧٨) . والبرج الواحد في السماء هو مجموعة من النجوم غير السيارة ، متجمع بعضها قرب بعض على أبعاد بينها لا تتغير فيما يشاهد ، فتكوّن في السماء شكلا واحدا من مجموعة نقط ، لو وصل بينها بخطوط لخرج منها ما يشبه صورة حيوان أو آلة ، فتسمى تلك المجموعة باسمها . فكانوا يستدلون بتنقل الشمس والقمر والنجوم السيارة من برج إلى برج – بحسب ما يرون- على الجهات والشهور والفصول . ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٠ ، ص ٨ ، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٤، ص ٢٨– ٢٩ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ٧٣٧ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٤، ص ١٩- ٢٠ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص٩٢٢، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٣٨٤، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ٧٣٦ – ٧٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع الثاني عشر : ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ ﴾ (الملك : ٥)

المعنى الإجمالي :

يخبر الله تعالى مؤكدا أنه زين السماء الدنيا القريبة من الأرض بمصابيح مضيئة هي النجوم والكواكب ، وجعل شهبها(٢) رجوما تُرجم بها شياطين الجن الذين يريدون استراق السمع من كلام الملائكة في السماء ؛ ليوصلوا ما يتلقفوه من أخبار غيبية إلى أوليائهم من كهان الإنس . وهيّأ الله تعالى لهم عذاب السعير، يعذبون به في الآخرة كسائر الكافرين من الجن والإنس(٣).

المقطع الثالث عشر : ﴿ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩ ﴾ (الجن : ٨ – ٩)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى على لسان بعض الجن يقولون لبعضهم محذرين إياهم من استراق السمع من السماء : وأنا أتينا السماء لاستماع كلام أهلها من الملائكة كما جرت عادتنا ، فوجدناها كثيرة الحرس الأقوياء الأشداء من الملائكة ، يحرسونها من استراق السمع ، كما أنها كثيرة الشهب من الأجسام المتوهجة المشتعلة التي تنطلق منقضة على كل من يحاول

---

(١) ينظر : النسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ٩٩٨ ، ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٤٨٢ - ١٤٨٣ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣، ص ٨٧- ٩٣ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٢٨٥ .

(٢) الشهب عند علماء الفلك هي أجسام صلبة صغيرة الحجم ، عبارة عن قطع من الجليد المختلط مع الغبار بشكل يشبه المركب الصخري ، و يكثر فيها العناصر القابلة للاشتعال كالكبريت والفسفور والصوديوم والبوتاسيوم والمغنيسيوم ، فعند ملامسة بعضها شيئا آخر يتحد معه كالماء أو الأوكسجين أو النار أو قدحة كهربائية فإنها تشتعل . هذه الأجسام تندفع نحو سطح الأرض، وعند دخولها غلافها الجوي تأخذ بالتوهج والاحتراق بسبب حرارتها العالية المتولدة من احتكاكها بالهواء وتفاعل عناصرها مع عناصره أثناء هُويّها السريع البالغة سرعته من ٣٠ – ٤٠ كم / ث ، و يبدو الواحد منها من الأرض كخط مضيء في السماء كأنه سهم ناري . أما مصدر هذه الشهب - على تفسير علماء الفلك- فهو شيئان : الأول : هو المذنبات التي تحطمت في الفضاء، و الشهب هي بقايا حطامها . الثاني : ما يسمّى (بحزام الكويكبات أو النجيمات) الواقع في الفراغ السحيق بين مساري كوكبي المشتري والمريخ ، الذي يعتقد أنه كان يسبح فيه كوكب في القدم ثم تهشم و تفتت محدثا ذاك الحزام ، فمنه ومما يحدث فيه من تصادمات بين الكويكبات تنطلق الشهب والنيازك . وهذا الحزام مؤلف من عدد كبير جدا من الكويكبات المتفاوتة في أحجامها ، فمن حجم الجبل الصغير البالغ عددها (١٠٠) ألف كويكبة ، إلى حجم حبة الجوز المقدر عددها بالملايين . لكن هذا الحزام مجذوب لكوكب المشتري لا لكوكب المريخ ؛ لأن المشتري هو أكبر كواكب المجموعة الشمسية ، فجاذبيته أكثر تأثيرا ، وعليه فإنه باعتبار التبعية مصدر ثالث للشهب والنيازك ، فعندما يشاء الله لتلك الأجسام الصلبة أن تتخلص من جاذبيته فإنها تتخلص منه و تأتي إلى كوكب الأرض . ينظر : أسامة علي الخضر ، **القرآن والكون : من الانفجار العظيم إلى الانسحاق العظيم** . ط١، وزارة الثقافة و السياحة ، اليمن ، ٢٠٠٤م ، ص ٦٧٣ ، و محمد علي حسن الحلي ، **الكون و القرآن في علم الفلك** . ط٣ ، مطبعة أسعد ، بغداد ، ١٩٧٨م ، ص ٩٧ ، و إبراهيم حلمي الغوري ، **العلوم الفلكية في القرآن الكريم** . ط١ ، دار القلم العربي ، حلب ، ٢٠٠٢م ، ص ١٩٣ ، و د. محمد جمال الدين الفندي ، **مع القرآن في الكون** . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، ص١٨٠- ١٨٣ ، و عبد الرحيم مارديني ، **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم** . ط١ ، دار المحبة – دمشق ، و دار آية – بيروت ، ٢٠٠٣م ، ص ٦٠ ، ٦١ ، و د. عدنان الشريف ، **من علم الفلك القرآني : الثوابت العلمية في القرآن الكريم** ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٩٣م ، ص ٦٩ .

(٣) ينظر : النسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص١٢٦٢ ، و الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٨٠٢، والجزائري ، **أيسر التفاسير**، ص ١٦٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استراق السمع . وأنّا كنّا قبل هذا الوقت نجد في السماء مواضع خالية من الحرس والشهب ، نلازمها من أجل الاستماع إلى الملأ الأعلى ، لكننا الآن لا نجد ذلك ، فمن أراد الاستماع منا فإنّ هناك شهابا مُعدّا له ، يُرمى به فيقضي عليه(١) .

سبب النزول :

عن ابن عباس ﷺ قال : " انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه ، عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين ، فقالوا ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث . فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء ، قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة ، وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له ، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا : يا قومنا ، ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ . وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ ﴾ ، وإنما أوحي إليه قول الجن "(٢) .

المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته

---

(١) ينظر : ابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ١٤٧٩ ، والنسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ١٢٨٨ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٨٣٥ ، و ابن عاشور ، **التحرير و التنوير** ، ج ٢٩ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٩ ، و الجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٦٨٧ .
(٢) أخرجه البخاري ، واللفظ له ، **فتح الباري** ، ج ٩ ، ص ٥٧٣٣ ، (رقم : ٤٩٢١) ، وينظر : (رقم : ٧٧٣) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٣ ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ ، (رقم : ٤٤٩) . وينظر : إبراهيم العلي ، **صحيح أسباب النزول** ، ص ٢٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يذكر القرآن خلال حديثه عن فرية الكهانة أيّة أسباب كانت وراء تفوّه المشركين بها ، سواء كان ذلك على صورة شبهات قالوها تمهيدا للفرية أو دوافع كامنة في نفوسهم دفعتهم إلى إطلاقها ؛ ذلك لأن حديثه تركّز على ردها وتفنيدها دون إيراد لمقالة أصحابها بها[١] ؛ ولذا اكتفيت بإيراد ما ذكره العلماء وما فتح الله به عليّ من أسباب محتملة ، وهي :

أولا : لما كان القرآن واقعا من الفصاحة في النهاية القصوى ، ومشتملا على قصص المتقدمين من الأمم والرسل ، مخبرا عن بعض الغيوب المستقبلة كالقيامة والبعث والحساب مما ينكره كفار مكة ، مع كون مبلغه ﷺ لم يشتغل بالتعلم من أحد ، قالوا – أي كفار مكة – : لمَ لا يجوز أن يكون هذا من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة[٢]المعروفين بكثرة الكذب . فمقصودهم تكذيبه ﷺ فيما جاء به قياسا على حال الكهان .

ثانيا : نزول الوحي بالقرآن منجما مفرقا ، فشابه بذلك – في تصورهم الفاسد – تردد الشياطين على الكهان مرة بعد مرة .

ثالثا : توافق فواصل القرآن– في الأغلب– ، ما يجعل مباينته لسجع الكهان خفية على ضعاف العقول والمغفلين من الناس[٣] ، إذ قد يشتبه في بادئ الرأي على السامع من حيث إنه كلام منثور مؤلف على فواصل، ويؤلف كلام الكهان على أسجاع مثناة متماثلة، زوجين زوجين[٤].

رابعا : أن القرآن لما فاق في طبيعته كلام البشر ، قالوا عنه ﷺ كاهن متصل بالجّن ؛ فهم الذين يمدونه – على حد زعمهم – بهذا الكلام الفائق ، وعلم ما وراء الواقع[٥] .

خامسا : ممارسة الحرب الدعائية ضده ﷺ تنفيرا للناس عنه .

أما ما تدل عليه هذه الفرية فهو ما بلغه القوم من عظيم الحمق وقلة العقل وشدة الغباوة ، حين تجرؤوا على نسبة هذا الوحي الإلهي المتمثل في القرآن العظيم ، كتاب الهدى والنور ، ومصدر الحكمة والرشاد والخير ، إلى الشياطين مصدر الشر والضلال والظلمة ، وكفى بهذا قدحا في عقولهم .

المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية

---

(١) ولذا لم أتحدث في هذا المبحث عن أسلوب المشركين في إلقاء الفرية .

(٢) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٤ ، ص ٥٣٥ . و يشهد لذلك ما ورد في الصحيحين عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال : "اشتكى رسول الله ﷺ ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فجاءت امرأة فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ و الضحى ۞ و الليل إذا سجى ۞ ما ودعك ربك وما قلى﴾ . هذا لفظ البخاري . **فتح الباري** ، ج٩ ، ص ٥٧٨٥ ، (رقم : ٤٩٥٠) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٦ ، ص ٤١٢ ، (رقم : ١٧٩٧) ، وإبراهيم العلي ، **صحيح أسباب النزول** ، ص ٢٣٢ . والمرأة المذكورة في الحديث هي أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب ، ينظر : ابن حجر ، **فتح الباري** ، ج ٩ ، ص ٥٧٨٦ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج٣٠ ، ص١٦٤ .

(٣) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ١٣٨ .

(٤) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٩ ، ص ١٤٣ .

(٥) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٩ ، ص ٣٦٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يظهر للمتأمل في المقاطع القرآنية المتصلة بفرية الكهانة أنها ركزت على الرد المباشر وغير المباشر لها دون إيرادها إلا في معرض نفيها كما في مقطعي الطور والحاقة ، فلم يورد مقالتهم بشأنها ولا دوافعم من ورائها . وكان لهذا الردّ ثلاث اتجاهات ، الأول : نفي الكهانة عن القرآن ، والثاني : نفي الكهانة عن النبي ﷺ ، والثالث : نفي قدرة الشياطين وصلاحيتهم لتنزيل القرآن . وقد اتبع القرآن في عرضه للردود ترتيبا متناسقا رائعا ، أبيّنه فيما يلي :

كانت المقاطع الثلاثة في سورة الشعراء– بحسب ترتيب المصحف– أولى الردود المباشرة للتهمة . وقد اتجه المقطع الأول منها إلى نفي الكهانة عن القرآن ، فقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ۞ نزل به الروح الأمين ۞ على قلبك لتكون من المنذرين ۞ بلسان عربي مبين ۞ وإنه لفي زبر الأولين ۞ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ . والسر في هذا الابتداء هو كون القرآن محور التهمة الأساس ، كما أنه يشكل العنصر الأول من العناصر التي تقوم عليها عملية التنزل بالوحي ، التي هي بالترتيب : الكلام الموحى به ، ثم الوسيط الناقل ، ثم الإنسان المتلقي .

أما المقطع الثاني فاتجه إلى نفي قدرة الشياطين وصلاحيتهم لنقل القرآن وتنزيله ، فقال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ۞ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ۞ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ . والتثنية بهذا الاتجاه علاوة على كونه متصلا بالعنصر الثاني من عناصر التنزل ، فإنه هادم لعمود التهمة وركيزتها ، فإذا انهدم انهدمت التهمة ؛ لأنه إذا انتفت وساطة الشياطين ، فليس هناك من جهة أخرى تلجأ إليها أوهام المعاندين ، فتبطل تهمتهم وتدحض حجتهم. وأما المقطع الثالث فكان اتجاهه نحو نفي الكهانة عن شخص النبيﷺ، وهذا بالإضافة إلى كونه متصلا بالعنصر الثالث من عناصر التنزل ، فإنه يعتبر أضعف حلقات التهمة ، لأنه ﷺ منهم ، قد لازموه وعرفوه ، ويعلمون صدقه وأمانته ، وأنه لم يتعلم الكهانة من أحد ، ولم يمارسها طيلة حياته معهم ، ولذا اختلف أسلوب القرآن في هذا المقطع ، فقال تعالى:﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين۞ تنزل على كل أفاك أثيم۞ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ ، فبعد أن استعمل في المقطع الأول أسلوب الإثبات ، وفي الثاني أسلوب النفي والتنزيه ، استعمل هنا أسلوب الاستفهام لتوقيف القوم وتقريرهم ، بما يعلمونه من حاله ﷺ المناقضة لحال الكهان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد مقاطع الشعراء يأتي مقطع الطور الذي اتجه إلى ما ختمت به مقاطع الشعراء من نفي الكهانة عن النبي ﷺ ، استدلالا بصفاته وخصاله المنافية لخصال الكهان وأحوالهم ، وبما وقع القوم فيه من تناقض في وصفهم واتهاماتهم له ، فقال تعالى :﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ، ثم قال : ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ .

وبعد مقطع الطور يأتي مقطع الواقعة ، الذي اتجه نحو ما ثنّي به في مقاطع الشعراء من نفي قدرة الشياطين وصلاحيتهم لنقل القرآن وتنزيله ، فقال تعالى : ﴿إنه لقرآن كريم ۞ في كتاب مكنون ۞ لا يمسه إلا المطهرون ﴾. ثم بعده مقطع الحاقة الذي اتجه نحو ما بُدئ به في مقاطع الشعراء الثلاث من نفي الكهانة عن القرآن ، فقال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ۞ وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ۞ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ۞ تنزيل من رب العالمين﴾ .

ثم بعد ذلك يأتي مقطع عبس ، وفيه نفيٌ لقدرة الشياطين على تنزيل القرآن – كالمقطع قبل السابق – لكونه في صحف الملائكة المطهرة عن مس الشياطين ، فقال تعالى عن القرآن: ﴿ في صحف مكرمة ۞ مرفوعة مطهرة ۞ بأيدي سفرة ۞ كرام بررة ﴾ . ثم بعده مقطع التكوير الذي ينفي الكهانة عن القرآن – كالمقطع قبل السابق– ، فقال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ۞ ذي قوة عند ذي العرش مكين ۞ مطاع ثم أمين۞ ... وما هو بقول شيطان رجيم ۞ فأين تذهبون ۞ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ .

أما مقاطع الحجر والصافات والملك والجن ، فهي ردود غير مباشرة للتهمة ، تأكيدا لنزاهة الوحي الإلهي عن استراق الشياطين ووحيهم إلى الكهان ، استدلالا بكونهم معزولين عن سماع الملأ الأعلى بما أعدّ الله لهم من شهب يرجمون بها ، فلا يستطيعون استراقا ولا سمعا . وتكرار ذكر هذا الأمر في القرآن مرات عديدة ، هو لما مرّ من كونه هادما لعمود التهمة وركيزتها ، فإذا انهدم العمود انهدم ما يقوم عليه ، والله أعلم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الثالث : الردّ على الفرية

اتسم الرد القرآني على فرية الكهانة بكونه قد سد جميع المنافذ أمام كفار مكة للولوج منها إلى رمي القرآن ومبلغه ﷺ بهذه الفرية ، شاملا ذلك جميع مراحل التنزل ، ابتداء من مصدره وهو الله جل جلاله ، إلى اللوح المحفوظ ، إلى صحف الملائكة الكاتبين ، إلى جبريل الأمين عليه السلام ، إلى محمد ﷺ . فلم يترك القرآن أي حلقة مفقودة يمكن للخصوم النفاذ منها للطعن والتشويه . وفيما يلي بيان ذلك :

أولا : مصدر القرآن . لقد قرر القرآن أن مصدره هو الله جل جلاله ، فجاء في الحجر: ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر﴾ ، وفي الشعراء : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ ، وفي الواقعة والحاقة : ﴿تنزيل من رب العالمين﴾، قال أبو حيان: " أي ليس بكهانة ولا سحر، بل هو من عند الله"(١). وفي نسبة التنزيل إلى رب العالمين دون اسم الجلالة (الله) تأكيد على ذلك ؛ لكون الرب هو المالك المتصرف في أمور خلقه وشؤونهم ، وعليهم هم أن يطيعوه فيما يشرعه لهم ، وهذا يستلزم إرسال الرسل وإنزال الكتب التي توضح وتبين لهم شرعه ومنهاجه كي يسيروا عليهما .

ثانيا : اللوح المحفوظ . زيادة في تقرير مصدر القرآن ونفي شبهة الكهانة عنه أثبت الله تعالى أن هذا القرآن محفوظ مثبت في كتاب ، فقال في الواقعة : ﴿ إنه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون ﴾ ، وقال في البروج : ﴿ بل هو قرآن مجيد ۞ في لوح محفوظ ﴾(البروج :٢١-٢٢) . قال الرازي : " أي لم ينزل به عليه الملك إلا بعد ما أخذه من كتاب ، فهو ليس بكلام الملائكة فضلا أن يكون من كلام الجن "(٢). لكن قد يقول كفار مكة : إن كان هذا القرآن مثبتا في ذاك الكتاب ، فما يمنع الشياطين أن تصل إليه فتغير وتبدل ، وتزيد وتنقص منه ، أو تسترق ما تشاء ؟ ، فالجواب القرآني : كلا ، إن هذا القرآن هو ﴿ في كتاب مكنون۞ لا يمسه إلا المطهرون﴾(مقطع الواقعة) ، فهو كتاب مستور عن أعين الشياطين وغيرهم ، لا يصله ويمسه إلا المطهرون من الملائكة الكاتبين لينتسخوا القرآن في صحفهم ، أما أهل الخبث والفساد من الشياطين فلا يقربونه . فإن قالوا : إن مُنع الشياطين من اللوح المحفوظ ، فما يمنعهم من الوصول إلى صحف الملائكة ليفعلوا بها ما شاءوا ؟ فالجواب القرآني : كلا ، إن هذا القرآن هو ﴿ في صحف مكرمة﴾ عند الله ، ليست مهملة حتى يتسنى للشياطين الوصول إليها . وهي

---

(١) أبو حيان ،**البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ١٨٨ .
(٢) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٩ ، ٤٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كذلك ﴿ مرفوعة ﴾ في السماء لا يستطيعون إليها سبيلا . كما أنها﴿ مطهـرة ﴾عـن مـسهم ورجسهم . وهي محفوظة ﴿ بأيدي سفرة كرام ﴾ عن المعصية ، ﴿ بررة ﴾ أتقياء ، مطيعـين لربهم ، لا يفرطون فيما أوكله الله لهم أن يحفظوه .

فإن قالوا : إن كان الشياطين ممنوعين أيضا من الوصول إلى صحف الملائكة فهـم لا ريب قادرون على سماع كلامهم وما يقولونه في السماء مما كتبـوه فـي تلـك الـصحف ، فيسترقونه وينزلون به على محمد ، فالجواب القرآني : ﴿ وما تنزلت به الـشياطين۞ ومـا ينبغي لهم وما يستطيعون۞ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾(الشعراء) ، فلما كان عـدم الفعـل لا يستلزم عدم الصلاحية قال :﴿ وما ينبغي لهم﴾ ، ولما كان عدم الانبغاء لا يستلزم عدم القدرة قال:﴿وما يستطيعون﴾[١]. والعزل المذكور تبيّنه مقاطع أخرى : ففي الحجر: ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين۞ وحفظناها من كل شيطان رجيم۞ إلا من استرق الـسمع فأتبعه شهاب مبين﴾ ، وفي الملك : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمـصابيح وجعلناهـا رجومـا للشياطين ﴾ ، وفي الصافات : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب۞ وحفظـا مـن كـل شيطان مارد۞ لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب۞ دحورا ولهـم عـذاب واصب ۞ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ ، ثم شهادة الجن أنفسهم حين قالوا : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ۞ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا﴾(مقطع الجن) ، فقدرتهم على السماع كانـت قبـل بعثـة محمد ﷺ ، أما بعدها فقد منعوا ، وأرصدت لهم الشهب لدحرهم وإبعادهم عن السماء .

و لعل كفار مكة بعد ذلك يسألون : إن كان هذا القرآن في كتاب مكنون ، وفي صحف مرفوعة ، واستراق السمع محجوب عن الشياطين ، فمن الذي نزّل القرآن علـى محمـد ؟ ، فيجيبهم القرآن : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وهو جبريل عليه السلام ، سماه روحا دلالة على أنه مادة خير ينزل بالهدى ، فيحيى به الخلق في دينهم ودنياهم ، ووصفه بالأمين إشارة إلـى كونه معصوما من كل دنس ، ولأنه أمين وحي الله تعالى وموصله إلى من شاء من عباده من غير تغيير ولا تحريف[٢] ، بخلاف الشياطين الذين هم مادة الشر والفساد ، المتصفون بالدنس والخبث والإبعاد . وهنا قد يقول قائلهم : ملك واحد فقط لإنزال القرآن ! ، إن كان الأمر كذلك ، فمن السهل على الشياطين أن يجتمعوا عليه ويسلبوا منه ما نزل به . فيجيب القرآن علـى ذلك في التكـوير قـائلا : إن هـذا القـرآن﴿ لقـول رسـول﴾ مـأمور مـن الله بتبليـغ

(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٣٩٦ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٩١ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٩ ، ص ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رسالته[١] ، ﴿ كريم ﴾ في خصاله وأخلاقه ، "من كرمه أنه يعطي أفضل العطايا، وهو المعرفة والهداية والإرشاد"[٢] ،﴿ذي قوة﴾عظيمة ، كان منها أنه اقتلع قرى قوم لوط ، فرفعها إلى السماء ثم قلبها ، وأنه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين[٣] ، فأنى للشياطين منازعته ومنازلته ؟! . كما أنه﴿عند ذي العرش مكين﴾ ، فهو صاحب مكانة عالية عند الملك الجبار ، فمن ذا الذي يجرؤ على التحرش به . ثم إنه ﴿مطاع ثَمَّ﴾ أي في الملأ الأعلى ، فلو أمر الملائكة بما شاء لأطاعوه . وهو﴿أمين﴾ على ما كلفه الله به ، لا يصرفه عنه صارف مهما كانت الظروف . وملك بهذه القوة والمكانة والنصرة مع أمانته ، من يستطيع مغالبته ومحاربته أو التأثير عليه ؟! . وهذا الاستطراد في الثناء على الملك المرسل هو – أيضا– للتنويه بالقرآن ، وللكناية على أن ما نزل به صدق ؛ لأن كمال القائل يدل على صدق القول[٤] .

وزيادة في دحض شبهة الكهانة في نفوس القوم أو المخدوعين منهم بها أجرى الله تعالى عدة مقارنات بين القرآن والكهانة ، فقارن بين وحي القرآن ووحي الشيطان، فقال عن القرآن: ﴿ نزل به الروح الأمين۞على قلبك﴾ ، فلا تتكلف – يا محمد ﷺ – سماعه ولا ترداده بلسانك ، قال تعالى : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه﴾(القيامة:١٦ – ١٧) ، أي جمعه في صدرك ، قال البقاعي : " فدخوله إلى القلب في غاية السهولة ، حتى كأنه وصل إليه بغير واسطة السمع ، عكس ما يأتي عن المجرمين "[٥] ، وقال الآلوسي عن ألفاظ القرآن: "وكان النبي ﷺ يسمعها ويعيها بقوى إلهية قدسية ، لا كسماع البشر إياها منه عليه الصلاة والسلام ، وتنفعل عنه ذلك قواه البشرية ؛ ولهذا يظهر على جسده الشريف ﷺ ما يظهر ، ويقال لذلك : برحاء الوحي ، حتى يظن في بعض الأحايين أنه أغمي عليه عليه الصلاة والسلام ، وقد يظن أنه ﷺ أغفى . وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم عن أنس: " بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : أنزلت عليّ آنفا سورة فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ۞ فصل لربك وانحر۞ إن شانئك هو الأبتر﴾[٦] "[٧] . بينما وصف الله تعالى الكهان بأنهم ﴿ يلقون السمع﴾(مقطع الشعراء) ، قال ابن عاشور: " أي يظهرون أنهم يلقون أسماعهم عند مشاهدة

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير و التنوير** ، ج ٣٠ ، ص١٥٥ .
(٢) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٣١ ، ص٦٩ .
(٣) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٨ ، ص ٢٦٥ .
(٤) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير و التنوير** ، ج٣٠ ، ص١٥٥ .
(٥) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٣٩١ . و مقصوده بقوله " ما يأتي عن المجرمين " أي ما يأتي لاحقا من وصف الكهان بأنهم يلقون السمع .
(٦) مسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٣ ، ص ٢١٦ ، (رقم :٤٠٠) .
(٧) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٩ ، ص ١٦٣– ١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كواكب لتتزل عليهم شياطينهم بالخبر " ، وقال : " وإلقاء السمع هو شدة الإصغاء ، حتى كأنه إلقاء للسمع من موضعه ، شبه توجيه حاسة السمع إلى المسموع الخفي بإلقاء الحجر من اليد إلى الأرض أو في الهواء " ، "وهذا كما أطلق عليه : إصغاء ، أي إمالة السمع إلى المسموع "(١). فهيئة النبي ﷺ عند تلقي الوحي الموصوفة بالإغفاء أو الإغماء ، مع تصبب العرق وثقل الجسد ، مختلفة تماما عن هيئة الكاهن الذي يوقظ حواسه ويلقي أذنه ليسمع ما يلقيه شيطانه في أذنه .

وكذلك فإن الله تعالى قارن بين حاله ﷺ وحال الكهان ، فقال عن القرآن في الحاقة : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ، فوصف النبي ﷺ بأنه كريم الصفات والخصال ، فهو المعروف في قومه بأنه الصادق الأمين . وأمرَه في الطور بقوله : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ ، فجعل ما أنعم عليه من رجاحة العقل وكمال الخلق وكرم الفعال دليلا على بطلان تهمتهم له بالكهانة . كما أنه نفى عنه النقائص والشوائب ، فقال في التكوير نافيا عنه صفة البخل في تبليغ الرسالة :﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ ، " بل هو حريص على أن يكون كلٌ من أمته عالما بكل ما أمره الله تعالى بتبليغه "(٢) ، وقال له في ص :﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ ، بخلاف حال الكهان الذين يبخلون بما لديهم رغبة في الحلوان(٣) . وفي القراءة الأخرى لآية التكوير(بظنين) نفى عنه الكذب وتهمة السوء ، فهو ﷺ حقيق بأن يوثق بكل شيء يقوله في كل أحواله(٤) . وكذا نفى عنه صفة الجنون التي رماه بها كفار مكة ، وأثبت رؤيته ﷺ للرسول الملك جبريل عليه السلام رؤية واضحة لا لبس فيها ولا خيال . وفي المقابل فإنه بين حال الكهان المنافي لحاله ﷺ ، فقال عنهم في الشعراء :﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين۞ تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ ، فوصفهم بأنهم كذابون كثيرو القول للزور والإفك بالباطل ، وبأنهم كثيرو الفعل للمعاصي والآثام . وقال : ﴿ وأكثرهم كاذبون﴾ ، أي " قلّ من يصدق منهم فيما يحكي عن الجن ، وأكثرهم يفتري عليهم"(٥) ، وهذا يفيد أن هؤلاء الكهان يجيدون تصنع الكهانة أمام الناس بإيهامهم أنهم يلقون سمعهم إلى شياطينهم لتلقي الأخبار منهم ، وهم في الحقيقة لا يتلقون منهم شيئا(٦) ، وأما محمد ﷺ فلا يمكن أن يتصنع لا

---

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ٢٠٦ .
(٢) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص٣٤٤ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ج٨ ، ص ٣٤٤
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ج٨ ، ص ٣٤٤ .
(٥) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٤ ، ص ٥٣٨.
(٦) ويشهد لذلك ما أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : " كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج [أي يأتيه بما يكسبه] ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوما بشيء فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : أتدري ما هذا ؟ فقال أبو بكر : وما هو ؟ قال : كنت تكهّنت لإنسان في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة ، إلا أني خدعته ، فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلت منه ، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه " . البخاري ، **فتح الباري** ، ج٨ ، ص ٤٤١٤ ، (رقم:٣٨٤٢) ، وينظر : ص ٤٤٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو ولا غيره ما يحدث له حال نزول الوحي عليه ، من تصبب العرق حتى في اليوم الشديد البرد ، وثقل الجسد ، واحمرار الوجه وتربّده ، أي صيرورته كلون الرماد ، إلى غير هذا[١].

كما أنه تعالى قد أكد على حقيّة الرسول والقرآن ، فأخبر أنه أنزل كتابه على قلب محمد ﷺ ليكون من جملة الرسل الذين أرسلهم سبحانه إلى الناس ، فقال :﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين۞ نزل به الروح الأمين۞ على قلبك لتكون من المنذرين﴾ ، فليس هو ﷺ بدعا من الرسل ، قال ابن عاشور: "و في﴿من المنذرين﴾ من المبالغة في تمكن وصف الرسالة منه"[٢]. وأخبر عن القرآن بأمور تثبت أنه وحي إلهي لا كهانة ، أولها : أنه ﴿ بلسان عربي مبين﴾(الشعراء) ، قال الزمخشري : " نزله باللسان العربي لتنذر به ؛ لأنه لو نزّله باللسان الأعجمي لتجافوا عنه أصلا ، ولقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه ، فيتعذر الإنذار به "[٣] . وقال البقاعي : " ولما كان في العربي ما هو حوشي لفظا أو تركيبا ، مشكل على كثير من العرب ، قال : ﴿ مبين﴾ ، أي بيّن في نفسه ، كاشف لما يراد منه ، غير تارك لبسا عند من تدبّره حق تدبّره ، على ما يتعارفه العرب في مخاطباتها ، من سائر لغاتها ، بحقائقها ومجازاتها ، على اتساع إراداتها ، وتباعد مراميها في محاوراتها ، وحسن مقاصدها في كناياتها واستعاراتها . ومن يحيط بذلك حق الإحاطة غير العليم الحكيم ، الخبير البصير"[٤] . وثانيها : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين﴾ ، أي كتبهم المعروفة المشهورة الظاهرة في كونها أتت من السماء إلى أهلها ، الذين سكنت النفوس إلى أنه أتتهم رسل ، وشرعت لهم شرائع نزلت عليهم بها كتب ، من غير أن يخالط محمد ﷺ الذي جاء بهذا القرآن أحدا منهم أو من غيرهم في علم ما ، فلما كان القرآن مصدقا موافقا لما في تلك الكتب، كان ذلك دليلا قاطعا على أنه ما أنزله عليه إلا الله تعالى[٥]. وثالثها :﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾(الشعراء) ، " فإن قريشا كانوا كثيرا ما يرجعون إليهم ويعولون في الأخبار الإلهية عليهم"[٦] ، قال ابن الجوزي والقرطبي: " قال ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ ، فقالوا : إن هذا لزمانه ، وإنا لنجد في التوراة صفته "[٧] .

---

(١) ينظر : تفصيل ذلك مع الأدلة ، ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٤ ، ص ٥٥٩ (سورة المزمل) ، والنووي ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٧ ، ص ٤٢٥ – ٤٢٧ ، كتاب الفضائل ، باب عرق النبي ﷺ في البرد و حين يأتيه الوحي .
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ١٩٠ .
(٣) الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٧٧٠ .
(٤) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٣٩٢ .
(٥) ينظر: المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٩٢ .
(٦) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٩٣ .
(٧) ابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ١٠٣٧ ، والقرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٣ ، ص ٩٣ . وهذه الرواية أذكرها استئناسا فقط ؛ لأنني لم أجد لها سندا أو أصلا في كتب الرواية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم إن القرآن قد أشار إلى المفارقة الواضحة بين القرآن وكلام الكهان ووحي الشياطين ، فقال تعالى في الحاقة عن القرآن :﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون۞ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون﴾ ، قال الرازي : " ولا أيضا بقول كاهن ، لأنه وارد بسبّ الشياطين و شتمهم ، فلا يمكن أن يكون ذلك بإلهام الشياطين ، إلا أنكم لا تتذكرون "(١) ، فربط مباينة القرآن للكهانة بالتذكر ؛ لأنها " تتوقف على تذكر أحواله –عليه الصلاة و السلام – ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أقوالهم "(٢) . وقال في الواقعة :﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ ، قال الرازي : " والكريم اسم جامع لصفات المدح ، قيل : الكريم هو الذي كان طاهر الأصل ظاهر الفضل ، حتى إن من أصله غير زكي لا يقال له كريم مطلقا "(٣) ، أي ككلام الكهان الذي أصله وحي الشياطين ، وما تتضحه خيالاتهم من أكاذيب . وقال البقاعي : " فهو بالغ الكرم ، منزه عن كل شائبة نقص ولؤم ودناءة ، من كرمه كونه من المَلِك الأعلى إلى خير الخلق ، بسفارة روح القدس ، وبلسان العرب الذين اتفق الفرق على أن لسانهم أفصح الألسن ، وعلى وجه أعجز العرب"(٤) . وكذا من كرمه أنه نقّاع جم المنافع ؛ لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد ، ولما يبثه من بركات ونفحات(٥) ، فأين هذا من كلام الكهان ووحي الشيطان ؟! . وقال تعالى في التكوير :﴿ وما هو بقول شيطان رجيم۞ فأين تذهبون۞ إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ ، فالشيطان لما كان غير منفك عن الطرد ؛ لاشتقاقه من شطن أو شاط ، وذلك يقتضي البعد والاحتراق ، مع وصفه بالرجيم ، أي المرجوم باللعن والشهب(٦) ، فكيف يكون القرآن العظيم قوله ؟! ، ولذا قال لأولئك الطاعنين :﴿ فأين تذهبون﴾، وهو إنكار وتوبيخ واستضلال لهم واستجهال على أبلغ وجه ، بحيث صار ضلالهم معروفا لا لبس فيه(٧). وجاء بقوله: ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ۞ لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ تأكيدا لنفي شبهة الكهانة وقول الشياطين عنه(٨) ، فهو ذكر يذكر الناس بخالقهم ومصيرهم في الآخرة ، ويعظهم ويبيّن لهم ما يحتاجون إليه من أمور الديانة ، والمنهج الكامل الذي فيه سعادتهم في دنياهم وأخراهم ، فكيف يزعم أنه وحي الشياطين ؟! ، ولذا قال تعالى في الشعراء إنكارا لذلك :﴿وما ينبغي لهم﴾ ، قال سيد قطب : " وما يليق هذا القرآن بالشياطين ،

---

(١) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٣٠ ، ص٦٣٤ .
(٢) أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٦ ، ص ٢٩٨ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٨ ، ص ١٠٥ .
(٣) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٩ ، ص ٤٢٩ .
(٤) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ٤٢٥ .
(٥) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٧ ، ص ٢١٧ –٢١٨ .
(٦) ينظر البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ٣٤٤ –٣٤٥ .
(٧) ينظر : المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٣٤٥ .
(٨) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص ١٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان ، والشياطين تدعو إلى الضلال والفساد والكفر"[١] . وقال البقاعي : " وما يتصوّر منهم النزول بشيء منه ؛ لأنه خير كله وبركة ، وهم مادة الشر والهلكة ، فبينهما تمام التباين ، وأنت [يا محمد ﷺ] سكينة ونور ، وهم زلزلة وثبور ، فلا إقبال لهم عليك "[٢] . كما أن هذا القرآن قد يُسّر فهمه للعالمين من الجن والإنس جميعا ، قال تعالى في التكوير :﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ ، قال البقاعي : " ورتّب سبحانه نظمه على وجه سهّله على كل منهم شيئا يكفي في هدايته البيانية ، بخلاف الشعر والكهانة ، فإنه لا يفهمهما إلا قليل من الناس ، لا جميع العالمين "[٣].

وكان من رد القرآن على تهمة الكهانة – أيضا– إيراده لتناقض الطاعنين من كفار مكة في القرآن وشخص مبلغه ﷺ ، فقال في الطور : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون۞ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ ، ثم قال : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾ ، فإن جمعهم بين وصفه ﷺ بالكهانة والجنون والشعر لهو منتهى التناقض الذي ترفضه العقول السليمة ، قال الزمخشري : " فإنه قول باطل متناقض ؛ لأن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر ، والمجنون مغطى على عقله "[٤] ، وقال البقاعي : " وهو توبيخ عظيم بالإشارة إلى أنه ليست لهم عقول أصلا لقولهم هذا ؛ فإن الكاهن شرطه أن يكون في غاية المعرفة عندهم ، حتى أنهم يجعلونه حكما ، وربما عبدوه ، والمجنون لا يصلح لصالحة ؛ لأنه لا يعقل، والشاعر بعيد الأمر بوزن الكلام وكثرته من سجع الكاهن وغيره وكلام المجنون"[٥]. وقال ابن عاشور : " ومعنى إنكار أن تأمرهم أحلامهم بهذا : أن الأحلام الراجحة لا تأمر بمثله ، و فيه تعريض بأنهم أضاعوا أحلامهم حين قالوا ذلك ؛ لأن الأحلام لا تأمر بمثله ، فهم كمن لا أحلام لهم "[٦] ، ولذا أورد القرآن بعد ذلك استفهامه التقريري عن اتصافهم بالطغيان[٧] ، فقال : ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ ، فهم لطغيانهم لا يبالون بعيب أو قول متناقض يصدر منهم . قال الرازي في معنى قوله تعالى :﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ : " أي إنك لست بكاهن ، فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم ؛ فإن ذلك سيرة المزوّر ، فذكر فإنك لست بمزوّر "[٨] .

---

(١) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٩ ، ص ٢٦١٩.
(٢) البقاعي ، **نظم الدرر**، ج ٥ ، ص ٣٩٦.
(٣) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص ١٣٩ .
(٤) الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ١٠٥٧.
(٥) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ٣٠٣ .
(٦) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٦٤ .
(٧) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٧ ، ص ٦٤ .
(٨) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٨ ، ص ٢١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبهذا يتبين للمتأمل أن القرآن العظيم لم يترك ثغرة تنفذ منها تلك التهمة الشنيعة إليه وإلى مبلغه ﷺ إلا سدّها ، والحمد لله رب العالمين .

هذا ، وقد ذكر العلماء – رحمهم الله – عددا من المفندات المبطلة لفرية الكهانة ، هي :

أولا : قال الرازي : " نعلم بالضرورة أن الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدو ، ونعلم بالضرورة أن محمدا ﷺ كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم ، فلو كان هذا الغيب إنما يحصل من إلقاء الشياطين ، لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم مثل هذا العلم ، فكان يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى "(١) . ولمّا لم يكن ذلك ، علمنا امتناع أن يكون القرآن والوحي من باب الكهانة وما تأتي به الشياطين .

ثانيا : مخالفة نظم القرآن لسجع(٢)الكهان ونظم كلامهم ، إذ ليست فقراته قصيرة ، ولا فواصله مزدوجة ملتزم فيها السجع ، وآياته متفاوتة في طولها ، غير متلزم فيها التساوي أو حتى المقاربة ، كما أن فواصلها لا تأتي متوافقة على الدوام ؛ لأن القرآن يتبع المعنى الصحيح الثابت ، فإن صح غاية الصحة مع وجود الفواصل المتوافقة كان بها ، وإلا انتقل عن ذلك إلى فواصل غير متوافقة ، أو إلى فاصلة مفردة مخالفة لما قبلها ، توفية لمقصود الكلام وبُعدا عن التطويل فيه ، أما الساجعون فلا يرضون أن يأتوا بفاصلة لا أخت لها ، ويعدّون ذلك عيبا رديئا . وكذا تطويل الفقرة عن قرينتها ، وتضعيفها على عديلتها لا يرضى به ساجع(٣) .

ثالثا : التباين شديد الظهور بين حال النبي ﷺ وحال الكهان ، فالكاهن هو من ينصب نفسه للدلالة على الضوائع والمفقودات والإخبار عن المغيبات ، يصدق فيها مرة ويكذب مرات ، ويأخذ الجعل والحلوان على ذلك ، مع اقتصاره على من يسأله . أما النبي ﷺ فلم يدّع يوما من الأيام علم الغيب ، قال تعالى له :﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾(الأنعام:٥٠) ، ولا نصّب نفسه الشريفة لشيء مما الكهان فيه ، ولا نقل في ساعة من الدهر عن الجن خبرا ذكر أنه استفاده منهم ، ولا مدحهم لذلك كما تفعل الكهان ، بل ذم الفاسقين منهم غاية الذم ، وقال: إن أكثر ما يأتون به الكذب ، ولا يسأل جعلا على ما يدعو إليه ، قال

---

(١) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٤ ، ص ٥٣٥ .

(٢) السجع هو كلام مقفّى ، له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن كما أن فقراته قصيرة ، كما قيل : لصّها بطل ، وتمرها دقل ، إن كثر الجيش بها جاعوا ، وإن قلوا ضاعوا . ينظر : الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، (ت : ١٧٠ هجرية) . **كتاب العين** ، ط١ ، ٤م ، (تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣م ، ج٢ ، ص ٢١٧ ، و الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي المقري ، (ت : ٧٧٠ هجرية) . **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي** ، ط٤ ، ١م ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٢١م ، ج١ ، ص ٣٦٣ .

(٣) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ١٣٩ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ١٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعالى له :﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر﴾(ص : ٨٦) ، ولا اقتصر على من يأتيه للسؤال ، بل هو ﷺ يتبع
الناس في مجامعهم يدعوهم إلى الله لإنقاذهم من الضلال[١] .

رابعا : أن الكهانة قصاراها الإخبار عن أشياء قليلة من أحداث أو مصائب متوقـع حـدوثها لبعض الناس ليحذروها ، قد تصدق وقد لا تصدق ، فأين هذا من القرآن وهـدي النبـي ﷺ ، وما فيهما من الآداب والإرشاد والتعليم والبلاغة والفصاحة والصراحة والإعجاز[٢]. ثـم إن التاريخ لم يعرف من قبل أو بعد كاهنا أنشأ منهجا متكاملا ثابتا كالمنهج الذي جاء به القرآن ، وكل ما نقل عن الكهنة أسجاع لفظية أو حكمة مفردة أو إشارة ملغزة[٣] ، كما أنه مـن غيـر المتصوّر أن يكون ذلك المنهج العظيم من وحي الشياطين ؛ لأنهم دعاة شر وإفساد ، فأنّى لهم ذلك ؟!!![٤] .

خامسا : ما رُوي في السيرة من تردد زعماء قريش في هذه التهمة ، ونفيها فيما بيـنهم[٥] ، – كما مر في مبحث فرية السحر –[٦] .

---

(١) ينظر :البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ١٣٩ .
(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ٢٠٧ .
(٣) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٩ ، ص ٣٦٨٧ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ج٣٠ ، ص ٣٨٤٣ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٩ ، ص ٣٦٨٧ .
(٦) ينظر : ص ٢٢- ٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الرابع : أسلوب القرآن في رد الفرية

إن المتأمل في أسلوب القرآن في رد فرية الكهانة يجده يقوم على ثلاثة أمور ، هي : التوكيد ، والاستفهام التقريري أو التوبيخي ، والنفي . أما التوكيد فيظهر جليا في معظم المقاطع القرآنية ذات الصلة بالفرية ، وفيما يلي بيان ذلك :

أولا : استعمال القسم . ففي الواقعة قال :﴿ فلا[1] أقسم بمواقع النجوم۞ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم۞ إنه لقرآن كريم﴾ ، وفي الحاقة قال :﴿ فلا أقسم بما تبصرون۞ ومالا تبصرون۞ إنه لقول رسول كريم﴾ ، وفي التكوير قال : ﴿ فلا أقسم بالخنس۞ الجوار الكنس۞ والليل إذا عسعس۞ والصبح إذا تنفس۞ إنه لقول رسول كريم ﴾ . والملاحظ من الأقسام في المقاطع الثلاثة أن جوابها مقرّر لثلاثة أمور ، هي : كرم النازل وهو القرآن ، وكرم المنزِّل وهو جبريل عليه السلام ، وكرم المُنزَّل عليه وهو محمد ﷺ ، فلا مدخل للكهانة ولا الشياطين في هذا التنزيل ألبتّة .

ثانيا : استعمال (إنّ) التوكيدية واللام المزحلقة بعدها . ففي الشعراء قال تعالى عن القرآن : ﴿ وإنّه لتنزيل رب العالمين ﴾ ، وقال :﴿ وإنّه لفي زبر الأولين ﴾ ، وقال في الواقعة :﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ ، وفي الحاقة :﴿ إنه لقول رسول كريم﴾ ، وكذا في التكوير: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ ، فأكد حقية القرآن وكرمه وأنه وحي منه تعالى . وقال في مقطع الشعراء مؤكدا منع الشياطين من استراق السمع من السماء : ﴿ إنّهم عن السمع لمعزولون ﴾ .

ثالثا : الباء الواقعة في خبر (ما) المشبهة بـ(ليس) . ورد هذا في مقطع الطور، فقال تعالى : ﴿ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون ﴾ ، وفي الحاقة :﴿ وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون۞ ولا بقول كاهن ﴾ ، وفي التكوير قال : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ ، وقال :

---

(١) للعلماء في معنى (لا) هنا أقوال ، أشهرها قولان ، الأول : أنها مزيدة للتأكيد ، وعليه أكثر المفسرين ، والثاني : أنها نافية لكلام محذوف ، تقديره : ليس الأمر كما تقولون وتطعنون ، ثم استأنف القسم فقال: أقسم بكذا وكذا . ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٨١٥ ، وابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ١٣٩٢ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ٤١٦ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٧٣٢، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٧ ، ص ٢١٥. وقد وردت صيغة (لا أقسم) في ثمانية مواطن في القرآن الكريم ، هي : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم﴾(الواقعة:٧٥) ،﴿ فلا أقسم بما تبصرون﴾(الحاقة:٣٨) ،﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب﴾(المعارج:٤٠) ،﴿ لا أقسم بيوم القيامة۞ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾(القيامة:١-٢) ،﴿ فلا أقسم بالخنس﴾(التكوير:١٥) ،﴿ فلا أقسم بالشفق﴾(الانشقاق:١٦) ،﴿ لا أقسم بهذا البلد﴾(البلد:١) . ينظر : محمد فؤاد عبد الباقي ، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ، ط٤، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٩٤ م ، ص٦٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ ، فأكد نفي أن يكون النبي ﷺ كاهنا أو بخيلا في تبليغ ما أوحي إليه ، كما أكد نفي أن يكون القرآن من قبيل الكهانة أو وحي الشياطين .

رابعا : (ما) التي للتأكيد . قال تعالى في الحاقة : ﴿ قليلا ما تؤمنون ﴾ ، وقال :﴿ قليلا ما تذكرون﴾ ، فأكد على قلة إيمانهم أو انعدامه أصلا حينما قالوا بتهمة الشعر ، وأكد على قلة تذكرهم أو انعدامه حينما قالوا بتهمة الكهانة .

خامسا : (قد) التي للتحقيق . جيء بها وقرنت بلام جواب القسم المحذوف[١] في قوله تعالى في التكوير : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين﴾ ، أي : والله لقد رآه ، فأكد سبحانه رؤية نبيه ﷺ لجبريل الأمين عليه السلام رؤية واضحة بيّنة . كما أنه تعالى أورد (هل) بمعنى (قد) في قوله في الشعراء : ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ ، قال ابن عاشور : " واختير له حرف الاستفهام دال على التحقيق وهو (هل) ؛ لأن (هل) في الاستفهام بمعنى (قد) "[٢] .

سادسا : المبالغة في النفي . و تظهر في قوله تعالى في الشعراء :﴿ وما تنزلت به الشياطين۞ وما ينبغي لهم ، وما يستطيعون﴾ ، قال أبو حيان : "وما أحسن ما ترتب نفي هذه الجمل ، نفى أولا تنزيل الشياطين به ، والنفي في الغالب يكون في الممكن – وإن كان هنا لا يمكن من الشياطين التنزّل بالقرآن – ، ثم نفى انبغاء ذلك والصلاحية ، أي ولو فرض الإمكان لم يكونوا أهلا له ، ثم نفى قدرتهم على ذلك ، وأنه مستحيل في حقهم التنزل به ، فارتقى من نفي الإمكان إلى نفي الصلاحية إلى نفي القدرة والاستطاعة ، وذلك مبالغة مترتبة في نفي تنزيلهم به "[٣] .

سابعا : القصر . قال تعالى عن القرآن في سورة التكوير:﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ ، وهذا قصر إضافي يفيد قصر القرآن على صفة الذكر ، قصد منه إبطال أن يكون قول كاهن ، فالجملة تتنزل منزلة المؤكدة لجملة ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم﴾[٤] . وكذا تقديم ما حقه التأخير في قوله تعالى في الطور : ﴿ فما أنت بنعمة ربك بكاهن﴾ ، فتقديم المسند إليه (أنت) على المسند (كاهن) مع أن مقتضى الظاهر أن يقدم المسند لأنه محل الاهتمام ، هو لإفادة قصر إضافي بقرينة المقام ؛ لقلب ما يقولونه أو يعتقدونه من قولهم : هو كاهن[٥] .

---

(١) ينظر : محي الدين درويش ، **إعراب القرآن الكريم**، ج٨ ، ص ٢٣٧.
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ٢٠٥.
(٣) أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ١٩٦ .
(٤) ابن عاشور ، **التحرير و التنوير** ، ج٣٠ ، ص ١٦٥.
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٧ ، ص ٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثامنا : الاستثناء المفرّغ[٦] . وقد ورد في قوله تعالى في الواقعة :﴿ لا يمسه إلا المطهرون﴾ ، فنفى أن يمس اللوحَ المحفوظ أحدٌ مطلقا ، واستثنى منه المطهرين من الملائكة ، فخرج كل نجس وخبيث ، على رأسهم الشياطين .

تاسعا : الجملة الاسمية . وهي تدل على ثبوت مضمون الخبر ، فقال تعالى عن القرآن في الشعراء : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ ، وقال : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين﴾ ، و قال في الواقعة : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ ،﴿ تنزيل من رب العالمين﴾ ، وقال في الحاقة : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ، ﴿ وما هو بقول شاعر﴾ ، ﴿ ولا بقول كاهن﴾ ، ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ ، وقال في التكوير : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ،﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ ،﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ . وقال عن النبي ﷺ في الطور:﴿ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ، وقال في التكوير : ﴿ وما صاحبكم بمجنون﴾ ، ﴿ وما هو على الغيب بضنين﴾ . وقال عن الكهان في الطور : ﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾ .

و أما الاستفهام في تلك المقاطع فقد جاء لغرضين هما : التقرير والتوبيخ . أما التقرير ففي قوله تعالى في الشعراء :﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾ ، فالاستفهام لتقريرهم وتوقيفهم[١] . وقد مرّ أن (هل) هنا بمعنى (قد) ، فالتقرير هنا معناه التحقيق[٢] . كما أن الاستفهام في قوله تعالى في الطور : ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ هو للتقرير . وأما التوبيخ فهو في قوله تعالى في الشعراء : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ ، ففيه توبيخ وتقريع[٣] . وكذا في قوله تعالى في الطور:﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ ، ففيه توبيخ عظيم على جمعهم بين أوصاف متناقضة لا تجتمع في رجل بحال[٤] ، كما أن فيه إنكارا وتعجيبا من حالهم كيف يقولون ذلك وهم يدّعون أنهم أهل عقول ![٥] ، وفيه أيضا تهكم لاذع بهم[٦]. وورد التوبيخ أيضا في قوله تعالى في التكوير : ﴿فأين تذهبون﴾ ، أي : فأي طريق من طرق الضلال تسلكون في وصفكم لهذا القرآن. ويمكن أن يكون الاستفهام للتعجيز، تقديره: قد سدت عليكم طرق بهتانكم بعدما تقدم من حجج وردود داحضة لها ، فماذا تدعون بعد ذلك؟![٧].

---

(٦) الاستثناء : هو أسلوب من أساليب التأكيد ، وهو ما قرره الزركشي في **البرهان** ، ج٣ ، ص ٥٤ .
(١) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ١٩٩ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٩ ، ص ١٨٥ .
(٢) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ١٩٣.
(٣) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٥ ، ص ٤١٧ .
(٤) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٧ ، ص ٣٠٣ .
(٥) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٦٣ .
(٦) ينظر : سيد قطب، **في ظلال القرآن** ، ج٢٧ ، ص ٣٣٩٨ .
(٧) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص ١٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و أما النفي فقد تكرر وروده في المقاطع ؛ تنزيها للنبي ﷺ والقرآن عن فرية الكهانة والاتصال بالشياطين ، فقال في الشعراء : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ ،﴿ وما ينبغي لهم ﴾ ، ﴿وما يستطيعون﴾ ، وفي الصافات : ﴿لا يسمّعون إلى الملأ الأعلى﴾ ، وفي الطور:﴿ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ، وفي الحاقة:﴿ وما هو بقول شاعر... ولا بقول كاهن﴾، وفي التكوير:﴿وما صاحبكم بمجنون﴾،﴿وما هو على الغيب بضنين۞وما هو بقول شيطان رجيم﴾.

المطلب الخامس : أنموذج من بلاغة القرآن في ردّ الفرية

من بين المقاطع الثلاثة عشر المتصلة بفرية الكهانة وقع اختياري على المقطع الثالث من مقاطع سورة الشعراء ؛ لكونه يتضمن ردا مباشرا على الفرية ، ولتعلقه بشخص النبي ﷺ ، مع وجازته وقصره تجنبا للتطويل في هذا المبحث .

قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾(الشعراء : ٢٢١ – ٢٢٣)

التحليل البياني للنص :

جملة ﴿هل أنبئكم﴾ استئنافية ، مسوقة لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن في المقطع السابق في قوله تعالى:﴿وما تنزلت به الشياطين﴾(١) ، تنزيها للوحي والرسالة أن تكون من قبيل الكهانة ووحي الشياطين . وألقي الكلام إلى كفار مكة في صورة استفهام لتقريرهم وتوقيفهم(٢) واستدعاء انتباههم لاستماع الجواب لتقوم به الحجة عليهم ، ومثال ذلك أن ترى رجلا يكيل لك الاتهامات ولا يدع لك مجالا لدفعها ، فتقول له : هل أخبرك بكذا ؟ كي تسكته وتحفزه على استماع ردك دون أن تثير غضبه وروح الأنفة عنده . كما أن فيه تعريضا بأن جواب الاستفهام مما يسوء كفار مكة معرفته ، لذلك احتيج فيه إلى إذنهم بكشفه(٣) ، ففيه تبكيت للمعاندين المستكبرين منهم وتنبيه للمغفلين(٤) ، فالاستفهام صوري لا حقيقي ، مستعمل كناية عن كون الخبر مما يستأذن في الإخبار به ، فلا يترقب منه

---

(١) ينظر : أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج ٥ ، ص ٦٣ .
(٢) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ١٩٩ .
(٣) ينظر: ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ٢٠٥.
(٤) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص٥٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جواب من المخاطب به ؛ لذلك يعقبه التصريح بجواب الاستفهام قبل الإذن من السامع[٥] . واستعمل حرف الاستفهام (هل) لأنه بمعنى (قد) ، فهو يدل على التحقيق ، مقدر معه همزة استفهام ، فالمعنى : ءأنبئكم إنباء ثابتا محققا ؟[٦] . وجاء بفعل التنبئة للدلالة على أن الخبر عظيم الشأن ، جليل الفائدة في التفريق بين الوحي الإلهي والكهانة الشيطانية[٧] . وعبّر بـــ(أنَبِّئكم) دون(أنْبئُكم) لكون الأول أبلغ من الثاني[١] . وإضافته إلى ضمير المخاطب ليناسب مقام الاحتجاج وإقامة الدليل . وقدم الجار والمجرور(على من) للاهتمام بهما[٢] ، لكون المُتنزّل عليه هو محل الاهتمام هنا لا شخص المنزِّل أو النازل . و(على) تفيد الاستعلاء والتمكّن ، أي تمكّن الشياطين من مباشرة أوليائهم وملابستهم من دون أن يصرفهم صارف . و(من) اسم استفهام مختص بالعاقل . وتعليق فعل التنبئة عن العمل بالاستفهام بقوله : (على من تنزل الشياطين) هو للزيادة في استدعاء الانتباه وزيادة التحفز لمعرفة الجواب عند المخاطبين . وهذا أيضا " استفهام صوري معناه الخبر ، كناية عن أهمية الخبر ، بحيث إنه مما يستفهم عنه المتحسسون ويتطلبونه ، فالاستفهام من لوازم الاهتمام "[٣] . والإتيان بفعل التنزل دون النزول ، لأن التنزل يفيد التدريج والتردد مرة بعد مرة[٤] ، وفي هذا توضيح أن المستفهم عنه هم الكهان إخوان الشياطين الذين قيس النبي ﷺ عليهم . وحذف إحدى التاءين من الفعل (تنزّل) الذي أصله (تتنزل) لأن ترددهم على الكهان حين استراقهم للسمع من السماء يكون على ضرب من الخفاء يؤذن به حذف التاء[٥] . وفي هذا تجلية للمقارنة بين الوحي الإلهي الخفي والكهانة الشيطانية الخفية كذلك . وجاء بلفظ (الشياطين) على صيغة الجمع ، لاعتبار مجموع الكهان الذين هم موضوع الكلام .

ولما كان الاستفهام صوريا لا يحتاج جوابا أو إذنا من السامع ، فإنه قدّر ، كأنه قيل : نعم نبّئنا[٦] ، فقال : ﴿ تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ . وأخر الجار والمجرور ﴿على كل أفاك أثيم﴾ هنا عكس ما جرى سابقا ، مع أن مقتضى الاهتمام أن يقول : (على كل أفاك أثيم تنزل) ؛ زيادة في تحفزهم وتعطشهم لمعرفة الجواب ؛ كي تتشربه نفوسهم بعد طول ظمأ ، كما أنه لموافقة الفاصلة القرآنية . و(كل) هنا للإحاطة ، فهو " قصر لتنزلهم على كل من اتصف

---

(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج١٩ ، ص ٢٠٥ .
(٦) ينظر : المصدر نفسه ، ج١٩ ، ص ٢٠٥ .
(٧) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٣٩٩.

(١) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ٤٨٢ .
(٢) ينظر : محي الدين درويش ، **إعراب القرآن الكريم** ، ج٥ ، ص ٤٦٥ ، و ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ٢٠٥ .
(٣) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ٢٠٥ .
(٤) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٣٩٩ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٩٩.
(٦) ينظر : المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالإفك الكثير والإثم الكثير من الكهنة والمتنبئة ، وتخصيص له بهم بحيث لا يتخطاهم إلى غيرهم . وحيث كانت ساحة رسول الله ﷺ منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شيء من تلك الأوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه ، عليه الصلاة والسلام "[٧] . وقدم (أفاك) على (أثيم) ؛ لأن الكاهن في الأصل أفاك كذاب ، ولما كان يضم إلى كذبه تضليل الناس بتمويه أنه لا يقول إلا صدقا ، وأنه يتلقى الخبر من الشياطين التي تأتيه بخبر السماء[١] ، وهو في الحقيقة لم يتلق شيئا ، أو أنه تلقى منهم كلمة خطفوها خطفا فيخلط معها مئة كذبة – كما جاء في الحديث الصحيح[٢] – فإذا تحققت تلك الكلمة كانت سبب ضلالة لمن سمعها[٣] ، فعمله تضليل فوق تضليل ، وبذا كان أثيما .

"وإلقاء السمع هو شدة الإصغاء حتى كأنه إلقاء للسمع من موضعه ، شبّه توجيه حاسة السمع إلى المسموع الخفي بإلقاء الحجر من اليد إلى الأرض أو في الهواء "[٤] . وعبّر عن الإلقاء بصيغة الفعل المضارع (يلقون) للدلالة على التجدد والحدوث ، فكما تنزل الشياطين على الكهنة مرة بعد مرة ، فكذا إلقاء السمع متجدد متكرر . كما أنه لاستحضار الصورة في الذهن كأن السامع يراها ؛ كي تتم المفارقة بين حال الكهان وحال النبي ﷺ . وعرف (السمع) بـ(ال) دون الإضافة ، فلم يقل : يلقون سمعهم ؛ لإرادة استغراق جنس السمع عندهم ، فهم لشدة إصغائهم إلى شياطينهم لا يكادون يسمعون شيئا آخر ، فقد استحوذ المسموع على كل سمعهم . وبهذا تكتمل صورة الكاهن في الذهن حال إصغائه لشيطانه ، فالسامع يتخيل صورته وهو مميل بأذنه ، مستجمع تركيزه في كلام شيطانه ، ويقارن ذلك بحال النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه ليجد المفارقة بعد ذلك . وقوله : ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ استئناف إخبار عن هؤلاء الكهان[٥] ، زيادة في التفريق بين حاله ﷺ وحالهم ، بكونهم يجيدون تصنع الكهانة أمام الناس ، بخلاف ما يعتريه ﷺ حال نزول الوحي عليه ، الذي لا يمكن تصنعه بحال . وإيراد المعنى بالجملة الاسمية تأكيد له .

---

(٧) أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٥ ، ص ٦٣ .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ٢٠٦ .
(٢) وهو ما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : " سأل ناس رسول الله ﷺ عن الكهان ، فقال : ليس بشيء. فقالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدثوننا أحيانا بشيء فيكون حقا ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه ، فيخلطون معها مئة كذبة" . رواه البخاري واللفظ له ، **فتح الباري** ، ج١١ ، ص ٦٩٣٠ ، (رقم : ٥٧٦٢) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٧ ، ص ٣٤٤ ، (رقم : ٢٢٢٨) .
(٣) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ١٩٩ – ٢٠٠ .
(٤) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٩ ، ص ٢٠٦.
(٥) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ٢٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبحث الرابع : فرية الجنون

تمهيد :

معنى (الجنون) لغة :

هو من جُنَّ يُجَنّ جُنونا ، يقال : جُنّ الرجل فهو مجنون(١) ، قال الكفوي : " هو اختلاف القوة المميزة بين الأمور الحسنة والقبيحة المُدْركة للعواقب بأن لا يظهر أثرها ، ويتعطل أفعالها ، إما بالنقصان الذي جُبل عليه دماغه في أصل الخِلقة ، وإما بخروج مزاج الدماغ عن الاعتدال بسبب خلط أو آفة ، وإما لاستيلاء الشيطان عليه وإلقاء الخيالات الفاسدة إليه ، بحيث يفزَعُ من غير ما يَصلُح سببا "(٢) . وقال ابن عاشور : " والمجنون : الذي جُنّ ، أي أصابه فساد في العقل من أثر مسّ الجنّ إياه في اعتقادهم(٣) ، فالمجنون اسم مفعول مشتق من الفعل المبني للمجهول ، وهو من الأفعال التي لم ترد إلا مسندة للمجهول "(٤) .

الآيات القرآنية محور الدراسة :

المقطع الأول : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾
(الحجر : ٦ – ٩)

المعنى الإجمالي :

أي وقال كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم : يا من تزعم وتدّعي أن القرآن نزل عليك ، إنّك حقا لمجنون ؛ بسبب ادعائك أن الله أنزل عليك ذكرا يذكر الناس ويعظهم ، والذي يأتيك إنما هو جنيّ يلقي إليك تخليطا ، وإلا لو كان ما تقوله حقا فهلا جئتنا

---

(١) ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج٣ ، ص ٢١٨ .
(٢) الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني ، (ت : ١٠٩٤ هـ) . **الكليات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية** ـ ، ط٢،١م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت- لبنان ، ١٩٩٣م ، ص ٣٤٩ .
(٣) أي في اعتقاد العرب وقت تنزل القرآن .
(٤) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالملائكة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقا في دعواك أنك رسول الله !! . فقال الله تعالى ردّا عليهم : ما ننزّل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه ، وعندئذ لا إمهـــال ولا إنظـــار ولا تأجيل . وأما تشكيكم في مصدر القرآن وزعمكم أنه من تخليط الجن ، فنحن لا غيرنا من إنس أو جنّ نزّلنا القرآن على محمد ﷺ ، و إنا له – أي القرآن – لحافظون من الجن والشياطين أن تسترقه أو تغيره بزيادة أو نقص أو تحريف[١] .

المقطع الثـــاني : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾(الصافات : ٣٥ – ٣٧)

مرّ تفسير هذا المقطع في مبحث فرية الشعر ، فلا حاجة لإعادته .

المقطع الثالث :﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (الدخان : ١٣- ١٤)

المعنى الإجمالي :

أي كيف يتذكر كفار مكة ويتعظون بما نزل بهم من عذاب القحط والجوع الـــذي دعـــا عليهم به النبي ﷺ[٢] ، فيؤمنون بدعوته عند كشف العذاب عنهم ؟! ، والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم مما أصابهم ، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، ظاهرٌ أمر رسالته بالآيات والمعجزات ، مُظهرٌ لهم مناهج الحق في دينهم ودنياهم ، ومـــع هذا لم يؤمنوا به ولم يتّبعوه ، وشكّوا في رسالته . وأفظع من هذا أنهم أعرضوا عنه وافتروا عليه بأنه مُعلّم ، تعلم هذا القرآن من غيره من البشر ، ومجنون بادعائه النبوة والرسالة ، فهو يقول ما لا تقبله العقول . فكيف يتذكر هؤلاء ، وأنّى لهم الذكرى ؟![٣] .

المقطع الرابـــع : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾(القلم : ٥١ – ٥٢)

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٤ ، ص ١٠ – ١٢ ، والزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٥٥٨ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٤ ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٦٨١ .

(٢) كان هذا لما استعصت قريش على النبي ﷺ ، فدعا عليهم بسنين كسنيّ يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . ورد هذا في الحديث الذي رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٩، ص ٥٦٠٥ ،(رقم :٤٨٢١) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٩، ص ٧٩ –٨٠ ، (رقم :٢٧٩٨) .

(٣) ينظر : ابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ١٢٨٩ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ٦٨- ٦٩ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٥ ، ص ١٦٤ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦١٤، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ١٢٢، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٥ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٣١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعنى الإجمالي :

أي ولقد كاد كفار مكة من شدة عداوتهم لك يا محمد ﷺ أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك[٤] حين سمعوك تقرأ القرآن ، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك : إن محمدا لمجنون ، وهذا الذي يتلوه علينا هو من الهذيان الذي يهذي به في جنونه . قال الله تعالى ردا عليهم : وما هذا القرآن إلا موعظة وتذكير للإنس والجن ، وبيان لجميع ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم ، فكيف يوصف مبلغّه بالجنون ؟![١] .

المقطع الخامس : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٩ ﴾ (سبأ : ٧ – ٩)

المعنى الإجمالي :

أي وقال كفار قريش مخاطبا بعضهم بعضا على جهة التعجب والاستهزاء والتضاحك فيما بينهم : هل نرشدكم وندلكم على رجل – تجاهلا منهم لشخص النبي الكريم ﷺ – يخبركم بأمر عجيب ونبأ غريب ، هو أنكم إذا متم وفرقت أجسادكم كل تفريق ، فصرتم رفاتا وترابا ، سوف تخلقون خلقا جديدا وتبعثون أحياء من قبوركم على الصور التي كنتم عليها !! ، أهو كاذب على الله – عمدا– فيما نسبه إليه من ذلك ، أم قاله بلا قصد لجنون أصابه بوهمه ذلك ويلقيه على لسانه فهو يهذي به ؟! . قال الله تعالى ردا عليهم : ليس الأمر كما زعموا ، بل هؤلاء الكافرون بالآخرة في غاية الضلال عن الحق، مما يوجب لهم عذاب النار في الآخرة ، فهم واقعون في الضلال وهم لا يشعرون، فهم الحقيقون بوصف الجنون والحماقة لا محمد ﷺ.

ثم قال تعالى منبها على قدرته على البعث بقدرته على خلق السماء والأرض : ألم يشاهدوا ما هو محيط بهم من جميع جوانبهم من السماء والأرض ، فهم حيثما توجهوا وذهبوا ، فالسماء مطلة عليهم ، والأرض تحتهم وحولهم ، فمن قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه

---

(٤) قال الواحدي :" نزلت حين أراد الكفار أن يعينوا رسوا الله ﷺ ، فيصبوه بالعين ، فنظر إليه قوم من قريش ، فقالوا : ما رأينا مثله ولا مثل حججه ، وكانت العين في بني أسد حتى إن كانت الناقة السمينة والبقرة السمينة تمر بأحدهم فيعينها ثم يقول: يا جارية خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم من لحم هذه ، فما تبرح حتى تقع بالموت ، فتنحر ". الواحدي ، **أسباب النزول** ، ص٢١٣– ٢١٤.

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ٢٩ ، ص ٥٥ ــ ٥٧ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٩ ، ص ٦٠ - ٦٢ ، الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٨١٥، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٥٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يبعث من مخلوقاته من هو دون ذلك ، ويعيده إلى ما كان عليه من الذات والصفات . ثم اعترض يهددهم قائلا : إنهم لما كانوا في قبضتنا بإحاطة أرضنا وسمائنا بهم ، فإنا إن نشأ نُهوي بهم الأرض كما فعلنا بقارون ، أو نسقط عليهم قطعا من السماء كما أسقطنا على أصحاب الأيكة ، فلينزجروا عن التكذيب والطعن والاستهزاء حذرا أن يصيبهم ذلك . ثم عاد إلى الاستدلال قائلا : إن فيما ذكر من هيئة خلق السماء والأرض لدلالة واضحة على كمال قدرة الله تعالى ، وأنه لا يعجزه البعث بعد الموت وبلى الأجساد ، لا ينتفع بها إلا العبد الراجع إلى ربه بالتوبة والإخلاص ، المتفكر في آلائه وآياته(١) .

المقطع السادس : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾
(الإسراء : ٤٦ – ٥١)

المعنى الإجمالي :

كان النبي ﷺ إذا قرأ القرآن في المسجد الحرام أقبل المشركون وأحاطوا به ليستمعوا ما يقوله ، فيخبر الله تعالى عن حالهم إذا قرأ النبي ﷺ من القرآن ما فيه ذكر لله وحده غير مشفوع بذكر آلهتهم، أو قرأ ما يدعو إلى توحيد الله ونبذ الشرك وعبادة الأوثان ، فإنهم حينها ينفضّون عنه راجعين من حيث أتوا ، نافرين من ذلك استكبارا واستعظاما من أن يوحد الله تعالى . ويخاطب الله نبيه ﷺ بعد هذا تسلية له وتهديدا للمشركين قائلا له : نحن– يا محمد – نعلم علما حقا ما هم ملتبسون به حال استماعهم للقرآن ، أو المعنى : نعلم علما حقا الغاية التي من أجلها يستمعون القرآن وقت استماعهم له ، وهي الاستهزاء والسخرية والاستخفاف بك وبالقرآن ، ونعلم علما حقا كذلك ما يتناجون ويتحدثون به بينهم سرّا وقت تناجيهم وتحدثهم به بعد استماعهم لما تقرؤه من القرآن المتضمن للتوحيد وتقرير عقيدة البعث بعد الموت ، خاصة حين يقول أولئك الظالمون لأنفسهم بالشرك، الظالمون لك بالبهتان والافتراء ، لبعضهم : إنكم إن اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا سُحِر فجن ، فصار يخلط في كلامه ويهذي بما لا يُعقل ، فردّ الله تعالى مسليا نبيه ﷺ موعدا لهم قائلا : انظر– يا محمد– وتعجّب من سلوكهم

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ٢٢ ، ص ٧٥ – ٧٧ ، والزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٨٦٨ ، و ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٥٢٩ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٣ ، ص ٦٩٥ ، الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٢، ص ٣٨٧- ٣٩٢ ، و الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٤٢٩ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢، ص ١١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كيف مثلوك– على سبيل التشبيه لا اليقين– تارة بالمجنون وتارة بالساحر و تارة بالشاعر وتارة بالكاهن ، فضلوا في جميع ذلك عن طريق الحق والهدى، فلا يستطيعون الاهتداء إليه ؛ لأن الله قد خذلهم عن إصابته . أو المعنى: أنهم ضلوا عن منهاج المحاجة ، فلا يجدون طريقا إلى طعن فيك تقبله العقول ، فهم يتخبطون بين أوصاف باطلة متناقضة متهافتة ممجوجة .

وكان مما تناجوا به أيضا حين استمعوا للقرآن من النبي ﷺ ، واحتجوا به على التكذيب ورميه ﷺ بفرية الجنون أنهم قالوا متعجبين منكرين : أئذا صرنا بعد مماتنا عظاما بالية ، وذرات متفتتة من التراب ، هل سنبعث ونخلق من جديد بعد أن نبلى ونفنى ؟! . فرد الله عليهم مخاطبا نبيه ﷺ بقوله : قل لهم – يا محمد – : لو كنتم أبعد شيء من الحياة ومن رطوبة الحي كالحجارة والحديد ، أو غيرهما مما يعظم عندكم مما هو أكبر وأعظم من الحجارة والحديد مباينة للحياة ، فستُبعثون وتعادون لا محالة . وأتبع الله تعالى هذا بذكر ما يكون من ردهم حال مخاطبتهم بهذا الكلام قائلا : فسيقولون لك يا محمد : من الذي يعيدنا ويردنا إلى الحياة إذا كنا عظاما ورفاتا أو حجارة أو حديدا ؟ ، فيرد الله تعالى : قل لهم يا محمد : يعيدكم الذي خلقكم وأنشأكم من العدم أول مرة حين كنتم ترابا ما فيه رائحة الحياة ، من غير مثال سابق يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه ، فمن يقدر على ذلك قادرٌ على أن يفيض الحياة على العظام البالية المتفتتة ، ويعيدها إلى حالها المعهودة بشرا سويا(١) .

المقطع السابع : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِى فِى ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ﴾...﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِى ٱلۡأَسۡوَاقِ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٍ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾(الفرقان:٧ – ١١ ، ٢٠)

المعنى الإجمالي :

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٥ ، ص ١٠٩ – ١١٣ ، وابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١١٤٦ – ١١٤٨ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص ٣٥١ ، وأبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٧ ، ص٥٧ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٥ ، ص ١١٤ – ١١٦ ، و الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٠٠٤، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٥ ، ص ١١٨ – ١٢٣ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٧٣٤ – ٧٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي وقال كفار مكة تعجبا وإنكارا وتهكّما[٢] : ما لهذا الذي يدّعي أنه رسول الله يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشي في الأسواق للتجارة والتكسب كما نمشي ؟! ، فهو لا يتميز عنا بشيء ، فلا هو ملَك ؛ لأن الملائكة لا تأكل ، ولا هو ملِك؛ لأن الملوك لا تتبذّل في الأسواق! ، فهلاّ – إن كان صادقا في دعواه الرسالة – أنزل الله إليه من السماء ملكا ينذر الناس معه ، ويكون شاهدا على صدق ما يدّعيه ، أو يأتيه كنز من السماء من فضة أو ذهب فيستغني به عن طلب المعاش والتكسّب ، أو يكون له بستان يأكل من ثماره فيستغني به عن المشي في الأسواق لطلب الرزق ، ويكون له بذلك مزية علينا حيث يكون أكله من جنته . وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر : ﴿نأكل منها﴾[١] ، والمعنى : يكون له علينا مزية في الفضل بأكلنا من جنته . وبناء على عدم تحقق ما اقترحوه قال هؤلاء الظالمون لأنفسهم بالشرك والكفر ، الظالمون له ﷺ بالإفك والبهتان : ما تتبعون أيها المؤمنون بنبوة محمد ورسالته إلا رجلا سُحر فجُنّ وغُلب على عقله ، فهو يخلط ويهذي مدعيا أنه رسول الله . فرد الله تعالى مسليا نبيه ﷺ ، مستعظما معجّبا مما قالوه واجترأوا على التفوّه به ، قائلا : انظر يا محمد وتعجّب من تناقضهم حين مثلوك تارة بالمجنون وتارة بالساحر وتارة بالكاهن وتارة بالشاعر ، فضلّوا في جميع ذلك عن طريق الحق والهدى ، فلا يستطيعون الاهتداء إليه . أو المعنى : أنهم لا يجدون إلى القدح في نبوتك يا محمد طريقا من الطرق يستقرون عليه وتقبله العقول . ثم قال تعالى ردا على اقتراحاتهم : تكاثر خير الذي إن شاء – وهو الله تعالى – جعل لك في الدنيا قبل الآخرة خيرا من ذلك الذي اقترحوه ، بأن يعطيك بساتين وحدائق تسير فيها الأنهار ، لا جنة واحدة كما اقترحوا ، ويجعل لك مع الحدائق قصورا رفيعة مشيّدة كما هو حال الملوك ، فهو قادر على ذلك ، لكنه لم يشأه لحكمة . ثم أضرب تعالى عما احتجوا به ، مبينا العلة

---

(٢) رُوي في السير عن ابن عباس أن عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البختري ، والأسود بن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج اجتمعوا فقال بعضم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، قال : فجاءهم رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف فنحن نسودك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك ، فقال رسول الله ﷺ : ما بي مما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا= = والآخرة ، وإن تردوا عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك ، أو قالوا : فإذا لم تفعل هذا فسل لنفسك وسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا . فأنزل الله في ذلك : ﴿وقالوا مال لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ ، ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ، وكان ربك بصيرا﴾ . أخرجه ابن إسحاق ، محمد بن يسار ، (ت : ١٥١ هجرية) . كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي ، المعروف **بسيرة ابن إسحاق** ، ط٢ ، ١م ، (تحقيق : محمد حميد الله) ، الوقف للخدمات الخيرية ، قونية – تركيا ، ١٩٨١م ، ص ١٧٨ – ١٧٩، (رقم : ٢٥٤) ، والطبري، **جامع البيان** ، ج١٨، ص٢١٧ – ٢١٨ ، وينظر: ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، ج١، ص ٢١٥ – ٢١٦ ، والآلوسي، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٥٧٩ ، والشوكاني، **فتح القدير** ، ص١٢٤٨– ١٢٤٩ .

(١) ينظر : ابن الجزري ، **تقريب النشر** ، ص ١٥١ ، ومحمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ٣٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحقيقية وراء تكذيبهم ، فقال : ما كذّب هؤلاء بما جئتهم به يا محمد لأجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ؛ ولكن لأنهم لا يؤمنون بقيام الساعة ولا بالحساب والجزاء في الآخرة ، فهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ؛ ولذا كان منهم ذاك التكذيب والتبجح والعناد .

ثم رد الله تعالى على إنكارهم لبشرية الرسول ﷺ وطلبه الكسب والمعاش كسائر الناس ، فقال : وما أرسلنا من الرسل قبلك يا محمد إلا كانوا بشرا يأكلون الطعام كسائر الناس ، ويمشون ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة وطلب المعاش كسائر الناس أيضا ، فتلك هي سنة المرسلين من قبلك ، فلمَ ينكرون ذلك عليك ؟! . ثم بيّن – سبحانه– حكمته في ذلك قائلا : وجعلنا بعضكم فتنة واختبارا لبعض ؛ لنعلم من يطيع ممن يعصي ، فمن أجل ذلك لم نُعط محمدا الدنيا ، وجعلناه يطلب المعاش في الأسواق ، لنبتليكم أيها الناس ، ونختبر صبركم على طاعة ربكم وإجابة رسوله إلى ما دعاكم إليه ، بغير عرض من الدنيا ترجونه من هذا الرسول أن يعطيكم على اتباعكم إياه ؛ لأننا لو أعطيناه الدنيا ، لسارع كثير منكم إلى اتباعه طمعا في دنياه أن ينال منها . ثم أخبر تعالى عن نفسه قائلا : وربك يا محمد بصير بمن يصبر على هذا الامتحان فيطيعني ويلتزم اتباعك ، ومن لا يصبر فيضل ويكفر . وفي هذا بشارة ووعد للصابرين ، وإنذار ووعيد للعاصين(١) .

المقطع الثامن : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾(الأعراف:١٨٤)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى منكرا على كفار مكة ، موبخا لهم على رمي محمد ﷺ بصفة الجنون(٢) : ألم يُعمِل كفار مكة عقولهم وأفكارهم ويرتبوا النتائج على المقدمات ليعلموا براءة محمد ﷺ مما قدحوه به . وبيّن ذلك وعيّنه بقوله : ليس بصاحبهم – وهو محمد ﷺ – الذي خبروه وعرفوه عمرا طويلا بأنه أمتنهم عقلا وأزكاهم خُلقا أيّ شيء أو أثر من آثار الجنون ، ما هو إلا نذير

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٨ ، ص ٢١٨،٢٢١ ، ٢٢٩ – ٢٣٠ ، وابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ١٠١١، والنسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ٧٩٦ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٣ ، ص ٤١٤ ، ٤١٧ – ٤١٨ ، و البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج ٥ ، ص٣٠٢ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٥٨١ – ٥٨٥ ، ٦٠٢ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٢٤٧ ، ١٢٥١ ، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٥٢٦ – ٥٢٩ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٢٩ – ٣٣١ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٩٢١ – ٩٢٢ ، ٩٢٤ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص١٠٢٠ .

(٢) أخرج ابن جرير واللفظ له ، وابن أبي حاتم عن قتادة ، قال:" ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشا ، فجعل يفخذهم فخذا فخذ : يا بني فلان ، يا بني فلان ، فحذّرهم بأس الله ووقائع الله ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوّت إلى الصباح ، أو حتى أصبح . فأنزل الله تبارك وتعالى :﴿أولم يتفكروا ، ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين﴾ " . ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٩، ص ١٦٢ ، وابن أبي حاتم ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٥ ، ص ١٦٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالغ النذارة لهم من عقاب الله إن أصروا على شركهم وكفرهم ، مبيّن موضح لهم طريق النجاة من ذاك العقاب بدعوته لهم إلى الدين الصحيح والمنهاج القويم والحق المبين[٣] .

المقطع التاسع : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾...﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (المؤمنون : ٧٠ – ٧١ ، ٧٣ – ٧٤)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى موبخا كفار مكة منكرا عليهم : بل أيقولون إنّ بمحمد جنونا ، فهو يتكلم بما لا معنى له ، فلا يُفهم ولا يُدرى ما يقوله ؟! ، كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، بل جاءهم محمد بالحكمة التي لا أحكم منها ، والحق الذي لا تخفى صحته على ذي فطرة صحيحة ، فكيف يجوز وصفه بالجنون ؟! . ثم ذكر تعالى سر إعراضهم وقدحهم قائلا : والحال أن أكثرهم[١] كارهون للحق الذي جاءهم به محمد ﷺ من التوحيد ودين الإسلام حسدا منهم له ﷺ ، وبغيا عليه واستكبارا في الأرض ، ولطول ما ألِفوا الباطل وعاشوا عليه ، مما يدفعهم دفعا إلى الاعتراض والقدح والتشويه .

ولما كانت كراهتهم للحق الذي جاءهم به محمد ﷺ ناتجة عن مخالفته لأهوائهم وطباعهم ، قال تعالى ردا على ذلك : ولو وافق الحق الثابت في الواقع ، المتصف بالصدق والصحة من الدين الذي شرعه الله لعباده أهواءهم ، وجاء متابعا لما يشتهونه من الأحوال والشرائع ، من تعدد الآلهة ، وثبوت الولد لله تعالى ، وانتفاء البعث والجزاء ، وتحسين الاعتداء والظلم إلى غير ذلك ، مع كون تلك الأهواء مختلفة متناقضة ، لأدى ذلك إلى فساد السماوات والأرض ومن فيهن من ملائكة وإنس وجنّ . ثم أضرب عن ذلك فقال : ما جئناهم بما يوافق أهواءهم ، بل جئناهم بهذا القرآن الذي يذكر عقولهم بالحق الذي نسيته بتقادم الزمان على ضلالات آبائهم ، حتى ألفوها وكرهوا الانزياح عنها ، ويذكرهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم التي فيها صلاح معاشهم وأحوالهم ، وفيه شرفهم وفخرهم إن آمنوا به واتبعوه ، وكذا

---

(٣) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ١٦٢ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٩ ، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(١) فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق ، لكنهم تركوا الإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومهم ، وأن يقولوا : صبأوا وتركوا دين آبائهم ، لا كراهة للحق ، كما يحكى عن أبي طالب . ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٧١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإنه الذكر الذي كانوا قد سألوه وتمنوه بقولهم :﴿ لو أن عندنا ذكرا من الأولين۞ لكنا عباد الله المخلصين﴾(الصافات:١٦٨-١٦٩)،فهم بما فعلوا من الاستكبار والنكوص عن هذا الذكر المختص بهم – لا عن غيره مما لا يوجب إقبالا ولا اعتناء به – معرضون لا يلتفتون إليه بحال .

ثم قال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ : وإنك يا محمد لتدعو هؤلاء المشركين من قومك إلى طريق واضح ، تشهد العقول السليمة باستقامته ، ليس فيه شائبة اعوجاج توهم وتسوّغ اتهامهم لك بوجه من الوجوه . وإن الذين لا يصدقون بالبعث بعد الموت ، وقيام الساعة ، والحساب والجزاء في الآخرة ، عن هذا الصراط الذي تدعوهم إليه لعادلون منحرفون مائلون ؛ فإن الإيمان بالآخرة هو من أقوى الدواعي إلى طلب الحق وسلوك سبيله ، فإذا انعدم حصل الانحراف[١].

المقطع العاشر : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾(سبأ : ٤٦)

المعنى الإجمالي :

أي قل يا محمد لهؤلاء القادحين فيك من كفار قريش ، الرامين لك بصفة الجنون : ما آمركم وأنصحكم إلا بخصلة واحدة ، وهي أن تقوموا بتحري الحق في أمري وطلبه ابتغاء وجه الله –عز وجل– من غير هوى ولا عصبية ، متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ؛ لأن الازدحام فيه تشويش للخاطر والفكر ، فيقول الرجل لصاحبه : هلمّ فلنتصادق ، هل رأينا بهذا الرجل من جنون ، ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيتفكر وينظر ، لتعلموا وتتيقنوا عندئذ أن محمدا ﷺ الذي صاحبتموه وعرفتم أنه صحيح العقل كريم الشمائل ليس به جنون قط ، إنما هو نذير لكم ينذركم ويحذركم من عذاب الله الشديد القاهر – وهو عذاب الآخرة – ، قريب الحلول بكم إن لم تستجيبوا لدعوته[٢] .

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٨ ، ص ٥٣ ، ٥٥ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٤ ، ص٤٢٧ ، الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٣٤٥، ٣٤٧ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١١٩٥ – ١١٩٦، ابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج١٨ ، ص ٩١ – ٩٥، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ٩٨٠ ، ومحي الدين درويش ، **إعراب القرآن الكريم وبيانه** ، ج٥ ، ص ٢١٣ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٢ ، ص ١٢٤ ، وابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ١١٥٤، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٣ ، ص ٧١٦ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦، ص ١٩٣ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٢، ص ٤٤٨، والشوكاني ، **فتح القدير**، ص ١٤٤٣، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٢، ص ٢٣٣- ٢٣٥، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ١١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع الحادي عشر : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الطور : ٢٩ – ٣٢)

مر تفسير هذا المقطع في مبحث فرية الشعر ، فلا داعي لإعادته .

المقطع الثاني عشر : ﴿ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾(القلم : ١ – ٧)

المعنى الإجمالي :

يقسم الله تعالى بجنس القلم الذي يكتب به أهل السماء من كتبة الملائكة ، وأهل الأرض ، وبما يكتبونه أيضا ، ما أنت يا محمد بسبب ما أنعم الله عليك من رجاحة العقل وشرف النبوة وكرم الفعال بمجنون كما يزعم أولئك الظالمون من كفار قريش . وإن لك بصبرك على أذى قومك وتحملك أعباء الرسالة لثوابا عظيما غير مقطوع عنك ، متزايدا كل يوم . وإنك لعلى أدب رفيع جمّ ، وخلق فاضل كريم ، قد بلغ ذروة الكمال المحمود في طبع الإنسان ؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه . فستعلم يا محمد ويعلمون – عن قريب– علما متحققا كالمُبصَر بالحسّ ، أيّكم الذي فتن ومُحن بالجنون ، أنت أم هم ! ، وذلك حين ينزل بهم العذاب ويعاينونه ؛ لأن ربك يا محمد هو العالم بمن يستحق وصف الجنون ممن ضل وانحرف عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين ، وهو العالم – أيضا– بالعقلاء المهتدين إلى ذلك السبيل والطريق المستقيم[١] .

المقطع الثالث عشر : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾(التكوير :١٥–٢٨)

مر تفسير هذا المقطع في مبحث فرية الكهانة ، فلا حاجة لإعادته .

---

(١) ينظر: الرازي،**التفسير الكبير**،ج٣٠ ،ص ٥٩٩، والنسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ١٢٦٦، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٤، ص٥١٦ – ٥١٨،والبقاعي،**نظم الدرر** ،ج٨ ، ص٩٥ – ٩٩ ، والآلوسي،**روح المعاني** ،ج٢٩ ، ص٣٩ – ٤٢ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير**،ج٢٩ ، ص٦٣- ٦٧ ، والصابوني، **صفوة التفاسير**،ج٣ ، ص١٥٥٤ – ١٥٥٥، والجزائري ، **أيسر التفاسير**، ص ١٦٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع الرابع عشر : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ ﴾(الجن : ٢٦ – ٢٨)

المعنى الإجمالي :

أي : هو – أي الله جل وعلا– عالم بما غاب علمه عن الخلق من الحقائق المغيبة ، فلا يُطلع على هذا الغيب – المختص هو بعلمه – أحدا من خلقه ، إلا من اختاره وارتضاه من عباده لرسالته ونبوته – فيطلعه تعالى على ما يشاء من الغيب المتصل بالرسالة ؛ كي يبلغه للناس فيعتقدوه أو يعملوا به ، أو يكون من قبيل المعجزة للدلالة على نبوته – ، فإن الله تعالى يجعل لهذا الرسول حرسا من الملائكة من أمامه ومن خلفه ، يحرسونه من الجن والشياطين ، ويطردونهم عنه ، ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلغ الوحي كما تلقاه ؛ ليعلم الله – علم ظهور وتحقق في الواقع– أن الرسل قد أبلغوا رسالاته إلى الناس كاملة دون زيادة أو نقص أو تحريف . وقرأ رويس عن يعقوب : (ليُعلم) على البناء للمفعول[1] ، أي ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم كما تلقوها . والحال أن ربهم – سبحانه– قد أحاط علمه بما لديهم من الحكم والشرائع وسائر ما أوحاه إليهم ، لا يفوته منه شيء ، ولا ينسى منه حرفا ، كما أنه أحصى وضبط عدد كل شيء حال كونه معدودا محصورا[2] ، فكل ما أوحاه إلى رسله قد أحصى كلماته وحروفه ، فأنّى للجن والشياطين بعد ذاك الرصد والحفظ ، والرقابة والإحصاء الإلهيين ، أن يتعرضوا للرسول وما أوحي إليه بتخليط أو زيادة أو نقص ؟! .

المقطع الخامس عشر : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾(الذاريات : ٥٢ – ٥٣)

المعنى الإجمالي :

---

(١) ينظر : ابن الجزري ، **تقريب النشر** ، ص ١٨٤ ، و محمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ٥٧٣ .

(٢) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ١١٤٩، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٣٠ ، ص ٦٧٩- ٦٨٠ ، والنسفي ، **مدارك التانزيل** ، ص ١٢٩٠-١٢٩١، و**الجمل** ، الحاشية والمتن ، ج٨ ، ص ١٤٣ – ١٤٥ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٨٤٠ – ١٨٤١، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩، ص ٢٤٧ –٢٥١ ، وسيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٩ ، ص ٣٧٣٨ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٥٩٠ – ١٥٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي: كما كذبك قومك يا محمد ورموك بالسحر والجنون ، كذلك فعل المكذبون من الأمم السابقة تجاه رسلهم ، فما كان يأتيهم من رسول من رسل الله إلا كانوا يقولون عنه ساحر أو يقولون عنه مجنون . ثم وبخهم تعالى وقرّعهم وعجّب من حالهم قائلا : هل أوصى أولهم آخرهم بهذا القول وهذا البهتان حتى قالوه جميعا متفقين عليه ؟! ، كلا ، لم يتواصوا بذلك ؛ لأنهم لم يتلاقوا في زمن واحد ، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان ومجاوزة الحد في الكفر والتكذيب والعصيان ؛ فلذا قالوا ما قالوه[١] .

المقطع السادس عشر: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (المؤمنون : ٩٦ – ٩٨)

المعنى الإجمالي :

أي تغاض يا محمد واصفح عن جهلة قومك من كفار قريش ، واصبر على أذاهم . نحن عالمون بما يصفونك به من الجنون ومس الشياطين ، وسنجازيهم عليه ، فلا تحزن لما تسمع منهم من ذلك ، وقل داعيا ربك العظيم : ربّ أستجير بك من خنق الشياطين[٢] وصَرْعاتهم ، وأستجير بك ربّ من أن يحضروني ويقربوني في شيء من أموري[٣] .

المقطع السابع عشر : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء : ٨٨)

المعنى الإجمالي :

---

(١) ينظر : النسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ١١٧١ – ١١٧٢، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦٨٣ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٢١ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٣٩٨.

(٢) في كتاب المفردات للراغب الأصفهاني :(همز) : " الهمز كالعصر" وهو مناسب لمعنى خنق الشياطين وصرعاتها ؛ لأن الخنق : هو عصر الرقبة لينقطع النفس . وقال ابن عاشور :" والهمز حقيقته : الضغط باليد والطعن بالإصبع ونحوه" . وهو مناسب لمعنى العصر والخنق آنف الذكر . ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ٥٢٣، وهامش التعليقات لمحمود شاكر على تفسير الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٨، ص ٦٤، وابن عاشور : **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ١٢١ . وقد ورد أن النبي ﷺ كان مما يقوله قبل القراءة في الصلاة :"أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه " ، و قد فسره بعض رواة الحديث بأن همزه :المؤتة ، وهي نوع من الجنون ، ونفخه الكبر ، ونفثه الشعر. أخرجه الترمذي و اللفظ له ، **سنن الترمذي** ، ص ٦٠ ، (رقم : ٢٤٢) ، وأبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، (ت : ٢٧٥ هجرية) . **سنن أبي داود** ، ١م ، بيت الأفكار الدولية ، عمان ، ص١٠٣ – ١٠٤ ، (رقم :٧٦٤ ، ٧٧٥) ، وابن ماجة ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، (ت : ٢٧٣ هجرية) . **سنن ابن ماجة** ، ١م ، بيت الأفكار الدولية ، عمان ، ص ٩٧ ، (رقم : ٨٠٧ ، ٨٠٨) ، و البيهقي من عدة طرق ، أبو بكر أحمد بن الحسين ، (ت :٤٥٨ هجرية) . **السنن الكبرى** ، ط١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد – الهند ، ١٣٤٦ هجرية ، ج٢ ، ص ٣٥ – ٣٦ ، و ابن حبان ، **الإحسان** ، ج ٥ ، ص ٧٨ –٨٠ ، (رقم : ١٧٧٩ ،١٧٨٠) ، و الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، **المستدرك** ، ج١ ، ص ٢٣٥ ، و صححه الألباني ، محمد ناصر الدين ، (ت : ١٩٩٩م) . **صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها** ، ط١ ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٩٩١م ، ص ٩٥ – ٩٦ ، و ينظر : النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف ،(ت:٦٧٦ هجرية) ، **كتاب الأذكار** ، ط١ ، دار المعرفة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٨ م ، ص ٤٦ .

(٣) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٨ ، ص ٦٣ – ٦٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ١١٩ – ١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من كفار قريش : لئن اتفق واجتمع كل الإنس وكل الجن وأرادوا الإتيان بمثل هذا القرآن ، فلن يستطيعوا ذلك أبدا ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظاهروا عليه[٤] .

المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته

يمكنُ للمتأمل في المقاطع القرآنية محور الدراسة أن يستخلص منها الأسباب التي كانت وراء إطلاق المشركين لفرية الجنون ، والتي تندرج ضمن ثلاثة محاور رئيسة :

الأول : التصورات الخاطئة عن حقيقة الرسول المبلغ عن الله .

الثاني : الإنكار لبعض مضامين الرسالة .

الثالث : الدوافع الكامنة في نفوس القوم .

أما المحور الأول فيتضمن ما يلي :

أولا : إنكارهم بشرية الرسول ؛ لأنهم ظنوا أن الله لا ينزل وحيه على أحد من البشر فضلا عن أن يؤيده بالمعجزات والخوارق ، ولذا خاطبوه ﷺ باستهزاء واستخفاف بقولهم في الحجر: ﴿ يا أيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ ، " يعنون : يا من يدعي مثل هذا الأمر العظيم الخارق للعادة ، إنك بسبب تلك الدعوى متحقق جنونك على أتم وجه "[١] . وكذا تعجبهم وإنكارهم من كونه ﷺ بشرا يأكل الطعام لا ملكا مع دعواه أنه رسول الله ، فقالوا في الفرقان: ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ .

ثانيا : مماثلة حاله ﷺ لأحوال الناس من أكل الطعام وطلب المعاش وغير ذلك ، فقالوا في الفرقان : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ ، قال ابن عاشور : " وكنّوا بأكل الطعام والمشي في الأسواق عن مماثلة أحواله لأحوال الناس ، تذرعا منهم إلى إبطال كونه رسولا ؛ لزعمهم أن الرسول عن الله تكون أحواله غير مماثلة لأحوال الناس ، وخصّوا أكل الطعام والمشي في الأسواق لأنهما من الأحوال المشاهدة المتكررة "[٢] . وقال الآلوسي : " فكأنهم قالوا : إن صح ما يدعيه ، فما باله لم يخالف حاله حالنا ، وليس هذا إلا لعمههم

---

(٤) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٥ ، ص ١٨٢ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٧٤٦ .

(١) الألوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٣٤٤.
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وركاكة عقولهم وقصور أبصارهم على المحسوسات ، فإن تميّز الرسل عليهم السلام عما عداهم ليس بأمور جسمانية ، وإنما هو بأمور نفسانية ، أعني ما جبلهم الله تعالى عليه من الكمال "[٣] . ثم إن القوم لم يكتفوا بالاعتراض على تلك المماثلة ، وإنما أتبعوه باقتراحات تعجيزية لتحقق لهم عدم المماثلة ، فقالوا : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ۞ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ .

ثالثا : كونه ﷺ لم يؤيد بملائكة يعينونه في دعوته ويشهدون بصدقه . فقالوا في الحجر :﴿ إنك لمجنون ۞ لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ ، أي : هلا تأتينا بالملائكة دليلا على صدقك[١] . وقالوا في الفرقان : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ ، أي ملك يعينه في دعوة الناس ويكون شاهدا على صدقه . فكأنهم قالوا : الله أرسلك وحدك يا محمد لتدعو إليه ، ولم يُعنك بملك واحد على الأقل من ملائكته الكثيرة ؟! .

وأما المحور الثاني فيشتمل على قضيتين :

الأولى : إنكارهم وحدانية الإله . ويظهر هذا من قوله تعالى عنهم في الإسراء: ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا ﴾ ، وقوله في الصافات :﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ ، قال الآلوسي : " إن هذه الكلمة الطيبة [أي لا إله إلا الله] يندرج فيها معظم عقائد الإيمان ، لكن المقصود الأهم منها التوحيد ، ولذا كان المشركون إذا لقنوها أولا يستكبرون وينفرون "[٢] . وقال سيد قطب : إن عقيدة التوحيد التي يدور عليها هذا القرآن كانت تهددهم في مكانتهم وفي امتيازاتهم وفي كبريائهم فينفرون منها ؛ لأنها تهدد وضعهم الاجتماعي القائم على أوهام الوثنية وتقاليد الجاهلية[٣] .

الثانية : إنكارهم البعث بعد الموت وبلى الأجساد . ويظهر هذا من قوله تعالى عنهم في الإسراء: ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ ، قال الرازي : " وصفوا رسول الله ﷺ بكونه مسحورا فاسد العقل ، فذكروا من جملة ما يدل على فساد عقله أنه يدعي أن الإنسان بعد ما يصير عظاما ورفاتا فإنه يعود حيا عاقلا كما كان ، فذكروا هذا الكلام رواية عنه لتقرير كونه مختل العقل "[٤] . ومنشأ ذلك في تصورهم الفاسد " أن بين غضاضة

---

(٣) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٥٨٠ .

(١) ينظر: البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٤ ، ص ٢٠٦ .
(٢) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٣ ، ص ١١٤ .
(٣) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٥ ، ص ٢٢٣٢ (بتصرف يسير) .
(٤) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص ٣٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحي وطراوته المقتضية للاتصال المقتضي للحياة ، وبين يبوسة الرميم المقتضية للتفرق المقتضي لعدم الحياة تنافيا "[٥] . كما تظهر هذه الشبهة من قوله تعالى عنهم في سبأ :﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ ، قال سيد قطب : " دهشوا من الحديث عن البعث الذي يرونه عجيبا غريبا ، لا يتحدث به إلا من أصابه طائف من الجن ، فهو يتفوه بكل غريب عجيب "[٦] .

وأما المحور الثالث فيتضمن الدوافع الآتية :

أولا : أن ما جاءهم به ﷺ مخالف لأهوائهم ومألوفاتهم . قال تعالى عنهم في سورة المؤمنون: ﴿ بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون ﴾[١] ، قال أبو حيان : " ولكنه جاءهم بما حال بينهم وبين أهوائهم ، ولم يوافق ما نشأوا عليه من اتباع الباطل ، ولمّا لم يجدوا له مدفعا لأنه الحق ، عاملوا بالبهت ، وعولوا على الكذب من النسبة إلى الجنون "[٢] . وقال سيد قطب : " علموا أنهم لو أقروا بمحمد ﷺ لزالت مناصبهم ولاختلت رياساتهم ؛ فلذلك كرهوه "[٣] .

ثانيا : الحسد له ﷺ لما أوتيه من القرآن العظيم وشرف النبوة . قال تعالى في سورة القلم : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾ ، أي : كادوا يصرعونك بعيونهم " حسدا على ما أوتيت من الشرف ، فكان سماعهم للقرآن باعثا لما عندهم من البغض والحسد"[٤] . وقال ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى في سورة القلم: ﴿والقلم وما يسطرون﴾: " وأوثر القسم بالقلم والكتابة للإيماء إلى باعث الطاعنين على الرسول ﷺ واللامزين له بالجنون ، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب "[٥] .

ثالثا : التكذيب باليوم الآخر . قال تعالى عنهم في الفرقان : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ ، قال سيد قطب : " فهم يكذبون بالساعة ، ومن ثم لا يتحرجون من ظلم ولا افتراء ، ولا يخشون يوما يلقون فيه الله فيحاسبهم على الظلم والافتراء"[٦] . وقال تعالى عنهم في المؤمنون :﴿ وإن الذين

---

(٥) الألوسي ، **روح المعاني** ، ج١٥ ، ص ١١٧.
(٦) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٢، ص ٢٨٩٤.
(١) قوله تعالى : (وأكثرهم) ولم يقل : وهم للحق كارهون ، فأسند كراهية الحق إلى أكثرهم دون جميعهم ، إنما يدل على منهج الإنصاف في القرآن ، الذي ينبغي للمسلم أن يتحلى به في أحكامه وتصوراته وقناعاته . وبيان ذلك أن القرآن قال :(وأكثرهم) إنصافا لمن كان من مشركي مكة من أحل الأحلام الراجحة الذين علموا بطلان الشرك وكانوا يجنحون إلى الحق ، لكنهم كانوا يشايعون طغاة قومهم مصانعة لهم واستبقاء على حرمة أنفسهم ؛ لعلمهم أنهم إن صدعوا بالحق لقوا من طغاتهم الأذى والانتقاص . ومن هؤلاء أبو طالب والعباس وغيرهم . ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٩١ .
(٢) أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٧ ، ص ٥٧٤.
(٣) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٣، ص ٢٨٧ .
(٤) البقاعي ، **نظم الدرر** ،ج٨ ، ص ١١٨ ، وينظر : البيضاوي ، **أنوار التنزيل** ، ج٥ ، ص ٢٣٨ ، والجمل، **الحاشية**، ج٨ ، ص٩٠ .
(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ٦١ .
(٦) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٩، ص ٢٥٥٤ .
(٧) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ ، فإن عدم إيمانهم بالآخرة هو سبب تنكبهم عن الصراط المستقيم[٧] ، حتى استمرؤوا الطعن والافتراء والتزوير .

رابعا : الطغيان . ويظهر من قوله تعالى عنهم في الذاريات :﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ ، وقوله في الطور: ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ ، قال الآلوسي : " أي مجاوزون الحد في المكابرة والعناد ، لا يحومون حول الرشد والسداد ، ولذلك يقولون ما يقولون من الأكاذيب المحضة الخارجة عن دائرة العقول"[٨]. فالطغيان يجعلهم لا يبالون بالعناد الظاهر، ولا بإصدار الأقوال المناقضة للمعقول والمحسوس كفرية الجنون على غير استحياء من أحد[١] .

خامسا : الكبر . ويمكن استنباط هذا الدافع من قوله تعالى في الفرقان : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ ، فلما رأى الكبراء من كفار مكة أن هذا الرسول الذي أرسل اليهم يبشرهم وينذرهم ، ويأمرهم وينهاهم ، ويعدهم ويوعدهم ، هو بشر مثلهم من جلدتهم وقومهم ، وأصغر منهم سنا ، وأقل منهم مالا وولدا ، كان ذلك فتنة لهم أيصبرون فيطيعونه ويؤمنون بدعوته ، أم يستكبرون فيعصونه ويكفرون بدينه ، قال الرازي : " والمرسل إليهم يتأذون أيضا من المرسل بسبب الحسد ، وصيرورته مكلفا بالخدمة وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيسا مخدوما "[٢] .

هذا ، وقد أورد العلماء أسبابا أخرى محتملة كانت وراء هذه الفرية هي :

أولا : الرغبة في تنفير الناس عنه كجزء من حرب من حرب الدعاية التي قصدوا شنها ضده ، وذلك من عدة أوجه :

الأول : أنهم وجدوا تلك الدعوى أقرب إلى القبول والرواج بين أهل مكة ؛ لأن الجنون يطرأ على الإنسان دفعة ؛ ولذا كانت فرية الجنون هي أولى افتراءاتهم التي وجهوها نحوه ﷺ [٣] .

الثاني : ما كان معهودا في الجاهليات المتنوعة من الصلة بين التنبؤ والجنون ، وهو ما يعرف بنبوءة الجذب والجنون المقدس . وصاحب هذا النوع مغلوب على أمره ، ينطلق لسانه

---

(٨) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٧ ، ص ٥٤ .

(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ٣٠٣ .
(٢) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٤ ، ص ٤٤٦.
(٣) ذكر هذا ابن عاشور في تفسيره ، واستدل بأن قوله تعالى : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ جاء في السورة الثانية نزولا وهي سورة القلم ، وكذا قوله تعالى :﴿ وما صاحبكم بمجنون﴾ في السورة السادسة نزولا وهي سورة التكوير . وقولهم بفرية الجنون هو الذي استمروا عليه لقوله تعالى :﴿ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون﴾ في السورة الثالثة والستين نزولا من السور المكية . ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٢، ص ٢٣٤ ، والزركشي ، **البرهان** ، ج١ ، ص ٢٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالعبارات المبهمة دون أن يعنيها ، ولعله لا يعيها ، ويكون مع هذا المجذوب غالبا مفسر يدعي العلم بمغازي كلامه ، ويرى فيه رموزا وإشارات يدعي العلم بحلّها وتأويلها ، زاعما أنها تأتيه من عالم غير منظور . فكان كفار مكة يستغلون هذه الصورة الراسبة في أذهان الناس ، فيموهون عليهم أن محمدا ﷺ هو من هذا القبيل ، وأنه يأتيهم بالغريب العجيب من القول لأنه – حاشاه- مجنون(٤) .

الثالث : أنهم أوردوا ذلك مورد الاستحقار له ؛ إيهاما لعوامهم كي ينفروهم عنه(٥) .

ثانيا : أنهم أطلقوا هذه الفرية كجزء كذلك من الحرب النفسية ضده ﷺ ؛ لأنهم قصدوا بإطلاقها المبالغة في إيذائه ﷺ وممارسة الضغط النفسي عليه كي يضجر فيترك دعوته(١) .

ثالثا : تفرد القرآن العجيب المعجز في أسلوبه وبيانه ، وتميزه عن كلام البشر المعهود ، حتى وقف كفار مكة أمامه مبهوتين ؛ لأنهم لم يعهدوا مثله من القول وهم أهل القول ! ، ولما كانوا لا يريدون الاعتراف بأنه من عند الله – كبرا وعنادا وحسدا – ، فقد احتاجوا أن يفسروا مصدره المتفوق على البشر ، فقالوا : إنه من إيحاء الجن ، ومحمد – حاشاه- به مسٌّ من الشيطان ينطقه بهذا القول العجيب(٢) .

رابعا : أنه ﷺ كان يغشاه حالة عجيبة عند نزول الوحي عليه ، فيتغيّر وجهه ، وتعرض له حالة شبيهة بالغشي ، فقالوا عنه : مجنون لذلك(٣) ، قال الآلوسي :" كانوا إذا رأوا ما يعرض له ﷺ من برحاء الوحي قالوا : جنّ "(٤).

خامسا : أنه ﷺ قد خالفهم في الأقوال والأفعال ، فكان معرضا عن الدنيا ولذاتها ، مقبلا على الآخرة ونعيمها ، مشتغلا بالدعوة إلى الله تعالى ، وإنذار بأسه ونقمته ليلا ونهارا ، من غير ملل ولا ضجر ، فعند ذلك نسبوه إلى الجنون(٥).

سادسا : أنهم رأوه ﷺ يطمع في انقيادهم له ، وكان هذا من أبعد الأمور عندهم ، فنسبوه إلى الجنون لذلك(٦) .

---

(٤) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٧ ، ص ١٠٩٥- ١٠٩٧ ، وج٩ ، ص ١٤٠٥ .
(٥) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٣ ، ص ٢٨٧ .

(١) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ١٣٤ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ١١٦ ، وسيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٩ ، ص ١٤٠٤ .
(٢) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٩ ، ص ١٤٠٤ ، ١٤٠٥، وج٢٧ ، ص ٣٣٩٨ .
(٣) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٥، ص ٤٢٠.
(٤) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٩ ، ص ١٧٠ .
(٥) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٥، ص ٤٢٠ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٣ ، ص ١٥٤ .
(٦) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٣ ، ص ٢٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ما تحمله هذه الفرية من دلالة فهي إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على أنّ كفار مكة قد بلغوا من الطغيان مبلغا جعلهم لا يبالون بما يقولونه ، حتى لو كان معيبا طاعنا في سلامة عقولهم ، حيث إنهم وقعوا فيما يناقض البدهيات والمحسوسات بوصفهم لمحمد ﷺ أكملِ الناس عقلا وأكرمِهم خلُقا بأنه مجنون ، مع أنّ المجنون معروف بهيئته وشكله لكل من رآه ، فلا يخفى على أحد ، فطغوا بذلك طغيانا ليس بعده طغيان ، وارتكبوا حماقة ليس فوقها حماقة ، تدفعهم إليها رغبتهم المسعورة في طمس نور النبوة ، والإبقاء على أوضاع الجاهلية الجهلاء على حالها الذي ألفوه وركنوا إليه ، ويغذيها اغترارهم بقوتهم ومنعتهم فلا يعبؤون بما يفعلون.

المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية

لابد قبل بيان طريقة القرآن في عرض فرية الجنون أن أمهّد لها بأمرين ، **الأول** : أن القرآن في هذه الفرية قد ركزّ أكثر شيء على ردّها وردّ ما تقوم عليه من شبه ، سواء كان الرد مباشرا أو غير مباشر . **الثاني** : اتّسام عرض هذه الفرية بتعدد الهيئات وتنوعها الشديد مقارنة بالفرى السابقة ، وهي كما يلي :

أولا : تقديم التهمة ، ثم الشبهة ، ثم الرد على الشبهة ، ثم الرد على التهمة . وهذا خاص بمقطع الحجر ، فقوله تعالى على لسان كفار مكة : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ هذه التهمة ، ثم قولهم :﴿ لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ هذه الشبهة ، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾ هو الرد على الشبهة ، ثم قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ هو الرد على التهمة .

ثانيا : تقديم التهمة ، ثم الرد عليها ، ثم الشبهة ، ثم الرد عليها . وهذا جاء في مقطع الإسراء الأول ، فقوله تعالى :﴿ إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ هذه التهمة ، وقوله بعده : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ هو الرد عليها . ثم قولهم : ﴿ أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ هو شبهتهم التي استندوا إليها في فريتهم ، وقوله تعالى بعده : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا ، أو خلقا مما يكبر في صدورهم ﴾ إلى قوله : ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ هو الرد عليها .

ثالثا : تقديم الشبهة ، ثم التهمة ، ثم الرد على التهمة ، ثم الرد على الشبهة ، ثم الرد على التهمة ، ثم الرد على الشبهة . جاء هذا الترتيب في مقطع الفرقان ، فقولهم :﴿ مال هذا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ إلى قولهم : ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ هـــذه شبهتهم ، ثم اتهموا فقالوا: ﴿ إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ ، فرد القرآن على تهمتهم قائلا : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ ، ثم رد على شبهتهم بقولـــه : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهـــار ويجعـــل لـــك قصورا﴾ ، ثم رجع إلى تهمتهم فرد عليها بالإضراب عما ذكروه مـــن شـــبهة وراء فـــريتهم وتكذيبهم إلى بيان الدافع الحقيقي وراء ذلك ، ألا وهو التكذيب باليوم الآخر ومـــا فيـــه مـــن حساب وجزاء ، فقال : ﴿ بل كذبوا بالساعة﴾ ، ثم استطرد في وعيدهم وما يكون من حـــالهم في ذلك اليوم الرهيب ، ثم رجع إلى رد شبهتهم فقال : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرســـلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ .

رابعا : تقديم الشبهة ، ثم التهمة ، ثم الرد على التهمة ، ثم الرد على الشبهة . وجاء هذا فـــي مقطع سبأ الأول ، فقوله تعالى :﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ هذه شبهتهم ، وقولهم بعدها: ﴿ أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾ هذه التهمة ،وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ هو رد على التهمة ، ثم قوله : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ إلى قوله : ﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ هو رد على الشبهة .

خامسا : تقديم الشبهة والدافع ، ثم التهمة ، ثم الرد على التهمة فالشبهة . وهذا خاص بمقطع الصافات ، فقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ يتضمن شبهتهم ، وهي إنكارهم توحيد الإله ، ويتضمن الدافع وراء فريتهم وهو الاستكبار عن الإذعان للحق . وقولهم : ﴿ أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ هذه التهمة ، وقوله تعالى : ﴿ بل جاء بالحق﴾ هو رد على التهمة ، وقوله : ﴿ وصدق المرسلين﴾ هو رد على الشبهة .

سادسا : تقديم التهمة ، ثم الرد عليها ، ثم الدافع وراءها . ورد هذا في مقطع المؤمنون الأول ، فقوله تعالى : ﴿ أم يقولون به جنة ﴾ إيراد للتهمة ، وقوله عقب ذلك : ﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ رد على التهمة ، وقوله بعده :﴿ وأكثرهم للحق كارهون﴾ هو الدافع وراء التهمة .

سابعا : تقديم الدافع ، ثم التهمة ، ثم الرد عليها . وهذا الترتيب هو في مقطع القلم الثـــاني ، فقوله تعالى :﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾ يشير إلى دافـــع الحسد في نفوس كفار قريش تجاه النبي ﷺ على ما أوتيه من القرآن العظيم وشرف النبـــوة ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله بعده : ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ إيراد للتهمة ، ثم قوله :﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ هو الرد على التهمة .

ثامنا : الاقتصار على إيراد التهمة ، وطريقة الإيراد تغني عن الرد . وهذا خاص بمقطع الدخان ، فقوله تعالى : ﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ۞ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ اقتصر فيه على ذكر فريتهم ، ولم يتضمن دافعا أو شبهة أو ردا ، لكن طريقة الإيراد تغني عن الرد ؛ لما تشير إليه من عنادهم بعد ظهور صدق الرسول الذي جاءهم ينذرهم بأس الله وعقابه إن هم أصروا على شركهم وكفرهم ، مع كونه مؤيدا بالآيات التي توجب إيمانهم وإذعانهم ، لكنهم بدلا من ذلك تولوا وأعرضوا وقابلوا ذلك الرسول بالبهتان والافتراء عليه بأنه معلم مجنون ، وكفى بذلك الوصف تشنيعا لسلوكهم ، وردا لفريتهم .

تاسعا : الاقتصار على رد التهمة مع بيان الدافع وراءها . وهذا ورد في مقطعي الذاريات والطور ، ففي الذاريات رد التهمة بقوله : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ ، فاتفاق أقوام الرسل على نفس التهمة مع تباعدهم في الأزمان والأماكن يدل على أنها هي حيلتهم في بطر الحق وإبطال دعوة الرسول ، لا أنهم وجدوها على الحقيقة في شخص الرسول . ثم أورد القرآن الدافع المشترك بينهم وراء إطلاقها فقال : ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ ، أي الدافع هو الطغيان . وفي الطور رد التهمة عن شخص الرسول الكريم ﷺ فقال : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ ، ثم أورد الدافع وراءها فقال :﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ .

عاشرا : الاقتصار على الرد المباشر للتهمة دون التعرض للدوافع والشبهات . ورد هذا في أربعة مقاطع هي : الأعراف ، وسبأ الثاني ، والقلم الأول ، والتكوير . ففي الأعراف قال : ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين﴾ ، وفي سبأ قال : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ ، وفي القلم قال :﴿ والقلم وما يسطرون ۞ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ إلى قوله : ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ ، وفي التكوير قال: ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ، وقال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ۞ ولقد رآه بالأفق المبين﴾ ، وقال : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ۞ فأين تذهبون ۞ إن هو إلا ذكر للعالمين۞ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ .

حادي عشر : الرد غير المباشر للتهمة . وهو في ثلاثة مقاطع هي : الإسراء الثاني ، والمؤمنون الثاني ، والجن . ففي الإسراء قال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ، فكما الإنس عاجزون عن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معارضة القرآن فكذا الجن ، فكيف يدعى أن القرآن من إلقاء الجن ؟! . وفي سورة المؤمنون قال : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ۞ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ ، فهـا هو القرآن الذي زعموا أنه من إلقاء الجن والشياطين يأمر محمدا ﷺ بالالتجاء إلـى الله مـن خنق الشياطين وصرعاتهم ، وبالاستعاذة به سبحانه حتى من اقترابهم منه في أي شـأن مـن شؤونه ، فكيف يدعى أن هذا القرآن من إلقائهم ؟! . وفي سورة الجن قال تعـالى : ﴿ عـالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ۞ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومـن خلفه رصدا ﴾ إلى قوله : ﴿ وأحصى كل شيء عددا ﴾ ، فالقرآن محفوظ من الجن والشياطين في نزوله وتبليغه .

المطلب الثالث : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن

اتسم أسلوب المشركين في إلقائهم فرية الجنون بالتنوع ، فكانوا تارة يستعملون التوكيـد وتارة لا يستعملونه ، وتارة يستعملون اسم المفعول (مجنون) ، وتارة يستعملون المصدر مع باء الملابسة (به جنة) ، وتارة يضمون وصفا آخر مع الجنون (شاعر مجنون) (معلم مجنون) ، وتارة يفردونه (لمجنون) ، وأحيانا يستعملون صيغة أخـرى غيـر الجنـون فيقولـون : (مسحورا) .

ففي الحجر قالوا : ﴿ إنك لمجنون﴾ ، فأكدوا الفرية بـ(إنّ) واللام المزحلقـة والجملـة الاسمية ؛ لأنهم قصدوا التلبيس عليه ﷺ مع كونه ينكر فريتهم ، فأكدوا له أن الذي يأتيك بهذا الذكر الذي تزعم أنه من عند الله ، إنما هو جنّي لا ملك .

وفي القلم قالوا : ﴿إنه لمجنون ﴾ لما سمعوا القرآن وبهروا به ، حتى إن أبصارهم كادت تصرع النبي ﷺ حسدا على ما أوتيه من هذا الكلام العجيب الذي عجزوا عن معارضته مـع أنهم أهل اللسان والبيان ، فناسب ذلك تأكيدهم ؛ تنفيرا عنه[1] ، ودفعا لما قد يتردد في نفوس بعضهم من تصديقه وقصد متابعته ، فقالوا : ﴿إنه لمجنون﴾ ، أي إنه ليس كلامـه ولا كـلام بشر ، إنما هو من كلام الجن يلقونه على لسانه ، فاستعملوا (إنّ) واللام المزحلقـة والجملـة الاسمية لتوكيد ذلك .

---

(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ترك التوكيد في مقطعي المؤمنون وسبأ ، فلأنّ الأول وهو قوله تعالى : ﴿ أم يقولون به جنة ﴾ أي جنون ، هو توبيخ قرآني على ما قالوه ، لا إيراد لمقالتهم . وأما الثاني وهو قوله تعالى على لسانهم : ﴿ أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾ ، فهم فيه متردّدون ، والتردّد في الوصف لا يلائمه التوكيد .

وأما في مقام الإعراض والتولي وإرادة التبرير لذلك ، فيلحظ أنهم يضمون وصفا آخر مع الجنون تقوية لتعللهم ، فقالوا في الصافات :﴿ أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ ، فبررّوا سلوكهم بأن ما يقوله ليس كلام الله كما يزعم ، إنما هو شاعر له شيطان يأتيه بهذا القول العجيب . وفي الدخان قالوا : ﴿ معلم مجنون ﴾ ، " أي : ضامّة من يعلّمه من الجن"[٢]. أو المعنى أنه قد تعلم ذاك الكلام العجيب – أي القرآن – من البشر ، ثم هو لجنونه يدعي أنه تلقاه من الله . كما يلحظ عليهم أنهم لم يبالغوا في التوكيد ، فاكتفوا بالجملة الاسمية ؛ لأنّ المقام ليس مقام جدل ومناظرة ، إنما مقام تبرير ، فلم يبالغوا في التوكيد إيهاما لغيرهم أنّهم واثقون من حكمهم ووصفهم الذي بنوا سلوكهم من الإعراض والتولي عليه .

وأما في الإسراء والفرقان فيلحظ استعمالهم عبارة واحدة في إلقائهم التهمة ، فقالوا : ﴿ إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ ، قال ابن عاشور : " والمسحور الذي أصابه السحر ، وهو يورث اختلال العقل عندهم ، أي ما تتبعون إلا رجلا أصابه خلل العقل ، فهو يقول ما لا يقول مثله العقلاء"[١] . واستعملوا لذلك صيغة القصر تأكيدا للفرية ، حيث قصروا اتباعهم على رجل مسحور ، أي ما تتبعون إلا رجلا مسحورا لا نبيا كما يزعم ، ففي الإسراء كان قصرهم قصر تعيين ؛ لأنهم كانوا يخاطبون بعضهم ممن خيف عليهم التأثر بما سمعوا من القرآن على لسان الرسول ﷺ ، وفي الفرقان كان قصرهم قصر قلب ؛ لأنه موجه للمؤمنين بدعوة النبي ﷺ[٢] ، والله أعلم .

---

(٢) الراغب ، **المفردات** ، ص ١٠٦ .

(١) ابن عاشور ، **التحرير و التنوير** ، ج ١٨ ، ص ٣٢٩.
(٢) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٣٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الرابع : الردّ على الفرية

كما كان القرآن منوّعا في عرضه لفرية الجنون ، فكذا كان منوِّعا في رده لها ، فمن ردّ على التهمة إلى ردّ على الشبهة الممهدة لها ، إلى ردّ ببيان الدافع وراء التهمة . والرد على التهمة كان قاصدا ما ترمي إليه سواء كان تفسير مصدر القرآن على أنه من إلقاء الجن على لسانه ﷺ نتيجة إصابته بمسّهم ، أو وصفهم له ﷺ باختلال العقل نتيجة ذلك المسّ أو نتيجة إصابته بالسحر لتفسير ما يقوله مما هو مخالف لتصوراتهم الفاسدة . وسأقوم بدراسة تلك الردود مقسّما لها بحسب ذلك التنويع القرآني ، فأبدأ بدراسة الرد على التهمة بمقصديها ، ثم الرد على الشبهات الممهدة لها ، ثم الرد ببيان الدوافع وراء التهمة .

أولا : الرد القرآني على فرية الجنون الرامية لتفسير مصدر القرآن

لجأ كفار مكة إلى وصف النبي ﷺ بأنه مجنون ؛ تبريرا لعدم إيمانهم بدعوته ، وتفسيرا منهم لمصدر ما يتلوه عليهم من الكلام العجيب – وهو القرآن – ، فقالوا : إن محمدا به مسّ من الجن يلقي على لسانه ذاك الكلام ، فرد الله تعالى على زعمهم هذا بعدة ردود ، فقال في الحجر : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ، قال الزمخشري : " فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رصد حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين "[١] . وقال في الإسراء :﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ ، فالقرآن كلام معجز للجن كما هو للإنس ، فكيف يدّعى أن مصدره الجن . وقال في سورة المؤمنون مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ۞ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ ، فهل يعقل لو كان مصدر هذا القرآن هو الجن والشياطين أن يأمروه بالاستعاذة بالله منهم ؟! . وقال في سورة الجن : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ۞ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلف رصدا ۞ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ ، فالله لا يطلع على غيبه إلا المرتضى من خلقه ، أما المجانين فكيف يرتضيهم لأعظم مهمة وأشرف عمل ، وهو النبوة ؟![٢] . ثم إن هذا القرآن محفوظ من الجن والشياطين في نزوله وتبليغه بما أرصده الله من الملائكة الحافظين لنبيه ﷺ ووحيه المنزل عليه ، يحفظونه من أمامه ومن خلفه حتى يبلغ الوحي دون تبديل أو تغيير أو زيادة أو نقص ، فلا يقدر جني أو شيطان من الاقتراب منه ﷺ ، فضلا عن أن يشوش عليه أو يخلط أو يزيد أو ينقص ، وفوق ذلك الحفظ الرقابة والإحصاء الإلهيين لهذا الوحي ، فأنّى لجني أو شيطان أن يحاول العبث به مع وجود كل ذلك .

وقال تعالى في التكوير عن القرآن: ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ، وهو الملك جبريل عليه السلام المبلغ له عن ربه عز وجل ، فليس بقول شيطان أو جني . ثم قال :﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ ، قال ابن عاشور : " فإن وصف (صاحب) كناية عن كونهم يعلمون خُلقه وعقله ، ويعلمون أنه ليس بمجنون ، إذ شأن الصاحب أن لا تخفى دقائق أحواله على أصحابه "[١]؛ لأن الصاحب حقيقته : " ذو الصحبة ، وهي الملازمة في أحوال التجمع والانفراد للمؤانسة والموافقة "[٢] ، فما قولهم عليه إنه مجنون إلا لقصد البهتان وإساءة السمعة[٣] . وأعقب تعالى ذلك بقوله : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ ، أي رأى ﷺ جبريل الأمين عليه السلام في جهة مطلع الشمس رؤية واضحة لا زيغ فيها ولا خيال ، قال البقاعي: " ولما كان المجنون لا يثبت ما يسمعه ولا ما يبصره حق الإثبات ،عطف عليه الإخبار برفعة شأنه في رؤية ما لم يره

---

(١) الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٥٥٨ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ص ١١٤٩ .

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص ١٥٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ج٣٠ ، ص ١٥٧.
(٣) المصدر نفسه ، ج٣٠ ، ص ١٥٨.
(٤) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ٣٤٤.
(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص ١٥٩ – ١٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غيره "[٤] . وقال ابن عاشور : " مناسبته أن المشركين كانوا إذا بلغهم أن الرسول ﷺ يخبر أنه نزل عليه جبريل بالوحي ، من وقت غار حراء فما بعده ، استهزأوا وقالوا : إن ذلك الذي يتراءى له هو جنّي ، فكذبهم الله بنفي الجنون عنه ، ثم بتحقيق أنه إنما رأى جبريل القوي الأمين في أفق واضح بيّن لا تشتبه فيه المرئيات ، ولا يتخيل فيه الخيال ، وجعلت تلك الصفة علامه على أن المرئي ملك وليس بخيال ؛ لأن الأخيلة التي يتخيلها المجانين إنما يتخيلوها على الأرض تابعة لهم على ما تعودوه من وقت الصحّة "[٥] . ثم قال تعالى مبالغا في نفي ما زعمه المشركون :﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ ، فالشياطين المرجومة الملعونة أصحاب فساد وإفساد ، فكيف لهم أن يأتوا بهذا المنهج القويم المتمثل في القرآن العظيم[٦] . ولما كان قولهم ذلك في غاية الضلال والبعد عن منهج العقلاء وطريقتهم في الاستدلال ، قال بعد ذلك موبخا لهم : ﴿ فأين تذهبون ﴾ ، قال الجمل : " وهذا استضلال لهم فيما يسلكون في أمر القرآن ، كما تقول لمن ترك الطريق الجادة : هذا الطريق الواضح ، فأين تذهب ؟! "[١] . ثم أثبت بطلان ما زعموه في القرآن قائلا : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، وهذا قصر إضافي يفيد إبطال أن يكون القرآن كلام مجنون أو قول شيطان رجيم كما زعموا[٢] ، " أي ما القرآن إلا تذكير لجميع الناس ينتفعون به في صلاح اعتقادهم وطاعة الله ربهم ، وتهذيب أخلاقهم وآداب بعضهم مع بعض ، والمحافظة على حقوقهم ، ودوام انتظام جماعتهم ، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه"[٣] ، فأين هذا من كلام المجانين وتخليط الجن والشياطين؟! . ثم إن الشياطين دعاة على أبواب الضلال والانحراف ، وتخليط المجانين لا صالحة فيه ، وأما القرآن فهو داعية الاستقامة والهدى والنور ، ولذا قال تعالى فيه : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين۝ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ . وفي تعليق الاستقامة بالقرآن بمشيئتهم تعريض بأن كفار مكة الذين اخترعوا تلك الفرية الشنيعة قد رضوا لأنفسهم بالاعوجاج ، ليعلم السامعون أن عدم اتباعهم للقرآن ليس لصحة ما قالوه فيه ، بل لأنهم أبَوا أن يهتدوا به كبرا وحسدا وعنادا[٤] .

---

(٦) ينظر: سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٣٠ ، ص ٣٨٤٣ .

(١) الجمل ، **الحاشية** ، ج٨ ، ص ٢٦٧.
(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص ١٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ج٣٠ ، ص ١٦٥ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ج٣٠ ، ص ١٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : الرد القرآني على فرية الجنون بمعنى اختلال العقل

كان لجوء كفار مكة إلى فرية الجنون إضافة إلى كونها تفسيرا منهم لمصدر القرآن ، فهي أيضا تحمل وجها آخر هو ما ينتج عن مس الجن من اختلال العقل . فلما كان ﷺ يأتيهم بما هو مخالف لتصوراتهم وعقائدهم الفاسدة ، كانوا يتهمونه بأنه مجنون مخبول لا يدري ما يقوله .

وردّ الله تعالى على ذلك بعدة ردود ، فدعاهم في الأعراف وفي سبأ إلى التفكر في أمر نبيه ﷺ ، فقال في الأعراف : ﴿ أولم يتفكروا ، ما بصاحبهم من جنة ﴾ ؛ لأن من أنعم الفكر في حاله ﷺ لا يمكن أن ينسبه إلى الجنون(٥) . وعبر بأنه صاحبهم لتأكيد النكير وتشديده ؛ لأن الصحبة مما يطلعهم على نزاهته ﷺ عن شائبة ما ذكروا(٦) . ثم أثبت حقيقته ﷺ المنافية للجنون فقال : ﴿ إن هو إلا نذير مبين ﴾ ، فقصره على الإنذار المبين تأكيدا لتكذيبهم(٧) ، قال الرازي : " ليس به نوع من أنواع الجنون ؛ لأنه عليه السلام كان يدعوهم إلى الله ، ويقيم الدلائل القاطعة والبينات الباهرة ، بألفاظ فصيحة بلغت في الفصاحة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضتها ، وكان حسن الخلق ، طيب العشرة ، مرضي الطريقة ، نقي السيرة ، مواظبا على أعمال حسنة صار بسببها قدوة للعقلاء العالِمين ، ومن المعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون "(١) . فثبت بذلك أن اجتهاده في الدعوة إلى التوحيد والملة القويمة إنما كان لأنه نذير مبين أرسله رب العالمين(٢) .

وأما دعوته تعالى لهم إلى التفكر الواردة في سبأ ، فقد كان فيها تفصيل وبيان لمنهج التفكر السليم المفضي إلى النتائج الصحيحة ، فقال : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة﴾ ، أي إن استكثرتم الحجج وضجرتم من الردود والمطاعن ، فأنا اختصر المجادلة في كلمة واحدة فقط ، طيا لبساط المناظرة ، وإرسالا على الخلاصة من المجادلات الماضية ، وتقريبا لشقة الخلاف بيننا وبينكم . وهذه الكلمة لن تكلفكم جهدا ولن تضيع عليكم زمنا، فاقبلوها وامتثلوا ما فيها(٣). ثم بينها بقوله :﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ ، فأمرهم – إن أرادوا الاهتداء حقا – أن يخلصوا نيتهم لله أولا ، دون هوى ولا عصبية ، ثم يبتعدوا عن التجمعات المشوشة للفكر ؛ لأن الاجتماع " مما يشوش الخواطر ، ويعمي البصائر ،

---

(٥) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٥ ، ص ٢٣٤ .
(٦) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٩ ، ص ١٧٠ .
(٧) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٣ ، ص ١٥٤ .

(١) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٥ ، ص ٤٢٠ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج١٥ ، ص ٤٢٠ .
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٢، ص ٢٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمنع من الرؤية ، ويخلط القول ، ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب "[٤] . وليكن تفكرهم اثنين اثنين ثم واحـدا واحـدا ؛ " لأن طلب الحق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحد ، فإذا انقدح الحق بين الاثنين ، فكر كل واحد منها بعد ذلك فيزيد بصيرة "[٥] . ثم إنّ ثاني الاثنين إنما يختار ثانيـه أعلـق أصحابه به ، وأقربهم منه رأيا ، فيسلم كلاهما من غش صاحبه[٦] . فإن فعلوا ذلك علموا يقينا براءته ﷺ من الجنون . والتعبير عنه ﷺ (بصاحبكم) " فائدته التنبيه على أن حاله معلوم لديهم ، لا يلتبس عليهم ؛ لشدة مخالطته بهم مخالطة لا تذر للجهالة مجالا ، فهم عرفوه ، ونشأ بينهم حتى جاءهم بالحق ، وهذا كقوله: ﴿ فقد لبثتُ فيكم عمُرا من قبله أفلا تعقلون ﴾(يونس :١٦)"[٧]. فهي إذن دعوة لهم " للإنصاف في النظر ، والتأمل في الحقائق ؛ ليتضح لهم خطـؤهم فيمـا ارتكبوه من العسف في تلقي دعوة الإسلام وما ألصقوا به وبالداعي إليه "[٨] . ثم بين تعـالى حقيقة نبيه ﷺ المنافية لما زعموه في حقه فقال: ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾، " أي هو مقصور على صفة النذارة ، لا تحوم حوله الأوصاف التي لمزتموه بها "[١]. وهـذا الرد مشابه للرد في مقطع الأعراف ، مع فارق أنه في الأعراف بيّن ظهور نذارته وجلاءها لكل من تأمل حاله ﷺ ، فهو حقا نذير لا مجنون ، أما في سبأ فبين أنه إنما ينذرهم لحرصـه وخوفه عليهم من عذاب يوشك أن يقع بهم ، لا لجنون أصابه ؛ لأنهم – كما مر فـي تعليـل الفرية – لما رأوا حرصه على دعوتهم مع إنذارهم ، من دون كلل ولا ملل ولا تعب ، تعجبوا من سلوكه ونسبوه إلى الجنون لذلك ، والله أعلم .

ومن رده تعالى على فرية الجنون أنه ﷺ قد جاء قومه بالحق لا بالباطل ، وبالهداية إلى الطريق المستقيم والمنهج القويم ، وهذا ينافي تخاليط المجانين الخالية من أي معنـى مفيـد ، فقال تعالى في سورة المؤمنون:﴿ بل جاءهم بالحق ﴾ ، وقال في الصافات: ﴿ بل جاء بالحق﴾ ، فأثبت كون الرسول ﷺ على غير ما وصفوه من الجنون ، إثباتا بالبينة[٢] ، قال الـرازي : " جاء بالدين الحق ؛ لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك ، فلمـا جـاء محمد ﷺ بتقرير هذه المعاني كان مجيئه بالدين الحق "[٣] . فهو " رد عليهم وتكذيب لهم ببيان

---

(٤) الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٨٧٧ .
(٥) ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٥٤٢ .
(٦) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٢، ص٢٣٣.
(٧) المصدر نفسه ، ج٢٢، ص٢٣٤ .
(٨) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٢، ص ٢٣١ .

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج٢٢، ص ٢٣٥ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٣ ، ص ١٠٨ .
(٣) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٦ ، ص ٣٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام من التوحيد هو الحق الثابت الذي قام عليه البرهــان "[٤] ، فأين الجنون من ساحته ﷺ الرفيعة الشأن[٥] . وقال ابن عاشور: " فالحق الذي جاءهم به النبي أوله إثبات الوحدانية لله تعالى ، وإثبات البعث ، وما يتبع ذلك من الشرائع النازلــة بمكــة ، كالأمر بالصلاة والزكاة وصلة الرحم ، والاعتراف للفاضل بفضله ، وزجر الخبيث عن خبثه ، وأخوة المسلمين بعضهم لبعض ، والمساواة بينهم في الحق ، ومنع الفواحش من الزنى وقتل الأنفس ، ووأد البنات ، والاعتداء وأكل الأموال بالباطل ، وإهانة اليتيم والمسكين ... ، فكــلّ ما جاء به الرسول يومئذ هو الموافق لمقتضى نظام العمران الذي خلق الله عليه العالم ، فهــو الحق ، كما قال : ﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ﴾(الدخان :٣٩) "[٦] . فهل يصح أن يصدر كل ذلك عن تخاليط مجنون ؟! . وكذلك قال تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ " تشهد العقول السليمة باستقامته ، ليس فيه شائبة اعوجاج توجب الاتهام "[٧].

ومن ردود القرآن – أيضا– على تلك الفرية إثبات حقيقة الرامين بها ، مثل مــا أثبــت حقيقة المرمي بها ﷺ – كما مر– ، فقال في سبأ :﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العــذاب والضلال البعيد﴾ ، فهو إثبات لحقيقة حالهم السيئ ، وإبطال لما قالوه في حقه ﷺ مــن فريــة الجنون ، كأنه قيل: ليس الأمر كما زعموا ، بل هم في كمال اختلاط العقل وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقة[١] ؛ لأنهم " أنكروا حكمة الله تعالى في خلق العالم "[٢] ، فكذبوا بالآخرة وما فيها من الحساب والجزاء ، الذي يعطي كل ذي حق حقــه ، فيعــرف الضال من المهتدي ، والظالم من المظلوم ، ثم يأخذون جزاءهم . وكذلك فإن " مــن يــسمّي المهتدي ضالا يكون هو الضالّ ، فمن يسمي الهادي ضالا يكون أضل ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد"[٣] . كما " أنهم وصفوا رجلا معروفا بــين العقــلاء ، مــذكورا برجاحة العقل والأمانة في الجاهلية ، فوصفوه بأنه مجنون ، فكانوا كمن زعم أن النهار ليل ، ومن وصف اليوم الشديد البرد بالحرارة "[٤] ، فهذا هو المجنون ، فكيف إذا كان ضلالهم هذا يسوقهم إلى العذاب المحتم ، وهم مع ذلك يتخبطون فيه ، فهل بعد هذا الجنون من جنون؟! . وقال في القلم : ﴿ فستبصر ويبصرون ۞ بأيكم المفتون ۞ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن

(٤) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٣ ، ص ١١٤.
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج ٢٣، ص ١١٤.
(٦) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٩٠ .
(٧) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص٣٤٧.

(١) ينظر : أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٥ ، ص ٢٤٨، والجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٢١٥.
(٢) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٢، ص ٣٩٠ .
(٣) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٥ ، ص ١٩٥.
(٤) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ ، قال الآلوسي : " أي هو سبحانه أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى سعادة الدارين ، وهامَ في تيه الضلال متوجها إلى ما يقتضيه من الشقاوة الأبدية ومزيد النكال ، وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضر ، بل يحسب الضرر نفعا فيؤثره ، والنفع ضررا فيهجره "(٥) . ومما يدل على أنهم هم الأحقاء بوصف الجنون مع بطلان ما وصموا به رسول الله ﷺ من ذلك ، ما أورده القرآن مما وقعوا فيه من تناقض عجيب ، فكانوا تارة يرمونه ﷺ بأنه كاهن ، وتارة بأنه شاعر ، وتارة يقولون مجنون ، وتارة يقولون معلّم ، وتارة يجمعون فيقولون كما في الصافات : ﴿ شاعر مجنون﴾ ، قال أبو حيان عن هذا الأخير : " تخليط في كلامهم ، وارتباك في غيهم ؛ فإن الشاعر هو عنده من الفهم والحذق وجودة الإدراك ما ينظم به المعاني الغريبة ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة ، ومن كان مجنونا لا يصل إلى شيء من ذلك "(٦) . وكذا جمعهم بين الكهانة والجنون ، كما يفهم من مقطع الطور ، قال الآلوسي : فإن الكاهن والشاعر يكونان ذوي عقل تام وفطنة وقادة ، والمجنون مغطى عقله ، مختل فكره . وهذا يعرب أن القوم لتحيرهم وعصبيتهم وقعوا في حيص بيص ، حتى اضطربت عقولهم وتناقضت أقوالهم ، وكذّبوا أنفسهم من حيث لا يشعرون(١) . وكما قالوا في الدخان أيضا : ﴿ معلم مجنون﴾ ، فالمجنون لا يكون معلما ولا يتأثر بالتعليم(٢) . وكذلك تناقضهم بين فرية السحر وفرية الجنون ؛ "لأن الساحر يكون لبيبا فطنا آتيا بما يعجز عنه كثير من الناس ، والمجنون بالضد من ذلك"(٣) . قال البقاعي : " فلم يبالوا بالتناقض البيّن الأمر ، وهذا يدل على أن من لا يبالي بعرضه ولا حياء له ، لا طيب لدائه ؛ لأنه لا وجود لدوائه "(٤) ؛ ولذلك وبخهم القرآن بقوله في الطور: ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ ، " إشارة إلى أنه ليست لهم عقول أصلا ، لما صدر عنهم من هذا التناقض"(٥) .

ويُظهر فساد فريتهم كذلك ما أورده القرآن من وقوعهم أحيانا في التردد في الوصف ، كما جاء في سبأ من قولهم : ﴿ أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾ ، وهذا التردد يدل على أنهم غير جازمين في حكمهم ، مما يدل على بطلانه .

ومما رد القرآن به على فريتهم– أيضا – تصويره لشناعة سلوكهم تجاه الرسول المبين الظاهر أمره ، المؤيد بالمعجزات والآيات الدالة على صدقه ، لكنهم بدلا من تصديقه واتباعه

---

(٥) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٩ ، ص ٤٢.
(٦) أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٩ ، ص ٩٩.

(١) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٧، ص ٥٣ – ٥٤ ، (بتصرف يسير) .
(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٥ ، ص ٢٩٢.
(٣) البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٧ ، ص ٢٨٨.
(٤) المصدر نفسه ، ج٧ ، ص ٦٩.
(٥) المصدر نفسه ، ج٧ ، ص٣٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عكسوا الأمر فاتهموه بالجنون والتخليط والهذيان ، فقال في الدخان :﴿ أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ۞ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون﴾ .

كما رد القرآن عليها ببيان أن تلك الفرية هي دأب الأقوام مع رسلهم عبر الأزمان والدهور ، فقال في الذاريات : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ ، فلا يفهمن السامع لما قاله كفار مكة من تلك الفرى أنهم قالوها عن دراية ومعرفة واكتشاف ، إنما حالهم كحال من سبقهم ، فهي حيلة المعاند في كل زمان ومكان .

ومن الردود القرآنية على فرية الجنون كذلك ما جلّاه القرآن من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على نبيه ومصطفاه ﷺ ، المنافية والمناقضة لما لمزه به كفار مكة ، فقال في الطور : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ، وقال في القلم : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ ، وهذا " يدل على أن نعم الله تعالى كانت ظاهرة في حقه ، من الفصاحة التامة والعقل الكامل والسيرة المرضية والبراءة من كل عيب والاتصاف بكل مكرمة ، وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة ، فوجودها ينافي حصول الجنون . فالله تعالى نبّه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له (إنه مجنون) "[(١)] . وقد أبرز الله تعالى من تلك النعم نعمتين ، فقال في سورة القلم :﴿ وإن لك لأجرا غير ممنون ۞ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ، فأما الأولى فأثبت له ﷺ الأجر المستلزم للعقل ؛ لأن المجنون ليس له عمل منتظم ولا قول معتبر ، فلا يستعمله أحد في شيء ليكون له عليه أجر . وأما الثانية فأثبت له الخلق العظيم ، وهذا الخلق هو نتيجة الهدى ، والهدى نتيجة العقل[(٢)] . وكذلك ، قال الرازي : " لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه ، ومن كان موصوفا بتلك الأخلاق والأفعال لم يَجُز إضافة الجنون إليه ؛ لأن أخلاق المجانين سيئة "[(٣)] .

كما رد الله تعالى فريتهم بإثباته حقيقة كتابه المجيد المنافية للجنون وما يأتي منه ، فقال في سورة القلم : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، قال الرازي : " أي ما هذا القرآن الذي يزعمون أنه دلالة جنونه إلا ذكر للعالمين ، فإنه تذكير لهم ، وبيان لهم ، وتنبيه لهم على ما في عقولهم من أدلة التوحيد ، وفيه من الآداب والحكم ، وسائر العلوم ما لا حد له ولا حصر ، فكيف يُدعى من يتلوه مجنونا ونظيره مما يذكرون ، مع أنه من أدلة الأمور على كمال الفضل والعقل "[(٤)] .

---

(١) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٣٠ ، ص ٦٠٠.
(٢) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ٩٧.
(٣) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٣٠ ، ص ٦٠١ .
(٤) المصدر نفسه ، ج٣٠ ، ص ٦١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأوصاف التي اخترعها كفار مكة لرميه ﷺ باختلال العقل وصفه بأنه مسحور ، فقال تعالى عنهم في الإسراء والفرقان : ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ . ومن عجائب القرآن أنه كما كانت صيغة إيراد الفرية في السورتين واحدة ، فكذا كان الرد عليها في كلتيهما واحدا ، فقال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ . والذي يظهر لي – والله أعلم – أن وصفه ﷺ بأنه مسحور كان آخر ما في جعبة القوم من فرى واتهامات وجهوها لمقامه الشريف ؛ استئناسا بترتيب نزول السور المكية(٥) ، فقد سُبقت سورتا الإسراء والفرقان بسورتي ص والمدثر الواردة فيهما فرية السحر ، وبسورة يس المتضمنة الرد على فرية الشعر ، وبسورتي الأعراف والقلم المتضمنتين الرد على فرية الجنون الذي بمعنى اختلال العقل بسبب مس الجن ، فكان وصفهم له ﷺ بأنه مسحور – أي إصابته باختلال العقل بسبب أنه سحر – هو آخر تلك الافتراءات ؛ ولذا كان الرد عاما ، شاملا جميعها بقوله تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، وهذا تعجيب من ضلالهم في تلفيق المطاعن التي لا تجدي ولا تقنع أحدا بما يحقق لهم ما يريدون ، وأنّى لهم أن يجدوا ذلك ! ، فهم إذن قد اشتغلوا بما لا فائدة لهم فيه(١) . " وسمّيت أمثالا باعتبار حالهم ؛ لأنهم تحيّروا فيما يصفونه به للناس ، لئلا يعتقدوه نبيا ، فجعلوا يتطلبون أشبه الأحوال بحاله في خيالهم فيلحقون به"(٢) ، فلم يكونوا متيقنين مما رموه به ﷺ من أوصاف ، وإنما كان ذلك منهم على جهة التشبيه(٣) . ووصف القرآن لهم بالظلم في إيراده لفريتهم بقوله : ﴿ وقال الظالمون ...﴾ تنبيه على أن قولهم هذا اعتداء على الرسول ﷺ برميه بما هو بريء منه ، وهم يعلمون أنه ليس كذلك ، فظلمهم له أشد ظلم(٤) .

ثالثا : الرد القرآني على الشبهات الداعمة لفرية الجنون

أورد كفار مكة – تبريرا لفريتهم – عدة شبهات ، ظنوها دعائم قوية لما زعموه في حقه ﷺ ، لكنها كانت خيوطا واهية أمام رد القرآن ، سرعان ما انقطعت وتلاشت . ومن تلك الشبهات اقتراحهم نزول الملائكة تأييدا وتصديقا له ﷺ في دعوته ، وإذ لم يكن ذلك فهو – بحسب زعمهم – إما مصاب بمس من الجن أو بسحر أدى إلى اختلال عقله فهو يزعم أنه رسول الله ، فقالوا في الحجر: ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ ، وقالوا في

---

(٥) ينظر ، الزركشي ، **البرهان** ، ج١، ص ٢٤٩.
(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٣٠ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٥ ، ص ٣٣٦ .
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٥ ، ص ١٢٢.
(٣) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز**، ص ١١٤٧.
(٤) ينظر ، ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفرقان : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ . فرد الله تعالى شبهتهم بقوله في الحجر: ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾ ، قال سيد قطب : " والرد على ذلك التهكم وتلك الوقاحة وهذا الجهل ، هو ذكر القاعدة التي تشهد بها مصارع السالفين : أن الملائكة لا تنزل على الرسول إلا لهلاك المكذبين من قومه حين ينتهي الأجل المعلوم ، وعندئذ فلا إمهال ولا تأجيل ... ، فهل هو ما يريدون وما يتطلبون ؟! "(٥) . فأراد سبحانه بهذا الرد تعليمهم المَيز بين آيات الرسل وآيات العذاب(٦) . كما رد الله تعالى على هذه الشبهة في موضع آخر من كتابه ، فقال في سورة الأنعام :﴿ ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾(الأنعام:٨) ، أي لهلكوا بسبب مشاهدتهم لهذا الملك على صورته الحقيقية ؛ لمزيد هول المنظر مع ما هم فيه من ضعف القوى وعدم اللياقة(٧) . أو المعنى : ولو أنزلنا ملكا فعاينوه على صورته الحقيقية ، وهي آية خارقة لا شيء أبين منها ، ثم لم يؤمنوا ، لجاءهم العذاب عاجلا غير آجل ، ولأهلكوا(١) . وأتبع ذلك تعالى بقوله : ﴿ ولو جعلنا ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾(الأنعام:٩) ، أي لو أجبناهم وأنزلنا عليهم ملكا من السماء لجعلناه في صورة رجل من البشر ؛ لأنهم لا يقدرون أن يروا الملك في صورته الحقيقية ، وحينئذ يلتبس عليهم الأمر فلا يصدقون أنه ملك(٢) ، فيبقون على تكذيبهم .

ومن شبهاتهم التي أوردوها كذلك شبهة المماثلة ، أي مماثلة حاله ﷺ لأحوال الناس ، من أكل الطعام وطلب المعاش وغير ذلك ، فقالوا في الفرقان : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ۞ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ ، فرد الله تعالى على مقولتهم بعدة أجوبة ، فأما قولهم : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ ، فكان الرد عليه قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ ، فبيّن أن ما جعلوه وصمة في حقه ﷺ هو سنته سبحانه في الرسل من قبله ، من الأكل والمشي لطلب المعاش كحال سائر الآدميين ، وكفار مكة يعلمون ذلك لما سمعوا من أخبار أولئك الرسل(٣) ، قال ابن عاشور : " ولم يكن المشركون منكرين وجود رسل قبل محمد ﷺ ، فقد قالوا :﴿ فليأتنا بآية كما أرسل

---

(٥) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٤ ، ص ٢١٢٧.
(٦) ينظر ، ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤، ص ١٨.
(٧) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٧ ، ص ١٢٥.

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٧، ص ١٧٨، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٧ ، ص ١٢٦ .
(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٧، ص ١٧٩.
(٣) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٥ ، ص ٣٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأولون﴾(الأنبياء:٥) "[٤] . وأجاب تعالى عن قولهم : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا﴾ بما سبق بيانه في الشبهة السابقة .

أما اقتراحهم الثاني :﴿ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ ، فأجاب تعالى عنه بقوله : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ﴾ ، فنبه سبحانه بذلك على أنه قادر على أن يعطي رسوله ﷺ خيرا مما ذكروه ، فبدل الجنة التي يأكل منها يجعل له جنات كثيرة تجري من تحتها الأنهار، فيها أكله وشربه ، ولا يتكلف عناء سقيها ولا استجلاب الماء لها ، وبدل الكنز يجعل له قصورا كثيـرة ، فهـي أظهر في الأبهة وأملأ لعيون الناس من الكنز ، ولأن الكنز إنما يطلب لتحصيل مثل ذلك من الجنات والقصور وقد لا يفي بتحصيله[٥] ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك له ﷺ في الدنيا لحكمة ، أشار إليها بقوله : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ ، قال الآلوسي : " فكأنه قيـل : جعلناك [أي يا محمد] فتنة لأمتك ؛ لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات ، لكان ميلهم إليـك وطاعتهم لك للدنيا ، أو ممزوجة بالدنيا ، وإنما بعثناك لا مال لك ليكون طاعة مـن يطيعـك منهم خالصة لوجه الله تعالى من غير طمع دنيوي "[١] . وكذلك اختبار الأشراف من أهل مكة بصبرهم على ما أعطيه الرسول ﷺ من الكرامة وشرف النبوة والبلوغ في القرب من الله قدرا لم يبلغوه ، مع ما هم فيه من العظمة وما هو عليه من الفقر[٢] .

ومن الشبهات التي استدعموا بها فريتهم – أيضا– استبعادهم وإنكارهم لما أخبرهم به ﷺ وقرره القرآن من حتمية البعث بعد الموت ، فقالوا في الإسراء : ﴿ أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾ ، وقالوا في سبأ على سبيل التعجب والاستهزاء والتضاحك فيما بيـنهم :﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ . فأما مقولتهم فـي الإسراء فرد الله عليهم بقوله : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا ۞ أو خلقـا ممـا يكبـر فـي صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذي فطركم أول مرة ﴾ ، فهم لما قـالوا : أئـذا كنـا عظاما ورفاتا ، قال لهم : كونوا حجارة أو حديدا ولا تكونوا عظاما ورفاتا ، فـإن الله قـادر على إحيائكم . وذلك أنهم كانوا يستبعدون إعادة الحياة إلى العظام اليابسة البعيدة عن رطوبـة الحي و غضاضته ، مع أنها بعض أجزاء الحي ، فقيل لهم : لو كنتم أبعد شيء مـن الحيـاة ورطوبة الحي من الحجارة أو الحديد أو أي شيء آخر يعظم في نفوسكم قبوله للحياة ، لكـان

---

(٤) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٤٣.
(٥) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٥٨٢ (بتصرف وزيادة) .

(١) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص٦٠٢ ، وينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٧٤٣ .
(٢) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٥ ، ص ٣٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الله قادرا على إحيائكم وردّكم[٣] . ويذكر القرآن بعد ذلك ما يكون من ردهم على ما سـمعوه ليرد عليهم بعده ، فيقول عنهم :﴿ فسيقولون من يعيدنا﴾ ، فيأتي الرد بقوله :﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ ، أي إن الذي فطركم " وكنتم ترابا ما شمّ رائحة الحياة ، أليس الذي يقـدر علـى ذلك بقادر على أن يفيض الحياة على العظام البالية ويعيدها إلى حالها المعهودة ؟ ، بلى "[٤] ، " فكما لم تعجز تلك القدرة عن البداءة فهي لا تعجز عن الإعادة "[٥] .

وأما ما قالوه في مقطع سبأ فرد الله عليهم بقوله : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم ومـا خلفهم من السماء والأرض ﴾ ، فحثهم على التأمل والتدبر فيما هو محيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، فهم حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مطلة عليهم ، والأرض تحتهم وحولهم ، فمن قدر على هذا الخلق العظيم لا يعجزه أن يبعث من مخلوقاته ما هو دون ذلك ، ويعيده إلى ما كان عليه من الذات والصفات ، كما قال تعالى : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(غافر:٥٧) . لكن هذه الآية وغيرها مع كونها معروضة أمـامهم في كل حين ، إلا أنهم لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ، لا لكونها لا تدل على المراد بل لأنهم فاقدين لصفة الإنابة ، وهي رجوع الإنسان بفكره إلى البحث عما فيه كماله النفساني ، وحسن مصيره في آخرته ، فهو يقدر المواعظ حق قدرها ، ويتلقاها بالشك في نفسه دون تزكيتهـا ، فيعاود النظر فيما وعظ به حتى يهتدي ، فلا يرفض نصح الناصحين[١] . وعليه فالمنيـب لا يخلو من النظر في آيات الله عز وجل والتفكر فيها[٢] ، فهو المنتفع بها دون غيره ؛ ولـذلك قال الله في ختام رده على شبهتهم :﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ .

وأما شبهة إنكارهم وحدانية الإله الواردة في مقطع الصافات في قولهم :﴿ أئنا لتـاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ ، فقد ردها القرآن بقوله عنه ﷺ : ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ ، أي أن ما جاء به من التوحيد حق ، قام عليه البرهان وتطابق عليه كافـة الرسـل علـيهم السلام[٣]الذين تقرر صدقهم واشتهر اتباع الناس لهم[٤]، فلم يأت ﷺ بأمر مبتدع لا سابق له به.

وأما إنكارهم بشرية الرسول التي أوردوها ضمن اعتراضهم على مماثلة حاله ﷺ لحـال غيره من الناس بقولهم : ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ﴾ ، فكان الرد عليه ما مر سابقا من

---

(٣) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٥٩٩.
(٤) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٥، ص ١١٨.
(٥) البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٤ ، ص ٣٩٢.

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٢، ص ١٥٤.
(٢) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٢، ص ٣٩١- ٣٩٢ .
(٣) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٣٣٥.
(٤) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٣٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام﴾ ، فهؤلاء الرسل الذين أقر بهم كفار مكة كانوا بشرا يأكلون الطعام لا ملائكة ، ومحمد ﷺ مثلهم .

رابعا : الرد القرآني بإيراد الدوافع الحقيقية وراء فرية الجنون

كان من طريقة القرآن في رده لفرية الجنون إيراده الدوافع الحقيقية وراءها ؛ كي يتبين زيفها وزيف شبهاتهم الداعمة لها . ومن تلك الدوافع مخالفة ما جاء به ﷺ لأهوائهم وما يشتهون ويألفون ؛ مما جعلهم يكرهون دعوته ثم يحاربونها بالقدح والتشويه . ويظهر هذا من قوله تعالى في سورة المؤمنون:﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾ ، قال سيد قطب: " إنه ما من شبهة من هذه الشبهات يمكن أن يكون لها أصل ، إنما هي كراهية أكثرهم للحق ؛ لأنه يسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون ، ويصدم أهواءهم المتأصلة التي بها يعتزّون"[٥] . وعلى راس تلك الأهواء الفاسدة الراسخة في نفوسهم اعتقادهم تعدد الآلهة ، وأن الملائكة بنات الله ، وإنكارهم البعث والدار الآخرة ، ورغبتهم في الاحتكام إلى أهوائهم وشهواتهم فيما يأتون وما يذرون ... ؛ ولذلك فقد جلّى القرآن شناعة تلك الأهواء التي كانت الوقود المحرك لكفار مكة في كراهيتهم للحق وحربهم له ، فقال :﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ﴾ ، وبيان ذلك أنه لو كانت الحقيقة هي تعدد الآلهة – كما يشتهون– لفسدت العوالم ، بحكم قوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾(الأنبياء :٢٢) . ولو فرض عدم البعث للجزاء لكان الثابت أن لا جزاء على العمل ، فلم يعمل أحد خيرا ؛ إذ لا رجاء في ثواب ، ولم يترك أحد شرا إلا فعله ؛ إذ لا خوف من عقاب ، فيغمر الشر الخير والباطل الحق ، وذلك فساد لمن في السماوات والأرض . وكذا لو حسن الحق الاعتداء والباطل ، و قبّح العدل ، لارتمى الناس بعضهم على بعض بالإهلاك جهد المستطاع ، فهلك الضرع والزرع . ولو كان حقيقة أن الملائكة بنات الله كما زعم المشركون ، لوجب كونهم آلهة ، فيلزم منه ما لزم من تعدد الآلهة من الفساد . كما أن هؤلاء الملائكة – على فرض تعدد الآلهة – سينقسمون بينها ، وكل إله سيسخّر ملائكته في خدمته وفرض سلطانه على حساب الآلهة الأخرى ، فيقع النزاع ويفسد العالم . هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ أهواءهم لم تتفق في كل شيء ، بل هي في كثير من الأحيان مختلفة متناقضة ، فلو اتّبع الحق كل ساعة هوىً مخالفا للهوى الذي اتّبعه قبل ذلك فلن يستقر نظام ولا قانون . وهذا الفساد العارم هم مشمولون به ؛ لأنهم من جملة هذا العالم ، وعليه فإنهم لا يميزون بين ما يضرهم وما ينفعهم

(٥) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٨ ، ص ٢٤٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، وكفى بذلك شناعة لكراهيتهم الحق ، وإبطالا لزعمهم أن ما جاء به الرسول ﷺ تخاليط مجنون[١] .

وبعد أن بين القران كراهيتهم الحق ، الناشئة عن مخالفته أهواءهم الفاسدة ، أضرب عنه مبينا حقيقة كتابه الذي أنزله إليهم ، المناقض لتلك الأهواء ، والذي فيه صلاح السماوات والأرض ومن فيهن ، فقال: ﴿ بل أتيناهم بذكرهم ، فهم عن ذكرهم معرضون﴾ ، فهو تذكير لهم بكل ما يصلح شؤونهم من العقائد والشرائع ، وفيه ذكرهم وشرفهم إن آمنوا به واتبعوه ، لكنهم لقبح مسلكهم وسوء طويتهم قابلوه بالإعراض ، مقدمين ما يضرهم من الأهواء الفاسدة على ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وكفى بذلك شناعة و دلالة على كونهم الأحقاء بصفة الجنون .

ومن دوافعهم التي أوردها القران في سياق رده على فريتهم ، تكذيبهم بالساعة والحساب والجزاء ، فقال في الفرقان بعدما أورده من اقتراحاتهم وشبهاتهم : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ ، أي ليس الأمر ما طرحوه من شبه وطعون ولذا كذبوك يا محمد ، إنما الأمر هو تكذيبهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء ، فهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ؛ ولذا لا يتحملون كلفة النظر والفكر في الدلائل على صدقك ، ولا يتحرجون من ظلمك والافتراء عليك[١] .

ومن تلك الدوافع أيضا دافع الطغيان . قال تعالى في الذاريات بعد تعجيبه من سلوك الأقوام مع رسلها وما أجمعوا عليه من رميهم بالسحر أو بالجنون ، مع تباعد ما بينهم في الأمكنة والأزمنة : ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ ، فأضرب عن مفاد الاستفهام ببيان سبب التواطؤ ، فإنه إذا ظهر السبب بطل العجب ، أي إن سبب تماثل المقالة هو تماثل الداعي لها ، إذ جميعهم قوم طاغون[٢] . والطاغي : هو المستعلي في الأرض ، المفسد ، العاتي على الله ، المتجاوز الحد في العناد مع ظهور الحق له[٣] . وعليه فإنّ طغيانهم وكبرياءهم كان يصدهم عن اتباع رسول يحسبون أنفسهم أعظم منه ، وإذ لا يجدون وصمة يصمونه بها ، اختلقوا لتنقيصه عللا ، كادعاء أنه مجنون أو أنه ساحر[٤] . وقال في الطور بعد توبيخه لكفار مكة لما أوردوه من أوصاف متناقضة في حقه ﷺ ، مما هو مخالف لما تأمر به العقول السليمة الرشيدة : ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ ، فهم مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد ، لا يحومون

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج١٨، ص ٩٣- ٩٤ .

(١) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٤ ، ص ٤٣٦ ، وسيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٩، ص ٢٥٥٤.
(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٢٢ – ٢٣ .
(٣) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٧٦٨ ، والزمخشري ، **الكشاف** ، ص ١٠٥٧.
(٤) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧، ص ٢٢ – ٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حول الرشد والسداد ؛ ولذلك يقولون ما يقولون من المتناقضات والأكاذيب المحضة الخارجة عن دائرة العقول [٥] .

هذا ما يتصل بردّ القرآن على فرية الجنون . وهناك وجوه أخرى ذكرها العلماء للـردّ على هذه الفرية ، أوردها فيما يلي :

أولا : أنّ الجنون يستلزم عادة التخليط في الكلام ، فهو إذن أباطيل وأغاليط ، فأين هذا مما جاء به محمد ﷺ من القرآن العظيم المشتمل على البراهين والآيات العظام ، التي انقطعت دونها أنظار العقلاء ، قد بسطها القرآن في نسق موجز ، ونظم معجز ، وتلاؤم يبهر العقول ، وعبارة تفوق كل مقول ؟! ، فالفرق بين الحكمة وفصل الخطاب الذي جاء به محمد ﷺ وبين

ما يكون من المجنون لا يخفى على ذي فطرة ، أو من له مسكة عقل[١] .

ثانيا : أن هذا الأمر العظيم وهو النبوة ، الذي تحته ملك الدنيا والآخرة جميعا ، لا يتصدى لادعائه إلا ثلاثة رجال : إما مجنون لا يبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه ، بل لا يدري ما الافتضاح ولا عواقبه أصلا ، وإما صاحب هوى وضلالة ، متبوع في قومه ، قد استخف بعقولهم فأطاعوه ، كمسيلمة الكذاب ونحوه ، وإما عاقل راجح العقل ، صاحب هدى واستقامة وصدق ، مؤيد من عند الله تعالى ، واثق من صحة حجته وبرهانه . وقد علمت قريش أن محمدا ﷺ ما به من جنون ولا انحراف ، بل علموه أرجحهم وأرزنهم عقلا ورأيا ، وأصدقهم قولا ، وأزكاهم نفسا ، وأفضلهم علما وأحسنهم عملا ، وأجمعهم للكمالات البشرية[٢] ، قال سيد قطب : " فلم يعرفوا عنه قبل خللا عن السواء ، وشهدوا لـه بالأمانة والصدق كما شهدوا له بالحكمة ، وحكموه في الحجر الأسود ، وارتضوا حكمه ، واتقوا بهذا الحكم فتنة بينهم كادت تثور[٣] ، واستأمنوه على ودائعهم ، وظلت عنده حتى خرج مهاجرا ، فردها لهم عنه ابن عمه علي كرم الله وجهه"[٤] . وذلك الكمال البشري كيف إذا انضم إليه من

---

(٥) ينظر :الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٧ ، ص ٥٤ .

(١) ينظر : ابن عطية ، **المحررالوجيز** ، ص ١٣٣٥ ، وأبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٧ ، ص ٥٧٤ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٢١٢ ، و ج٨ ، ص ٩٧ .
(٢) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٨٧٧ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٢، ص ٤٤٨ .
(٣) ينظر : تفصيل القصة : ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، ج١ ، ص ١٤٢ – ١٤٦ .
(٤) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٩ ، ص ١٤٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعجزات والآيات ما تخر له صم الجبال[٥] ، أيبقى هناك مجال لدعوى الجنون ؟!، الجواب : كلا ، وألف كلا .

ثالثا : القرآن إضافة لإعجازه اللفظي التركيبي البياني ، هو معجز في تشريعه أيضا ، فهو " منهج حياة كامل ، منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التي تصرّف النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها ، والتي تصرّف الجماعات الإنسانية في كل ظروفها وأطوارها ، ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة ، بالقوانين الملائمة للفطرة ، المتغلغلة في وشائجها ودروبها ومنحنياتها الكثيرة ، يعالجها علاجا متكاملا متناسق الخطوات في كل جانب ، في الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ، ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة في حياة الفرد وحياة الجماعة ؛ لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة في كل أحوالها وملابساتها المتشابكة "[٦]، فهل هذا القرآن كلام مجنون ؟!، "والمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة ؟! "[١].

رابعا : ما رُويَ من أن الملأ من قريش ما كانوا يملكون أن يمنعوا أنفسهم عن الاستماع للقرآن ، كما في قصة الأخنس بن شريق وأبي سفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام في استماعهم للقرآن من النبي ﷺ خلسة ليالي ثلاثا[٢] . وما روي أيضا من تأثرهم به ، كما في قصة عتبة بن ربيعة عند سماعه من النبي ﷺ مقدّمة سورة فصلت ، وهزته أمام إيقاعاتها المزلزلة[٣] . وكذا ما كان من تآمرهم قبيل موسم الحج في أمره ﷺ وما يقولونه للناس في شأنه وشأن ذلك الكلام العجيب الذي أتى به وهو القرآن ، وما كان من تخبطهم في ذلك حتى انتهى الوليد بن المغيرة إلى أن يقولوا لوفود الحجيج من العرب : إنه ساحر ، وما أتى به سحر[٤][٥] . كل هذا وغيره ينفي ما بهتوه به ﷺ من فرية الجنون ، فالمجنون يعرف من أدنى معاملة أو مكالمة ، فلا يحتاج أمره إلى مؤامرات ومداولات ! . والمجنون لا يؤبه لكلامه وتخليطه ، فكيف – لو كان ﷺ مجنونا كما زعموا – تختلس الأوقات في ثنايا الظلمات ، لاستماع ما يتلوه من كلام ربه – عز وجل – لثلاث ليالٍ متوالية ؟! ، بل كيف بهم يتأثرون بهذا الكلام الذي زعموا أنه تخليط مجنون ؟! .

---

(٥) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٢ ، ص ٤٤٩ .
(٦) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٥ ، ص ٢٢٥٠.

(١) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٣ ، ص ٢٨٦.
(٢) ينظر تفصيل القصة : ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، ج١ ، ص ٢٣٣ .
(٣) ينظر تفصيل القصة : المصدر نفسه ، ج١، ص ٢١٣.
(٤) ينظر تفصيل القصة : المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٩٨.
(٥) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٩، ص ١٤٠٤-١٤٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الخامس : أسلوب القرآن في رد الفرية

إن المتأمل في أسلوب القرآن في رد فرية الجنون يجده يقوم على أربعة أمور ، هـــي : التوبيخ ، والتعجيب ، والتوكيد ، والتحدي . وفيما يلي تفصيل ذلك :

أولا : التوبيخ . ويبرز هذا الغرض في ستة مقاطع، الأول : قوله تعالى في الأعراف: ﴿ أولم يتفكروا ﴾ ، فهذا استفهام يفيد توبيخ كفار مكة والإنكار عليهم[(١)] لعدم تفكرهم في أمره ﷺ قبل أن يقدحوا في مقامه الشريف ، البريء مما زعموه . الثاني : قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ أم يقولون به جنة ﴾ ، وهذا – أيضا– استفهام غرضه الإنكار والتوبيخ[(٢)] ؛ لأن ما قـــالوه خارج عن ما تقضي به العقول السليمة الواعية . الثالث : قوله في الطـــور : ﴿ أم تـــأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ ، وهو كذلك استفهام للإنكار والتوبيخ[(٣)] ، بعد وقوعهم في التناقض المعيـــب في وصفه ﷺ . الرابع : قوله تعالى في التكوير: ﴿ فأين تذهبون﴾ ، وهو أيضا استفهام توبيخ وإنكار[(٤)] ، بعد أن أبعدوا النُّجعة في وصفهم للنبي الكريم ﷺ بالجنون . الخامس : قوله فـــي الطور : ﴿ أم يقولون شاعر﴾ بعد قوله : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنـــون ﴾ ، في طيّه سؤال تقريع وتوبيخ ، نبّه عليه بالعطف ، وتقديره : أيقولون هذا القول البعيـــد مـــن

---

(١) ينظر : ابن عطية، **المحرر الوجيز**، ص ٧٦٥، وأبو حيان، **البحر المحيط**، ج٥، ص ٢٣٤،والآلوسي، **روح المعاني**،ج٩،ص١٦٩.
(٢) ينظر : ابن عطية، **المحرر الوجيز** ، ص١٣٣٥، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨، ص ٣٤٤.
(٣) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٧ ، ص ٣٠٣، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧، ص ٣١٤.
(٤) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٨ ، ص٣٤٥، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٣٠ ، ص١٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقوال أهل العقول – وهو قولهم عنه ﷺ كاهن ومجنون – ، أم يقولون ما هو أعجب منه من وصفه بأنه شاعر(٥) . السادس : قوله في سبأ : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ ، فوضع الظاهر وهو (الذين لا يؤمنون بالآخرة) موضع الضمير(هم) ؛ توبيخا لهم(٦) على عدم إيمانهم بالآخرة ، مما سوّغ لهم ما قالوه في حقه ﷺ .

ثانيا : التعجيب . ويبرز في سبعة مقاطع ، الأول : قوله تعالى في الأعراف: ﴿أولم يتفكروا ﴾، ففيه إضافة إلى الإنكار والتوبيخ تعجيب من حالهم(٧)المتردّي ، حيث لم يستعملوا عقولهم قبل أن يقولوا ما قالوه . الثاني والثالث : قوله في الإسراء والفرقان: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾، فالاستفهام بـ(كيف) للتعجيب من تمثيلهم النبي ﷺ بالمسحور والمجنون ونحوهما(٨). الرابع : قوله في سورة المؤمنون :﴿ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾ ، فتقديم المجرور (ذكرهم) على عامله(معرضون) ، هو للاهتمام بذكرهم ليكون إعراضهم عنه محل عجب(١) . الخامس : قوله في سبأ: ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ ، قال ابن عاشور: " والاستفهام للتعجب الذي يخالطه إنكار على انتفاء تأملهم فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض"(٢) . السادس : قوله في الذاريات : ﴿ أتواصوا به﴾ ، وهو تعجيب من إجماع الكفار على فريتي السحر والجنون مع تفرق وتباعد أزمانهم(٣) . السابع : قوله في القلم : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ بعد قوله :﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ فيه تعجيب للسامعين من جراءتهم على تلك التهمة الشنيعة ، مع أن ما جاء به ﷺ مناقض كل التناقض مع ما زعموه(٤) .

ثالثا : التوكيد . وهو ظاهر في كثير من المقاطع ، الأول : قوله تعالى في الأعراف : ﴿ ما بصاحبهم من جنة﴾ وفي سبأ ﴿ ما بصاحبكم من جنة﴾ ، فأغرق في نفي صفة الجنون عن

---

(٥) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٧ ، ص٣٠٢.
(٦) ينظر: الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٢، ص ٣٩٠.
(٧) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٩، ص ١٩٣.
(٨) ينظر : القاعي ، **نظم الدرر**، ج٥ ، ص ٢٩٩، والجمل ، **الحاشية** ، ج٥، ص ٣٣٥، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٥، ص ١١٦، وج١٨، ص ٥٨١، و ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١٥، ص ١٢١.

(١) ينظر: ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١٨، ص ٩٥. قلت : هناك وجه آخر لتقديم المجرور في الآية هو التخصيص ، سيأتي لاحقا .
(٢) المصدر نفسه ، ج٢٢، ص ١٥٢.
(٣) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٧٦٨، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧، ص ٢٩٩، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٨، ص ١٩١، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٧، ص ٣٠ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧، ص ٢٢.
(٤) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص٣٤٣، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٦، ص ٢٩١، والجمل ، **الحاشية** ، ج٨ ، ص ٩٠، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٩، ص ٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النبي ﷺ [٥] ، قال ابن عاشور: " دخول (من) على منفي(ما) لتأكيد الاستغراق "[٦] ، أي ليس به أي أثر من جنون . الثاني : قوله في الأعراف : ﴿ إن هو إلا نذير مبين﴾ ، فأكد باستعمال أسلوب القصر الإضافي ، وهو قصر قلب ، أي هو نذير مبين لا مجنون كما يزعمون[٧]. الثالث : قوله في الحجر:﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾ ، فاستعمل الاستثناء المفرغ تأكيدا للخبر ؛ ردا على اقتراحهم نزول الملائكة . الرابع : قوله في الحجر : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ ، فأكد الخبر في الجملة الأولى بـ(إنّ) ، وأكد اسمها بالضمير(نحن)[٨]، وأكد الخبر في الثانية بـ(إنّ) واللام المزحلقة والجملة الاسمية . فالله تعالى يؤكد أنه هو المنزل للقرآن لا غيره من الجن والشياطين ، ويؤكد – أيضا– حفظه منهم في تنزيله وتبليغه . الخامس : قوله في الفرقان : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ ، ففي قوله :﴿ إلا إنهم ليأكلون الطعام﴾ استثناء مفرغ من عموم الأحوال والعلل ، عُبّر به وبـ(إنّ) ولام الابتداء[١] ؛ تأكيدا على مماثلة حاله ﷺ لحال من سبقه من الرسل في البشرية ومماثلته لأحوال الناس ، فليس هو بدعا من الرسل حتى يتهمه المشركون بالجنون . السادس : قوله في سبأ: ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ ، فأكد على ضلالهم بالمبالغة فيه بوصفه بالبعد[٢] ؛ للدلالة على أنهم هم الأحقاء بوصف الجنون لا محمد ﷺ . السابع : قوله في سبأ :﴿ قل إنما أعظكم بواحدة﴾ ، أي بخصلة واحدة لا بغيرها من المواعظ المفصلة[٣] ، فجاء بأسلوب القصر الإضافي تأكيدا على نجاعة تلك الخصلة في التوصل إلى الحق والصواب في حقيقة أمره ﷺ . الثامن : قوله في الطور :﴿ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ، وفي القلم : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾[٤] ، وفي التكوير :﴿ وما صاحبكم بمجنون﴾ ،﴿ وما هو بقول شيطان رجيم﴾ ، فأكد نفي صفة الجنون عنه ﷺ ، وأكد نفي كون القرآن من تخاليط الجن والشياطين ، وذلك بالباء الواقعة في خبر (ما) المشبهة بـ(ليس)، وبصياغة الجمل في نظم الجملة الاسمية ؛ للدلالة على ثبات مضمون

---

(٥) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ٣٤٣- ٣٤٤.
(٦) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٩ ، ص ١٩٣.
(٧) ينظر: المصدر نفسه ، ج ٩، ص ١٩٥.
(٨) ينظر: أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج ٦ ، ص ٤٦٨.

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٤٣.
(٢) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٢، ص ٣٩٠.
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٢، ص ٢٣١.
(٤) قال ابن عاشور : " وقد أجيب قولهم وتأكيدهم ذلك بحرف (إن) ولام الابتداء ،إذ قالوا (إنه لمجنون) (القلم:٥١) ، بمؤكدات أقوى مما في كلامهم ، إذ أقسم عليه ، وجيء بالنفي بالباء التي تزاد بعد النفي لتأكيده ، وبالجملة الاسمية منفية ، لدلالة الجملة الاسمية على ثبات الخبر ،أي تحققه ، فهذه ثلاث مؤكدات " . ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما فيها من أخبار[٥] . التاسع : التأكيد باستعمال القسم في قوله تعالى في سورة القلم :﴿ والقلم وما يسطرون۞ ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ ، وفي قوله في التكوير : ﴿ فلا أقسم بالخنس ۞ الجوار الكنس۞ والليل إذا عسعس ۞ والصبح إذا تنفس ۞ إنه لقول رسول كريم۞ ... وما صاحبكم بمجنون۞...وما هو بقول شيطان رجيم﴾، فأكد الأخبار الثلاثة بالأقسام الثلاثة . العاشر: قوله في القلم :﴿ وإن لك لأجرا غير ممنون۞ وإنك لعلى خلق عظيم﴾ ، فأكد الجملتين بـ(إنّ) ، ولام الابتداء في الأولى واللام المزحلقة في الثانية ، مع المبالغة في وصف الأجر بعدم الانقطاع ، والخلق بالعظمة ؛ تأكيدا على كونه ﷺ متصفا بما هو مخالف لحال المجانين مخالفة تامة . الحادي عشر: قوله في القلم :﴿ فستبصر ويبصرون۞ بأيكم المفتون﴾ ، فجاء بالباء في (بأيكم) مع أن الأصل : أيكم المفتون ؛ تأكيدا[٦] على التحدي ، وكونهم هم المجانين دونه ﷺ . الثاني عشر : قوله في القلم :﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ ، وفي التكوير : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، فاستعمل القصر الإضافي – وهو قصر قلب[٧]– ؛ تأكيدا على كون القرآن ذكرا ، لا تخليط مجنون . الثالث عشر : قوله في التكوير : ﴿ إنه لقول رسول كريم﴾، فأتى بـ(إنّ) واللام المزحلقة لتأكيد أن المنزل للقرآن هو ملك كريم، لا شيطان رجيم.

رابعا : النفي . وهو في ستة مقاطع ، الأول : قوله تعالى في الأعراف :﴿ ما بصاحبهم من جنة﴾ ، وفي سبأ : ﴿ ما بصاحبكم من جنة﴾ ، و قوله في الطور :﴿ فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ ، وفي القلم : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ ، وفي التكوير قال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون﴾ ، وقال : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم﴾ .

خامسا : أغراض أخرى ، هي : التحدي ، والتشنيع ، والاستضلال ، والتقرير أو التشكيك . فالتحدي هو في قوله تعالى في الإسراء :﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا۞ أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾[١] ، أي لو كنتم أبعد شيء عن الحياة لأحياكم الله وأعادكم . وكذا في قوله في الإسراء : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ ، ففيه التحدي بإعجاز القرآن للإنس والجن جميعا ، مما ينفي أن يكون القرآن من نظم الجن . وفي قوله في القلم :﴿ فستبصر ويبصرون۞ بأيّكم المفتون﴾ ، فتحداهم بأنهم سيعلمون قريبا من هو المجنون حقا . أما التشنيع والتقريع ففي قوله تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ وأكثرهم للحق كارهون۞ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات

---

(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٧ ، ص ٥٩.
(٦) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٩، ص ٦٦.
(٧) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٨، ص ١١٨، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص ١٦٥.

(١) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج ١٥ ، ص ٢٢٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأرض ومن فيهن﴾ ، ففيه زيادة في التشنيع على أهوائهم ؛ لأنها مفضية إلى فساد العالم ومن فيه[٢] . وكذا قوله في نفس السورة :﴿ بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾ ، فشنع عليهم سلوكهم تجاه القرآن ومبلغه ﷺ ، مع أنه شرف لهم وفخر لو آمنوا به وعملوا بما فيه ؛ ولذا فإنه وضع الظاهر موضع الضمير في الآية ، وقدّم المجرور على عامله لقصد التخصيص ، أي فهم عن ذكرهم وفخرهم وشرفهم – لا عن غيره مما لا يوجب إقبالا ولا اعتناء – معرضون[٣] . وأما الاستضلال والاستجهال لهم ففي قوله في التكوير:﴿ فأين تذهبون﴾ ، أي أين تذهبون عن هذا الحق الذي جاءكم ، سالكين سبل التيه والضلالة . وأما التقرير أو التشكيك ففي قوله في الطور:﴿ أم هم قوم طاغون﴾ ، فالاستفهام بـ(أم) إما للتشكيك باعثا على التأمل في حالهم ، فيؤمن المتأمل بأنهم طاغون ، أو للتقرير لكل سامع ، إذ يجدهم طاغين[٤] .

المطلب السادس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردّها

أنسب ما رأيت أن يكون أنموذجا تظهر من خلاله بلاغة القرآن في إيراده لفرية الجنون ورده لها كان مقطع الحجر ؛ لكونه قد تضمن عناصر التهمة الثلاثة ، ولتوسطه في الطول ، وكونه – بحسب ترتيب المصحف – أول مقطع قرآني يورد تلك الفرية ويرد عليها .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر : ٦ – ٩)

التحليل البياني للنص :

جملة ﴿ وقالوا يا أيها الذي ...﴾ مستأنفة ابتدائية ، بيانا لكفر طغاة قريش بالكتاب المنزّل ومن أنزله ومن نزل عليه ، بما أورد من مقالتهم الشنيعة[١] . واستعمالهم في مخاطبة النبي ﷺ أداة النداء للبعيد (يا) مع أنه قريب منهم للإشعار بأنه – وحاشاه ﷺ – غافل لاهي عما يقولونه

---

(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٩١.
(٣) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٣٤٥.
(٤) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج٢٧ ، ص ٦٤.

(١) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٣٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسبب ما نسبوه إليه من الجنون[٢] . وعززوا ذلك باستعمال (ها) التنبيه ، تنبيها للمخاطب إلى استماع مقالتهم[٣] . وجاءوا بـــ(أيّ) الندائية لتكون وُصلة إلى نداء الاسم الموصـــول (الـــذي) لكونه محلى بـــ(ال)[٤] . والتعبير بالموصول (الذي) للإشعار بما في حيز الصلة من المعنـــى الذي جعلوه سبب حكمهم الباطل في قولهم :(إنك لمجنون)[٥] ؛ لتوهمهم أن ادعاء نزول الوحي عليه ﷺ لا يصدر من عاقل[٦]. وأتوا بفعل التنزيل مع أنهم منكرون كون القرآن منزلا أصلا ، على جهة الاستهزاء والتهكم[٧] . وجاءوا بالفعل على صيغة المبني للمجهول ، فلم يسندوه إلى فاعل ؛ " لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل "[٨] ، فكان هذا إنكارا منهم لكون القرآن منزلا من الله ، وتمهيدا لحكمهم الباطل بأن الجن هم مصدر القرآن . وجاءوا بالفعل (نُزّل) مضعفا على وزن (فُعّل) المتضمن معنى التكثير والتفريق والإنزال مرة بعد مرة[٩] ؛ تحقيقا لحكمهم الـــذي أصدروه من أن مصدر القرآن هو جني يلقي به على لسانه ﷺ ؛ لأنهم تصوّروا أنه لو كـــان حقا من عند الله لنزل جملة واحدة ، لا مفرقا منجما ، كما قالوا :﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾(الفرقـــان:٣٢) . وتقديم الجار والمجرور(عليه) على نائب الفاعل (الذكر) ؛ لأن إنكارهم متوجه إلى كون النازل ذكرا من الله تعالى ، لا إلى كون المنزل عليـــه رســـول الله ﷺ "[١] ، فأخروا ما أنكروه لذلك ، فتقدير مقالتهم : يا أيها الذي نزل عليه بزعمـــه الـــذكر[٢] ؛ لأنهـــم زعموا أن ما يتلوه عليهم من القرآن ليس ذكرا من الله ، بل هو تخليط الجن . وأتوا بحـــرف الجر(على) المفيد للاستعلاء والتمكن تتميما لتهكمهم ؛ لأنه ﷺ لما كان يخبرهم بأن الله نـــزّل عليه الذكر بطريق الملك جبريل عليه السلام ، الذي يوحي به إليه مباشرة ، فيـــسمعه ويعيـــه قلبه ﷺ ، جعلوا هذا الكلام محلا للسخرية لاعتقادهم – كما مر– أنه لا يصدر مـــن عاقـــل . واختاروا اسم الذكر دون غيره من أسماء القرآن لكونه – على ما توهمـــوه – يحقـــق لهـــم إنكارهم وتهكمهم ؛ لأن الذكر يعني التذكير بالله وتوحيده واليوم الآخر وغير ذلك مما ينكرونه ويعتقدون بطلانه . و(ال) في لفظ الذكر للعهد الذهني ؛ لكونه معلوما حاضرا في ذهن المتكلم

---

(٢)ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ١٦٥.
(٣)ينظر : د. محمد التونجي ، وأ. راجي الأسمر ، **المعجم المفصل** ،ج١ ، ص ٢٠٦.
(٤)ينظر : المرجع نفسه ، ج١ ، ص ١١٤.
(٥) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٣٤٤.
(٦)ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤، ص ١٧.
(٧)ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ،ج٦، ص ٤٦٧.
(٨) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٣٤٤.
(٩) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ٤٩١.

(١) أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٤ ، ص ٨ ، و الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٣٤٤.
(٢) ينظر البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٤، ص ٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسامع ، والمقصود هو القرآن . وقولهم له ﷺ : (إنك لمجنون) قرينة التهكم[٣] ؛ لأنه كيف يقرّون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون ؟![٤]. وأكدوا مقالتهم بـ(إنّ) واللام المزحلقة والجملة الاسمية ؛ لقصدهم تحقيق ذلك الوصف له ﷺ ، لعله يرتدع عن الاستمرار في دعواه تنزل الذكر عليه من الله تعالى ، وتحقيقا له كذلك للسامعين مقالتهم ؛ لتنفيرهم وتضليلهم عن دعوته[٥] .

واستدلالا على حكمهم الذي أصدروه ، وتحقيقا لغرضهم الذي أرادوه ، جاءوا باقتراح لهم ، فقالوا: (لوما تأتينا بالملائكة ...) . و(لوما) " حرف تحضيض بمنزلة لولا التحضيضية ، ويلزم دخولها الجملة الفعلية"[٦] . واستعملوا فعل الإتيان لأن معناه : المجيء السهل[٧]، فقصدوا أن يجيئهم بالملائكة مع حسن المطاوعة والموافقة له[٨] ليشهدوا له بالصدق ، لا مكرهين أو مضطرين ، على ما هو مشاهد من أحوال الشهود والشهادات بين الناس ، والله أعلم . وأتوا بالفعل بصيغة المضارع لأنهم أرادوا مما قالوه الاقتراح التعجيزي ، الذي يلزم له الفعل الدال على الاستقبال وهو المضارع ، ولو استعملوا صيغة الماضي لانتفى معنى الاقتراح ، ولصار الكلام للطعن والقدح ، مما قد يثير اعتراضا عليهم ممن يسمعهم بأنهم لم يطلبوا منه ذلك مسبقا ، فلعلهم لو طلبوه أجابهم عليه . وفي طلبهم أن يكون الإتيان إليهم ، لا مطلق الإتيان ، فقالوا : (تأتينا) ولم يقولوا : (تأتي) ؛ دلالة على أنهم لن يكتفوا بمجيء الملائكة حتى تواجههم وتكلمهم وتشهد أمامهم بصدق محمد ﷺ ، قال ابن عاشور : " والمراد بالإتيان بالملائكة حضورهم عندهم ليخبروهم بصدقه في الرسالة "[١] . والباء للتعدية . و(ال) في لفظ (الملائكة) للجنس ، بما يحقق معناه القائم في الذهن مع معنى الجمع[٢] ، كما في قولهم في سورة الإسراء: ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾(الإسراء:٩٢) ، أي جماعة من الملائكة[٣] .

وأتبعوا اقتراحهم بالجملة الشرطية (إن كنت من الصادقين) تأكيدا للتحدي والتعجيز بما اقترحوه ، وذلك باستقصاء مقدرته عليه إظهارا لعجزه عنه ، فلا يسعه حينها إلا الاعتراف بأنه – وحاشاه ﷺ – كاذب ، فيتحقق لهم بذلك غرضهم ، وهو ردعه عن دعوى الرسالة

---

(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤، ص ١٦.
(٤) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٥٥٨.
(٥) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤، ص ١٧.
(٦) المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص ١٨. والمعنى أنه حتى تكون تحضيضية ، لا بد من دخولها على الفعل ، فإن دخلت على الاسم فهي حرف امتناع لوجود ، كأن تقول : لولا أو لوما الله لهلكت . ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ١٨٠ .
(٧) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ١٨، ٩١.
(٨) ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج١ ، ص ٤٩.

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤، ص ١٨.
(٢) ينظر : د. محمد التونجي ، وأ. راجي الأسمر ، **المعجم المفصل** ، ج١ ، ص ٨٦ .
(٢) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٥ ، ص ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والكتاب[٤] . وعبروا بـ(إنْ) الشرطية المستعملة فيما هو مشكوك في وقوعه ؛ للإشارة إلى أن فرض صدقه ﷺ عندهم فرض ضعيف مرجوح[٥] . وكذلك قصدوا منه إثارة حماسه ﷺ لفعل ما طلبوه منه ، بعد أن عرّضوا بعدم صدقه ؛ تحقيقا لغرض تعجيزه[٦] . وعدولهم عن المضارع الدال على الاستقبال ، اللازم لجملة الشرط بعد (إن) ، إلى الماضي ، فقالوا : (إن كنت) ولم يقولوا : (إن تكن) ، فأبرزوا ما ليس بحاصل في تصورهم ، وهو صدقه ﷺ في دعواه النبوة والرسالة ، منزلة الحاصل الواقع ، هو للتهييج وإلهاب القوى والعزائم لديه ﷺ لتنفيذ اقتراحهم ، واستقصاءً لمقدرته عليه – كما مر – [٧] . واختيارهم فعل الكينونة (كنت) الدال على ما مضى من الزمان[٨] لفعل الشرط ؛ لأن إعلانه ﷺ بأنه رسول الله كان سابقا لتلك الواقعة التي قالوا فيها ما قالوه ، فعنوا أنه إن نقذ مقترحهم ، كان صادقا حينئذ في دعواه . وقولهم : (من الصادقين) أي " من الناس الذين صفتهم الصدق"[٩] ، " أو من جملة تلك الرسل الصادقين ، الذين عُذّبت أممهم المكذبة لهم "[١٠] . وقولهم ذلك أقوى من لو قالوا : (إن كنت صادقا) ؛ لأن كونه من الصادقين يعني أنه معدود في زمرتهم ، وواحد من فئتهم المعروفة عند الناس بفئة الصادقين ، ولا يوصف أحد بذلك إلا بعد أن تتحقق فيه صفات الصادقين وأحوالهم حتى يجوز دمجه في جملتهم ، أما الوصف بمطلق الصدق فلا يشترط فيه ذلك ؛ لأن الإنسان قابل للانخداع ، فيصدّق من ليس صادقا ؛ لكونه لم يتحقق من صفات الصادقين فيه[١] . وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي لو كنت من الصادقين فأتنا بالملائكة تشهد بصدقك ، فتكون جملة (إن كنت من الصادقين) تكريرا للتحدي والتعجيز وتأكيدا لهما[٢].

وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق...﴾ مستأنفة ابتدائية ، جوابا على كلامهم وشبهتهم واقتراحهم[٣] . وابتُدِئ الجواب بما يزيل جهالتهم " إذ سألوا نزول الملائكة علامة على التصديق ؛ لأنهم وإن طلبوا ذلك بقصد التهكم ، فهم مع ذلك معتقدون أن نزول الملائكة هو آية صدق الرسول ﷺ ، فكان جوابهم مشوبا بطرف من الأسلوب الحكيم ، وهو صرفهم إلى تعليمهم المَيْز بين آيات الرسل وبين آيات العذاب ، فأراد الله أن لا يدخرهم هديا ،

---

(٤)ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٨ ، ص ٢٠٩.
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج١٩، ص ١٢٣.
(٦) ينظر : المصدر نفسه ، ج١، ص٣٤١.
(٧) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٣٤٧- ٣٥٠ .
(٨) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ٤٢١.
(٩) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ١٨.
(١٠) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤، ٣٤٥.

(١) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٧٦٨، وابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، ج٧، ص ٢٦٣.
(٢) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١ ، ص ٢٦٦، وابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، ج١، ص ٣٤١.
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلا فهم أحرياء بأن لا يجابوا"[٤]. وأكد الجواب بالاستثناء المفرغ من عموم الأحوال والعلل . وجاء بـ(ما) النافية وأدخلها على الفعل المضارع لأنها تخلصه للحال[٥]؛ للدلالة على أن كون تنزيل الملائكة على أقوام الرسل مقيدا بالعذاب ، هو سنة جارية فيما كان وما هو كائن ومـا سيكون ، لا تتبدل ولا تتغير . ومجيء الفعل (ننزّل) بالتضعيف المفيد للتفريق والحدوث مرة بعد مرة مناسب لهذا المعنى ، فقد نزلت الملائكة بالعذاب مرات عديدة على الأقوام المكذبـة للرسل ، كقوم لوط وغيرهم . وفي الفعل(ننزّل) قراءات ثلاث ، فحفص عن عاصم وحمـزة والكسائي وخلف العاشر قرؤوها : (نُنزِّل) بالنون وبكسر الزاي والتشديد ، والملائكة بالنصب ؛ لوقوع الإنزال عليها، والمنزِّل هو الله تعالى، والنون نون العظمة . وقرأ شعبة عن عاصم : (ما تُنزَّل) على ما لم يسم فاعله ، بالتاء المضمومة وبفتح الزاي والتشديد ، والملائكة بـالرفع على النيابة عن الفاعلية . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب : (تَنزَّل) على إسناد فعل النزول إلى الملائكة ، بالتاء المفتوحة وبفتح الزاي والتشديد[٦] . وهذا التنويع في صيغة الفعل هو لتأكيد انتفاء تنزل الملائكة على الحال الذي اقترحـوه إلا مقترنـا بالعذاب ؛ كي يكفوا عن ترديد اقتراحهم ويريحوا أنفسهم ويحرصوا على ما ينفعهم دون مـا يضرهم . ومثاله أن يطلب رجل من آخر أن يأتيه في وقت ما ، فيقول له ذلك الرجل : أنا لا أستطيع أن آتيك ، ولا ظرفي يسمح لي بذلك ، ولا المسؤول عني في العمل يأذن لي بأن آتيك في ذلك الوقت ؛ يريد بهذا أن يقنعه بعدم جدوى طلبه ليكف عنه ولا يلح فيه . وكـذا هنـا ، فالتنزيل لا يكون ، والملائكة لا تتنزل ، والمنزل لها لا ينزلها إلا بالعذاب والإهـلاك ، والله أعلم . والباء في قوله : (بالحق) للملابسة ، أي إلا تنزلا ملتبسا بالحق[١] . و(ال) فـي لفـظ الحق للعهد الذهني الحضوري ؛ لأن الحق عند التكذيب لا يتـصور إلا أن يكـون الإهـلاك وعذاب الاستئصال [٢]. والعطف بقوله تعالى : ﴿ وما كانوا إذا منظرين﴾ " إشارة إلى حصول الضرر وترتب نقيض المطلوب "[٣] ؛ لأنهم طلبوا رؤية الملائكة وشهادتهم بصدق الرسـول كي يؤمنوا ، والملائكة لا تتنزل إلا بالعذاب ، فلو نزلت ورأوها لم يُنظروا حتى يؤمنوا ، بل

---

(٤) المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص ١٨.
(٥) ينظر : المرادي ، **الجنى الداني** ، ص ٣٢٩.
(٦) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٩ ، ص ١٢٢، وابن الجزري ، **تقريب النشر** ، ص ١٣٠ ، ومحمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ٢٦٢.

(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٤، ص٢٠٦ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص٣٤٦.
(٢) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٤ ، ص ٢١٢٧. وقد أوردت سورة الحجر في ثناياها مثالين لتنزل الملائكة بالحق ، أولهما في قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه من الملائكة حين قالوا له بعد أن بشروه بغلام عليم : ﴿بشرناك بالحق﴾ (٥٥) ، والثاني ما جاء في قصة لوط عليه السلام مع ضيفه من الملائكة حين قالوا له : ﴿وأتيناك بالحق﴾(٦٤) الذي هو العذاب والإهلاك لقومه ، فظهر أن الحق في جانب الرسل وأتباعهم ، غير الحق في جانب المكذبين لهم .
(٣) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤، ص ٣٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُهلكون . ففي الجملة زيادة في صرفهم وتنفيرهم من ذلك الاقتراح ، مع زيادة نقض شبهتهم فيه . وجاء بهذه الجملة المنفية على نظم الجملة الاسمية للدلالة على الثبوت والاستقرار ، فعدم إنظارهم حال تنزل الملائكة أمر ثابت لا رجعة فيه . والتعبير بـ(كانوا) الدال على ما مضى من الزمان ، دون قوله : (يكونون) بالمضارع عطفا على (ننزّل) ؛ لأن المعنى : وما كانوا في قدر الله السابق منظرين(٤) ، أي إن الملائكة لو نزلت فهذا يعني أن قدر الله قد جرى أزلا بإهلاكهم وعدم إنظارهم . " ويفهم من هذا أن الله منظرهم لأنه لم يرد استئصالهم ؛ لأنه أراد أن يكون نشر الدين بواسطتهم، فأمهلهم حتى اهتدوا ، ولكنه أهلك كبراءهم ومدبريهم"(٥). و(إذن) حرف جواب وجزاء ، جيء به لأن الجملة جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره : ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم(٦) . وكان شأن (إذن) أن تكون في صدر جوابها على تقدير : إذن ما كانوا منظرين ، لكنها وسطت هنا بين جزأي جوابها رعيا لمناسبة عطف جوابها على قوله :﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾(٧) . وجملة : ﴿ وما كانوا إذا منظرين ﴾ ، قال ابن عاشور : " هي الجواب المقصود لقولهم : ﴿ لوما تأتينا بالملائكة﴾ . وجملة : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ مقدمة من تأخير ؛ لأنها تعليل الجواب ، فقدّم لأنه أوقع في الرد ، ولأنه أسعد بإيجاز الجواب "(١) ، إذ التقدير : لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ، إذن ما كنتم منظرين بالحياة ، إذ ما ننزل الملائكة إلا بالعذاب والإهلاك(٢) .

وقوله بعد ذلك :﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ استئناف ابتدائي لإبطال كلامهم المتقدم على اقتراحهم السابق ، وهو قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾(٣) . والملاحظ أن القرآن قد أورد هذا الجواب والذي قبله على عكس إيراده لمقالتي الكفار، فابتدأ برد المقال الثاني لشدة استدعائه ؛ لما فيه من الشبهة بالتعجيز والإفحام ، ثم جاء على رد المقال الأول ، فرد على المقالتين على سبيل اللف والنشر المشوش(٤). وقد تكوّن هذا الجواب من جملتين ، الأولى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر﴾ جاءت جوابا على قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ ، والثانية : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ جاءت جوابا على قولهم :﴿ إنك لمجنون ﴾ . وتفصيل ذلك أن الأولى جاءت بتقرير إنزال الذكر على الرسول ﷺ مجاراة

---

(٤) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ٤٢١.
(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ١٩.
(٦) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٥٥٨.
(٧) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ١٩ .

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤، ص ١٩ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص ٢٠.
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص ٢٠.
(٤) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص١٨٠، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤، ص ٣٤٥، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لظاهر كلامهم الذي أوردوه على سبيل الاستهزاء ، بغية الرد عليهم في استهزائهم[٥] ، قال ابن عطية : " وهذا كما يقول لك رجل على جهة الاستخفاف : يا عظيم القدر، فتقول له على جهة الرد والنَّجْه[٦] : نعم أنا عظيم القدر ، ثم تأخذ في قولك "[٧].

وقد أكد الخبر بـ(إن) ، وأكد اسمها بالضمير (نحن)[٨] ، وأورد الجملة في نظم الجملة الاسمية تأكيدا على اختصاصه سبحانه بتنزيل الذكر ؛ ردا على ما قالوه ، حيث بنَوا الفعل (نُزّل) للمجهول ، إشارة إلى أنه أمر لا مصدر له ، وفعل لا فاعل له[٩] . واستعمل ضمير الجمع إظهارا للتعظيم له سبحانه ، ودلالة على فخامة شأن التنزيل والمنزّل[١٠] ، وهو أنسب في مقابلة ما قصدوه من التحقير والاستهزاء في كلامهم له ﷺ . واستعمل الفعل (نزّلنا) الموافق للصيغة التي أوردها القوم في استهزائهم ، الدالة على التكثير والتفريق والنزول مرة بعد مرة ؛ تقريرا لذلك ، ودلالة على أنه سبحانه هو الذي أراد أن يكون تنزله منجما مفرقا . و(ال) في لفظ (الذكر) للعهد الصريح ؛ لأنه قد تقدم ذكره في كلام المستهزئين . وأما الجملة الثانية :﴿ وإنا له لحافظون﴾ ، فقد أكد فيها أنه سبحانه حافظٌ هذا القرآن من الجن والشياطين ؛ ردا على زعمهم بأنه من تخليط الجن بقولهم له ﷺ : ﴿ إنك لمجنون﴾ . واستعمل لتأكيد الخبر (إنّ) واللام المزحلقة والجملة الاسمية . قال أبو السعود : " وفي إيراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ "[١] . والضمير المجرور في (له) راجع إلى الذكر ، وتقديمه على خبر المبتدأ لكونه هو المقصود بالحفظ هنا لا غيره ، بعد أن طعن الطاعنون في مصدره[٢] . واستعمل في الجملة ضمير الجمع إظهارا لتعظيم الحافظ – سبحانه– ، ودلالة على فخامة شأن المحفوظ ، وهو القرآن[٣] .

---

(٥) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ٢٠.
(٦) النّجْه : الزجر والردع . ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج١٤ ، ص ٢٠٤.
(٧) ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٠٦٥.
(٨) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٦، ص ٤٦٨.
(٩) ينظر :الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٣٤٩.
(١٠) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٩ ، ص ١٢٣ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٣٥٠.

(١) أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم**، ج٤ ، ص ١٠.
(٢) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٢٣٩.
(٣) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٣٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب السابع : شبهة وردّ

لقد سلك خصوم الإسلام المعاصرون مسلك خصومه الأوائل من كفار مكة ، في السعي لطمس نور الإسلام ، وذلك باختلاق الفِرى وإثارة الشبهات ، وعلى رأس هؤلاء ما يعــرف بالمستشرقين من كفرة الغرب ، الذين أظهروا الاهتمام بدراسة ثقافــة الــشرق الإســـلامي ، ليطعنوا في دين الأمة بغية إبطاله ، ولكن هيهات ! .

وكان مما أثاروه من شبه ، طعنهم في النبوّة والوحي الإلهي ، واصفين حالة النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه بأنها نوع من الصرع أو الهستيريا أو الهلوسة – على خلاف بينهم في الوصف – ، القريبة مما تفوّه به كفار قريش قديما من فرية الجنون . ومن هؤلاء المستشرقين الذين قالوا بذلك جوستاف لوبون ، والمؤرخ تيوفانيز ، وبودلي ، ودرمـــنغم ، وشـــبرنجر ، وجولد زيهر[١] .

---

(١) ينظر : هدى عبد الكريم مرعي ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية ، ورد الشبهات عنها** ، دار الفرقان ، عمان – الأردن، ١٩٩١م ، ص ٤٩٢ – ٤٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ردّ الغيورون من علماء الإسلام تلك الفِرى الشنيعة بمـــا هـــو كفيـــل بدحـــضها وإبطالها . وأورد فيما يلي هذا الردّ ضمن محاور ثلاثة :

المحور الأول: التعريف بأمراض الصرع والهستيريا والهلوسة مع مقارنة ذلك بحالة النبيﷺ

أولا : الصرع

هو مرض يصيب الجهاز العصبي ، ويبدأ عادة في الطفولة ، ويصاب من ابتُلـــيَ بـــه بنوبات مع غيبوبة كاملة ، يحتجب فيها نور العقل ويخيم الجهل ، ولا يذكر بعد ذلك أي شيء مما حدث له ، بل ينسى هذه الفترة من حياته نسيانا تاما . ومن أعراضه الظـــاهرة الـــسقوط على الأرض ، وإمكانية إيذاء النفس ، وانقباض العضلات وانبساطها بشدة ، وشحوب الوجه ثم ازرقاقه ، وانسداد مجرى التنفس ، ثم الارتعاش والتشنج ودوران حدقتي العين ، وانقباض الفك وارتخاؤه . وقد تحدث له أعراض أخرى ، كأن يعضّ لسانه بقوة ، أو يتبول أو يتبـــرز على نفسه ، وقد ينام عدة ساعات ثم يستيقظ وهو يعاني بعض التشويش ، وقد يفيق ظـــاهرا فيمارس أموره دون وعي بما يفعل ، ويمكن حينذاك أن يرتكـــب جريمـــة دون أن يـــشعر . إضافة إلى أنّ المصابين بهذا المرض هم أشخاص انفعاليون غير متزنين ، مهيّأون للتقوقـــع بعيدا عن الدنيا والناس ، والعيش في أوهام ، ومن أبرز سماتهم النسيان وضعف الذاكرة (١).

وفي المقابل ، لم يكن الرسول ﷺ شخصا انفعاليا غير متزن ، ولا كـــان يتقوقـــع فـــي أوهامه بعيدا عن الدنيا والناس ، بل كان إنسانا فاعلا نشيطا منتبها قويا ، كان قائدا وزوجـــا وتاجرا وحاكما ... . وما كان يسقط على الأرض حال نزول الوحي عليه ، خاصة وأنه كان يفاجئه ، فيأتيه قائما أو جالسا أو متكئا على عسيب أو راكبا على ناقته ، ومع كل هذا لم يكن يسقط . وما كان ينتابه ما ينتاب المصروع من تلك الأعراض آنفة الذكر(٢) ، ولو حدث شيء من ذلك لعرفه الصحابة – رضي الله عنهم– ولنقل إلينا ، فإذ لم ينقل فهو منعدم .

ثم إنه ﷺ لم يكن حال نزول الوحي عليه يغيب عن الوعي – كما هو حـــال المـــصابين بالصرع – بل كانت مداركه منتبهة جدا ، وكان يذكر بغاية الدقة ما يتلقاه من الوحي ، ويتلوه بعد ذلك على أصحابه(٣) . أما ما كان يصيبه من سبات أو غطيط عند نزول الوحي ، فما كان

---

(١) ينظر : د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن – دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي**، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٧م، ص ١٩٢ - ١٩٣ ، و هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص٥٠٩ ، و د. فضل حسن عباس ، **قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ، (نقد مطاعن، ورد شبهات)** ط١، دار البشير ، عمان – الأردن، ١٩٨٨م، ص ١٦٩.
(٢) ينظر : د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن** ، ص ١٩٤ – ١٩٥ .
(٣) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٥١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يؤثر شيئا على إدراكه لما حوله ومن حوله ، فقد جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه[٤] ، فكان أحيانا ينام ثم يقوم فيصلي دون أن يتوضأ[٥] . كما إنه لم يَرِد أنه كان يتوضأ بعد نزول الوحي عليه ، مع كثرة تنزلاته ، مما يدل على كمال إدراكه ﷺ . جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : " خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت إمرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر بن الخطاب ، فقال : يا سودة ، أما والله ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين . قال : فانكفأت راجعة ، ورسول الله ﷺ في بيتي ، وإنه ليتعشى وفي يده عَرْق[٦] ، فدخلت فقالت : يا رسول الله ، إني خرجت لبعض حاجتي ، فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله إليه ثم رفع عنه ، وإن العَرق في يده ما وضعه ، فقال : إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن"[٧][٨] . فقولها : "وإن العرق في يده ما وضعه " دال على أنه لم يفقد إحساسه وإدراكه لما حوله ، وإلا لكانت يده قد ارتخت وسقط العرق . وكذلك ما كان منه ﷺ من المسارعة بتلاوة ما يوحى إليه من القرآن قبل أن يفرغ الملك من إلقاء النجم القرآني ؛ لشدة حرصه ﷺ على الوحي وتمام إدراكه للتنزيل ، فنهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به۞ إن علينا جمعه وقرآنه﴾(القيامة:١٦-١٧)[١][٢]. ويدل على ذلك – أيضا – ما كان يحدث في تنزلات الوحي المتعددة من نزوله بسبب سؤال أحد الصحابة عن مسألة ما ، فينزل الوحي مبينا الحكم فيها ، وبعدما يفصم الوحي عنه ﷺ فإنه يجيب السائل على التّو بما نزل عليه ، بنص قرآني قمة في الفصاحة والبيان ، معجز عن المعارضة[٣] ، مما يعني أنه ﷺ مدرك للنازل وسبب النزول والمنزل من أجل سؤاله ، لم يغفل عن شيء من ذلك . ثم إنه ﷺ لو كان به – وحاشاه– صرع ، وما يصيبه هو من غيبوبة المصروعين ، فكيف يمكن أن يأتي عقب إفاقته منه بذلك النص القرآني المعجز للإنس والجن ؟! . وفضلا عن كل ما ذكر ، فإن نزول الوحي لم يكن دائما مقترنا بتلك الغيبوبة الظاهرية – إن صح التعبير – ، إذ صور الوحي متعددة[٤] ، ففي الصحيحين أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ،

---

(٤) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٧، ص ٤١٥٨، (رقم :٣٥٦٩) .
(٥) ينظر : مسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٤، ص ٨٠ ، (رقم: ٧٦٣) .
(٦) العَرْق : هو العظم إذا أخِذ عنه معظم اللحم ، وبقي عليه لحوم رقيقة . ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج١٠ ، ص ١١٧ .
(٧) البخاري ، **فتح الباري**، ج٩ ، ص ٥٥٥٠، (رقم :٤٧٩٥) . ومسلم، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج٧، ص ٢٧١،(رقم:٢١٧٠) .
(٨) ينظر : د. محمد سيد أحمد المسير ، **النبوة المحمدية** ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(١) ينظر : البخاري ، **فتح الباري**،ج١، ص٣٩،(رقم:٥) ، ومسلم، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج٣، ص ٢٦٢- ٢٦٣،(رقم:٤٤٨) .
(٢) ينظر : د. محمد المسير ، **النبوة المحمدية** ، ص ٢٠٨ .
(٣) ينظر : د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن** ، ص ١٩٦ .
(٤) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٥١٠ ، و د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن** ، ص ٢٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كيف يأتيك الوحي ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : " أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا ، فيكلمني فأعي ما يقول "[٥] . والظاهر أن تلك الحالة المشبّهة في الحديث بصلصلة الجرس هي التي تقترن بالغيبوبة الظاهرية دون غيرها . كما أنّ هناك صورا أخرى للوحي – صحت بها الأحاديث – كالرؤيا الصادقة ، والنفث في الروع ، وأن يأتيه الملك بالصورة التي خلق عليها ، حدث هذا مرتين ، أو يكلمه الله تعالى بلا واسطة ، كما حدث في ليلة الإسراء[٦] .

أما إصابة من به صرع بالنسيان وضعف الذاكرة ، فهذا كان أبعد ما يكون عن شخص الرسول ﷺ ، فقد كانت ذاكرته غاية في القوة ، فحينما أُسِر بعض المشركين في بدر وبعث أهل مكة في فداء أسراهم ، بعثت زينب بنت النبي ﷺ بقلادة كانت خديجة رضي الله عنها قد أعطتها إياها حين تزوجها أبو العاص بن الربيع ، فحينما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة ؛ لأنها ذكرى خديجة ، وعرف الصحابة أنه ﷺ يود لو أن فك أسر هذا الرجل ، ففعلوا ذلك[٧][٨] . فرؤيته ﷺ لذلك الشيء ذكّرته بما مر عليه سنون .

ثم إنه ﷺ كان عقب نزول الوحي عليه يبلغ ما أنزل إليه ، أحكاما وتشريعا ، وقصصا وتاريخا ، ووقائع صادقة في سالف الأيام ومستقبلها ، في إطار من النظم الدقيق المعجز، فهل يمكن أن يكون ذلك نتيجة صرع أو فعل من به صرع ؟![١].

وكذلك فإن الناس في كل زمان ومكان يرون المصروع ويعرفون الصرع ، فهل من المعقول أن يُخدع الصحابة في رسول الله ﷺ ، ويصعب عليهم التفريق بين حال الوحي وحال الصرع ؟! . ثم إن فاقد الشيء لا يعطيه ، والمصروع لا يشفي مصروعا مثله ، ولقد كان الصرعى يأتون إلى رسول الله ﷺ طلبا أن يدعوا الله لهم فيشفيهم . رُوي في الصحيحين عن عطاء بن أبي رباح قال : " قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ ، قلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف ، فادع الله لي . قال :

---

(٥) البخاري ، **فتح الباري** ، ج ١ ، ص ٢٤، (رقم: ٢) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٧، ص٤٢٦ ،(رقم: ٢٣٣٣/ ٦٠١٣- ٨٧) .
(٦) ينظر : ابن حجر ، **فتح الباري** ، ج١ ، ص٢٦ .
(٧) ينظر أبو داود ، **السنن** ، ص ٣٠٤ ،(رقم:٢٦٩٢)، وأحمد ، **المسند** ، ج٤٣، ص ٣٨١، (رقم:٢٦٣٦٢) ، قال محقق المسند : إسناده حسن . والحاكم ، **المستدرك** ، ج٣، ص ٢٣، ٢٣٦، ٣٢٤ ، وج٤، ص ٤٥، والبيهقي ، **السنن الكبرى** ، ج٦ ، ص ٣٢٢.
(٨) ينظر : د. فضل عباس ، **قضايا قرآنية** ، ص ١٦٩.

(١) ينظر : د. محمد المسير ، **النبوة المحمدية** ، ص ٢٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيك . فقالت : أصبر . فقالت : إني أتكشف ، فادع الله لي أن لا أتكشف . فدعا لها "[٢][٣] .

كما أنه لو كان ﷺ – وحاشاه– به صرع ، فما الذي كان يدفعه إلى الصعود إلى غار حراء ، وقضاء الليالي ذوات العدد وحده هناك ، وهو يعرف أنه معرض لنوبات الصرع في أي وقت ، وأنه يمكن أن يسقط فيموت ؟! . وما الذي جعل زوجته المحبة المتفانية خديجة – رضي الله عنها– تتركه يذهب إلى هناك معرضا نفسه لذاك الخطر القاتل ؟![٤] .

ثانيا : الهستيريا

هو مرض عقلي ، قد يؤدي إلى الجنون إذا كان حادا . وسببه – كما قيل – كبت الشخص لرغباته الجنسية . وله نوبات وأعراض عضوية وعقلية ، كتشنج العضلات وشلل الأطراف ، والعمى والصمم والقيء والرجفة وضياع الصوت أو الكلام ، وعجز اليد عن الإحساس ، وحدوث فجوات في الذاكرة ، والمشي أثناء النوم مع إمكانية الهجوم على الآخرين ، وإذا أفاق المصاب من نوبته لم يتذكر شيئا من ذلك . هذا مع ازدواج شخصيته ، وتوهم أشياء وسماع أصوات ليس لها وجود[٥].

وهذا الحال مناقض لحاله ﷺ ؛ لما مر في نقض فرية الصرع ، ولما عرف من سيرته ﷺ من خلوه من تلك الأعراض ، فقد كان متزنا صحيحا خاليا من الأمراض ، قوي الذاكرة ، حديد البصر ، ينام مبكرا ويستيقظ في جوف الليل يصلي لربه عز وجل ، ويتأمل في الملكوت ، مع ما يغمره من الاطمئنان الروحي والبعد عن القلق ، حتى مات وهو مطمئن يقول في ثقة وسكينة : في الرفيق الأعلى ، في الرفيق الأعلى"[١][٢] . ثم أين هو الكبت الجنسي الذي قيل إنه سبب هذا المرض منه ﷺ ، وقد كان متزوجا بعدد من النسوة كما هو معلوم ؟! .

ثالثا : الهلوسة

---

(٢) البخاري ، **فتح الباري** ،ج١١، ص٦٨٠٦ ، (رقم : ٥٦٥٢) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ،ج٨ ، ص ١٨٥ ، (رقم :٢٥٧٦) .
(٣) ينظر : د. محمد المسير ، **النبوة المحمدية** ، ص ٢٠٩ .
(٤) ينظر : د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن** ، ص ١٩١ .
(٥) ينظر : المرجع نفسه ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .

(١) ينظر : البخاري ، **فتح الباري**،ج ٨، ص٥٠٤٧ ، (رقم : ٤٤٣٨) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٨ ، ص٦٠، (رقم : ٢٤٤٤/ ٦٢٤٧ - ٨٧) .
(٢) ينظر : د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن** ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينشأ هذا المرض عن اضطراب عقلي يعتقد صاحبه أنه يرى أو يسمع أو يذوق أو يشم أو يلمس أشياء ليس لها وجود[٣] . وينقض إصابته ﷺ بهذا المرض أمور :

الأول : إن الأشخاص الأسوياء إن أصابتهم هلوسة ، غالبا ما يتحققون أنها هلوسة في الحال ، بخلاف المختل العقلي . فلو كان ما يراه ﷺ أو يسمعه من الوحي هلوسة ، فإنه سيتنبّه فورا لعدم صحة ذلك .

الثاني : إنه ﷺ أول ما نزل عليه الوحي في غار حراء لم يسارع بالتصديق ، بل ظنه ربما كان وهما ، وخاف على نفسه خوفا شديدا . واستمر على ذلك مدة ، حتى تكرر ظهور جبريل عليه السلام له ، وتكرر نزول الوحي عليه ، وعند ذلك اطمأنّ[٤] .

الثالث : ما يعرف بأسباب النزول القرآني ينفي إمكانية الهلوسة ، فالنازل من الوحي مناسب لوقائع حدثت ، لا مجرد خيالات لا صلة لها بالواقع – كما هو حال الهلوسة – ، بل إنه ﷺ كان أحيانا يفتي باجتهاده في بعض المسائل ، ثم يفاجأ بنزول الوحي بخلاف ما أفتى به[٥] .

الرابع : المُهلوِس ذو رجوع إلى ذكريات قديمة منسية . وعليه ، فكيف يمكن تفسير رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام في المرة الأولى على الأقل لو كان به هلوسة ؟! ، وكيف يُفسَّر نزول الوحي ردا على مشاكل نشأت لتوّها ، لم توجد في المحيط العربي سابقا ، كما في قصة مسجد الضرار ، أو الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، أو صلاة الخوف ... ، لو كان الأمر كذلك ؟! .

الخامس : لم يتخذ الوحي صورة واحدة ، بل صورا متعددة . كما أنه في تنزلاته العديدة كان كل مرة ينزل بشيء جديد .

السادس : تحقق نبوءات القرآن ، كتوعد أبي لهب وزوجته بالنار ، وقد ماتا كافرين ، وانتصار الروم على الفرس في بضع سنين ، ووعد المؤمنين دخول المسجد الحرام آمنين ، وأن الله مستخلفهم وممكن لهم دينهم ، إلى غير ذلك ، ما ينفي كونه نتيجة هلوسة .

---

(٣) ينظر : المرجع نفسه ، ص ٢٠٧ .

(٤) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ،ج١، ص ٢٩، (رقم : ٣) ، وص ٣٧- ٣٨، (رقم : ٤) ، و ج ١٤، ص ٨٦١٠- ٨٦١١ ، (رقم : ٦٩٨٢) ، ومسلم، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٢ ، ص ٢٥٢-٢٦٠، (رقم : ١٦٠ ، ١٦١) .

(٥) ومن ذلك إفتاؤه ﷺ بالقصاص من الزوج إذا ضرب زوجته، فنزل القرآن مخالفا لفتواه بقوله تعالى :﴿ الرجال قوامون على النساء﴾(النساء:٣٤) . ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ،ج٥ ، ص ٧١ ، والواحدي ، **أسباب النزول** ، ص ٧٣، وصحح أصل الرواية عصام الحميدان،**الصحيح من أسباب النزول**، ص١٢٠–١٢١. وكذا ما جاء في قصة المجادلة من إفتائه ﷺ بحرمة الزوج على زوجته إن هو ظاهر منها ، فنزل القرآن بالكفارة في قوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا ...﴾(المجادلة:٣–٤) . ينظر : القصة بتمامها مع موطن الشاهد فيها عند الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٨، ص ٥– ٨ ، كما وذكرها جمع من المفسرين . وكذلك قبوله ﷺ أخذ الفدية من أسرى بدر ، فأنزل الله تعالى :﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ﴾(الأنفال:٦٧– ٦٨) . ينظر : القصة عند مسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ،ج٦، ص ٣٥٤–٣٥٦، (رقم:١٧٦٣)، وإبراهيم العلي ، **صحيح أسباب النزول** ، ص ١٢١– ١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السابع : ما جاء في القرآن من الإشارات العلمية التي تجلت بعد نزولها بقرون عدة ، خاصة في عصرنا الحاضر . فهل يمكن لخيالات المهلوسين وأوهامهم أن تأتي بمثل ذلك ؟! .

الثامن : استحالة أن تصنع الهلوسة دينا ومنهجا متكاملا كالإسلام ، عقيدة وشريعة ، به تصلح أحوال الناس في دنياهم وأخراهم ، في بواطنهم وظواهرهم ، في أرواحهم وأجسادهم ، في عقولهم وقلوبهم ، إلى غير ذلك[١] .

التاسع : لم يوجد في تاريخ الأدب العالمي أديب أصيب بالهلوسة أو الصرع أو النوبات العصبية ثم أنتج الأدب في خياله وهوسه نصا أدبيا معقولا ، فكيف بالإتيان بكتاب معجز خالد ، قعدت عن معارضته همم البلغاء والفصحاء والعلماء ، وهو القرآن ؟! .

العاشر : إن محمدا ﷺ وسائر الرسل قبله عليهم السلام قد اشتهروا قبل النبوة وبعدها بالتعقل والنباهة والفطنة ، ومن كان هذا حاله لا تختلط عليه الأمور، ولا تغلبه الأوهام والهواجس[٢] .

المحور الثاني : الأعراض المصاحبة للوحي ، وانعدام تفسيرها في حالات الأمراض العصبية

تتلخص الأعراض المصاحبة لنزول الوحي على النبي ﷺ في النقاط الآتية :

أولا : سماعه ﷺ في بعض صور الوحي مثل صلصلة الجرس ، وكان هذا أشق صور الوحي عليه . و كان أحيانا يرى الملك وقد تمثل في هيئة رجل يكلمه ، فيعي ما يقول . هذا مع التغيّر في هذه الهيئة ، فحينا يأتيه الملك على هيئة رجل أعرابي ، وحينا آخر على صورة الصحابي دحية الكلبي ، وهكذا[٣] .

ثانيا : ما رُوي من سماع الصحابة – رضي الله عنهم – مثل دوي النحل حول وجهه ﷺ[١] .

ثالثا : كان ﷺ يعرق حتى في الأيام الشديدة البرد ، ويتلألأ العرق على جبينه مثل حبات الجمان ، مع احمرار وجهه أو تربّده – أي تغيره– [٢] .

رابعا : كان يغط غطيطا عاليا – وهو الصوت الذي يخرج مع نفس النائم من أنفه[٣]– ، ويأخذه سبات[٤] .

---

(١) ينظر : د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن** ، ص ٢٠٧– ٢١١ .
(٢) أ.د. حسن عتر ، **وحي الله** ، ص ٢١٥ ، ٢١٨ .
(٣) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج ١ ، ص١٥٢- ١٥٣، (رقم:٥٠) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ،ج٢، ص١٥- ١٦، (رقم :٨) و ص ٢٧٨ ، (رقم : ١٦٧) وج٨ ، ص ٧٤- ٧٥، (رقم :٢٤٥١) ، وابن حجر ، **فتح الباري** ،ج١ ، ص ٢٦.

(١) ينظر : الترمذي ، **السنن** ، ص ٥٠٤، (رقم : ٣١٧٣) ، وأحمد ، **المسند** ، ج١ ، ص ٣٥١ ، (رقم : ٢٢٣) ، قال محقق المسند : إسناده ضعيف . وينظر : الحاكم ، **المستدرك** ، ج١، ص ٥٣٥ ، وج٢ ، ص ٣٩٢.
(٢) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج١، ص٢٤، (رقم : ٢) ، وج٦، ص ٣٢٧٩، (رقم :٢٦٦١) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ،ج٧، ص ٤٢٥- ٤٢٦، (رقم : ٢٣٣٣، ٢٣٣٤) ، وج٩، ص ٥٥، (رقم : ٢٧٧٠) .
(٣) ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب**، ج١١، ص ٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : ثقل جسده ﷺ . ويشهد له ما قاله زيد بن ثابت – رضي الله عنه– كاتب رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري : " فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ ، وفخذه على فخذي ، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي ، ثم سريّ عنه "(٥) . و(ترض) أي تدق وتجرش(٦) . ويشهد له – أيضا– ما أخرجه أحمد عن أسماء بنت يزيد – رضي الله عنها– ، قالت : " إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ ، إذ نزلت عليه المائدة كلها ، وكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة "(٧) . وفي رواية عنده : " فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها "(٨) .

سادسا : تذكره ﷺ كل ما سمعه مما نزل به الملك عليه من الأقوال والمعاني ، بعدما يفصم الوحي عنه(٩) .

ومما ينبغي ملاحظته أن تلك الأعراض لا يمكن تصنعها ، والأخبار عنها لا يمكن تلفيقها ، لأمرين :

الأول : إن تلك العوارض لا يمكن التحكم فيها ، كإفراز العرق في اليوم الشديد البرد ، أو احتقان الوجه الذي يتطلب وقف التنفس تماما ، مما يتعارض مع غطيطه الشديد ﷺ ، ولأنه حينئذ ستنتفخ أوداجه فينكشف أمر هذه اللعبة لمن حوله من الصحابة ، الذين لم يكونوا سذجا ، بل كانوا كفاءات عقلية ونفسية باهرة . وكذا ثقل الجسد لا يمكن التحكم به ، وسماع مثل دويّ النحل حول وجهه لا يمكن تصنعه ، ولو فعل لانكشف أمره ؛ لأن شهيقه وزفيره كفيلان بتقطيع ذلك الصوت ، وهو ما لم يحدث ولم يشر إليه أحد . وهذا كله يدل على أن هناك شيئا خارجا عن جسده ﷺ ، غير مرئي للناس ، هو السبب في حدوث تلك العوارض ، وما ذلك إلا الوحي الإلهي . ثم إنه لو كانت تلك العوارض تصنعا ، فكيف يمكن تصور تلك السرعة في تأليف الوحي عقبها ، وفور توجيه أحد الصحابة إليه ﷺ سؤالا ، فيأتيه بنص قرآني قمة في صياغته الأدبية ، معجز في بلاغته وبيانه ؟! .

الثاني : إن تلك الأعراض التي أخبر بها الصحابة – رضي الله عنهم – ينتظمها سلك واحد ، هو ثقل الوحي ومعاناة الرسول ﷺ أثناء تنزله عليه معاناة شديدة . فإخبارهم بها يخلو من أدنى رائحة مدح وتمجيد لقائدهم ورمزهم الذي يفتخرون باتباعهم له ، وليس فيها ما يوجب لهم فخرا ولا تباهيا ؛ إذ أين غطيط النائم واحتقان الوجه وثقل الجسد ونحوها من كل ذلك ؟!.

---

(٤) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٤، ص ٢٠٣١، (رقم : ١٥٣٦) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي**،ج٥ ، ص ١٥- ١٦، (رقم :١١٨٠) .

(٥) البخاري ، **فتح الباري** ، ج٦، ص ٣٥٠١، (رقم : ٢٨٣٢) .

(٦) ينظر : الفيروز آبادي ، **القاموس المحيط** ، ص ٦٦٥.

(٧) أحمد ، **المسند** ، ج٤٥، ص ٥٥٧، (رقم : ٢٧٥٧٥) ، قال محقق المسند : حسن لغيره .

(٨) المصدر نفسه ، ج١١، ص ٢١٨، (رقم : ٦٦٤٣) ، قال محقق المسند : حسن لغيره .

(٩) ينظر : د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن** ، ص ١٨٥ – ١٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالصحابة لو أرادوا التلفيق لقالوا مثلا : إنهم كانوا يرون الملائكة تنزل عليه من السماء ، وأنه ﷺ كان يتلقى الوحي بسهولة ويسر ، وأن وجهه كان حينئذ يشرق بنور وهّاج . لكنّ ما قالوه كان العكس ، فثبت بهذا بطلان احتمال التلفيق[١] .

وبعد هذا البيان لأعراض الوحي وثبوت صحتها عقلا ونقلا ، فإنه يتوجه سؤال : هل تلك الأعراض تجد لها تفسيرا أو تعليلا في حالات الأمراض العصبية كالصرع والهستيريا والهلوسة وغيرها ؟ ، الجواب : كلا ، لا يوجد[٢] . فثبت إذن خروج الوحي وأعراضه عن نطاق الأمراض العصبية والعقلية ؛ لأن أعراض تلك الأمراض لا تنطبق على النبي ﷺ ، وأعراض الوحي التي تحدث له ﷺ لا تنطبق على أصحاب تلك الأمراض ، فلم يبق إلا احتمال واحد ، هو أن محمدا ﷺ هو رسول الله ، وأن ما يتلقاه هو وحي الله .

المحور الثالث : ردود عامة

أورد هنا بعض الردود العامة الواردة على فرية المرض العصبي بجميع أشكاله ، وذلك زيادة في نقضها ودحضها :

أولا : لو كان ﷺ مريضا بمرض عصبي لسارع إلى البحث عن علاج عند أحد السحرة أو الحكماء ، بدل أن يبقى يعاني من ذلك طوال حياته .

ثانيا : رؤيته ﷺ جبريل عليه السلام على صورته التي خلق عليها رؤية واضحة ، لا يمكن تفسيرها من خلال أعراض الأمراض العصبية . وهذا كقوله تعالى في التكوير :﴿ وما صاحبكم بمجنون ۞ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ .

ثالثا : اعتلال الأعصاب لا يورث يقينا كاليقين الذي كان عليه الرسول ﷺ طوال ثلاث وعشرين سنة ، فلم يثنه أي إيذاء أو مؤامرات أو حروب أو مجادلات مع خصومه ، بمن فيهم علماء أهل الكتاب من الأحبار والقساوسة ، عن دعوته . هذا اليقين الذي ضؤل معه مقام كسرى وهرقل والمقوقس والنجاشي وزعماء العرب ، فأرسل إليهم ﷺ الكتب يدعوهم إلى الإسلام ، ويقول فيها لأحدهم أسلم تسلم ![١] .

رابعا : إن المصابين بالأمراض العصبية لا يتنبّأون فتصدق نبوءاتهم ، ولا يتصدون للخرافات يهدمونها ، ولا يصححون الانحرافات العقدية عند الناس ، كدعوتهم إلى التوحيد مع تعظيم

---

(١) ينظر : د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن** ، ص ١٨٧ – ١٨٩ .
(٢) ينظر: المرجع نفسه ، ص ١٩٥ ، ٢٠٩ – ٢١١ .
(١) هذا القول قاله ﷺ في كتابه لهرقل عظيم الروم يدعوه فيه إلى الإسلام . ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج١، ص٤٥، (رقم : ٧) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج٦، ص٣٧٣، (رقم : ١٧٧٣) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخالق ووصفه بصفات الكمال وتنزيهه عن صفات النقص ، ولا يأتون بشريعة كاملة قويمة لا يُرى فيها خلل ولا عوج ، كما فعل رسول الله ﷺ .

خامسا : اتباع الصحابة – رضي الله عنهم – له ﷺ ، مع أنه كان في أول الأمر وحيدا أعزلا ، وتحملوا في سبيل ذلك أنواع الشدائد والمحن ، فلو كان ما به مرض عصبي لانفضوا عنه وما تحملوا كل ذلك . ثم إن العلاقة التي كانت تربطهم به لم تكن علاقة اتباع فحسب ، بل كانت علاقة محبة ووفاء ، وصفاء ونقاء ، حتى كان الواحد منهم يقول له : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فهي علاقة لا توجد في أي صداقة من صداقات هذه الدنيا[٢] .

سادسا : كفاحه المرير ﷺ في سبيل نشر دعوته ، وسياساته الحكيمة ، وخططه الحربية ، وتنظيماته الاجتماعية ، وتكوينه مجتمعا قويا قائما على دعائم وطيدة ، وقيادته معارك النصر والظفر ، وتأسيسه دولة عظيمة على أسس منيعة منحتها قوة الاتساع بعده من جبال الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا . فهل يفعل كل ذلك ويقوي عليه من كان مصابا بالغفلة والبلاهة والاعتلال العصبي ؟![٣] .

سابعا : إن وحي الله لأنبيائه لا يمكن ولا يصح إخضاعه لقوانين البحث العلمي التجريبي ؛ لأنه فوق العقل البشري وإدراكه المحدود[٤] .

ثامنا : وقوع المستشرقين في التناقض بين وصفه ﷺ بالصرع أو الهستيريا أو الهلوسة ، وبين وصفه من قبل بعضهم بالعبقرية ، مع أنهما لا يجتمعان ![٥] . وهذا شبيه بما وقع فيه كفار قريش قبل مئات السنين ، من وصفهم له ﷺ بالأوصاف المتناقضة المتهافتة ، من الجنون والسحر والشعر ...

المبحث الخامس : فرية التّعلم من البشر

تمهيد :

معنى (التعلّم) لغة :

أصله من علِم يعلم عِلْما ، أي أدرك الشيء وعرفه بحقيقته ، فالعلم هو الإدراك والمعرفة . وعلّمه العِلم فتعلّمه ، والتعلّم أو التعليم هو ما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلّم[١] .

---

(٢) ينظر : د. إبراهيم عوض، **مصدر القرآن** ، ص ٢٠٤ – ٢٠٦ .
(٣) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٥٠٨ ، وأ.د. حسن عتر ، **وحي الله** ، ص ٢١٨ .
(٤) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٥٠٩ .
(٥) ينظر : أ.د. حسن عتر ، **وحي الله** ، ص ٢١٦ – ٢١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآيات القرآنية محور الدراسة :

المقطع الأول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾(الفرقان : ٤ – ٦)

المعنى الإجمالي :

أي وقال كفار قريش : ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه ، لا كما يزعم أنه كلام الله أنزله عليه . وساعده على هذا الاختلاق قوم من أهل الكتاب [٢] ، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم السابقة المثبتة في كتبهم ، وهو يعبر عنها بعبارته . قال الله تعالى : فقد جاءوا بما قالوا ظلما هائلا لا يقادر قدره ؛ لأنهم جعلوا الشيء في غير موضعه ، فنعتوا القرآن المعجز المشتمل على الهدى والنور بالكذب ، وجعلوا مبلغه ﷺ البريء من الكذب ، والذي لم يكذب قطّ ، كاذبا . كما أنهم جاءوا بكذب عظيم حين قالوا تلك المقالة التي لا احتمال فيها للصدق . وقالوا في حق القرآن أيضا : إنه بما اشتمل عليه من الأخبار والقصص أحاديث الأولين من الأمم السابقة[٣] ، وما سطروه في كتبهم من الخرافات والحكايات الوهمية للتلهي بها ، أمر محمد أن تكتب له ، فهي بعد ذلك تلقى وتقرأ عليه كي يحفظها من أفواه من يمليها عليه ؛ لكونه أميا لا يقرأ من الكتاب . ويجري هذا الإملاء خفية لئلا يفتضح أمره فيكون صباحا أول النهار قبل انتشار الناس ، وآخر النهار حين يأوون إلى مساكنهم . وهذا نفي منهم أن يكون ما أورده القرآن من الأخبار والقصص وحيا من الله . فرد الله عليهم قائلا : قل لهم

---

(١) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ٣٤٧ – ٣٤٨ .

(٢) قصدوا بذلك عددا من الموالي الكتابيين الأعاجم الذين كانوا يقيمون بمكة ، وهم : يسار المكنى بأبي فكيهة ، وجبر ، وهما غلامان لبني الحضرمي ، كانا يصنعان السيوف بمكة ، ويقرآن الإنجيل ، وقيل : التوراة . وعداس مولى حويطب بن عبد العزى ، وقيل : مولى عتبة بن ربيعة . ويعيش ، غلام لبني المغيرة ، كان يقرأ التوراة ، وقيل : كان غلاما لبني عامر بن لؤي ، وكان روميا . وبلعام المكنى أبا ميسرة ، وكان نصرانيا أعجميا . وجابر ، وهو غلام أعجمي لامرأة من قريش . وعايش ، غلام أعجمي مملوك لحويطب بن عبد العزى . ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٤ ، ص ٢١١ – ٢١٢ ، وابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ٧٩٤ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص٢٧١ ، والقرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٠ ، ص ١١٧ .

(٣) قائل هذه المقالة هو أحد شياطين قريش ، وهو النضر بن الحارث العبدري . وكان قد تعلم بالحيرة قصص ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وإسفنديار وأخبار حروبهما - وكلاهما من ملوك الطوائف بفارس - فزعم أن القرآن وما فيه من أخبار وقصص أساطير الأولين ، كتلك التي تعلمها . بل إنه كان يقول : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا من محمد ، فهلم أحدثكم . ينظر: الطبري ، **جامع البيان** ، =

= ج ١٨ ، ص ٢١٦ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٩ ، ص٣٣٠ ، و ج١٨ ، ص ٣٢٤ . قال الثعالبي في تفسيره : " وأمكن الله منه يوم بدر ، وقتله رسول الله ﷺ صبرا بالصفراء منصرفه من بدر في موضع يقال له الأثيل ، وكان أسره المقداد . فلما أمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه قال المقداد : أسيري يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : إنه كان يقول في كتاب الله ما قد علمتم . ثم أعاد الأمر بقتله ، فأعاد المقداد مقالته ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم أغن المقداد من فضلك . فقال المقداد : هذا الذي أردت ، فضربت عنق النضر" . الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف ، (ت : ٨٧٥ هجرية) . **الجواهر الحسان في تفسير القرآن** ، ط١ ، ٣م ، (تحقيق : أبو محمد الغُماري الإدريسي الحسني) ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان ، ١٩٩٦م ، ج٢ ، ص١٦ . وينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٧٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا محمد : ليس الأمر كما تزعمون ، بل الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين ، هو الله الذي يعلم سر من في السماوات والأرض ، وما غاب علمه من أحوالهم وأخبارهم ، لا يعزب عن علمه شيء من ذلك ؛ فما أخبر به حق وصدق ، مطابق للواقع ماضيا ومستقبلا . لكنكم يا معشر المكذبين مع استحقاقكم تعجيل العقوبة والعذاب بما تقترفونه من التكذيب والظلم ، والكذب على الله ورسوله ، فإنه سبحانه لم يعجل عليكم بذلك ؛ لأنه كثير المغفرة والرحمة بعباده (١).

المقطع الثاني : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾(٢)(الأنعام:٢٥)

المعنى الإجمالي :

أي ومن مشركي قريش –أي بعضهم– من يصغي إليك يا محمد حين تتلو القرآن ، وقد حال الله بينهم وبين فهمه ؛ مجازاة لهم على كفرهم ، فجعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه ، وجعل في آذانهم صمما وثقلا في السمع فلا يسمعونه السماع النافع لهم ، ومهما رأوا من الآيات والبراهين الدالة على صدقك يا محمد لا يؤمنوا بها ؛ لانعدام فقههم وفهمهم لها ، حتى إنهم بلغوا في قصور أفهامهم أنهم إذا جاءوك مجادلين في شأن القرآن يقولون : ما هذا الذي جئت به – أي القرآن– إلا منقولا مأخوذا عن كتب الأولين وما سطروه فيها من خرافاتهم وأباطيلهم (١).

المقطع الثالث : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾(الأنفال : ٣١)(٢)

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ١٨ ، ص ٢١٥ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٣ ، ص٤١٣ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٥٧٦ – ٥٧٨ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٢٤٦ . وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٢٥ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٩٢١ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٠١٨.

(٢) جاء في أسباب النزول أن أبا سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة وأميّة وأبيّا ابني خلف استمعوا إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد ؟ ، قال : والذي جعلها بيته [أي الكعبة] ما أدري ما يقول ، إلا أني أرى يحرك شفتيه يتكلم بشيء ، وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية . وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأول ، وكان يحدث قريشا فيستملحون حديثه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ذكره الواحدي في **أسباب النزول** ، ص ١٠٣ ، وابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ٤٣٠ ، والقرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج٦ ، ص ٢٦١ .

(١) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٦١١ – ٦١٢ ، وابن جزي ، **التسهيل** ، ج١ ، ص ٢٦٦ ، وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٢ ، ص ١٧٣- ١٧٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٧ ، ص ١٦٠ – ١٦١ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٥١٥ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج١ ، ص ٣٥٩ –٣٦٠ .

(٢) أخرج الطبري عن سعيد بن جبير قال : " قتل النبي ﷺ يوم بدر صبرا[وهو أن يحبس المقتول ويرمى حتى يموت] عقبة بن أبي معيط ، وطعيمة بن عدي ، والنضر بن الحارث . وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله أسيري

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعنى الإجمالي :

يذكّر الله في هذه الآية عباده المؤمنين بما كان من سلوك طغاة قريش في مكة تجاه القرآن العظيم وتجاه المبلغ له ﷺ فيقول : وإذا كانت تُقرأ عليهم آيات القرآن الباهرة العظيمة ، واضحة الدلالة على صدق محمدﷺ ، قالوا على سبيل المكابرة والعناد للحق والتمرد عليه، مع علمهم أنهم كاذبون: قد سمعنا هذا الكلام من قبل ، ولو أردنا لقلنا مثله(٣) ؛ فما هو إلا ما كتبه الأولون وسطروه من الحكايات والأخبار الخرافية ، وليست من قول الله كما يزعم محمد(٤).

المقطع الرابع :﴿ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(النحل : ٢٢ – ٢٤)

المعنى الإجمالي :

أي معبودكم أيها الناس الذي يستحق عليكم العبادة وإفراده بالطاعة دون سائر الأشياء معبود واحد هو الله جل جلاله . ويتفرع على هذه الحقيقة الساطعة أن الذين لا يصدقون بالمعاد بعد الممات وبالحساب والجزاء في الآخرة ، فلا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا على أعمالهم ، قلوبهم جاحدة لتلك الحقيقة ، لا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير ، وهم مستكبرون عن الاعتراف بها والقبول بالحق ، متعظّمون عن الإذعان للصواب . ثمّ اعترض تعالى مهددا موعدا لهم قائلا : حقا أنّ الله يعلم ما يسرّ هؤلاء المشركون في قلوبهم من إنكار للتوحيد واستكبار عن الحق ، وما يعلنون نتيجة ذلك من الكفر والإصرار على الشرك ، وسيجازيهم على ذلك بما يسوؤهم ؛ لأنه سبحانه يبغض المتصفين بالاستكبار عن الحق والخلق ، مما يستوجب عقوبتهم وسوء مآلهم . ثم عطف تعالى على ما فرعه سابقا على ثبوت حقيقة التوحيد من أحوالهم الناتجة عن إنكارهم المعاد والجزاء ، فإضافة إلى كون قلوبهم منكرة للتوحيد وهم مستكبرون عن الحق ، كذلك هم يصدون غيرهم عن ذلك ، فإذا سألهم

، فقال رسول الله ﷺ : إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول " . " قال : وفيه أنزلت هذه الآية " . الطبري ، **جامع البيان** ، ج٩ ، ص ٢٧٢ ، والسيوطي ، **لباب النقول** ، ص ٩٩ .

(٣) قال الآلوسي :" قائله النضر بن الحارث من بني عبد الدار على ما عليه جمهور المفسرين ، وكان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ، فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وكبار العجم ، وكان يمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل . وإسناد القول إلى ضمير الجمع من إسناد فعل البعض إلى الكل ، لما أن اللعين كان رئيسهم وقاضيهم الذي يقولون بقوله ويعملون برأيه ". الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٩ ، ص ٢٦٢.

(٤) ينظر : الطبري،**جامع البيان**،ج٩، ص٢٧١–٢٧٢،والشوكاني،**فتح القدير**،ص٦٦١،والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج١ ، ص٤٧٢ ، ونخبة من العلماء ، **التفسير الميسر**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، ١٤١٩ هجرية ، ص ١٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مسترشد من بلاد العرب ممن سمع أن الله أنزل على رجل من قريش كلاما معجزا مؤثرا في النفوس ، فقال لهم : هذا الذي أنزل ربكم ، ما هو ؟ ، أجابوه بأنه ما كتبه الأولون وسطروه من خرافاتهم وأباطيلهم ، وليس من كلام الله في شيء ، ولا مما أنزله الله أصلا[(١)][(٢)].

المقطع الخامس : ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾(المؤمنون:٨١- ٨٣)

المعنى الإجمالي :

لما أنكر الله تعالى على كفار مكة عدم العقل بالاستفهام الإنكاري في الآية السابقة لهذا المقطع بقوله : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ بعد أن ساق من الأدلة على وحدانيته ، مع كونهم قد أشركوا به أصنامهم وأوثانهم ، أضرب هنا مبطلا كونهم يعقلون ، ومثبتا ما يدل على ذلك من إنكارهم البعث بعد الموت وبلى الأجساد ، رغم تجلي مظاهر القدرة الإلهية في خلقهم وخلق ما حولهم من عناصر الكون ، فقال عنهم : بل قالوا ما يثبت ضلالهم وكونهم لم يعقلوا مظاهر القدرة الإلهية تلك ، مماثلين بقولهم قول من سبقهم من الأمم المكذبة للرسل ، قالوا أئذا متنا وتحللت أجسامنا وعظامنا في تراب الأرض ، نحيا ونبعث من جديد مرة أخرى ؟! ، هذا لا يكون ولا يتصور؛ فقد تكرر الوعد بهذا البعث مرارا ، في أزمان متعددة ، فقيل لنا وقيل لآبائنا من قبلنا فلم يتحقق ، ولم يبعث أحد من آبائنا الذين ماتوا ومضت عليهم أزمان وشوهد رفاتهم في أجداثهم ، فما هذا القول إلا من حكايات الأولين وخرافاتهم الوهمية التي سطروها في كتبهم ، فكانوا يتلهون بها في مجالسهم ومسامراتهم ، فلا حقيقة لها ولا وجود [(١)].

المقطع السادس : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

---

(١) روى ابن أبي حاتم عن السدي قال : اجتمعت قريش ، فقالوا: إن محمدا رجل حلو اللسان ، إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه . فخرج ناس في كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد ووصل إليهم، قال أحدهم : أنا فلان ابن فلان ، فيعرفه نسبه ويقول له : أنا أخبرك عن محمد : إنه رجل كذاب ، لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له . فيرجع الوافد . فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ . ابن أبي حاتم ، **تفسير القرآن العظيم**،ج٧، ص٢٢٨٠- ٢٢٨١، (بتصرف يسير) ، وينظر: سيد قطب ، **في ظلال القرآن**، ج١٤ ، ص٢١٦٧– ٢١٦٨.

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٤ ، ص ١١٤ – ١١٥ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص ١٩٦ – ١٩٧ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٤٨٦- ٤٨٧ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ١٢٨ – ١٣١، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٩٤٦ .

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٨ ، ص ٥٩ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ١٠٦ – ١٠٨، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص٩٨٣ ، و**التفسير الميسر** ، ص ٣٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(النمل : ٦٧ - ٦٩)

المعنى الإجمالي :

أي وقال الذين كفروا بالله وتوحيده من أهل مكة : أنُخرج نحن وآباؤنا ونبعث من قبورنا أحياءً من بعد مماتنا ، بعد أن كنا ترابا قد بلينا ؟! . ثم أكدوا ذلك الاستبعاد لأمر البعث ، فقالوا : لقد وُعدنا هذا البعث من قبل وعد محمد لنا به ، ووعد بذلك أيضا آباؤنا قبلنا ، ولم نرَ له تحققا ولا وقوعا ! . ثم قرروا إنكارهم وأصدروا حكمهم قائلين : ما هذا الوعد إلا مما سطره الأولون من الأكاذيب والخرافات الوهمية التي أثبتوها في كتبهم ، وتحدثوا بها من غير أن يكون لها صحة ، ثم أخذها كل قوم عمن قبلهم ، وتلقاها الناس بعضهم عن بعض .

فأجابهم الله تعالى مدللا على صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بحقيقة البعث وحتمية وقوعه ، فقال : قل – يا محمد– لهؤلاء المكذبين : امضوا وسيروا في أرجاء الأرض ، فانظروا نظر اعتبار وتفكر إلى ديار من كان قبلكم من المكذبين لرسل الله كيف هي ؟ ، ألم يخرّبها الله ويهلك أهلها بسبب تكذيبهم وإجرامهم ، مع إنجائه رسله ومن تبعهم من المؤمنين من بينهم ؟ بلى ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته[٢] .

المقطع السابع : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾(الأحقاف : ١١ - ١٢)

المعنى الإجمالي :

أي وقال الذين كفروا من أهل مكة لأجل إيمان الذين آمنوا من الضعفاء والفقراء أمثال بلال وصهيب وعمار وغيرهم – رضي الله عنهم – ، وقد سبقوهم إلى الإيمان : لو كان ما جاء به محمد من هذا القرآن وما فيه من العقائد والأعمال خيرا ، ما سبقنا إلى الإيمان به والأخذ بما فيه هؤلاء الفقراء الضعفاء . لزعمهم أن الخير الديني يتبع الخير الدنيوي ، وأنّ معالي الأمور لا تنالها أيدي الأراذل – حاشاهم رضي الله عنهم– . قال تعالى : وإذ لم تحصل هدايتهم بهذا القرآن فيما مضى فسيستمرون على عادتهم بأن يقولوا عنه : هو كذب قديم ، أي مأثور عن الناس الأقدمين . وهو كقولهم : أساطير الأولين . فردّ الله على فريتهم هذه قائلا : قالوا ذلك والحال أنه من قبل هذا القرآن كانت التوراة التي أنزلها الله على موسى – عليه

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٠ ، ص ١٣ – ١٤، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٣ ، ص ٤٩٦ ، والشوكاني ، **فتح القدير**، ص ١٣١٠ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٩٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السلام – ، والتي لا ينازعون في أن الله أنزلها ، وقد سلموا لأهلها – وهم اليهود – أنهم أهل العلم بالوحي الإلهي ، حتى أنهم سألوهم في شأن هذا النبي الكريم ﷺ . أنزلها الله حال كونها قدوة يقتدى بها في دين الله وشرائعه كما يقتدى بالإمام ، ورحمة من الله سبحانه لمن آمن بها وعمل بموجبها ؛ لكونها سببا في نفع متبعيها ؛ لما تضمّنته من أسباب الخير في الدنيا والآخرة . وهذا القرآن العظيم الشأن الذي كذبوا به كتاب مصدق لذلك الكتاب بمطابقته له في الدعوة إلى التوحيد والوعد والوعيد والإخبار بنبوة محمد ﷺ وغير ذلك – فكيف يصح كونه إفكا قديما وقد سلّموا بالتوراة ، والقرآن مطابق لها ومتفق معها ؟! – حال كونه بلغه العرب ، أفصح اللغات وأنفذها في نفوس السامعين وأحبها إلى العرب – وفي هذا مزيد ثناء على القرآن ، وامتنان على العرب عامة وقريش خاصة ؛ لأن الله اختارهم لحمل رسالته وبيانها للناس – ، لينذر هذا الكتاب الذي أنزلناه الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي ويخوفهم من عذاب الجحيم ، ويبشر الذين أطاعوا ربهم فأحسنوا في إيمانهم وأعمالهم بالأجر العظيم في جنات النعيم [١].

المقطع الثامن : ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾(الأحقاف : ١٧)

المعنى الإجمالي :

أي والذي قال لوالديه المؤمنين متضجرا حين دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإقرار بالبعث والجزاء في الآخرة : قبحا لكما ، أتعدانني في كل وقت أن أبعث بعد الموت ، فأخرج حيا من قبري من بعد فنائي وبلائي فيه ؟! ، والحال أنه قد مضت الأمم والأجيال الكثيرة من قبلي وهلكت ، وطال عليها الزمان ، فلم يُبعث منهم أحد ، فلو كنت مبعوثا بعد موتي كما تقولان ، لكان قد بُعث من هلك قبلي من الأمم . والحال أن والديه يستغيثان الله ويسألانه هدايته إلى الإيمان بالبعث ، ويقولان له : هلاك لك إن لم تؤمن بذلك ، صدّق بوعد الله ، وأقر بأنك مبعوث من بعد وفاتك ؛ فإنّ وعد الله الذي وعده خلقه – وهو أنه باعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب لمجازاتهم بأعمالهم – حق لا شك فيه ، ثابت أعظم ثبات . فيرد

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٦ ، ص ١٨ – ٢٠ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٠ ، ص ١٣ ، وابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٤ ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ١٢٤ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٦ ، ص ٧١ – ٧٢ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ١٦٢ – ١٦٣ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٢٦ ، ص ٢٣٧ – ٢٤٠ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٦ ، ص ٢١ – ٢٦ ، وسيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج ٦ ، ص ٣٢٥٩ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٣٣٦ – ١٣٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليهما رادّا نصيحتهما ، مكذبا بوعد الله : ما هذا الوعد الذي تدعواني إلى الإيمان به إلا خرافات الأوائل ، كتبوها على وجه الكذب بقصد التلهي بها ، فتناقلتها الأجيال ، جيلا بعد جيل ، حتى وصلت إليكما فصدّقتماها[١] .

المقطع التاسع:﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾(القلم:١٤- ١٥)

المعنى الإجمالي :

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم والكسائي وخلف العاشر : (أن كان) بهمزة واحدة على الخبر ، أي : لأجل أن كان ذا مال وبنين[٢] حمله الشعور بالغنى على التكذيب بآيات الله ، فإذا تليت عليه وسمعها ، وصفها بأنها خرافات الأولين وترّهات الماضين التي كتبوها وسطروها يتلهّون بها ، وليست بكلام الله ولا منزلة منه . وقرأ ابن عامر وشعبة عن عاصم وحمزة وأبو جعفر ويعقوب (أأن كان) بهمزتين[٣] ، الأولى استفهامية للتقريع والإنكار والتوبيخ ، أي : ألِأجل أن كان ذا مال وبنين كذّب، فقال في القرآن ما قال ؟! ، فبدل أن يقابل نعمة الله بالشكر والإيمان ، قابلها بالبهت والكفران[٤] .

المقطع العاشر : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾
(المطففين : ١٠ – ١٤)

المعنى الإجمالي :

أي هلاك ودمار وشدة عذاب يوم القيامة للمكذبين ، وهم الذين يكذبون بيوم الحساب والجزاء في الآخرة ، فلا يصدقون بوقوعه . والحال أنه ما يكذب بهذا اليوم إلا كل متجاوز للحد في الكفر والضلال والطغيان ، كثير المعاصي والآثام ، حتى انعمت بصيرته عن الآيات والدلائل القاطعة على أحقية ذلك اليوم ووقوعه لا محالة ، فإذا قرئت وتليت عليه آيات القرآن القاطعة في دلالتها على المعاني المراد منه الإيمان والتصديق بها ، قال من غير توقف ولا

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٦ ، ص ٢٥ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ١٣٠ – ١٣١ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ١٦٧ – ١٦٩ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٦ ، ص ٣٨ – ٣٩ ، **والتفسير الميسر** ، ص ٥٠٤ .
(٢) المتحدث عنه على مذهب الجمهور هو الوليد بن المغيرة المخزومي . ينظر : النسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ١٢٦٧.
(٣) ينظر : ابن الجزري ، **تقريب النشر** ، ص ٢٤ ، و محمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ٥٦٤ .
(٤) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٩ ، ص ٣٥ ، وابن جزي ، **التسهيل** ، ج٢ ، ص ٤٧٣ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٤ ، ص٥٢١ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٦ ، ص ٢٨٦ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٨ ، ص٧٧ – ٧٨ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ٧٦ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٦٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تأمل فيها ، يدفعه الطغيان وشهوة المغالبة الناشئة عن الاستعلاء والاستكبار : إنها حكايات الأولين وخرافاتهم المسطرة في كتبهم ، وليست بكلام الله ولا منزلة منه . فرد الله على مقالته قائلا : ليرتدع ولينزجر هذا المعتدي الأثيم عن هذا القول الباطل ، فليس الأمر كما يزعم ، بل إن تلك الآيات هي كلام الله ووحيه وتنزيله ، الذي كله صدق وعدل ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان بها وأدى بهم إلى التفوه بتلك المقالة الشنيعة ، ما غطّى على قلوبهم وغلب عليها من الكفر والمعاصي والذنوب التي اقترفوها حتى صارت كالصدأ في المرآة ، فحالت بينهم وبين معرفة الحق[1] .

المقطع الحادي عشر : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الأنعام : ١٠٥)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى : كما نوعنا الآيات والحجج في هذه السورة ، ننوع في غيرها ؛ لتقوم الحجة على الناس ، ولتصير عاقبة أمر طغاة قومك – يا محمد – أن يقولوا لك بسبب ذلك التنويع في الآيات والحجج والدلائل : دَرَسْتَ ، أي قرأت ذلك وتعلمته من أهل الكتاب . هذا على قراءة الجمهور ، وهم نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو البصري : (دارَسْتَ) أي دارست أهل الكتاب ودارسوك ، فقرأت عليهم وقرأوا عليك ، حتى حفظت ذلك واستظهرته . وقرأ ابن عامر ويعقوب (دَرَسَتْ)[2] ، أي قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت ، وهو كقولهم : ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾(المؤمنون:٨٣) . ثم عطف تعالى علة أخرى لذلك التصريف فقال : ولنبين هذا القرآن الحق ، ونوضحه لقوم يعلمون الحق إذا تبيّن لهم ، فيتبعونه ويقبلونه ويذعنون له [1] .

المقطع الثاني عشر : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ ﴾ (الدخان : ١٣ – ١٤)

---

(١) ينظر: ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج ٤ ، ص ٦٢٥ ، و البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج ٨ ، ص ٣٥٩ ، و أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج ٦ ، ص ٣٩٦ ، و الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٩٠٤ ، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٨٤٦ ، و الصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج ٣ ، ص ١٦٥٨ .

(٢) ينظر : ابن الجزري ، **تقريب النشر**، ص ١١١ ، ومحمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ١٤١.

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٧ ، ص ٣٥٤ – ٣٥٨ ، والقرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٧، ص ٣٢٦ – ٣٢٨، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ١٤١ – ١٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مر تفسير هذا المقطع في مبحث فرية الجنون ، فلا حاجة لإعادته .

المقطـع الثالــث عــشر : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(النحل : ١٠٣)

سبب النزول :

أخرج الطبري عن عبد الله بن مسلم الحضرمي : أنه كان لهم عبدان من أهل عيـر[٢] اليمن ، وكانا طفلين ، وكان يقال لأحدهما يسار والآخر جبر[٣] ، فكانا يقرآن التوراة ، وكان رسول الله ﷺ ربما جلس إليهما ، فقال كفار قريش : إنما يجلس إليهما يتعلّم منهما ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ . وفي رواية عنده: " كان لنا غلامان ، فكانا يقرآن كتابا لهما بلسانهما ، فكان النبي ﷺ يمر عليهما فيقوم يستمع منهما ، فقال المشركون : يتعلم منهما"[٤] . وفي رواية عند الواحدي: " كان لنا غلامان نصرانيان"[٥] . وأخرج الحاكم عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن المشركين قالوا : إنما يعلم محمـدا عبد ابن الحضرمي ، وهو صاحب الكتب . فقال الله : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمـي ﴾ الآية [٦]. وخصصت بعض الروايات ذلك بالمسمى(جبر) دون غيره ، كما عند الطبري عـن ابن اسحاق ، قال : كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيرا ما يجلس عند المـروة إلـى غـلام نصراني يقال له : جبر ، عبد لبني بياضة الحضرمي ، فكانوا يقولون : والله ما يعلم محمـدا كثيرا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام الحضرمي، فأنزل الله تعالى في قولهم:﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون﴾ الآية . وفي رواية عنده أيضا عن ابن جريج قال : قال عبد الله بـن كثيـر : " كانوا يقولون : إنما يعلمه نصراني على المروة ، ويعلم محمدا رومي ، يقولون اسمه جبر ، وكان صاحب كتب ، عبد لابن الحضرميّ "[١].

المعنى الإجمالي :

---

(٢) هكذا جاء عند الطبري في تفسيره بالعين(عير) . ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٤، ص ٢١٢ ، وضبطه الشيخ مقبل الوادعي في **الصحيح المسند** ، ص ١٤١ ، بالغين(غير) ، وكذا إبراهيم العلي في **صحيح أسباب النزول** ، ص ١٤٧ .

(٣) قال القرطبي : " وكانا صَيْقلين يعملان السيوف " . القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٠ ، ص ١١٧ .

(٤) الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٤ ، ص ٢١٢ – ٢١٣ . وقد صحح الحديث الحافظ ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني ، (ت : ٨٥٢ هجرية) . **الإصابة قي تمييز الصحابة** ، ٨ م ، (تحقيق : علي محمد البجاوي) ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ٤١٩ . وكذا الشيخ مقبل الوادعي ، **الصحيح المسند** ، ص ١٤١ – ١٤٢ ، وإبراهيم العلي ، **صحيح أسباب النزول** ، ص ١٤٨ ، وقال : الحديث صحيح لشواهده .

(٥) الواحدي ، **أسباب النزول** ، ص ١٤٠ .

(٦) الحاكم ، **المستدرك** ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

(١) الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٤ ، ص ٢١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول الله تعالى : ولقد نعلم أن هؤلاء المشركين من أهل مكة يقولون على سبيل البهت والافتراء : ما يعلم محمدا هذا الذي يتلوه علينا – أي القرآن– إلا بشر من بني آدم ، لا ملك مرسل من عند الله كما يزعم . كذبوا بقولهم هذا ؛ فإن لسان – أي لغة – من يميلون قولهم عن الاستقامة ناسبين إليه تعليم محمد ﷺ أعجمي لا يفصح ، ولا يفهم عنه ما يقوله ، وهذا القرآن كلام عربي في غاية الوضوح والبيان ، فكيف يُدّعى أنه تعليم ذاك الأعجميّ ؟![٢] .

المقطع الرابع عشر : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾(العنكبوت : ٤٧ – ٤٩)

المعنى الإجمالي :

أي كما أنزلنا الكتب على من قبلك – يا محمد – من الرسل الذين اشتهر أمرهم بين الناس ، وأقر بهم كفار مكة ، أنزلنا إليك هذا الكتاب ، وهو القرآن المصدق للكتب السابقة . وعليه فإنّ العلماء الصادقين من أهل الكتاب الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته يصدقون بهذا القرآن ، وأنه منزل من الله ؛ لما علموا من ذكره وصفته مما عندهم من الكتاب ، مع كون القرآن مصدقا له ، غير معارض ولا مناقض[٣] . وتابع قائلا : ومن أهل مكة من يصدق به كذلك ، ممن أسلم أو سيسلم ، أو يؤمن به في باطنه دون أن يظهر ذلك عنادا وكبرا . وما يكذّب بآيات القرآن التي أنزلناها وينكرها زاعما أنك – يا محمد – نقلتها عن كتب الأوائل ، وأنها أساطير الأولين ونحو ذلك ، بعد ظهور دلالتها على كونها من عند الله ، وقيام الحجة عليه ، وتحقق معرفته لذلك ، إلا المتوغلون في الكفر وستر ما يعرفون حقيته ، المصرون عليه ، مما يمنعهم من الإقرار والتسليم . ثم بيّن تعالى بطلان زعمهم ذلك فقال : وما كنت – يا محمد – قبل إنزالنا إليك الكتاب تستطيع أن تقرأ كتابا ، ولا أن تكتبه ، فكنت أميّا لا تقرأ ولا تكتب . ولو أنك كنت من قبل أن يوحى إليك تقرأ وتكتب ، لشكّ بسبب ذلك هؤلاء المبطلون الساعون في إطفاء نور الله بأفواههم في أمرك وفي القرآن الذي جئتهم به ،

---

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٤ ، ص ٢١١، والجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ٢٨١ – ٢٨٢، و **التفسير الميسر**، ص ٢٧٩ .

(٣) وهذا كقوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم يؤمنون ﴾ الآيات من (القصص : ٥٢ – ٥٥) ، النازلة على الأقرب والأرجح في وفد نصارى الحبشة الذين قدموا مكة وسمعوا القرآن من النبي ﷺ ، فآمنوا بدعوته وصدقوه . ينظر: ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم**،ج٣،ص٥٢٣، والجزائري، **نهر الخير على أيسر التفاسير**، ص١١١١، وابن اسحاق، **السيرة النبوية** ، ص١٩٩- ٢٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقالوا : لعله التقطه من كتب الأوائل ، ولكان لارتيابهم حينذاك وجه ، أما والحال أنك أمّي لا تقرأ ولا تكتب ، فليس القرآن على هذا مما يرتاب فيه ، بل هو كله آيات واضحات دالة على صدقك وأنه من عند الله . وهذه الآيات ثابتة راسخة محفوظة في صدرك ، وفي صدور علماء أصحابك وأمتك ، حفظوها تلقيا منك ، وبعضهم من بعض ، وأنت تلقيتها من جبريل عليه السلام ، فلم تأخذها من كتاب . وهذا بخلاف الكتب السابقة التي لا يحفظها أصحابها بل يقرؤونها في المصاحف . ثم قال تعالى : وما يجحد آيات القرآن التي أنزلناها ، وينكرها مع وضوح دلالتها على أنها من عند الله ، وبعد معرفته ذلك ، إلا الظالمون الراسخون في الظلم ووضع الأشياء في غير محالّها ، فلا إنصاف عندهم في أحكامهم ولا عدل[١] .

المقطع الخامس عشر : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدًا ﴿١٥﴾ ﴾(الطارق : ١ – ١٥)

المعنى الإجمالي :

يقسم الله تبارك وتعالى بالسماء وبالطارق . ويعترض قائلا : وما أعلمك يا محمد ما هو الطارق الذي أقسمت به ؟ ويجيب : هو تلك النجوم المضيئة المتوهجة التي تظهر ليلا ، فتثقب ظلمة الليل بضوئها . وبعد هذا الاعتراض يأتي بجواب القسم فيقول : ما كل نفس إلا أوكل بها ملك رقيب يحفظ عليها أعمالها لتحاسب عليها يوم القيامة . فإن أنكر الإنسان لازم ذلك من البعث بعد الموت للحساب والجزاء ، وأنكر قدرة الله عليه ، فلينظر بعقله وليتفكر به في مبدأ خلقه ، من أي شيء خلقه ربه ؟ ، الجواب : خلق من ماء منصب مندفع بسرعة في الرحم ، يخرج من بين ظهر الرجل وصدر المرأة . ويستدل تعالى بهذه الحقيقة على قدرته على البعث بعد الموت وبلى الأجساد ، فيقول : إن الذي خلق الإنسان من هذا الماء لقادر على رده بعد مماته حيّا كهيئته قبل مماته ؛ فإن من قدر على الخلق ابتداء قادر على إعادته مرة أخرى ، وليست إعادته بأصعب من خلقه أولا . ويبين الله وقت هذه الإعادة ، فيقول : يرجعه يوم تختبر سرائر العباد – وهو يوم القيامة – فيظهر منها يومئذ ما كان في الدنيا مستخفيا عن

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢١ ، ص ٨ – ١٠ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٣ ، ص٥٢٣ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٥٦٥ – ٥٦٧، والجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٨٠ – ٨١ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٢١ ، ص ٦ – ١٠ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢١ ، ص ٨ – ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعين الناس ، من العقائد والنيات وما أخفي من الأعمال ، ويميز بين ما طاب منها وما خبث . فما للإنسان الكافر الملحد في آيات الله يومئذ من قوة في نفسه يدفع بها عذاب الله عنه ، ولا ناصر يدافع عنه وينصره مما نزل به . ثم أقسم تعالى بالسماء ذات المطر الذي يرجع على العباد حينا بعد حين ، وأقسم بالأرض التي تتصدع وتتشق ، فيخرج منها النبات والثمار – مما يدل على إمكانية بعث الناس بعد موتهم أحياء كما يحيي الله الأرض الميتة بوابل المطر – إن هذا القرآن الذي من جملته الآيات المقررة لحقيقة البعث ، والقدرة الإلهية على الإحياء بعد الموت والبلى ، لقول فاصل بين الحق والباطل ، بما بينه وشرعه وأخبر به ، وليس فيه شيء من الباطل واللهو والعبث كما زعم كفار قريش حين قالوا : إن القرآن خرافات الأولين وترهاتهم التي كانوا يتلهون بها . ثم قال تعالى : إن كفار مكة حين يقولون ما يقولون في القرآن البعيد عن مزاعمهم ، إنما يقصدون به الكيد العظيم لهذا الدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ بغية إبطاله ، وذلك بما يظهرون من طعون ومزاعم يعتقدون في ضمائرهم بطلانها ، ليضللوا بها عامتهم ، فتخبو – حسب ظنهم القاصر – بذلك جذوة هذا الدين حتى ينطفئ ، فلا تقوم له قائمة[1] .

المطلب الأول : القرآن بين فرية الأساطير وفرية النقل عن أهل الكتاب

يظهر من المقاطع القرآنية السابقة أن فرية التعلم من البشر التي تفوّه بها كفار مكة كانت باتجاهين : **الأول** : أنهم وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين . **الثاني** : زعمهم أن القرآن منقول عن أهل الكتاب . وهما فريتان مختلفتان ، خلافا لمن عدهما شيئا واحدا كالرازي والآلوسي وغيرهما[1] . وتوضيح ذلك أنّ كفار مكة حينما قالوا : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها ،

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ٣٠ ، ص ١٧٢ – ١٨٢ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٣٠ ، ص ٤٢٧ – ٤٣٦ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٩١٨ – ١٩٢٠ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص ٢٥٨ – ٢٦٨ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٦٧٠ – ١٦٧١ ، و**التفسير الميسر** ، ص ٥٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾ ، استعملوا في الاكتتاب الفعل الماضي دلالة على أنه أمر حصل وتمّ وفرغ منه في الماضي ، عانين بذلك أنه ﷺ قد التقى أحد النقلة أو الحفظة لما سطره الأقدمون من الأقاصيص والحكايات الخرافية ، وطلب أن تُكتب له ؛ لما أنه رجل أمي ، وأن تلك أساطير لا أسطورة واحدة – كما زعموا – فهي تحتاج وقتا طويلا وجهدا لحفظها ، فكان لا بد إذن من اكتتابها وتقييدها . ثم بعد أن أخذها مكتوبة طلب من البعض ممن هو قريب منه ويحفظ سره أن يمليها عليه كي يحفظها ثم يتلوها على مسامع قريش بعد ذلك . واستعملوا في الإملاء الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث والحصول مرة بعد مرة ، وعليه فلو كان مقصود القوم من فرية الأساطير أنها متلقاة من بعض أهل الكتاب من الموالي المقيمين في مكة كجبر ويسار وعداس وغيرهم ، لما كان هناك حاجة لادّعاء اكتتابها منهم ، ولاكتفيَ بادعاء الإملاء وحده ؛ ذلك لأن هؤلاء موجودون حاضرون يمكن الاتصال بهم والتعلم منهم دون حاجة للاكتتاب ، خاصة وأنه ﷺ أميّ لا يستطيع قراءة ما يكتب له . وكذلك فإن الذي اشتهر في مكة بنقل الأساطير وحكايتها هو شخص واحد هو النضر بن الحارث ، صاحب الفرية ومصدرها ، مما يجعل أمر أن يكون هو الذي ادُّعيَ أنه علم محمدا ﷺ تلك الأساطير مستحيلا ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لزعم النضر أنه هو الذي علم محمدا ﷺ ما يقوله ، وهذا لم يحدث . ثم إن أساطير النضر مختلفة تماما في شكلها ومضمونها عن أخبار القرآن وقصصه ، فلا يبقى إلا تصور واحد لهم ، هو أن الذي نقل تلك الأساطير إلى محمد ﷺ ليس من أهل مكة ، وإنما من خارجها .

أما فرية التعلم من بعض الموالي الكتابيين المقيمين في مكة ، فهي غير فرية الأساطير ومختلفة عنها ، وهي بهتان آخر بهتوه به ﷺ بغية إبطال الحق المتمثل في القرآن العظيم الذي أعجزهم وبهرهم بأسلوبه العجيب ، ونظامه الفريد الذي لم يعهدوه من قبل ، فحكموا عليه بأنه ﷺ يتعلمه من أولئك الكتابيين الموالي كجبر ويسار وغيرهما . وقد سلكوا في ذلك مسلكين ، فقالوا حينا : إن محمدا دارس أولئك الكتابيين ، وتعلم منهم أخبار الرسل ونحوها ، ثم هو عبّر عنها بعبارته ، قال الله تعالى عنهم في مقطع الفرقان : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ ، وقال في الأنعام :﴿ وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ﴾ . وقالوا حينا آخر : إن محمدا تلقى هذا الكلام العجيب الذي يتلوه علينا من غلام روميّ لقنه إياه . وهو على الأشهر مولى ابن الحضرمي المسمى : جبر . قال تعالى عنهم في

---

(١) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٤ ، ص ٤٣٣ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٤ ، ص ٤٩٣ - ٤٩٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٥٧٦ – ٥٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النحل : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ ، وقال في الدخان : ﴿ أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ۞ ثم تولـوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ .

ولا يخفى على الناظر ما بين تلك الافتراءات الثلاث من تناقض عجيب ، لكـن كفـار قريش لم يكونوا قلقين بهذا الشأن ، فقد كان همهم الطعن بأي حيلة ووسيلة كي يطفئوا نـور هذه الدعوة الوليدة ، يهيمن عليهم سلطان الغطرسة والاستكبار ، فلا يهمّهم أكانـت طعـونهم متناقضة أم غير متناقضة .

المطلب الثاني : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته

إنّ الناظر في المقاطع القرآنية محور الدراسة يجد أن المـشركين لـم يمهـدوا لفريـة الأساطير إلا بشبهة واحدة ، ألا وهي إنكار البعث بعد الموت وبلى الأجساد ، استدلالا بمرور السنين المديدة على هذا الوعد عليهم وعلى آبائهم الذين ماتوا ولم يتحقق هذا البعث الموعود ، فحكموا عليه بأنه ما هو إلا خرافة من خرافات القدماء التي سطروها يتلهون بها في أحاديثهم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، ليس لها وجود ولا حقيقة . ولم يكتفوا بإطلاق هذا الوصف على قضية البعث ، بل عمموها لتشمل القرآن كله ، فقالوا في سورة المؤمنون :﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ۞ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ، وقالوا في النمل:﴿ أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ۞ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ ، وقال ذلك العاقّ لوالديه :﴿ أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ﴾ ، ويرد على والديه اللذين يدعوانه إلى الإيمان بالبعث والنشور قائل: ﴿ ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

وأما فرية التعلم من أهل الكتاب فلم يورد القرآن للمشركين مقالة في التمهيد لها ، لكنه ذكر ما يشكل شبهة في نفوس منحرفي الفطر والعقول منهم ، الذين لم يُكتب لهم الهداية والإيمان ، وهي ذلك التصريف والتنويع في آيات القرآن وحججه ودلائله على نحو بديع ساطع ، دال على المعاني الرائقة الكاشفة عن الحقائق الفائقة [١] ، بحيث بلغ الذروة في البيان والاستدلال والدفع بالحجة . ولمّا كان هذا التصريف على هذا المستوى الذي لا يتناسب مع أمية النبي ﷺ وبيئته ، والذي يدل بذاته على مصدره الرباني لمن هو متفتح البصيرة ، ولمّا كان المشركون لا يريدون الاقتناع ولا الاتباع ، كانوا يقولون : إن محمدا درس ما يسوقه من دلائل وقضايا عقدية وكونية مع أحد من أهل الكتاب[٢] . قال الرازي : " كان [أي النبي ﷺ] يُظهر آيات القرآن نجما نجما ، والكفار كانوا يقولون : إن محمدا يضم هذه الآيات بعضها إلى بعض ويتفكر فيها ويصلحها آية آية ثم يظهرها ، ولو كان هذا بوحي نازل إليه من السماء ، فلمَ لا يأتي بهذا القرآن دفعة واحدة ؟ كما أن موسى عليه السلام أتى بالتوراة دفعة واحدة . إذا عرفت هذا فنقول : إن تصريف هذه الآيات حالا فحالا هي التي أوقعت الشبهة للقوم في أن محمدا ﷺ إنما يأتي بهذا القرآن على سبيل المدارسة مع التفكر والمذاكرة مع أقوام آخرين"[٣] .

وأما الأسباب أو الدوافع الكامنة في نفوس المشركين التي دفعتهم لإطلاق فرية التعلم من البشر بوجهيها ، فقد ذكر القرآن منها ستة دوافع ، هي :

أولا : الكفر بالله وآياته . وورد ذكر هذا الدافع في أربعة مقاطع ، ففي الفرقان قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾ ، ثم قال :﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها...﴾ ، فأظهر في الآية الأولى الوصف الذي حملهم على مقالتهم ، على معنى أنهم ما جرأهم على فريتهم إلا كفرهم وإشراكهم وتصلبهم فيهما ، وليس لشبهة معقولة

---

(١) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٧ ، ص ٣٢٥ .
(٢) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٧ ، ص ١١٦٧.
(٣) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٣ ، ص ١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبعثهم على تلك المقالة . وفي الآية الثانية أعاد تعالى الضمير إلى الموصول وصلته ، أي : الذين كفروا ، فمدلول الصلة مراعى في هذا الضمير إيماء إلى أن مقالتهم الثانية هي أيضا من آثار كفرهم(١) . وقال في الأنعام : ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ، قال الآلوسي : " وإنما وضع الموصول موضع الضمير ذمّا لهم بما في حيز الصلة ، وإشعارا بعلة الحكم "(٢) . وقال تعالى في النمل : ﴿ وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون۞ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ ، قال الآلوسي : " ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز صلته ، والإشعار بعلة حكمهم الباطل الذي تضمنه مقول القول "(٣) . وقال تعالى في العنكبوت : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ ، " أي المتوغلون في الكفر المصممون عليه ، فإن ذلك يمنعهم عن الإقرار والتسليم "(٤) .

ثانيا : الكفر باليوم الآخر . ويظهر هذا الدافع من قوله تعالى في النحل :﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ ، ثم قال عنهم :﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ . فقوله : ﴿ وإذا قيل لهم ...﴾ معطوف على قوله :﴿ قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ ، والمعنى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها لا يرغبون في حصول ثواب ولا يرهبون من الوقوع في العقاب ، ولذا يبقون منكرين لعقيدة التوحيد ، مستكبرين عن قبولها ، صادّين الناس عنها باختلاق الفرى المنفرة عن الداعي إليها ﷺ ، الطاعنة في حجته ، وهي القرآن(٥) . قال الآلوسي : " فإن الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث ، والجزاء على الطاعة بالثواب ، وعلى المعصية بالعقاب ، يؤدي إلى قصر النظر على العاجل ، وعدم الالتفات إلى الدلائل ، الموجب لإنكارها وإنكار مؤداها ، والاستكبار عن اتباع الرسول –عليه الصلاة والسلام – والإيمان به "(١) .

ثالثا : الاستكبار عن قبول الحق . ويدل عليه قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه لا يحب المستكبرين ۞ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ ، فإن استكبارهم منعهم من أن يجيبوا الجواب الطبيعي المباشر على ذلك

---

(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٢٩٦ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٤.
(٢) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٧ ، ص ١٦١.
(٣) المصدر نفسه ، ج٢٠ ، ص ٣٠٢.
(٤) المصدر نفسه ، ج٢١ ، ص ٧.
(٥) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص ١٩٦ . وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ١٢٩ – ١٣٠.

(١) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٤٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السؤال ، فلم يقولوا : إنه يتلو قرآنا ، أو يلخصوا فحواه ، فيكونوا أمناء في النقل ولو لم يعتقدوه ، لكنهم عدلوا عن الجواب الأمين إلى الكذب والتزوير ، فقالوا : أساطير الأولين[٢] .

رابعا : الاغترار بكثرة المال والولد . وهذا يظهر من قوله تعالى في القلم : ﴿ أن كان ذا مال وبنين ۞ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ ، فلأنه كان ذا مال وبنين اغتر بغناه ، وحمله الشعور بالغنى على التكذيب بآيات الله ووصفها بالأساطير .

خامسا : الجهل . ويفهم هذا من قوله تعالى في الأنعام : ﴿ وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ ، فوصف المهتدين بالعلم للإيذان بغاية جهل غيرهم وخلوهم عن العلم بالمرة[٣] ، فهم لأجل هذا الجهل المستولي عليهم معرضون عن قبول الحق ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون برهانا ، ولا يتفكرون في دليل ؛ ولذا قالوا ما قالوه . وهذا كقوله تعالى عنهم : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾(الأنبياء : ٢٤)[٤] .

سادسا : ميل نفوسهم إلى الظلم . يدل عليه قوله تعالى في العنكبوت : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ ، أي يحملهم على جحد آيات القرآن العظيم ورميه بالأوصاف الباطلة هوى نفوسهم للظلم ، كما قال تعالى عن فرعون وقومه : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا ﴾[٥](النمل : ١٤) .

هذه الأسباب التي ذكرها القرآن ، ويمكن أن يضاف إليها ما يلي :

أولا : أنهم وجدوا في القرآن قصصا عن الرسل وأقوامهم ، وعن مصارع الغابرين من المكذبين ، مع ما يتضمنه هذا من الكلام عن الخوارق والمعجزات ، إلى آخر ما في القصص القرآني من موضوعات سيقت إليهم مساق الموعظة وطلب الاعتبار ، فعدّوها من قصص اللهو والأسمار ؛ تمحّلا منهم والتماسا للتعللات والقوادح ، وتضليلا للجماهير المستغفلة ، فقالوا عن هذا القصص وعن القرآن كله بأنه أساطير الأولين[١] .

ثانيا : أنه كان في مكة موالي من أهل الكتاب لبعض قريش ، وكانوا يقرؤون التوراة أو الأنجيل[٢] ، ولمّا كان القرآن مشتملا على العديد مما ورد ذكره في كتب أهل الكتاب ، اتخذ

---

(٢) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٤ ، ص ٢١٦٧ .
(٣) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٧ ، ص ٣٢٨.
(٤) ينظر : تفسير الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١١٢٩ .
(٥) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢١ ، ص ١٣.

(١) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٧ ، ص ١٠٦٦ ، ج٩ ، ص ١٥٠٣، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص١٩٨.
(٢) ينظر : المقطع الثالث عشر (مقطع النحل الثاني) وتفسيره وسبب نزوله ، ص ١٥٢- ١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زعماء المشركين من ذلك تمويها على العامة ، فزعموا أن محمدا ﷺ إنما يتعلم ما يقوله من أولئك ، لا أنه وحي أوحاه الله إليه .

أما الدلالة التي تحملها هذه الفرية فتتلخص في نقطتين ، هما :

أولا : أنّهم لما قالوا بفرية التعلم من البشر – خاصة الاتجاه الثاني من الفرية – كأنهم قالوا إنك يا محمد أتيت بهذا الكلام – أي القرآن – عن علم ، ونحن جاهلون لا نعلم شيئا . فيُعلم من ذلك أنهم ما تفوهوا بهذه الفرية إلا لفرط حيرتهم وتناهي دهشتهم وإعوازهم القادح ؛ لما أن القرآن جاء على هذا المنهاج الغريب والأسلوب العجيب(٣) .

ثانيا : أنّ الطعن في نبوة محمد ﷺ بأمثال تلك الكلمات الركيكة كوصف القرآن بالأساطير مع تباعد الشبه بينهما ، وادعاء التعلم من أناس أعاجم لا يُفقه عنهم ما يقولونه ، كل ذلك يدل على أن حجة الرسول ﷺ أمام قومه كانت ظاهرة باهرة ؛ لأن الخصوم إنما لجأوا وعدلوا إلى تلك الادعاءات الجوفاء الهزيلة لمّا كانوا عاجزين غاية العجز عن أي طعن معقول مقبول في تلك الحجة ، وهي القرآن(٤) .

المطلب الثالث : طريقة القرآن في عرض الفرية

اتسمت طريقة القرآن في عرضه لفرية التعلم من البشر بالتنوع وتعدد الهيئات ، وهي كما يلي :

---

(٣) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٢ ، ص ٦٩٢.

(٤) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص ٢٧٢ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٦٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : تقديم الدافع وراء الفرية ، ثم الفرية نفسها ، ثم الرد القرآني . جاء هـذا فـي مقطـع الفرقان ، فقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يشير إلى الدافع وراء ما قالوه في الآية الأولى والثانية من المقطع ، وهو الكفر بالله وبآياته . وقولهم : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليـه قوم آخرون ﴾ هذه الفرية الأولى . وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا﴾ هو الرد عليها . وقولهم : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ هو الفرية الثانية لهم . وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ﴾ هو الـرد عليها .

ثانيا : تقديم الرد ، ثم الدافع وراء الفرية ، ثم الفرية نفسها . وهذا ورد في مقطـع الأنعـام الأول ، فقوله تعالى : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ هو بمثابة رد على فريتهم ببيان أنهم إنما تفوّهوا بها لعدم فقههم وفهمهـم لآيات الله حق الفقه والفهم ، بعد أن حال الله بينهم وبينها بما جعل من حواجز علـى قلـوبهم وأسماعهم مجازاة لهم على كفرهم ، فحكموا على تلك الآيات بما هو مخالف لحقيقتها . فـلا يظنن ظآنّ أنهم قالوا فريتهم عن علم وإدراك ، إنما قالوها عن جهل وعمى . وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ يقول الذين كفروا﴾ فيه إشارة إلى الدافع وراء فريتهم ، وهو الكفر المعـشعش فـي قلوبهم . ثم قولهم :﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ هو الفرية .

ثالثا : تقديم الرد ، ثم الشبهة ، ثم الفرية . وورد هذا في مقطع المؤمنون ، فقولـه تعـالى : ﴿ أفلا تعقلون ۞ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾ هو رد على شبهتهم التي هي إنكارهم البعث بعد الموت وبلى الأجساد التي استدعموا بها فريتهم ، فأضرب مبطلا اتصافهم بالعقل بعـد أن أنكروا أمرا لا ينكره عاقل بحال ، وهو القدرة الإلهية على البعث ، رغم تجلي مظاهر تلـك القدرة في خلقهم وخلق ما حولهم من عناصر هذا الكون الفسيح المترامي ، فماثلوا بذلك قول من سبقهم من المكذبين الذين حل بهم سخط الله فأهلكهم ، فلا يُرى لهم من باقية . وقوله تعالى بعد ذلك :﴿ قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ۞ لقد وعدنا نحن وآباءنا هذا من قبل ﴾ هذه شبهتهم . وقولهم بعدها :﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ هو الفرية .

رابعا : تقديم الدافع وراء الفرية ، ثم الشبهة ، ثم الفرية ، ثم الرد القرآني . جاء هذا في مقطع النمل ، فقوله تعالى:﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يشير إلى الدافع وراء فريتهم وهو الكفر. وقولهم : ﴿ أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ۞ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ هو شبهتهم . وقولهم بعدها : ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ هو فريتهم . وقوله تعالى بعد ذلـك : ﴿ قـل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ هو الرد القرآني .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : تقديم الدافع وراء الفرية ، ثم الفرية نفسها ، وطريقة الإيراد تغني عن الرد . ورد هذا في مقطعين هما : النحل الأول ، والقلم . فقوله تعالى في النحل :﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ يظهر الدافع وراء فريتهم ، وهو إنكارهم للمعاد بعد الممات للحساب والجزاء ، فلا يرجون ثوابا على طاعة ، ولا يخافون عقابا على معصية ، فلا حاجز ولا مانع يمنعهم من أن يقولوا ما قالوه . ثم قوله : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ فيه ذكر فريتهم التي قالوها في حق القرآن العظيم . أما الرد على هذه الفرية فطريقة إيرادها تغني عنه ؛ لأنه أوردها عقب ما ذكره من سلوكهم تجاه دعوة التوحيد ، فالقوم لما قابلوا هذه الدعوة الساطعة في وضوحها وثبوتها بالإنكار والاستكبار ، لا جرم أنهم سيطعنون في كل ما يقررها ويدعوهم إلى التصديق بها ، على رأس ذلك القرآن العظيم . فطعنهم بهت ناشيء عن كفرهم واستكبارهم عن الإذعان للحق ، فلا قيمة له ولامعوّل عليه .

وأما في مقطع القلم ، فقوله تعالى :﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾ يظهر الدافع وراء ما قاله ذلك الكافر بعد ذلك ، وهو الاغترار بكثرة المال والولد . وقوله : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ فيه ذكر الفرية . أما الرد عليها فتغني عنه طريقة الإيراد ؛ لما يظهر من شناعة سلوك ذلك المكذب الذي قابل نعمة الله عليه بالكفر بآياته ورسوله ، والإصرار على الإشراك به والتكذيب برسالته ، فياله من سلوك شائنٍ مخزٍ . وكذلك ما يظهره من قلة عقل ذلك الإنسان الذي طغى أن رآه استغنى ، ونسي أنه زائل عن غناه لا محالة يوما من الأيام ، فيا لسذاجته حين يقابل من أعطاه وابتلاه ، بهذا الطغيان وما أفرزه من البهتان .

سادسا : تقديم الشبهة ، ثم الفرية ، وطريقة الإيراد تغني عن الرد . جاء هذا في مقطع الأحقاف الثاني ، فقوله تعالى : ﴿ والذي قال لوالديه أفّ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ﴾ هذه الشبهة . وقول المكذب بعد ذلك : ﴿ ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ هو الفرية . ويغني عن الرد شناعة هذا المشهد الذي يصوره المقطع ، مشهد ذلك الولد العاق لوالديه يخاطبهما باستعلاء وجفاء وإيذاء ، وهما يخاطبانه بمنتهى الحرص والإشفاق والنصح ، فيرمي به عرض الحائط واصفا كلامهما بالتخريف والدجل . إنه حقا مشهد تشمئز منه النفوس حين تسمع به ، فضلا عن أن تراه .

سابعا : تقديم الشبهة ، ثم الفرية ، ثم الدافع وراءها ، وطريقة الإيراد تغني عن الرد . وقد ورد هذا في مقطع الأنعام الثاني ، فقوله تعالى : ﴿ وكذلك نصرف الآيات ﴾ يشير إلى شبهة القوم التي من أجلها قالوا بفرية التعلم ، وهي تصريف الآيات والحجج والدلائل وتنويعها . وقوله : ﴿ وليقولوا درست ﴾ يبيّن فريتهم المترتبة على تلك الشبهة . وقوله : ﴿ ولنبيّنه لقوم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعلمون ﴾ يشير إلى الدافع وراء الفرية ، وهو جهلهم بالحق . أما الرد على الفرية فتغني عنه طريقة إيرادها ؛ لما تبينه الآية من أن مقالتهم تلك هي نتيجة حتمية لما يرون من إعجاز القرآن ، مع ما هم عليه من الجهل وقلة الفقه .

ثامنا : تقديم الفرية ، ثم الرد عليها ، دون تعرض لدافع أو شبهة . جاء هذا في ثلاثة مقاطع ، هي : النحل الثاني والأحقاف الأول والمطففين . فقولهم في النحل:﴿ إنما يعلمه بشر﴾ هو فريتهم . وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ هو الرد . أما في الأحقاف فأورد تعالى الفرية بقوله : ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ . وقوله بعد ذلك : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدقٌ لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ هو الرد على فريتهم . وأما في المطففين فأورد الفرية بقوله : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ . وقوله بعد ذلك : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ هو الرد عليها ببيان السبب المؤدي إليها ، وهو ما حجب قلوبهم عن معرفة الحق وغلب عليها من الكفر والمعاصي والذنوب .

تاسعا : الاقتصار على إيراد الفرية ، وطريقة الإيراد تغني عن الرد . ورد هذا في مقطعي الأنفال والدخان . فقوله في الأنفال : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ اقتصر فيه على ذكر فريتهم دون التعرض لدافع أو شبهة أو رد ، لكن طريقة الإيراد تغني عن الرد ؛ لما تظهره من سخفهم وركاكة عقولهم حين بنوا فريتهم على أمر لا يشك أحد في بطلانه ، وهو ادعاء قدرتهم على معارضة القرآن بمثله ، وأن ذلك معلق بمشيئتهم ! . أوَ لم يكفهم كل ما حدث من ظهور أمر محمد ﷺ وتزايد أتباعه ، بما يهدد أوضاعهم ، مع إعلانه ﷺ للتحدي بأن يأتوا بسورة واحدة من مثل سور القرآن ، طالت أو قصرت ، مع ما هم عليه من الأنفة والحميّة ، كل ذلك وغيره ألم يكفهم لكي يشاؤوا معارضة القرآن حتى آل الأمر بهم إلى المقاتلة والمحاربة وقطع الأرحام ، ثم الهزيمة والقتل والأسر ؟! . فلو كانوا حقا قادرين على معارضته لما توانَوا لحظة عنها ، كي يطفئوا نور دعوة الإسلام في مهدها ويريحوا أنفسهم من عناء المحاربة والقتال وإزهاق النفوس . فثبت بطلان ادعائهم ذلك ، والمبني على الباطل هو باطل مثله .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما في الدخان فقوله تعالى : ﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ۞ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ اقتصر فيه أيضا على ذكر فريتهم . وطريقة إيرادها تغني عن الرد ، وقد مر بيان ذلك في مبحث فرية الجنون[١] ، فيُرجع إليه هناك .

عاشرا : تقديم الرد على الشبهة ، ثم الرد غير المباشر على الفرية ، ثم الهدف من ورائها . وهذا جاء في سورة الطارق ، فمن قوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق ﴾ إلى قوله :﴿ إنه على رجعه لقادر﴾ هو رد على شبهة إنكار البعث بعد الموت وبلى الأجساد التي بنى عليها كفار مكة فرية الأساطير ، كما جاء في عدة مقاطع قرآنية . وقوله بعد ذلك :﴿ والسماء ذات الرجع ۞ والأرض ذات الصدع ۞ إنه لقول فصل ۞ وما هو بالهزل ﴾ هو رد غير مباشر على فرية الأساطير التي وصموا بها القرآن العظيم ، عانين بها أنها خرافات وحكايات قالها الأقدمون للتلهي والمسامرة ، لا على سبيل الجد والحقيقة . أما قوله : ﴿ إنهم يكيدون كيدا ﴾ ، فهو الهدف والمقصد من وراء فريتهم وطعنهم في التنزيل ، أي الكيد العظيم لهذا الدين بغية إبطاله .

حادي عشر : ردّ ، ثم دافع ، ثم رد ، ثم دافع . جاء هذا في مقطع العنكبوت ، فقوله : ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به ﴾ هو رد على فرية الأساطير ونحوها . وقوله : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ فيه إشارة إلى الدافع من وراء جحودهم وطعنهم في التنزيل ، وهو الكفر الراسخ في نفوسهم . ثم قوله : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ إلى قوله : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ هو رد على فريتهم تلك . وقوله بعد ذلك : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ يشير إلى دافع آخر وراء جحودهم وطعنهم ، ألا وهو ميل نفوسهم إلى الظلم .

---

(١) ينظر : ص ١٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الرابع : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن وأسلوبه في ردّها

لجأ المشركون في هذه الفرية إلى أسلوب التوكيد ؛ محاولة منهم لطمس حجيّة القرآن ، وتبريرا لسلوكهم تجاهه ، وتضليلا للعامة عن التصديق به وبمن بلغه ﷺ . وكان ذلك بطريقتين : **الأولى** : استعمال صيغة القصر . **الثانية** : استعمال الجملة الاسمية .

أما الطريقة الأولى فظهرت في سبعة مقاطع ، **الأول** : قولهم في الفرقان : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ . والظاهر أن قولهم هذا كان مخاطبة لعوامهم الذين خيف من تأثرهم بالقرآن واحتمال تصديقهم به ، فاستعملوا لهم قصر التعيين ردا لدعوى أن القرآن منزل من عند الله ، وحصرا لتفكيرهم فيما حكموا لهم به . **الثاني** : قولهم في النحل : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ ، " أي : لا يعلم محمدا القرآن إلا بشر ، أي : لا جبريل كما يدّعي "[١] . وهذا أيضا قصر تعيين ، قاله عتاة قريش لعوامهم كما هو ظاهر. **الثالث – السابع** : قولهم في الأنعام والأنفال والمؤمنون والنمل :﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ، وفي الأحقاف :﴿ ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ، قيل في مواجهة النبي ﷺ والمؤمنين بدعوته ، فهو قصر قلب ، نقضا لما يعتقدونه من ربانية القرآن ، وأنه الحجة الدامغة على صدق محمد ﷺ في دعوى الرسالة ، فجعلوه منحصرا في كونه من حكايات الأولين وخرافاتهم . وأما الطريقة الثانية فظهرت في خمسة مقاطع : في قولهم في الفرقان : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها ﴾ ، وقولهم في النحل والقلم والمطففين : ﴿ أساطير الأولين ﴾ ، وقولهم في الدخان : ﴿ معلم مجنون ﴾ .

أما أسلوب القرآن في ردّ الفرية فقد اتسم بالهدوء النسبي والوجازة ، فلم يشتمل على التوكيدات الكثيرة أو الإضرابات العديدة أو الاستفهامات الإنكارية التوبيخية أو النفي المتكرر ، كما في غيرها من الفرى كالشعر والكهانة والجنون والافتراء على الله . وهذا يرجع فيما يظهر لي – والله أعلم – إلى أن التعلم من البشر في حدّ ذاته محمدة لا مذمة ، لكنه سيق إبطالا لدعوى النبوة والرسالة ؛ ولذا لم يتعامل القرآن معه بالأسلوب العنيف الذي تعامل به مع غيره من الفرى ؛ لأنّ هذه الأخيرة أفعال وصفات مذمومة عند الله وعند أصحاب الفطر السليمة ، بخلاف التعلم الذي رغّب الشرع فيه ورفع قدر أهله ، فلما كانت كذلك كان الرمي بها إساءة وشتيمة لمن رُمي بها ؛ ولذا تعامل القرآن معها تعاملا خاصا اتسم بشكل عام بالشدّة والطّول في ردّها .

---

(١) الجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ٢٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الخامس : الردّ على الفرية

لما كانت مسالك القوم في فرية التعلم من البشر متعددة ، من فرية الأساطير إلى فرية التعلم من أهل الكتاب بمسلكيها ، كان لا بد من دراسة رد القرآن على كل فرية على حدة . وسأبدأ بفرية الأساطير ، ثم فرية تعلم الأخبار من أهل الكتاب مع اختلاق الألفاظ والعبارات ، ثم فرية تعلم القرآن لفظا ومعنى من غلام أعجمي مقيم في مكة .

أولا : الرد القرآني على فرية الأساطير

لقد كثر إطلاق المشركين لهذه الفرية ، حتى كانت من أكثر الفرى الوارد ذكرها في القرآن ، فقد وردت في تسعة مواطن منه . كما تنوع الرد القرآني عليها ، فمن الرد المباشر لها ، إلى الرد على الشبهة الداعمة لها ، إلى الرد ببيان السبب الحقيقي المؤدي إليها ، ثم الرد ببيان مناقضة المفترين للواقع والحال حين قالوها . فأما الرد المباشر للفرية فجاء في مقطع الفرقان بقوله تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ ، أي الله ، الذي يعلم سر من في السماوات والأرض ، وما غاب علمه من أحوالهم وأخبارهم ، كأخبار الماضين البائدين في التاريخ من الأقوام والأمم ، وما سيكون في مستقبل الزمان ، كبعث الناس من قبورهم أحياء للحساب والجزاء ، لا يعزب عن علمه – سبحانه– شيء من ذلك . فما أخبر به حق وصدق ، لا أساطير وخرافات ، كما يدّعي كفار مكة . ووجه آخر في الآية قاله الرازي ، هو " أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ، ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد ، لكان من الواجب عليهم أيضا أن يستعينوا بأحد ، فيأتوا بمثل هذا القرآن ، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي الله وكلامه ، فلهذا قال : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر﴾ ؛ وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لا بد وأن يكون عالما بكل المعلومات[١] ظاهرها وخافيها من وجوه : **أحدها** : أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات . و**ثانيها** : أن القرآن مشتمل على الأخبار عن الغيوب ، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات . و**ثالثها** : أن القرآن مبرأ عن النقص ، وذلك لا يتأتى إلا من العالم ، على ما قال تعالى:﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾(النساء:٨٢) . و**رابعها** : اشتماله على الأحكام التي هي مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد ، وذلك لا يكون

---

(١) كونه تعالى يعلم السر الخفي ، فمن باب أولى أن يعلم غيره من الأمور الظاهرة ، مما يعني أنه عالم بكل المعلومات . ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا من العالم بكل المعلومات . و**خامسها** : اشتماله على أنواع العلوم ، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات . فلما دل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس إلا كلامٌ بكل المعلومات ، لا جرم اكتفي في جواب شبهتهم بقوله : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر﴾ "[١] ، فانتفى بذلك كونه من أساطير الناس ، وثبت أنه كلام الله ووحيه .

وأما الرد على الشبهة الداعمة للفرية ، وهي إنكارهم للبعث بعد الموت وبلى الأجساد ، التي تكرر احتجاجهم بها ، ووردت في ثلاثة مقاطع هي : المؤمنون والنحل والأحقاف ، فجاء في مقطعي الطارق والنمل ، ففي الطارق لفت أنظارهم ودعاهم إلى التفكر في مبدأ خلقهم ، فقال :﴿ فلينظر الإنسان ممّ خلق ۞ خلق من ماء دافق ۞ يخرج من بين الصلب والترائب ۞ إنه على رجعه لقادر﴾ ، فبيّن أنهم قد خلقوا من ماء آبائهم وأمهاتهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، فاستدل تعالى بهذه الحقيقة على قدرته على البعث ؛ لأنّ من خلق الإنسان من ذلك الماء المهين لقادر على رده بعد مماته حيا كهيئته قبل مماته ، وأنّ من قدر على الخلق ابتداء قادر على إعادته مرة أخرى ، وليست إعادته بأصعب ولا أعسر من خلقه أولا . ثم زاد في استدلاله ، لكن بطريق الإشارة ، فقال : ﴿ والسماء ذات الرجع ۞ والأرض ذات الصدع ﴾ ، فأقسم بالسماء ذات المطر الذي يرجع على الناس حينا بعد حين ، وبالأرض التي تتصدع وتنشق عن النبات والثمار . وهذا دليل آخر على قدرته تعالى على بعث الأموات بعد بلاهم أحياء ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر ، وأما جواب القسم وهو قوله : ﴿ إنه لقول فصل ۞ وما هو بالهزل ﴾ ، فهو تأكيد على حقيّة القرآن ، وأنّه قول فاصل بين الحق والباطل ، بما بيّنه وشرعه وأخبر به ، ليس فيه شيء من الباطل واللهو والعبث الذي زعمه المشركون حين قالوا : إنه أساطير الأولين – أي خرافاتهم وحكاياتهم الملفقة التي كانوا يتلهون ويتسامرون بها – محتجين بما أنكروه من إخبار القرآن بالبعث . وأما في مقطع النحل فقال :﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ ، فلفت أنظارهم مستدلا على صحة أمر البعث بما آل إليه أمر الأمم المكذبة به في سالف الزمان من الهلاك والاستئصال ، بما سلط الله عليهم من صنوف عذابه ، فأهلك المجرمين وأنجى المؤمنين ، وفي هذا دليل على صدق ما أخبرت به الرسل وصحته ، على رأسه الوعد بالبعث والحساب.

وأما الرد ببيان السبب الحقيقي المؤدي لفرية الأساطير ، فجاء في مقطع المطففين ، بقوله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ ، أي غطى على قلوبهم أن يدخلها

---

(١) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٤ ، ص ٤٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهم القرآن ، والبون الشاسع بينه وبين أساطير الأولين ، ما عملوه سالفا من سيئات أعمـــالهم وجماحهم عن تدبر آيات القرآن[١] ، حتى صار على قلوبهم كالصدأ في المرآة ، فحال بيـــنهم وبين معرفة الحق ، وأدى بهم ذلك إلى أن يقولوا فريتهم الشنيعة .

ومن ردود القرآن على فرية الأساطير بيانه مناقضة المشركين للواقع والحال حين قالوا فريتهم . جاء هذا في مقطعي العنكبوت والأحقاف الأول ، أما في العنكبوت فيظهر هذا من عدة أمور : **أولها** : أن هذا القرآن شأنه شأن سائر الكتب المنزلة على الرسل قبل محمد ﷺ ، الذين أقر بهم كفار مكة ، فلم يأت ﷺ بشيء مبتدع حتى يوصم بأنه أساطير . يدل على هذا المعنى قوله تعالى :﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب﴾ . **ثانيها** : أن علماء أهل الكتاب الذين درسوه ، وهم أهل الخبرة بالكتب الإلهية المنزلة على الرسل ، وأدرى بأساليبها ، وأعلم بسمات الرسل وشمائلهم ، يصدقون بهذا القرآن ، وأنه منزل من عند الله . كالذي كان من وفد نصارى الحبشة الذين رأتهم قريش وشهدوا إقرارهم بذلك ، مما يدل على صحة أمر القرآن . ولو كان من الأساطير التي سطرها الناس واختلقوها لعرفوا ذلك وميزوه . هذا المعنى يدل عليه قوله تعالى :﴿ فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ . وكذلك فإن إيمان بعض قريش به يشهد بحقيته أيضا ، فليس غير المصدقين به منهم بأعقل ولا أفهم ممّن صدق به ، خاصة مع عدم وجود منفعة دنيوية يربّها محمد ﷺ على من آمن به ، ومع كونه مستضعفا وأتباعه مستضعفون ، والغلبة في مكة للكفرة والمكذبين ، فتصديق أولئك بالقرآن رغم كل الصعوبات والتضحيات ، لهو دليل قوي على حقيته ، وأنهم آمنوا به عن قناعة راسخة لا تتزعزع ولا تضطرب ، نابعة من قوة دلالته على أنه وحي من الله ، لا كلام بشر . يدل على هذا المعنى قوله تعالى :﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ . **ثالثها** : الاستدلال بأميّته ﷺ بقوله تعالى :﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون﴾ ، أي لو كنت يا محمد ممن يقدر على القراءة من الكتاب والخط ، لقالوا : لعله وجد هذا الكلام الذي يتلوه علينا من الكتب المدونة في أخبار الأمم وأساطيرهم ، ولكان لارتيابهم حينئذ وجه ، لكنك لمّا كنت أميّا لا تقرأ ولا تكتب ، مع عدم اعتبار ما زعموه من كِذْبة الإملاء بقولهم : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ ، لظهور بطلانه وجلائه لكل أحد ؛ لأنه أمر سريع الانكشاف لو كان واقعا[٢]، دل ذلك على انتفاء احتمال الريبة والشك في هذا القرآن ، وأنّ

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٣٠ ، ص ١٩٩ – ٢٠٠.
(٢) يدل عليه أن المشركين لم يقفوا عند تلك الدعوى كثيرا ، فهم مع كثرة تردادهم لفرية الأساطير لم ينقل القرآن عنهم فرية الإملاء إلا مرة واحدة في مقطع الفرقان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنكار من أنكره وكفر من كفر به مجرد عناد وجحود بلا شبهة [١] . **رابعها** : إظهار مخالفة القرآن للأساطير بقوله تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ ، أي أن القرآن بآياته الواضحة الدلالة على صدقك يا محمد ، وأنها وحي من عند الله ، محفوظة في صدرك وفي صدور علماء أصحابك ، حفظوها تلقيا منك ، وبعضهم من بعض ، وبذلك لا يحتاجون في قراءته إلى كتاب ، بل يقرؤونه عن ظهر قلب . وهذا بخلاف حال الأساطير التي يتناقلها الناس بالكتابة والتسطير والقراءة من الكتب . والله أعلم .

وأما في الأحقاف فأنكر تعالى على كفار مكة وصف القرآن بأنه إفك قديم – أي أكاذيب الأقدمين– وقد صدّق الكتابَ الذي جعله الله إماما يُقتدى به ورحمة لمتبعيه وهو التوراة ، الذي سلّموا هم أنفسهم بإنزال الله له ، ما يدل على حقية هذا القرآن ، وأنه مثل التوراة منزل من عند الله تعالى ، لا فرق بين هذا وذاك[٢] . يدل على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق ﴾ [٣]. والتعبير في الآية عن التوراة بأنه كتاب موسى يذكّر القوم بأنه كتاب أُنزل على بشر ، ومحمد ﷺ بشر مثله ، فلا وجه لإنكارهم بشرية الرسول إذن ، حتى طعنوا فيما جاءهم به ﷺ من عند الله ، فقالوا فيه ما قالوا [٤]. أمّا التصريح في الآية بعربية القرآن بقوله تعالى عنه : ﴿ لسانا عربيا ﴾ ، ففيه امتنان من الله على العرب عامة وقريش خاصة ، ومزيد رعاية وعناية بهم ، فقد اختارهم الله لهذه الرسالة باختياره لغتهم لغةً للقرآن العظيم[٥] ؛ ليكونوا حملته إلى الناس ، يعلمونهم إياه ، ويبينونه لهم ؛ لكونهم أفهم الناس وأعقلهم له . وفي هذا شرف لهم ما بعده شرف . فكان حريّا بهم أن يؤمنوا به ويتبعوه ، لا أن يطعنوا فيه ليبطلوه . ثم كيف يكون إفكا قديما – كما يدّعون – قد اختلقه القدماء لمسامراتهم ولهوهم وتزجية أوقاتهم ، وهو قد أُنزِل مقوّما لسلوك الناس ؟! ، ينذر الظالمين ، ويبشر المحسنين ، يبيّن سبُل الغواية ويحذر منها ، ويبين سبل الرشاد ويرغب فيها ، فأين هذا مما قالوا وادّعَوا ؟! .

---

(١) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٣٥٢.
(٢) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٠ ، ص ١٣ .
(٣) قال ابن عاشور : " والظاهر أن مثل هذه الآية هو الذي جرّأ المشركين على إنكار نزول الوحي على موسى و غيره من الرسل ، فقالوا :﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ [سبأ : ٣١] ، وقالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : ٩١] ، حين علموا أنْ قد لزمتهم الحجة بنزول ما سلف من الكتب قبل القرآن " . ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٦ ، ص٢١ .
(٤) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٦ ، ص ٢٤ .
(٥) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٦ ، ص ٣٢٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا بالنسبة إلى ردّ القرآن على فرية الأساطير، وهناك مفندات أخرى لها أبيّنها فيما يلي :

أولا : إن القرآن ليس كله أخبار وقصص حتى يوصف بالأساطير ، بل فيه آداب وأخـــلاق ، ومواعظ وأحكام وأمثال ، وجدل واستدلال ... .

ثانيا : الأساطير حكايات لا تخاطب الواقع ولا الناس ، بل إنها تسرد بقصد التلهي وتمــضية الأوقات . أما قصص القرآن وأخباره فهي تخاطب الناس في كل زمان ومكان ، وهي مسوقة لمقصد وهدف يتصل بالمخاطبين بها في كل زمان ومكان أيضا ، فهي وعد للمؤمنين وتثبيت ، ووعيد للكافرين وتهديد ، وعبرة لأولي الألباب وتذكير .

ثالثا : الأساطير حكايات خرافية لا حقيقة لها ، أما قصص القرآن فهو يتناول أقواما قد اشتهر أمرهم بين العرب آنذاك ، كعاد وثمود وتبع وأصحاب الفيل ، وقصص أنبياء بنـــي إســـرائيل المعروفة عند أهل الكتاب . ولذا خاطب الله قريشا في أماكن متعددة من كتابه فقال : ﴿ قـــل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾(الأنعام:١١) ، وقال : ﴿ فسيروا فـــي الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(النحل :٣٦) ، إلى غير ذلك من الآيات ، ومحـــال أن يخاطبهم الله تعالى بشأن أقوام لا علم لهم بهم ، يدل على ذلك قوله تعالى مخاطبـــا لهـــم : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾(إبراهيم :٤٥) ، قال ابـــن عاشور: " وكان العرب يمرون على ديار ثمود في رحلتهم إلى الشام ، ويحطـــون الرحـــال هنالك ، ويمرون على ديار عاد في رحلتهم إلى اليمن . وتبيُّن ما فعل الله بهم مـــن العقـــاب حاصل من مشاهدة آثار العذاب "[(١)] .

رابعا : الأساطير هي الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة ، فهل هذا القرآن الذي يعالج النفوس والعقول ، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع ، وأحوال البشر في الماضي والحاضر والمستقبل ، هو من قبيل الأساطير ؟![(٢)] .

خامسا : " إن سياقة القصص في القرآن بهذا التنسيق في عرضه ، وبهذا التناسق بينه وبـــين الموضوع الذي يساق فيه ويستشهد بالقصص عليه ، وبهذا التناسب بـــين أهـــداف القـــصص وأهداف السياق في السورة الواحدة ، إن هذا كله ليشهد بالقصد والتدبير العميق اللطيف الذي لا يلحظ في الأساطير المبعثرة التي لا تجمعها فكرة ولا يوجهها قصد ، إنما تـــساق للتـــسلية وتزجية الفراغ "[(٣)] .

---

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٣ ، ٢٤٩.
(٢) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٤ ، ص ٢١٦٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ج١٩ ، ص ٢٥٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سادسا : إنّ ادعاء كفار مكة أنّ هذه الأساطير كانت تملى عليه ﷺ بكرة وأصيلا ، لا يقوله من له مسكة من عقل أو مروءة ؛ فإن من المعلوم الذي لا يخفى على عاقل أن إنسانا لو لازم شيئا عشرة أيام بكرة وعشيا ، لم يبق ممن يعرفه ويطلع على أحواله أحد إلا عرف ذلك منه ، فلو أنكره بعدُ لافتضح فضيحة لا يغسل عنه عارها أبدا ، فكيف والبلد صغير والرجل عظيم شهير ﷺ(١) .

سابعا : ما كان من كبراء قريش من أمثال أبي سفيان وأبي جهل ، والأخنس بن شريق ، حين كان يخالس بعضهم بعضا ليبيت ليلته يستمع خفية لهذا القرآن ، ولا يملك نفسه من أن تقوده قدماه ليلة بعد ليلة إلى حيث يستمع لرسول الله ﷺ في خفية عن الآخرين ، حتى تعاهدوا وأكدوا على أنفسهم العهود ألا يعودوا إليها مخافة أن يراهم الفتية ، فيفتنوا بهذا القرآن وبهذا الدين(٢) . في مقابل ذلك فالأساطير التي نعتوا القرآن بها ، مهما بلغت من التشويق والحبك فلن تحدث ذلك الأثر الذي أحدثه القرآن في نفوس مستمعيه الكارهين له النافرين منه ، فكيف بالمحبين المقبلين عليه ؟! .

ثامنا : لما كان العرب في معظمهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون إلا نادرا(٣) ، وكانوا يتناقلون الأخبار والأشعار مشافهة ، معتمدين على حفظهم واستذكارهم دون تدوين وكتابة ، وكانت قصص القرآن تتحدث عن أقوام من أهل الجزيرة العربية أو قريب منها ، فإن كونها حكايات كتبها وسطّرها الأقدمون ثم تناقلها الناس جيلا جيلا – كما زعمت قريش – لهو من أبعد الأمور عن العقل والمنطق والواقع ، خاصة وأن الذي اختلق فرية الأساطير – وهو النضر ابن الحارث – لم يتعرف على الأساطير إلا في بلاد العجم ، نحو قصص رستم واسفنديار من ملوك الفرس .

ثانيا : الرد القرآني على فرية تعلم الأخبار من أهل الكتاب مع اختلاق الألفاظ والعبارات

وردت هذه الفرية في مقطع واحد هو مقطع الفرقان ، في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ . وكان الرد القرآني على مقالتهم هذه بقوله تعالى بعدها : ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ . قال سيد قطب تفسيرا للاكتفاء بهذا الرد الوجيز: " هو كلام متهافت لا يقف للجدل ، فإن كان بشر يملك أن يفتري مثل هذا القرآن

---

(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٥ ، ص ٢٩٦ .
(٢) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٩ ، ص ١٥٠٤ . وينظر : تفصيل القصة : ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، ج١ ، ٢٣٣ .
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٨ ، ص ٢٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمعاونة قوم آخرين ، فما يمسكهم هم عن الإتيان بمثله مستعينين بأقوام منهم ، ليبطلوا حجة محمد ﷺ ، وهو يتحداهم به وهم عاجزون ؟! . ومن ثم لا يجادلهم هنا ولا يناقشهم في هذا القول المتهافت ، إنما يدمغهم بالوصف البارز الثابت : ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ "(١) . وأما وصف قولهم بالظلم والزور ؛ فلأنهم " جعلوا الحق البحت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إفكا مفترى من قبل البشر ، وهو من جهة نظمه الرائق وطرازه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته ، لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ، ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية ، والأحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية ، والأمور الغيبية ، بحيث لا تناله عقول البشر ، ولا تحيط بفهمه القوى والقُدَر "(٢) .

هذا ، ويفنّد هذه الفرية عدة مفندات هي :

أولا : لو كان القرآن مأخوذا من الكتابين التوراة والإنجيل وما جاء فيهما ، لما زاد عليهما ، ولكان ما فيه مطابقا لما فيهما ، لكنه زاد عليهما مواضيع وفنونا وعلوما خارجة عنهما(٣) .

ثانيا : لو كان القرآن مأخوذا من الكتابيين الموالي المقيمين في مكة – كما زعم المشركون– ، لتمكنوا هم منه أيضا ، كما تمكن – بحسب زعمهم– محمد ﷺ ، فهلا عارضوا هذا القرآن(٤). قال سيد قطب : " فإن كان بشر يملك أن يفتري مثل هذا القرآن بمعاونة قوم آخرين ، فما يمسكهم هم عن الأتيان بمثله مستعينين بأقوام منهم ، ليبطلوا حجة محمد ﷺ ، وهو يتحداهم به وهم عاجزون ؟! "(٥) .

ثالثا : لم يبلغ علم أهل الكتاب المستوى الذي عليه القرآن ، وما كان أهل الأرض جميعا – وما يزالون – يبلغون شيئا من هذا المستوى الساحق على كل ما عرف البشر ويعرفون(٦). أما أولئك الذين أدّعيَ أنهم أعانوه ﷺ بما عندهم من أخبار الرسل ، فما كانت معرفتهم لتلك الأخبار – إن وجدت – إلا معرفة ضئيلة غير محققة ، كشأن معرفة العامة والدهماء(٧) ، قال سيد قطب : " هذه كتب أهل الكتاب التي كانت بين أيديهم يومذاك ما تزال بين أيدينا ، والمسافة شاسعة بين هذا الذي في أيديهم وهذا القرآن الكريم . إن ما بين أيديهم إن هو

---

(١) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٩ ، ص ٢٥٥١ .
(٢) الألوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٥٧٦ .
(٣) ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٣ ، ص ٥ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ،ج١٣ ، ص ٥ .
(٥) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٩ ، ص ٢٥٥١ .
(٦) ينظر : المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١١٦٧.
(٧) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا روايات لا ضابط لها عن تاريخ الأنبياء والملوك ، مشوبة بأساطير وخرافات من صنع أشخاص مجهولين . هذا فيما يختص بالعهد القديم ، فأما العهد الجديد– وهو الأناجيل – فما يزيد كذلك على أن يكون روايات رواها تلاميذ المسيح عليه السلام بعد عشرات السنين ، وتداولتها المجامع بالتحريف والتبديل والتعديل على ممر السنين ، وحتى المواعظ الخُلقية والتوجيهات الروحية لم تسلم من التحريف والإضافة والنسيان . وهذا هو الذي بين أيدي أهل الكتاب حينذاك وما يزال ، فأين هذا كله من القرآن الكريم "(١) .

رابعا : قال الرازي : " العلوم الموجودة في القرآن كثيرة ، وتعلّمها لا يتأتى إلا إذا كان المعلّم في غاية الفضل والتحقيق ، فلو حصل فيهم [أي من أهل مكة] إنسان بلغ في التعليم والتحقيق إلى هذا الحد ، لكان مشارا إليه بالأصابع في التحقيق والتدقيق في الدنيا ، فكيف يمكن تحصيل هذه العلوم العالية والمباحث النفيسة من عند فلان وفلان ؟! "(٢) ، أي ممن هم من هوامش الناس في مكة ، لا قيمة لهم ولا وزن ولا اعتبار . وقال الآلوسي : " العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة ، فكيف تعلّم [ﷺ] جميع ذلك من غلام سوقي سمع منه بعض المنقولات بكلمات أعجمية ، لعله لم يعرف معناها "(٣) .

خامسا : " أن أمر التعلم لا يتأتى في جلسة واحدة ، ولا يتم في الخفية ، بل التعلم إنما يتم إذا اختلف المعلم إلى المتعلم أزمنة متطاولة ومددا متباعدة ، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر فيما بين الخلق أن محمدا عليه السلام يتعلم العلوم من فلان وفلان "(٤) .

سادسا : لم يدع أحد من أهل الكتاب من يهود ونصارى في زمان النبوة أن القرآن مأخوذ من كتبهم ، مع حرصهم على الطعن في نبوته ﷺ ، فعُلِم بذلك أن قريشا كاذبة في ادّعائها .

ثالثا: الرد القرآني على فرية تعلم القرآن بلفظه ومعناه من غلام كتابيّ أعجميّ مقيم في مكة

وردت هذه الفرية في مقطع النحل في قوله تعالى :﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ . وردّ القرآن عليهم ردا وجيزا ، لكنه في غاية الإفحام لهم والإبطال لما قالوه ، فقال : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ . قال الخازن : " ووجه الجواب

(١) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٧ ، ص ١١٦٨.
(٢) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص ٢٧٢.
(٣) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٦٣٢.
(٤) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص ٢٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو أن الذي يشيرون إليه[٥] رجل أعجمي في لسانه عُجمة تمنعه من الإتيان بفصيح الكـلام ، ومحمد ﷺ جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذي عجزتم أنتم عنه ، وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة ، فكيف يقدر من هو أعجميّ على مثله ؟! . وأين فصاحة هذا القرآن من عُجمـة هـذا الـذي يشيرون إليه ؟! . فثبت بهذا البرهان أن الذي جاء به محمد ﷺ وحي أوحاه الله إليه ، ولـيس هو من تعليم الذي يشيرون إليه "[١] .

ومما يعتبر ردا قرآنيا عليهم ما أورده القرآن من تناقضهم العجيب في وصـفه ﷺ بأنـه – كما جاء في مقطع الدخان – : ﴿ معلم مجنون ﴾ ؛ لأن المجنون – كما مـر فـي فريـة الجنون– لا يكون معلّما ، ولا يتأثر بالتعليم .

ويفنّد هذه الفرية أيضا – إضافة إلى ردّ القرآن – ما يلي :

أولا : أن هذا القرآن كلام عربي مبين ، قد بلغ الذروة في الفصاحة والبلاغة والبيان ، مع ما له من التأثير البالغ في النفوس والقلوب ، حتى أعجز عمالقة اللغة وفرسان البيان من العرب الأقحاح أن يأتوا ولو بسورة من مثله ، مع شدة الحاجة وتوفر الدواعي ، فكيـف يمكـن أن يكون هذا الكتاب صادرا عن غلام أعجمي ألكن ؟! ، فما هذا إلا أمر محال محال ! .

ثانيا : إنه باعتبار عجزهم ذلك عن معارضة القرآن ، مع أنهم قد تُحدّوا بذلك ، مـع وفـرة الدواعي وشدة الحاجة ، فلو كان الذي علم محمدا ﷺ هذا القرآن عربيا ، للزم أن لا يعجـزوا عن الإتيان بمثل ما علمه ، فكيف وهو أعجمي لا يفصح ؟![٢] ، فمن باب أولى أن لا يعجزوا ، بل أن يأتوا بأعظم منه ! .

ثالثا : إنه من غير المعقول ولا المقبول من شخص مثل ذاك المولى الأعجمي المهمّش ، في مقامه وبين أسياده ، أن يحبو غيره ما يتشرف به دونه . قال سيد قطب : " فكيـف يقولـون – وهم أخبر بقيمة هذا الكتاب وإعجازه – إن أعجميا يملك أن يعلم محمدا هذا الكتـاب ؟! ، ولئن كان قادرا على مثله ليظهرن به لنفسه "[٣] . ثم إنه لو علمه إياه – على سبيل الفرض– ، لكان اشترط عليه أن يذكره ؛ لينال به بعض الشرف المحروم منه في ظل الرق والعبوديـة ،

---

(٥) هذا الغلام الأعجمي قيل – على الأشهر – أن اسمه جبر .

(١) الخازن ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي ، (ت : ٧٢٥ هجرية) . **لباب التأويل في معاني التنزيل** ، المعروف (بتفسير الخازن) ، ط١ ، ٤م ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٥م ، ج ٣، ص٩٩ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ٢٨٢ .
(٢) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر**، ج٤ ، ص ٣١٣.
(٣) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٤ ، ص ٢١٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكيف والحال أنه ليس له ذكر من قريب ولا من بعيد ؟! ، بل كيف وهذا الكلام الذي يُزعَم أنه صادر عنه ينفي أي صلة به ؟! .

رابعا : كانت قريش تعلم عن محمد ﷺ قبل البعثة أنه الصادق الأمين ، الذي لا يكذب ولا يخون ، فكيف يترك الكذب على الناس ويكذب على الله ، فينسب إليه قولا لم يقله ، بدل أن ينسبه إلى من لقنه إياه من الناس ؟![١] .

خامسا : قال الآلوسي : " احتمال التعلّم مما لم يلتفت إليه ؛ لظهور أن مثله من الكتاب المفصل الطويل لا يُتلقى ويُتعلم إلا في زمان طويل ، بمدارسة لا يخفى مثلها "[٢]. وأقول : لو حدث هذا لذاع وانتشر ولم يجهله أحد .

سادسا : لو كان ﷺ قد تلقى ما كان يتلوه من القرآن وهو في مكة من هذا الغلام الأعجمي – كما زعموا – ، فمن أين تلقى ما قرأه من غير المكي وهو في المدينة بعد الهجرة ؟! .

سابعا : ألم يعلم الصحابة – رضي الله عنهم – الذين بذلوا مهجهم وأرواحهم وأموالهم ، وقطعوا أرحامهم وتركوا ديارهم ، وذاقوا صنوف الخوف والرعب والأذى ، فداء لهذا الدين وهذه الدعوة وهذا النبي ﷺ ، ونصرة لهذا الكتاب وهذه العقيدة الجديدة التي اعتنقوها ، ألم يعلموا طوال تلك الفترة الطويلة في صحبة محمد ﷺ أنه يتعلم من البشر ، وأنه يتلقى القرآن من أهل الكتاب لا من الله ، وأنه – حاشاه – يكذب عليهم بادعائه النبوة والرسالة ؟ ، بل ظلوا سائرين على اتباعه حتى مات وماتوا ؛ ما يقضي بانتفاء ذلك الاحتمال انتفاء قطعيا .

---

(١) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٩ ، ص ٢٥٥١ .
(٢) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢١، ص ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب السادس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردّها

اخترت لهذا المطلب مقطع النحل الثاني ؛ لكونه الأصرح في التعبير عن فرية التعلم من البشر ، كما أنه المتبادر إلى الذهن حال السماع بهذه الفرية ، إضافة إلى قِصَره تجنبا للإطالة في هذا المبحث ، ولأن الرد فيه متوجه إلى الفرية بشكل مباشر يعود عليها بالإبطال والتفنيد رأسا .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(النحل : ١٠٣)

التحليل البياني للنص :

يؤكد الله تعالى في الآية علمه بما يقوله كفار مكة من فرية التعلم من البشر ، فجاء بـ(لقد) المكونة من لام جواب القسم المحذوف(١) ، على تقدير (والله لقد) ، و(قد) الدالة على التحقيق(٢) . قال أبو السعود : " وتحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد "(٣) . وعبر بفعل العلم لأنه "إدراك الشيء بحقيقته"(٤) ، فالله يخبر عن مقالتهم الشنيعة تلك على وجه اليقين والحقيقة ، ما يدعم معنى الوعيد المقصود من الجملة . والتأكيد على العلم الإلهي بما قالوه يشير إلى أن المشركين كانوا يخصون عامتهم بقولهم ذلك ، ولا يجرؤون على التفوّه به بين المسلمين ؛ لأنه باطل مكشوف ، فكشف الله سرهم ، وأطلع المسلمين عليه(٥) . ومجيء فعل العلم بصيغة المضارع المفيد لمعنى التجدد والحدوث هو لإفادة استمرار العلم الإلهي بما هم مستمرون في ترداده والتفوه به استمرارا تجدديّا مرة بعد

---

(١) ينظر : المرادي ، **الجنى الداني** ، ص ١٢٥.
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٩.
(٣) أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٤ ، ص ٩٣ .
(٤) الراغب ، **المفردات** ، ص ٣٤٧.
(٥) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ٢٨٦.

مرة[٦] . وجيء بنون العظمة في فعل العلم جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة في النفس وإدخال الروعة فيها بما يعزز معنى الوعيد . وأكّد على مقالتهم بـ(أنّ) التوكيدية[٧] بعد تأكيده على علمه تعالى بها تحقيقا لمعنى الوعيد – كما مرّ – . وجيء بالفعل (يقولون) بصيغة المضارع المفيد لمعنى التجدد ؛ لإفادة أن ما زعموه من فرية التعلّم قول متكرر لهم ، لا يزالون يلهجون به[١] . وعبروا عن فريتهم بأداة القصر (إنّما) لإفادتها إلى جانب الحصر كلاً من المبالغة والتأكيد والتعريض ، ولكونها تستعمل لما لا ينكره المخاطب أو لما ينزل منزلته[٢] . فهم قصدوا المبالغة في تأكيد قصر تعلمه ﷺ للقرآن على أحد البشر ، مع التعريض بما كان ﷺ يقوله لهم من أنه يتلقى القرآن من الملك جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى ، فكأنهم قالوا : إنما يعلمه بشر ، لا كما يدّعي ويزعم من أنه الملك جبريل يأتيه بالوحي من عند الله[٣] . كما أنهم بهذا الاستعمال قد أنزلوا المخاطبين من عوامّهم منزلة غير المنكر لمقالتهم ؛ تنبيها لهم إلى أن ما قالوه أمر بدهيّ ، واضح وضوح الشمس ، لا ينبغي أن يرتاب فيه أحد . وقولهم (يعلّمه) من التعليم ، وهو مختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم[٤] . ولما كان نزول القرآن منجما مفرقا ، وهو من الطول بمكان ، وكان رسول الله ﷺ يأتيهم كل مرة بشيء جديد منه يتلوه عليهم ، زعموا أنه يتلقى هذا القرآن من ذلك البشر على جهة التعلم دفعة دفعة ، ومرة بعد مرة . وجاءوا بالفعل بصيغة المضارع المفيد لمعنى التجدد لكون ذلك القول منهم في زمن تنزّل القرآن . وأسندوا التعليم إلى بشر مبهم دون تصريح باسمه مع أنهم يقصدون في بواطنهم ذلك الغلام الرومي المسمى جبرا ؛ خوفا من انكشاف أمر فريتهم وظهور بطلانها للعامة ، فاختاروا الإبهام على التصريح . وجاءوا بوصف البشرية تعريضا ببطلان ما يقوله ﷺ لهم من كون مصدر القرآن هو الله جل جلاله بواسطة الملك جبريل عليه السلام .

وجملة (لسان الذي يلحدون ...) " جواب عن كلامهم ، فهي مستأنفة استئنافا بيانيا ؛ لأن قولهم : (إنما يعلمه بشر) يتضمن أنه ليس منزلا من عند الله ، فيسأل سائل : ماذا جواب

---

(٦) ينظر : أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٤ ، ص ٩٣.
(٧) ينظر : المرادي ، **الجنى الداني** ، ص ٤٠٢ .
(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٤ ، ص ٣١٣.
(٢) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٧٧٧ ، والثعالبي ، **الجواهر الحسان** ، ج٢ ، ص٤ ، والجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر ابن عبد الرحمن بن محمد ، (ت : ٤٧١ أو ٤٧٤ هجرية) . كتاب **دلائل الإعجاز** ، مطبعة المدني ، مكتبة الخانجي للنشر ، القاهرة ، ص ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٥٤ ، والمرادي ، **الجنى الداني** ، ص ٣٩٥ – ٣٩٦ ، ود. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٣٧٢ – ٣٧٩ .
(٣) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ٢٨١.
(٤) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ٣٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قولهم ؟ فيقال : (لسان الذي ...) "[٥] . وعبر بالموصول للإشعار بما في حيز الصلة من اتصافهم بالإلحاد والميل عن الجادة والاستقامة حين نسبوا القرآن العربي المعجز في فصاحته وبلاغته إلى غلام أعجمي ألكن لا يُفهَم عنه ما يقوله . وعدم التصريح باسم المشار إليه لعدم أهميته ؛ لأن الذي ينسف ما قالوه من أساسه هو اتصافه بالأعجمية وليس اسمه . ومفعول (يلحدون) محذوف ، والتقدير : يلحدون أي يميلون قولهم[٦] . وهذا الحذف هو بقصد الإيجاز؛ لكون المفعول معلوما ، قد سبق ما يدل عليه بقوله تعالى :﴿ يقولون إنما يعلمه بشر﴾[١] . قال ابن عاشور : " والأعجمي المنسوب إلى الأعجم ، وهو الذي لا يبين عن مراده من كل ناطق لا يفهمون ما يريده ؛ ولذلك سموا الدوابّ العجماوات ، فالياء فيه ياء النسب . ولما كان المنسوب إليه وصفا ، كان النسب لتقوية الوصف "[٢] . وعطف قوله تعالى : ﴿ وهذا لسان عربي مبين ﴾ على قوله : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ﴾ إظهارا للتضاد بين القرآن العربي الفصيح وبين ذلك الغلام الأعجمي الألكن ، من حيث كونه مصدر القرآن – كما زعموا – . وتقديم وصف الغلام على وصف القرآن في الذكر هو لفضح مقصدهم الذي أبهموه وأخفوه بقولهم : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ ، ببيان أعجميته المتعارضة مع عربية هذا القرآن المعجز في فصاحته وبلاغته ، وهذا أبلغ في الرد . والتعبير عن القرآن باسم الإشارة (هذا) دون التصريح باسمه ؛ لأن المقارنة في الآية – إظهارا للتضادّ – هي بين وصفين لا بين اسمين ، فكما لم يُصرَّح باسم ذاك الأعجمي مكتفَيا بوصفه ، كذا اكتُفيَ من القرآن بوصفه دون اسمه . ولا جرم اختير اسم الإشارة للقريب لكون الحديث هو حديث القرآن عن نفسه . ووَصْف القرآن[٣] بأنه (مبين) بعد وصفه بالعربية فيه مبالغة في الوصف تفيد توكيد المعنى ، أي إنه " من شدة بيانه مظهر لغيره أنه ذو بيان عظيم "[٤] ، من حيث فصاحته وبلاغته . فحصل بهذا تمام التضاد بينه وبين لسان ذاك الأعجمي الألكن الذي ينسبون القرآن إليه[٥] . وعليه يكون وجه إبطال القرآن لطعنهم هو أن ما سمعه ﷺ من ذلك البشر – إن

---

(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ٢٨٧.
(٦) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٦٣٢.

(١) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٢٧٧.
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ٢٨٨.
(٣) سمي القرآن هنا لسانا لأن العرب تقول للقصيدة والبيت: لسان ، فكذا الحال بالنسبة للقرآن ؛ لأن كل ذلك كلام ، فيصح أن يسمى لسانا ، فيقال : كلام عربي ولسان عربي . ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٠ ، ص ١١٨ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٩٧٥ . وينظر بتوسع في معنى اللسان وإطلاقاته : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج١٣ ، ص ١٩٧ – ١٩٨ .
(٤) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٤ ، ص ٣١٣ .
(٥) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حصل– كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم يا كفار مكة ، والقرآن عربي غاية في البيان والوضوح ، تفهمونه بأدنى تأمّل ، فكيف يكون متلقفا منه ؟![٦] . والله أعلم .

المطلب السابع : شبهة وردّ

إن من عجائب الأمور أن نرى ما ردّده كفار مكة قبل مئات السنين من شبهٍ ومطاعن في دين الإسلام ونبيه ﷺ ، بعد أن دحضها القرآن وأبان عوارها ، تتجدد وتتكرر ، في هذا الزمان ، لكنْ هذه المرة على لسان خصوم آخرين ، ألا وهم المستشرقون من كفرة الغرب من يهود وصليبيين . ومن تلك الشبه المتجددة فرية التعلم من البشر ، التي تناقضت فيها أقوال أهل الاستشراق وتعددت ، واختلفت في تحديد المصدر البشري لذلك التعلم ، ما بين مصدر يهودي أو نصراني أو عربي ، حتى وصلت إلى عشرة أقوال . سأوردها فيما يأتي واحدا واحدا ، مع التوضيح والبيان والرد المناسب .

القول الأول : ادعاء التعلم من بحيرا الراهب

يُنسب هذا الادعاء إلى (إميل درمنغم) و(منتيه) و(بودلي) و(شبرنجر) . وفحوى شبهتهم أن محمدا ﷺ قد لقي في مدينة بصرى الشام الراهب بحيرا ، الذي كان موحدا ينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث . فكان محمد ﷺ يجالسه ويتعلم منه طويلا ، حتى تعلّم منه عقيدته . ثم انتقل بحيرا معه إلى مكة وصاحبه بعد رسالته ، وكان يعمل من وراء ستار متخذا من محمد ﷺ وسيلة صالحة لدعوة الكفار إلى نبذ عبادة الأوثان ؛ لأنه كان يعتقِد أن الله ظهر له وأنبأه بأنه سيكون هاديا لآل اسماعيل إلى الدين المسيحي[١] .

وينقض هذه الشبهة أمور :

(٦) ينظر : البيضاوي ، **أنوار التنزيل** ، ج٣ ، ص ٢٤١ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٦٣٢.

(١) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٦٨ ، ود. محمد أمين حسن محمد بني عامر ، **المستشرقون والقرآن الكريم** ، ط١ ، دار الأمل للنشر والتوزيع ، إربد – الأردن ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٤٣- ٢٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : إنه باستثناء اللقاء الذي أوردته كتب السيرة بين النبي ﷺ وبحيرا الراهب(٢) ، فليس على ما ذكروه من تفاصيل وأحداث أي سند تاريخي ؛ فما هي إلا أكاذيب اخترعوها علــى أمــل إدخال الريب والشبهة في نبوة محمد ﷺ ونزول الوحي عليه(١) .

ثانيا : إنّ ما جرى بين النبي ﷺ وبحيرا كان لقاءً قصيرا عابرا لا يكفي للدرس والتحصيل ، وكانت سن النبي ﷺ صغيرة(٢) لا تؤهله لذلك . ولا توجد رواية من الروايات تــذكر أنـــه ﷺ سمع من بحيرا أو تلقى منه دروسا أو حتى كلمة واحدة ، لا في العقائد ولا في العبـــادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق(٣) . وفي المقابل فإن القرآن الذي أتى به ﷺ علومـــه كثيـــرة زخمة .

ثالثا : كان محمد ﷺ في ذلك اللقاء مسؤولا لا مستمعا ، وبانتهاء الاستجواب خلص الراهـــب إلى نبوءة مضمونها توقع بعثة هذا الشاب رسولا في المستقبل ، فأين هو التعليم إذن ؟!(٤) .

---

(٢) جاء في السيرة النبوية لابن هشام : " قال ابن إسحاق : ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير صبّ به رسول الله ﷺ [أي تعلق به] - فيما يزعمون - فرقّ له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدا ، أو كما قال . فخرج به معه . فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له : بحيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قطُّ راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيها - فيما يزعمون- يتوارثونه كابرا عن كابر . [أي : ولم يزل في تلك الصومعة راهبا إليه يصير علم النصارى عن كتاب يتوارثونه كابرا عن كابر] فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام . فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه و هو في صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم . قال : ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبا منه . فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال : إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم . فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأنا اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم . فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة . فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده ، فقال : يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي . قالوا له : يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنا فتخلف في=

= رحالهم . فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . قال : فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبدالله بن عبدالمطلب عن طعام من بيننا . ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم . فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه . وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما . فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له : لا تسألني باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما . فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه . فقال له : سلني عما بدا لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده . قال ابن هشام : وكان مثل أثر المحجم . قال ابن إسحاق : فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني . قال له بحيرى : ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا . قال : فإنه ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ؛ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . فأسرع به إلى بلاده " . ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، ج١ ، ص ١٣٤ – ١٣٦ .

(١) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٦٨ ، ود. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن** ، ص ٢٤٤.

(٢) كان له ﷺ من العمر ثنتا عشرة سنة ، وقيل تسع سنين . ينظر : السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي ، (ت : ٥٨١ هجرية) .**الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام** ، ط١ ، ٤م ، دار الكتب العلميـــة ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٧م ، ج١، ص٣١٤ ، ود. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن** ، ص ٢٤٥.

(٣) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص٤٧٠ .

(٤) ينظر : د. محمد عبد الله دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** – عرض تاريخي وتحليل مقارن ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية - مصر ، ١٩٨٩ م ، ص ١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعا : إن ذلك اللقاء كان بحضور رجال القافلة من قريش ، فلو حصل شيء من التعليم لذكروا ذلك بعد أن أعلن ﷺ دعوته ؛ بغية إبطالها ، وهم الحريصون على تكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة .

خامسا : من المستحيل عقلا أن يصير الإنسان معلّما للبشرية جمعاء لمجرد اجتماعه مرة في عمره مع راهب ، وأن يأتي بمثل هذا القرآن المعجز لمجرد ذلك .

سادسا : لو كان هذا الراهب هو مصدر القرآن ، لكان هو الأولى بهذا الشأن العظيم من محمد ﷺ ، ولأدّعى لنفسه النبوة بدل أن يؤثر بها غيره .

سابعا : اشتمل القرآن على ذكر أحداث وقعت في العهدين المكي والمدني ، كتآمر مشركي مكة على التخلص من النبي ﷺ بالحبس أو القتل أو النفي ، وكغزوة الخندق وصلح الحديبية ... ، فمن أين كان لبحيرا العلم بذلك قبل أن يحدث لو كان هو مصدر القرآن .

ثامنا : إن إخبار بحيرا أبا طالب بأن ابن أخيه سيكون له شأن عظيم لا يعقل معه ولا يستقيم أن ينصّب بحيرا نفسه أستاذا لمن بشره بالنبوة(١) .

تاسعا : إن قصة الراهب بحيرا هي في الحقيقة حجة على صدق محمد ﷺ لا عليه ، وحجة على من استدل بها من المستشرقين(٢) .

القول الثاني : ادعاء التعلم من ورقة بن نوفل(٣)

قال بهذا الادعاء عدد من المستشرقين ، أمثال (درمنغم) و(مونتغمري واط) و(الحداد)(٤). وعللوا فريتهم بثلاثة أمور هي : **أولا :** أن ورقة بن نوفل تنصر في الجاهلية ، وكان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية ؛ فهو إذن عالم مسيحي كبير . **ثانيا :** أنه ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ . **ثالثا :** أن محمدا ﷺ عاش في جواره خمسة عشر عاما قبل مبعثه(٥) .

---

(١) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٧١.

(٢) ينظر : أ.د. غازي عناية ، **شبهات حول القرآن وتفنيدها** ، ط١ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٦م ، ص ٢٦.

(٣) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي ، ابن عم خديجة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ . كان من الحنفاء الذين كرهوا عبادة الأوثان ، وطلب الدين في الآفاق ، وقرأ الكتب . وقد اختار النصرانية إذ كان يعرف العبرانية ، فدرس منها ، ودرس التوراة ، فعلم الديانتين من الينابيع الأصلية . ويظهر أنه علم النصرانية ديانة توحيد لا ديانة تثليث . ولقد بلغ علم الرجل بالعبرية أنه كان يكتب بها ويقرأ ويدرس ، فكان على علم بالبشارات التي جاءت في التوراة والإنجيل بالنبي ﷺ . وقد بلغ ورقة من الشيخوخة حتى نضج فكره وكفّ بصره . ينظر : ابن حجر ، **الإصابة** ، ج٦ ، ص٦٠٩ ، ورواية البخاري أعلاه ، ود. محمد أمين ، **المستشرقون و القرآن** ، ص ٢٣٦.

(٤) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٧١.

(٥) ينظر : المرجع نفسه ، ص ٤٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بد قبل الشروع في الرد على هذه الشبهة من الوقوف على ما صح في شأن لقاء ورقة بن نوفل برسول الله ﷺ ، فقد جاء في صحيح البخاري في الحديث الطويل في باب بدء الوحي عن عائشة رضي الله عنها قالت : " فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى ، ابن عمّ خديجة ، وكان امرأً تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانيّ ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عمّ ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزّل اللهُ على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ: أوَ مخرجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عوديَ ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي "[٦] .

ويستفاد من الحديث أمور : **أولا** : إثبات الوحي لرسول الله ﷺ . **ثانيا** : شهادة ورقة بذلك ، وهو من أهل الكتاب . **ثالثا** : موت ورقة قبل بدء الدعوة الإسلامية . **رابعا** : إثبات لقاء وجيز بين النبي ﷺ وبين ورقة ، وأن هذا اللقاء تم في زمن متأخر بعد نزول الوحي عليه ﷺ في المرة الأولى[١] .

وبناءً على ما سبق يُردّ على شبهة المستشرقين بما يأتي :

أولا : إن رواية البخاري السابقة ، وغيرها من الروايات تشير إلى أن نصرانية ورقة كانت قاصرة على نفسه ، فلم يكن داعية إليها ، ولا قادرا عليها لكبر سنه ، ولو تحقق ذلك مع كونه محوطا بمجتمع وثني جاهلي ، لبرز ذلك في التاريخ ، ولوصلت أخباره إلينا ،"وقد قام المحدثون بدراسة جميع الروايات المتعلقة بورقة ، فلم يصح أنه كان داعية إلى النصرانية"[٢].

ثانيا : إن جميع الروايات الصحيحة تؤكد أن رسول الله ﷺ لم يتصل بورقة إلا بعد أن جاءه الوحي في غار حراء للسؤال عما رأى وسمع ، برفقة السيدة خديجة رضي الله عنها ، وهذا يدل على أن ورقة لا علاقة له بالوحي ، ولا تأثير لآرائه في حصوله قبل هذا اللقاء ، مما يثبت صدق النبي ﷺ فيما جاء به عن ربه .

---

(٦) البخاري ، **فتح الباري** ، ج١ ، ص ٣٠ ، (رقم : ٣) .

(١) ينظر : د. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن** ، ص ٢٣٧.
(٢) هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثـــا : لو كان ورقة أستاذا لمحمد ﷺ لهرع إليه ﷺ بعد حادثة حراء مباشرة قبل الرجوع إلى بيته ، ولكنّ الروايات التاريخية الصحيحة تظهر أن خديجة رضي الله عنها هي صاحبة فكرة الذهاب إليه .

رابعا : كان موقف ورقة مما سمعه من النبي ﷺ موقف المستفسر المستطلع لما حصل معه في غار حراء ، فلما أخبره ﷺ به كان موقفه التبشير والتـصديق والإيمـان بنبوتـه ، المتطلـع للتضحية والمناصرة ، فلو كان ورقة هو مصدر التعليم لرسول الله ﷺ لم يقف منـه موقـف التابع .

خامسا : إنّ إخبار ورقة رسول الله ﷺ بأن قومه سيعادونه ويخرجونه من بلده ، وأن تلك سنة الله في خلقه ، فقال : " لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي " ، لهُو تـصريح بـأن الدعوة الإسلامية دعوة ربانية .

سادسا : أنّ ورقة – كما صرحت رواية البخاري – قد توفي بعد تلك المقابلة مـع النبـي ﷺ بوقت قصير ، فلم يدرك الدعوة الإسلامية ، ولم يعاصر النبي ﷺ في دعوته . فلو كـان هـو مصدر العلوم والمعارف لرسول الله ﷺ ، فمن أين له ﷺ بالعلوم التي جاء بها بعـد موتـه ، وهي علوم متعددة جاءت في كتاب الله يتلو بعضها بعضا على مدار ثلاث وعشرين سـنة . ومع كون القرآن نزل منجما حسب الحوادث طوال تلك المدة ، فإن عدم معاصرة ورقة لتلـك الحوادث التي أوردها القرآن يدحض الشبهة دحضا قاطعا[١] .

سابعا : لو كان لورقة أي تأثير على محمد ﷺ لما سكتت قريش على ذلك ، وهي التي كانـت تتربص الدوائر بمحمد ﷺ ودينه الجديد ، ولم تترك سبيلا للطعن فـي الرسـالة الجديـدة إلا وسلكته ، من الرمي بالجنون وبالسحر وبالشعر وبالكهانة ، إلى ادعاء تلقي الوحي من غـلام رومي أعجمي ، فكيف لقريش أن تترك شبهة قوية كهذه – لو صحّت – وتلجـأ إلـى فـرى ضعيفة هزيلة كتلك ؟! .

ثامنا : لو كان ﷺ يتردد على ورقة للتعلم منه طوال خمسة عشر عاما جاوره فيها – كما زعم أهل الاستشراق – لذاع هذا الأمر بين الناس ، ولكان أمرا معلوما لأهل زمانه ﷺ ، لا يجوز أن يخفى أو يُكتم عن أحد كائنا من كان[٢] .

---

(١) ويدحض – أيضا- دعوى بعض المستشرقين أن ورقة كتب للنبي ﷺ القرآن الكريم جملة واحدة قبل موته وأعطاه إياه ، وهو مـا لا أساس له من الصحة ؛ فهناك آيات تتحدث عن غزوة بدر وأخرى عن أحد وأخرى عن حادثة الإفك ... ، فهل علم ورقة بهـذه الحوادث قبل أن تحدث حتى يؤلف فيها قرآنا ؟!. هذا فضلا عن الإشارات العلمية التي يتضمنها القرآن ، والتي لم يصل البشر إلى معرفتها إلا في زمن قريب . ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٧٤ .

(٢) الردود من (١- ٨) تنظر : المرجع مفسه ، ص ٤٧٣ – ٤٧٤ ، ود. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن** ، ص ٢٣٧ – ٢٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القول الثالث : ادعاء التعلم من سلمان الفارسيﷺ

افترض كل من (منيزس) و(جاردنر) أن محمدا ﷺ تعلّم من سلمان الفارسي ﷺ ، الذي شارك – بحسب زعمهم – في كتابة القرآن ، والذي كان في أول أمره مؤمنا بالزرادشتية في بلاد فارس ، ثم اعتنق المسيحية في بلاد الشام ، ثم رحل إلى المدينة حيث قابل النبي ﷺ وارتضى الإسلام دينا .

ويُردّ على هذا الافتراض من وجهين : **الأول** : أنّ الجزء الأكبر من القرآن – حوالي ثلثيه – قد نزل في السنوات الثلاث عشرة الأولى من البعثة ، وذلك في مكة قبل الهجرة ، وسلمان ﷺ إنما حضر إلى النبي ﷺ وهو في المدينة بعد الهجرة . **الثاني** : لا يخفى أن أسلوب القرآن الأدبي رفيع جدا ، لدرجة أنه أعجز العرب المولودين في الجزيرة العربية ، المتمكّنين من اللغة ، أن يحاكوه ، فما البال بسلمان الأعجميّ الفارسيّ المولد ؟!(٣) .

القول الرابع : ادعاء التعلم من الغلامين الروميين جبر ويسار

صاحب هذه الفرية في العصر الحديث هو المستشرق (زويمر)(١) ، الذي سار على خطى سلفه من كفار مكة . ويردّ عليه بأن كلا منهما – أي جبر ويسار – أعجميّ ، غيرُ ملمّ بالعربية ، منصرفٌ عن التفكير في تعلمها ؛ لكونه منشغلا في حرفة الحدادة التي يعمل فيها ، فكيف يقبل العقل دعوى تعلمه ﷺ منهما المسيحية وهو لا يفهم عنهما كثيرا مما يقولانه؟!(٢) . ثم ما الذي منع قريشا التي تُحدّيت بمعارضة ولو سورة من سور القرآن أن تأخذ عنهما كما أخذ محمد ﷺ – كما زُعم – ، فيستريحوا من عناء المجادلة والمحاربة ، وينهوا الجولة بأقل التكاليف ؟! . بل ما منع ذينّك الغلامين أن يُبديا للعالَم صفحتهما ، فينالا في التاريخ شرف الأستاذية ؟! ، أو يتوليا بنفسيهما تلك القيادة العالمية ؟!(٣) . كما أن هذه الفرية مختصة بما نزل من القرآن في مكة ، أما ما نزل في المدينة بعد الهجرة ، فأين هما منه ؟! ، خاصة مع

(٣) ينظر : د. محمد خليفة ، **الاستشراق والقرآن العظيم** ، ط١ ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٩٤ م ، ص ٤٦ .

(١) ينظر : د. محمد خليفة ، **الاستشراق والقرآن العظيم** ، ص ٤٥ .
(٢) ينظر : د. غازي عناية ، **شبهات حول القرآن وتفنيدها** ، ص ٢٦ .
(٣) ينظر : د. محمد عبد الله دراز ، **النبأ العظيم** ، نظرات جديدة في القرآن ، ط٣ ، دار القلم ، الكويت ، ١٩٨٨م، ص ٦٥ ، ود. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن** ، ص ٢٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحوادث التي قصها القرآن المدني كغزوتي بدر وأحد وحادثة الإفك وغيرها ، فهل كان للغلامين علم بها قبل حدوثها ؟! .

القول الخامس : ادعاء التعلم ممن أسلم من اليهود والنصارى

ذهب بعض المستشرقين أمثال (درمنغم) وتابعهم (فيليب حتّي) إلى أن محمدا ﷺ استقى الكثير من المعلومات عمن أسلم من اليهود والنصارى ، أمثال سلمان الفارسي وعبد الله بن سلام و مارية القبطية وغيرهم . وهذا ادعاء باطل يشهد التاريخ ببطلانه . فأما سلمان الفارسي ؓ فسبق الكلام بشأنه . وأما مارية القبطية التي أهداها مقوقس مصر لرسول الله ﷺ ، فقد كانت أمَة – بالتعبير الدارج – بسيطة ، لا ثقافة لها[٤] ، فضلا عن كونها أهديت له ﷺ بعد الهجرة ، فطوال المرحلة المكية التي نزل فيها قريب من ثلثي القرآن لم تكن حاضرة ، كما أنها لم تحضر أغلب المرحلة المدنية ؛ لأن المقوقس إنما أهداها له ﷺ ردا على الكتاب الذي أرسله ﷺ إليه يدعوه فيه إلى الإسلام في السنة السابعة من الهجرة[٥] . وأما عبد الله بن سلام ؓفلم يتصل برسول الله ﷺ إلا بعد الهجرة . وكان تلميذا لرسول الله ﷺ يتعلم منه ويتلقى عنه ، فكان تابعا لا متبوعا ، متعلما لا معلّما[١] . يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : " أما الادعاء بأن محمدا ﷺ تلقى علمه من ابن سلام هذا ، فلا ينطوي ذلك على تحريف الحقائق التاريخية فحسب ، بالخلط بين دور التابع والمتبوع ، وإنما ينطوي أيضا على قلبٍ في ترتيب الأحداث التاريخية المعروفة ؛ لأن جوهر حقائق التوراة كله كان قد أُعلن بدقة في مكة ، وقبل أن تتاح الفرصة لأمثال عبد الله بن سلام أن يروا وجه الرسول ﷺ . والجدير بالملاحظة أن الآيات القليلة التي نزلت بالمدينة تتعلق في أغلبها بالحقائق الدينية المسيحية التي ينكرها اليهود تماما "[٢] .

ويضاف إلى ما سبق في شأن هؤلاء الذين أسلموا من أهل الكتاب أن إسلامهم هو في نفسه حجة قائمة على صدق محمد ﷺ وما جاء به من الوحي الإلهي ؛ لأنه لو تبيّن لهم أنّ ما

---

(٤) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٧٧.

(٥) ينظر : المباركفوري ، صفي الرحمن . **الرحيق المختوم** – بحث في السيرة النبوية ، ط٢ ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤٢٣ هجرية ، ص ٥٣٠ ، ٥٣٦ .

(١) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٧٧.

(٢) د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٦٣ – ١٦٤ ، وهدى عبد الكريم، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية**، ص٤٧٧– ٤٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان يدعو إليه ويعلمه للناس قد تلقاه عنهم ، لانفضوا من حوله وكفروا بنبوته ، ولعادوا إلى دينهم ، ولم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة في الإسلام[٣] .

القول السادس : ادعاء التعلم من يهود المدينة

اختار بعض المستشرقين هذا التصور[٤][٥] ، الذي يمكن إبطاله ونقضه بما يأتي :

أولا : يتعارض هذا الادعاء مع موقف القرآن الدائم من اليهود ، الذين هم في نظره أناس لا يتبعون ما أنزل الله إليهم[٦] . وهو شديد اللهجة نسبيّا معهم مقارنة بالنصارى[٧] . وقد عدد مثالبهم وأدانهم مرات ، فوصفهم بأنهم يتعاملون بالربا ، ويأكلون أموال الناس بالباطل[٨] ، ويستبيحون الرشوة والكذب[١] ، ويعتقدون أنه ليس عليهم حساب بشأن غيرهم إن لم يلتزموا العدل في معاملاتهم معهم[٢] . وفوق ذلك كله فإن القرآن يصفهم بأنهم يفترون على الله الكذب ، فيحرفون الكلم عن مواضعه[٣] ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، وما هو من عند الله[٤] ، إلى غير ذلك من أمور تجعل من غير الممكن أن يكون هذا الشعب الذي يقف القرآن منه هذا الموقف ، ويحكم عليه بتلك الأحكام الصارمة ، أنموذجا يحتذي به ﷺ ومصدرا لتعاليمه[٥] .

---

(٣) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٧٨.

(٤) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٥٢.

(٥) دلل المستشرقون على ادعائهم بتأثره ﷺ بيهود المدينة ببعض الشبهات الواهية منها : **أولا :** التغير المفاجئ من منهج المسالمة مع الخصوم في العهد المكي إلى الموقف العدائي الحربي معهم في العهد المدني . وهذا يُرد عليه بأن الأمر أولا وآخرا محكوم بتعاليم الوحي الإلهي المبني على الحكمة ، ومن وجوه هذه الحكمة أنّ منهج التعامل مع الخصوم تابع لظروف المرحلة ومقتضياتها ، فالمرحلة المكية كان فيها المؤمنون مختلطين بخصومهم ، فالتمايز بين الفريقين منعدم ، فلو شُرع القتال حينها لأدى ذلك إلى عدد من المفاسد التي ترجع بالضرر على الدعوة وأهلها ، لكن الله اختار أن يكون الأمر بالقتال عندما يكون للمؤمنين مجتمعهم وكيانهم المستقل ، الذي منه ينطلقون وإليه يرجعون ، وفيه يجتمعون ، يجدون فيه حرية العلم والعمل ، والتوجه والتوجيه . **ثانيا :** تعدد زوجات النبي ﷺ في المرحلة المدنية خلافا للمرحلة المكية . ومن العجيب أنه قد روي أن اليهود أنفسهم قد عابوا عليه ﷺ كثرة النكاح والأزواج ، فرد الله تعالى عليهم بقوله :﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾(الأحزاب : ٣٨) ، أي أنّ رفع الحرج عنك يا محمد والتوسيع عليك فيما أحِل لك في باب النكاح وغيره هو سنة الله وشرعه مع من خلوا قبلك من الأنبياء ، كداوود وسليمان عليهما السلام . ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٢ ، ص٢٨٠ – ٢٨١ . وهناك شبهات أخرى واهية أضرب عن ذكرها تجنبا للإطالة . ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٥٢ ، ١٥٥ – ١٥٦ .

(٦) ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾(الجمعة :٥)

(٧) ﴿ لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ (المائدة : ٨٢) .

(٨) ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾(النساء :١٦١) .

(١) ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا﴾(البقرة : ٧٩) .

(٢) ﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾(آل عمران:٧٥).

(٣) ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾(النساء : ٤٦)

(٤) ينظر : الهامش (١)

(٥) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٥٠ – ١٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : إنّ السور المكية هي التي عرضت أطوار القصص التوراتي بتفاصيلها الدقيقة[٦] ، ولم تترك للسور المدنية سوى استخلاص الدروس منها ، وغالبا في تلميحات موجزة[٧] .

ثالثا : أنّ الغالبية العظمى من يهود المدينة كانت تعادي الإسلام ، وكانت مواقفهم بعيدة كـل البعد عن موقف الملقن المتصف بالترحيب . فكان منهم أن طالبوه ﷺ علـى سـبيل التعنـت والعناد بأن ينزّل عليهم من السماء كتابا مدوّنا[٨] ، وأنكروا نصوصا أكد الرسول ﷺ وجودها في كتبهم ، ولم يعترفوا بها إلا بعد تحدّيهم وإثبات غشهم[٩] ، إلى غير ذلك من مظاهر العداوة والعناد . لكنْ كان هناك من علمائهم البارزين– كعبد الله بن سلام رضي الله عنه- من شهد للنبيّ ﷺ بصدق رسالته بعد أن تطابقت صفاته ﷺ مع العلامات الموجودة في كتبهم لنبي آخـر الزمـان[١٠] . وبين الفئتين المعادية والتابعة لم يترك التاريخ مكانا لأصدقاء معلمين للرسول ﷺ[١١] .

رابعا : أنّ أغلب ما نزل في المدينة من الآيات القرآنية إنما يتعلق بالحقائق الدينية المـسيحية التي ينكرها اليهود تماما[١٢] .

خامسا : البون الشاسع بين القرآن والتوراة ، فمواطن الخلاف أكثر من مواطن التشابه . وإنّ التشابه اليسير بينهما لا يدل على الاقتباس وأخذ أحدهما عن الآخر ، وإنما يدل علـى وحـدة المصدر ، وهو الله رب العالمين ، الذي أنزلهما وغيرهما من الكتب على رسله الكـرام[١٣] .

سادسا : كان ﷺ ومنذ قبل هجرته إلى المدينة يعلن أنّ رسالته عامة لجميع الأمم والشعوب[١] ، ومنهم الشعب اليهودي . وهو مكلف بأن يبلغهم الحقيقة في منازعاتهم وخلافاتهم[٢] . وعندما كان يصدر حكمه في ذلك كان لا يجامل فيه أحدا منهم[٣] ، بل إنه كان يسير في خطوات ثابتة راسخة ، فيفْصِل في الأمور ويعلن الحقيقة ، حتى إنه عرّض نفسه وأهله عن طيـب خـاطر لأخطار المباهلة ، بينما تراجع المترددون المتشككون من أهل الكتاب[٤][٥] .

---

(٦) فصّل ذلك الدكتور دراز في هامش كتابه **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٥٦.
(٧) ينظر : المرجع نفسه ، ص ١٥٦ – ١٥٧ .
(٨) ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾(النساء : ١٥٣)
(٩) ﴿ كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾(آل عمران :٩٣) .
(١٠) ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به﴾(البقرة :١٢١) .
(١١) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٦٢ – ١٦٣ .
(١٢) ينظر : المرجع نفسه ، ص ١٦٣– ١٦٤ .
(١٣) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٦٥.

(١) ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾(الأعراف : ١٥٨) .
(٢) ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه﴾(النحل : ٦٤) ، ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾(النمل :٧٦) .
(٣) ﴿ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾(الشورى :١٥) .
(٤) ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ إلى قوله :﴿ فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾(آل عمران :٦١– ٦٣) .
(٥) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٧١- ١٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القول السابع : ادعاء التعلم من اليهود والنصارى المنتشرين في الجزيرة العربية

زعم بعض المستشرقين أن النبي ﷺ قد أفاد كثيرا من اليهود والنصارى المنتشرين في جزيرة العرب ، وادّعَوْا أن بعض الأفراد المغامرين الرومان أو الزنوج الأحباش بائعي النبيذ ، الذين كانوا يقطنون الأحياء المنزوية ، قاموا بتدريس الإنجيل في الحانات لعقليات خام . كما زعم المستشرق (جوتيني) أن محمدا ﷺ ما هو إلا داعية لتعاليم اليهودية والنصرانية ، إذ وقع الاختيار عليه من قِبَل اليهود والنصارى المنتشرين في أنحاء الجزيرة العربية[٦] .

ومما لا شك فيه أن هذا الكلام كلّه هراء وكذب . فأما دعوى الاتصال بالمغامرين الرومان أو الزنوج الأحباش والتعلم منهم شيئا من تعاليم الإنجيل ، فلا سند تاريخيّا يدعمه . ثم إن رسول الله ﷺ بأخلاقه العالية التي عرف بها منذ نعومة أظفاره لا يُتصوّر أن يكون له أي اتصال بأمثال هؤلاء المنحرفين . إضافة إلى أن لغتهم أعجمية تشكل حاجزا طبيعيا بينهم وبينه ﷺ . ثم لو حصل – فرضا – أي اتصال بأمثال هؤلاء لعلمته قريش ، ولوجدوا فيه ضالتهم في الطعن في دعوة الإسلام ، بدل اللجوء إلى دعاوٍ واهية ممجوجة كالسحر والشعر والكهانة ... ، وبدل المواجهة المسلحة بينهم وبينه . وأما ما زعمه (جوتيني) فالتاريخ يكذب ما قاله ؛ لأنه قد ثبت أنه لم يكن لأي من الديانتين اليهودية والنصرانية مركز في مكة حيث نشأ محمد ﷺ وأعلن دعوته . ولم يثبت أنه ﷺ اتصل بأحد من اليهود والنصارى قبل البعثة إلا بحيرا الراهب[٧] ، وقد مرّ بيان بطلان تعلّمه منه .

القول الثامن : ادعاء التعلم من اليهود والنصارى في رحلتي الشتاء والصيف

زعم هذا (جولد زيهر) وآخرون . فقد اعتقد هذا المستشرق المجري أن مقارنة محمد ﷺ حياة قومه وتقاليدهم بانطباعاته التي اكتسبها من رحلاته العديدة إلى سوريا واليمن – المعروفة برحلتي الشتاء والصيف – وتأثره خلالها بأخلاق وأفكار المجتمعات المعتنقة للمسيحية هناك ، قد أوجد عنده الدفعة الأولى لنظامه الإصلاحي[١] . ويرد على هذا الادعاء بما يلي :

---

(٦) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٧٥ ، ود. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٣٤ .
(٧) ينظر : هدى عبد الكريم، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٧٦– ٤٧٧ ، ود. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٣٥.

(١) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٣٥ – ١٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : ما كتبه (تايلور) في كتابه (المسيحية القديمة) حيث يقول : " إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه لم يكن إلا خرافات منفرة ، ووثنية منحطة ومخجلة ، ومذاهب كنسية مغرورة ، وطقوسا دينية منحلّة وصبيانيّة "(٢) .

ثانيا : إنّ القبائل العربية في سوريا المعروفين آنذاك (بالغساسنة) ، رغم تنصرهم في الجاهلية ، إلا أنهم احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم الوثنية القديمة(٣) . يقول الدكتور دراز : " هذا إذن هو المشهد الحي الذي يمتد أمام نظر المشاهد ، فحيثما اتّجه وجد ضلالا يحتاج إلى الهداية ، وانحرافا يتطلب التقويم ، ولن يجد أبدا أنموذجا أخلاقيا ودينيا يصلح لأن ينقله محمد أو يبني عليه نظامه الإصلاحي "(٤) .

ثالثا : يقول المفكر (هوارت) : " مهما كان إغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب (محمد) قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسوريا ، فإنه يتحتم استبعادها ؛ نظرا لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة "(٥) .

رابعا : الذي روي في السير هو أنه ﷺ إنما سافر إلى الشام مرتين ، مرة في الثالثة عشرة من عمره ، ومرة في الخامسة والعشرين . لكن ذلك كان لفترات وجيزة ، وقبل البعثة بمدة طويلة ، مما لا يعطي مسوغا أو تبريرا لذلك الإدعاء . حتى مقابلته مع بحيرا الراهب كانت وجيزة قصيرة ، وحدثت في وقت مبكر جدا ، بينه وبين بدء الوحي قرابة الثلاثين سنة(٦) .

القول التاسع : ادعاء إلمامه ﷺ وهو في مكة بالمسيحية بما سمعه من الأساقفة والرهبان

نسب كل من (بودلي) و(جيب) لبعض الأساقفة أنهم كانوا يبشرون بالمسيحية من فوق ظهور الإبل ، وذلك من خلال السوق الذي كان يعقد سنويا في (عكاظ) بالقرب من مكة ، ومنهم الخطيب (قس بن ساعدة) و(أسد بن كعب) . وهذا صحيح من الناحية التاريخية ، إذ كان هذان الرجلان يُلقِيان العظات الكثيرة على العرب في أسواقهم(١) ، لكن الذي ينقض هذه الشبهة هو أن تلك المواعظ كان يسمعها كل من حضر تلك الأسواق من العرب ، وقد كانت قريش أشد الناس حرصا على إبطال دعوة النبي ﷺ ، حتى لجأوا إلى الأكاذيب والترهات والتناقضات ، والأوصاف معلومة البطلان لكل أحد ، فلو كان ما جاء به ﷺ هو نتيجة تأثره

(٢) المرجع نفسه ، ص١٣٧.
(٣) ينظر : المرجع نفسه ، ص ١٣٨ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ١٣٨ – ١٣٩ .
(٥) ينظر : المرجع نفسه ، ص ١٣٨ .
(٦) ينظر : د. محمد خليفة ، **الاستشراق والقرآن العظيم** ، ص ٤٣ – ٤٤ .

(١) ينظر : د. محمد خليفة ، **الاستشراق والقرآن العظيم** ، ص ٤٤ – ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمواعظ ذينّك الرجلين لبادروا إلى مواجهته بذلك ، فأبطلوا دعوته في مهدها . كما إنه لو كان الأمر كذلك لما وجد ﷺ من العرب من يتبعه على دعوته متحمّلا في سبيلها الشدائد والتضحيات ؛ إذ إنهم سيكتشفون بعد سماعهم له أنه إنما هو مردّد كلام غيره فلا يصدقونه . ثم إنّ التأثر بكلام الرجلين أو غيرهما – لو حدث – هل يصل به ﷺ حدّ الإتيان بكلام معجز لم تسمع بمثله العرب قاطبة ، مع تحقق عجزهم عن معارضته ؟! .

القول العاشر : ادعاء التعلم من شعر أمية بن أبي الصلت الثقفي(٢)

ذهب إلى هذا الإدعاء بعض المستشرقين على رأسهم (كليمان هوار)(٣) ؛ ذلك أن شعر أمية بن أبي الصلت كان يكاد يتخصص تماما في الأفكار الدينية(٤) ، حيث يتضمن موضوعين أساسين هما : وصف الحياة الأخروية ، وقصص الديانات القديمة(٥) . فزعم ذلك المستشرق أن النبي ﷺ قد استعان به – قليلا أو كثيرا – في نظم القرآن . ولم يكتف بهذا ، بل زعم أيضا أن تلك الاستعانة قد حملت المسلمين على محاربة شعر أمية ومحوه ليستأثر القرآن بالجدّة ، وليصح أن محمدا ﷺ قد انفرد بتلقي الوحي من السماء(١) .

ويرد على هذا الادعاء بالردود الآتية :

---

(٢) أمية بن أبي الصلت الثقفي شاعر جاهلي أدرك الإسلام ولم يسلم ، وهو من حكماء العرب قبل الإسلام ومن دهاتهم . كان يسكن الطائف بالقرب من مكة . وكان رجل أسفار وتجارة . أكثر التردد إلى الشام ، وذهب إلى اليمن ، وأقام في البحرين ثماني سنوات . قرأ الكتب السماوية المتقدمة كالتوراة والإنجيل ، واطّلع على القصص والأساطير . رغب عن عبادة الأوثان ، وحرم على نفسه الزنا والقمار والخمر ، واتصل بالقساوسة ولبس المسوح ولزم النسك . طمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب وعلم من أهل الكتاب أن نبيا سيبعث من العرب ، فرجا أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يسلم . وصح أنه رثى قتلى بدر من المشركين. سمع القرآن ، وحكى شيئا مما فيه من القصص في شعره ، واقتبس من كلماته ومن أسلوبه . وكان يحكي في شعره قصص الأنبياء كإبراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ويأتي بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، يأخذها من كتب أهل الكتاب وأحاديثهم ؛ ولذا لا يرى العلماء شعره حجة في اللغة . يَكثر في شعره ذكر الله تعالى وتمجيده ، والإقرار بوحدانيته ، وأنه لطيف بمخلوقاته ، ونصح الناس بالصبر والتوكل على الله ، إلى جانب ذكر الآخرة ، ووصف الجنة والنار . حتى قال عنه النبي ﷺ : " وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم " . (البخاري ، فتح الباري ، ج٨ ، ص ٤٤١٣ ، رقم : ٣٨٤١ ، ومسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٧ ، ص ٣٦٠ ، رقم : ٢٢٥٦) . لم يكن مسيحيا ولا يهوديا ، إنما كان عادلا عن عبادة الأوثان ، فهو أقرب إلى الحنيفية . وتجمع المصادر على أنه مات كافرا برسالة محمد ﷺ . وكان موته على الأرجح أيام حصار الطائف في السنة الثامنة للهجرة . (ينظر: ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، (ت: ٢٧٦ هجرية) . **الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء** ، ط١ ، (تحقيق : د. مفيد قميحة ، و أ . محمد أمين الضناوي) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٨٠ . و الأصبهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي ، (ت: ٣٥٦ هجرية) . **كتاب الأغاني** ، (تحقيق : إبراهيم الأبياري) ، دار الشعب ، القاهرة ، ج٣ ، ص ١٣٣٤ – ١٣٣٩ . وابن حجر ، **فتح الباري** ، ج٨ ، ص٤٤١٩ – ٤٤٢٠ . وبهجت عبد الغفور الحديثي ، **أمية بن أبي الصلت – حياته وشعره** (دراسة وتحقيق) ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٥ م ، ص ٤٦ – ٦٨ . و محمد هاشم عطية ، **تراجم الشعراء** ، ص ٢٠٤ – ٢٠٦ . و عبد عون الروضان ، **موسوعة شعراء العصر الجاهلي** ، ط١ ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ٢٠٠١ م ، ص ٤٢ – ٤٣) .

(٣) ينظر : د. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن**، ص ٢٥٣.

(٤) ينظر : المرجع نفسه ، ٢٥٦.

(٥) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٤٢ .

(١) ينظر : د. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن** ، ص ٢٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : أن الشعر المنسوب إلى أمية ليس مقطوعا بنسبته إليه ، خاصة وأن بعض جامعي الشعر قد اشتُبه في أنهم لفقوا بعض الأشعار ونسبوها إلى القدماء بعد أن خلطوها بشعرهم(٢) . ولذا قسّم الأستاذ بهجت عبد الغفور شعر أمية إلى قسمين : **الأول :** قسم يظهر عليه أثر الحنيفيّة والكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل . **الثاني :** قسم يظهر عليه أثر القرآن . ثم قال بعد هذا التقسيم : " أما القسم الأول فأنا أميل إلى أن يكون له ، كما يظهر من لغته وأسلوبه ومعانيه . وأما الثاني فأنا أميل إلى أن يكون منحولا عليه ، وهذا واضح أيضا من ركاكة لغته وضعف صياغته ، وأسلوبه المستمدّ من القرآن "(٣) .

ثانيا : لكي يمكن اعتبار شعر أمية مصدرا للقرآن يجب أن يكون سابقا له في التاريخ . وهذه قضية مستحيلة الحل ؛ لأن محمدا ﷺ وأمية قد عاصر كل منهما الآخر ، وهما من نفس السنّ تقريبا ، فضلا عن أنّ أمية عاش واستمر في قرض الشعر طوال ما يقرب من ثماني سنوات بعد نزول آخر آية من سور القرآن المكية المدّعى مشابهتها شعر أمية ، فمن التعسف إذن الادعاء بأن هذا الشعر كان سابقا لها من حيث التاريخ(٤) .

ثالثا : أنّ أمية لم يدّع يوما النبوة ولا أنه يوحى إليه ، ولم ينقل ذلك عنه ، أما رسول الله ﷺ فمنذ بدأ نزول الوحي عليه أعلن أنه رسول الله إلى الناس كافة ، وأنه لم يتلقّ علمه من البشر . ثم تحدى قومه بالقرآن – وهم أصحاب الفصاحة والبلاغة – فعجزوا عن معارضته ولو بمثل سورة منه . فكيف يكون أمية هذا مصدرا للقرآن ؟!(٥) .

رابعا : إنّ أمية المتصف بالدهاء وكثرة الأسفار في البلاد والطمع في النبوة ، ما كان ليسكت أو يصمت لو أنه وجد أفكاره قد أخذها محمد ﷺ وجعلها في قرآنه مستندا إليها في نبوته ، ولأعلن ذلك للدنيا كاملة ، لكنّ ذلك لم يكن(٦) .

خامسا : مع الأخذ بعين الاعتبار حرص قريش على توجيه الطعون في نبوة محمد ﷺ والقرآن الذي أتاهم به ، فلو كان هذا القرآن مأخوذا من شعر أمية المعروف لديهم ، ألم يكن من الأيسر لهم أن يضعوا يدهم على هذه السرقة المفضوحة بدل أن يلجأوا إلى طعون عقيمة تمجّها الأسماع والعقول ؟!(١) .

---

(٢) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٤٣.
(٣) بهجت عبد الغفور ، **أمية بن أبي الصلت - حياته وشعره** ، ص١٢٧ ، ود. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن** ، ص ٢٥٨ .
(٤) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٤٣.
(٥) ينظر : د. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن** ، ص ٢٥٤ .
(٦) ينظر : المرجع نفسه ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(١) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٤٣- ١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سادسا : إنّ الاحتمال الأكبر هو أن القرآن هو الذي كان مصدرا لشعر أمية وليس العكس ؛ لأن الشاعر لا يركز اهتمامه في الحقيقة التي يعلنها بقدر ما يركزه في جمال القالب الذي يقدمها فيه ، بغض النظر عن المصدر الذي يبحث فيه عن خاماته وأفكاره ، سواء في حكمة القدماء أو المعاصرين أو التجارب أو الرأي العام ... ، ولقد أثبت النقد لشعر أمية بصفة خاصة أنه يرجع إلى عدة مصادر مختلفة – وهو ما لاحظه المستشرق هوارت– فعندما يتكلم عن وصف النار يقلد أسلوب التوراة ، وعندما يشرع في وصف الجنة يستعمل عبارات القرآن ، وعندما يقص التاريخ الديني يلجأ أحيانا إلى الأسطورة الشعبية أو أساطير الآلهة اليونانية(٢).

سابعا : ليس على تلك الصلة المزعومة بين النبي ﷺ وشعر أمية أيّ دليل عقلي أو سند تاريخي يدل عليها من حياة النبيّ ﷺ وسيرته(٣).

وأخيرا ، أختم هذا المطلب بذكر النتائج المفترض ترتبها لو حدث فعلا أن النبي ﷺ قد تعلم من راهب نصراني أو كاهن يهودي أو ما شابه ذلك ، وهو ما أراد المستشرقون من جملة أقوالهم السالفة الوصول إليه ، فأقول : إن النتائج الكائنة حتما – لو حدث ذلك – هي :

أولا : أنّ النبي ﷺ لم يكن لينكر ذلك ؛ لأنه قد اشتهر بالصدق والأمانة طوال حياته .

ثانيا : لم يكن ﷺ ليبشر بدين يختلف جوهريا عن اليهودية والنصرانية ، خاصة في مجال العقيدة .

ثالثا : ما كان اسم معلمه ﷺ ليظل مجهولا طوال سنيّ بعثته الثلاث والعشرين أو بعد ذلك ، خاصة مع اعتبار المناخ العدائي الكائن بينه وبين من لم يؤمنوا برسالته ، خصوصا المشركين واليهود .

رابعا : كان من الممكن لمن علمه أيا كان أن يكتب كتابا أو جزءا من كتاب يشبه القرآن .

خامسا : مع وجود حالة العداء والتحدي بإصرار بين اليهود وبينه ﷺ ، فلو كانوا قد علموه شيئا لكانوا أول من يعلن ذلك ليثبتوا كذب دعوته .

سادسا : لو كان اليهود قد علموه ﷺ شيئا ، لعلموه محو الآيات الذامّة لهم في القرآن .

سابعا : لو كان ﷺ معلَّما من البشر– كما زعموا – لما تبعه صحابته على دينه ، ولما تشبثوا بتعاليمه كل التشبث رغم الصعوبات والاضطهاد الشديد . بل إنه لم يخنه أحد منهم قط **!**(١) .

---

(٢) ينظر : المرجع نفسه ، ص ١٤٤.
(٣) ينظر : د. محمد أمين ، **المستشرقون والقرآن** ، ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولمّا لم يتحقق أيٌّ من هذه النتائج ، ثبت زيف تلك الفرية وكذب ذلك الادعـــاء ، وثبـــت – أيضا – أن القرآن هو وحي الله ، أنزله على قلب نبيّه ومصطفاه محمد ﷺ .

المبحث السادس : فرية اختلاق القرآن

تمهيد :

هذه هي الفرية السادسة من فرى المشركين من أهل مكة التي وجهوها نحو النبـــي ﷺ والقرآن العظيم . وقد استحوذت من بين سائر الافتراءات على الحظ الأكبر في القرآن إيرادا

---

(١) ينظر : د.محمد خليفة ، **الاستشراق والقرآن** ، ص ٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وردّا ، مما يدل على أن القوم أكثروا من ترديدهم لها وبالغوا في ذلك مقارنة بغيرها من الفرى . ويعود هذا – والله أعلم – إلى كونها تغنيهم عن تلك الأوصاف المعلوم بطلانها لكل أحد كالسحر والشعر والكهانة ... ، ما يجعل طعنهم أقرب إلى القبول في نفوس العامة ، خاصة وأن هذا القرآن كلام عربي ، ومحمد ﷺ عربي فصيح اللسان ، فالزعم بأنه افترى القرآن واختلقه من تلقاء نفسه قد يجد له من الرواج والانطلاء على النفوس ما لا يكون لغيره من المزاعم .

معنى (الاختلاق) لغة :

هي من خَلَق الكذبَ والإفك يخلُقه ، وتخلّقه واختلقه وافتراه : ابتدعه ، فالاختلاق هو افتعال الكذب وابتداعه[١] .

الآيات القرآنية محور الدراسة :

المقطع الأول : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ ﴾ (الفرقان : ٤)

مرّ تفسير هذا المقطع في المبحث السابق ، فلا داعي لإعادته .

المقطع الثاني : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾ ﴾ (سبأ : ٧ – ٩)

وكذلك مرّ تفسير هذا المقطع في مبحث فرية الجنون ، فلا داعي لإعادته .

المقطع الثالث : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سبأ : ٤٣ – ٤٤)

ومرّ أيضاً تفسير هذا المقطع في مبحث فرية السحر ، فلا حاجة لإعادته .

---

(١) ينظر : ابن منظور ، **لسان العرب** ، ج٥ ، ص ١٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع الرابع : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ... إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾(النحل:١٠١– ١٠٢ ، ١٠٥)[(١)]

المعنى الإجمالي :

أي وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه في العمل حكما آخر بآيـة أخـرى – والله أعلـم بالحكمة البالغة في ذلك ، وبما هو أصلح لعباده فيما يبدل ويغير من أحكامه بما ينزله من آي كتابه – قال كفار مكة لرسول الله ﷺ : إنما أنت يا محمد كاذب ، مختلق علـى الله ، متقـوّل عليه ما لم يقل ، حيث تزعم أنه أمرك بشيء ثم تزعم أنه أمرك بخلافه . فـرد الله سـبحانه عليهم قائلا : ليس الأمر كما زعموا ، بل أكثرهم – لأن منهم من يعلم الحقيقة لكنه ينكرهـا عنادا – جهلة لا يعلمون ما في ذلك التبديل والنسخ من الحكم البالغة ؛ ولذا قالوا ما قالوه . ثم قال مبينا تلك الحِكَم : قل لهم يا محمد : إن القرآن بناسخه ومنسوخه قد نزّله جبريل الأمين ، المطهر المنزّه عن كل عيب وخيانة وآفة ، المنزّل لما يطهر النفوس من القـرآن والحكمـة والفيض الإلهي ، نزّله مفرّقا على سبيل التدريج بحسب المصالح من عند الله ربك يا محمد ، ملتبسا بالحق الثابت في أخباره وتشريعاته بما فيها الناسخة والمنسوخة – فلا سبيل إليه بقدح صحيح – ؛ ليثبّت المؤمنين على إيمانهم ويقويه في قلوبهم ، فإنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح رسخت عقائدهم وأطمأنت به قلوبهم . وهو كذلك هداية وإرشـاد وبشارة للمسلمين الذين استسلموا لأمر الله وانقادوا لحكمه ، فصدقوا به قولا وعملا .

ثم رد تعالى عليهم برد آخر فقال : إنما يتخرّص الكـذب ويتقـول الباطـل الـذين لا يصدقون بآيات الله وحججه الساطعة ، وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة ، فهـم لا يؤمنـون بحساب ولا بجزاء ، فلا يرجون على الصدق ثوابا ، ولا يخافون على الكذب عقابـا . أمّـا محمد ﷺ المؤمن بآيات الله ، الخاضع لربّه ، الراجي من الله على الصدق الثواب الجزيـل ، الخائف منه على الكذب العقاب الأليم ، فمحالٌ أن يكذب على الله ويتقوّل عليه ما لم يقل ![(١)].

---

(١) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : " كان إذا نزلت آية فيها شدة ، ثم نزلت آية ألين منها ، تقول كفار قريش : والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه ، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه ، وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ " . الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص ٢٧٠ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٧١٦ .

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٤ ، ص ٢١٠ – ٢١١ ، ٢١٤ – ٢١٥ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٦٢٨ – ٦٢٩ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٩٧٤ ، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٤٠١ – ٤٠٢ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٧١٥ – ٧١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع الخامس : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ (الأنبياء : ٥)

مر تفسير هذا المقطع في مبحث فرية السحر ، فلا داعي لتكراره .

المقطع السادس : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الطور : ٣٣ – ٣٤)

المعنى الإجمالي :

أي : بل أيقول كفار مكة اختلق محمد هذا القرآن من تلقاء نفسه ، فليس بوحي من الله ؟! ، ليس الأمر كما زعموا ، بل لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بما جاء به رسوله ﷺ من الحق من عند ربهم ، فهم لكفرهم وعنادهم يقولون ذلك مع علمهم ببطلانه ، وأنه ﷺ ليس بمتقوّل . ثم تحداهم سبحانه وألزمهم الحجة فقال : فليأت هؤلاء المكذبون المشاركون له ﷺ في البشرية والعربية ، مع تميّزهم عنه بكثرة العدد وطول الممارسة لفنون اللغة ، بكلام مماثل للقرآن في نظمه وحسن بيانه وبديع أسلوبه وكمال معانيه ، إن كانوا صادقين في أن محمدا ﷺ تقوّله واختلقه ![٢] .

المقطع السابع : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء : ٨٨)

مر تفسير هذا المقطع في مبحث فرية الجنون ، فلا حاجة لإعادته .

المقطع الثامن : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (هود : ١٣ – ١٤)

المعنى الإجمالي :

أي : بل أيقول مشركو مكة : اختلق محمد هذا القرآن وافتراه من عند نفسه ؟! . قل لهم يا محمد : إن كان الأمر كما تقولون ، فأتوا أنتم بعشر سور مماثلة له في البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعاني ، مختلقات من عند أنفسكم ، إن كنتم صادقين أنّي اختلقته

---

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٧ ، ص ٤١ ، والزمخشري ، **الكشاف** ، ص ١٠٥٧ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦٨٩ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٧ ، ص ٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من عند نفسي ؛ فإنكم عرب فصحاء بلغاء ، متميزون عني بممارسة الخطب والأشعار ، ومزاولة أساليب النظم والنثر ، وحفظ الوقائع والأيام ، واستعينوا على ذلك الاختلاق بمن أمكنكم أن تستعينوا به مما سوى الله من الأصنام والأنداد التي تزعمون أنها ممدة معينة لكم في كل ما تأتون وتذرون ، فإن لم تستجب هذه الآلهة المزعومة لكم عند التجائكم إليها بعد ظهور عجزكم واضطراركم إلى ذلك ، وضاقت عليكم الحيل وانقطعت بكم السبل ، فاعلموا حينئذ وأيقنوا بأن هذا القرآن إنما أنزل من السماء على محمد ﷺ ملتبسا بعلم الله به ، فإنّ ما تعلّق علم الله به ثابت موجود ، وما انتفى عنه باطل معدوم ، فلا سبيل إلى ادعاء كون القرآن مختلقا من عند محمد ﷺ مع تحقق علم الله بنزوله عليه من عنده تعالى . واعلموا أيضا أنه تعالى هو المتفرد المختصّ بالألوهية واستحقاق العبادة دون آلهتكم العاجزة ، فهل أنتم مستسلمون مذعنون له بالطاعة ، مخلصون له العبادة بعد ثبوت الحجة عليكم ؟[1] .

المقطع التاسع : ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ (يونس : ٣٧ – ٣٩)

المعنى الإجمالي :

أي لا يصح ولا يستقيم ولا يعقل أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع ، المشتمل على الحجج البينة والبراهين الواضحة الدالة على ربانيته ، مختلقا مفتعلا من غير الله من سائر خلقه ، بل هو كلام الله ووحيه ، مبرأ من الافتراء والكذب . ثم ذكر سبحانه ما يؤكد هذا ويدلل عليه فقال : ولكنْ كان هذا القرآن مصدقا لما قبله من الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء ، المشهود بصدقها ، كالتوراة والإنجيل ، فإنها قد بشرت به فجاء مصدقا لها في تلك البشارة ، وفي الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث والحساب في الآخرة ، وكذا موافقة أقاصيصه لما ورد فيها ، مع أنه ﷺ لم يطّلع على ذلك ولا تعلمه ، ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم به من أهل الكتاب ، فدلّ ذلك على أن هذا القرآن وحي إلهي ، مثله مثل تلك الكتب . كما أنّ القرآن أيضا جاء مبيّنا مفصلا للشرائع والعقائد والأحكام ، والحلال والحرام ، وأدوية القلوب ومكارم الأخلاق ، بيانا شافيا كافيا حقا لا مرية

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٢، ص ١٤- ١٥ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٩٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٢، ص ٣٠٨ – ٣١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه من الله رب العالمين .

وبعد هذا التقرير لحقيّة القرآن وأنه وحي الله وكلامه ، أنكر تعالى على كفار مكة ما زعموه من فرية الاختلاق ، فقال : بل أيقولون افترى محمد القرآن واختلقه من قبل نفسه ؟! ، قل لهم يا محمد : إن كان الأمر كما تدّعون ، وإن كنتم صادقين في أني افتريت القرآن واختلقته ، فأتوا أنتم بسورة مثل هذا القرآن في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وقوة المعنى ، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة ، وأشد تمرّنا منّي في النظم والعبارة ، وادْعوا لذلك من استطعتم دعاءه والاستعانة به مما سوى الله ، من آلهتكم التي تزعمون أنها معينة لكم في المهمات والملمات ، ومن سائر خلق الله . والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كذبة ؛ لأن محمدا ﷺ لن يعدوَ أن يكون بشرا مثلكم ، فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورة مثل القرآن ، فالواحد منهم أن يأتيَ بجميعه أعجز . ثم أضرب تعالى منتقلا من إظهار بطلان ما قالوه بالتحدي ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بهذا القرآن واستعجالهم العذاب الموعود فيه ، فقال : بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم وسارعوا إلى الطعن فيه قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه ، وما اشتمل عليه من الشواهد الدالة على ربانيته وأنّه من غير الممكن أن يكون كلام مخلوق ، يدفعهم إلى ذلك تصلبهم في تقليد آبائهم وكونه – أي القرآن – لم يوافق أهواءهم ، فردّوه قبل أن يفقهوه . وكذّبوا كذلك بما لم يأتهم بعدُ من عاقبة ما فيه من الوعيد على كفرهم وتكذيبهم من نزول العذاب بهم ، فحسبوا عدم التعجيل به دليلا على الكذب ، وأن القرآن ليس حقا من عند الله تعالى ، كما قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(الأنفال :٣٢)[١] .

المقطع العاشر : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (البقرة : ٢٣ – ٢٤)[١]

المعنى الإجمالي :

---

(١) ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج٨ ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٢ ، ص ٥٤٩ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٣ ، ص ٣٧٢ – ٣٧٤ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٦٤ – ٧٦٥ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج١١، ص١٧٢– ١٧٣ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير**،ج١، ص٥٥٠ – ٥٥١ .

(١) قال ابن الجوزي في تفسيره : " سبب نزولها أن اليهود قالوا : هذا الذي يأتينا به محمد لا يشبه الوحي ، وإنا لفي شك منه ، فنزلت هذه الآية . وهذا مروي عن ابن عباس ومقاتل " . ابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي : وإن كنتم أيها الناس في شك وارتياب في شأن هذا القرآن الذي نزّلناه على سبيل التدريج والتنجيم على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ – رغم أنّ الريب بعيد عند العقلاء في مثل هذا الأمر الساطع البرهان – فلم تؤمنوا بأنه كلام الله ووحيه ، وادّعيتم أنه مختلق ، وأنه كلام محمد نفسه ، فأتوا أنتم – إن كنتم صادقين في دعواكم هذه – بسورة واحدة من مثل هذا القرآن في البلاغة والفصاحة والبيان ، وادْعوا أعوانكم وأنصاركم ومن شئتم سوى الله ليساعدوكم على ذلك . فإن لم تأتوا بذلك عجزا منكم عنه ، ولن تأتوا به أبد الدهر ، فقد وجب عليكم إذن التصديق بهذا القرآن وبمن بلغه ﷺ ، فآمِنوا وخافوا عذاب الله ، واتقوا ناره التي حطبُها الذي تتقد به وتشتعل هو أجساد الناس والحجارة ، قد هيّئت وأرصدت للكافرين الجاحدين ، يعَذبون فيها بألوان العذاب المهين[٢] .

المقطع الحادي عشر : ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣ ﴾ (السجدة : ١ – ٣)

المعنى الإجمالي :

يعدد الله تعالى على العرب عامة وقريش خاصة الحروف التي منها تراكيب كلامهم ، ومنها (ألف ، لام ، ميم) ؛ بيانا لإعجاز القرآن ، وأنهم عاجزون عن معارضته بمثله أو حتى بسورة من مثله ، مع أنّه مركّب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ؛ وذلك تبكيتا لهم وإلزاما للحجة أياهم[٣] . ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنّ تنزيله لا شك ولا ريب كائن من الله رب العالمين جل جلاله . ثم أضرب تعالى عن ذلك منتقلا إلى إنكار ما قاله كفار مكة المناقض لتلك الحقيقة والتعجيب منه ، فقال : بل أيقولون افترى محمد القرآن من عند نفسه ؟! ، بعد ظهور عجزهم عن معارضة حتى أقصر سورة منه ، فما هو إلا قول متعنت مكابر . ثم أضرب مبطلا ما قالوه بقوله : ليس الأمر كما زعموا ، بل هذا القرآن هو الحق والصدق المنزّل عليك يا محمد من ربك العظيم ؛ لتنذر به قوما – وهم قريش خاصة والعرب عامة –

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١ ، ص ١٨٩ – ١٩٤ ، والنسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ٣٥ – ٣٧ ، وابن جزيّ ، أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي ، (ت : ٧٤١ هـ) . **التسهيل لعلوم التنزيل** ، ط١ ، ٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٥م ، ج١ ، ص٥٨ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج١ ، ص ٣٢ .
(٣) ينظر : النسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ١٧ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج١ ، ص ٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يأتهم قبلك أيّ رسول ينذرهم بأس الله وسطوته وعذابه على كفرهم وإشراكهم بـــه ، كـــي يهتدوا بإنذارك إياهم إلى الحق ، فينجوا من العقاب وينعموا بالثواب[١] .

المقطع الثاني عشر : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ (هود : ٣٥)

المعنى الإجمالي :

هذه الآية جاءت معترضة وسط قصة نوح عليه السلام مع قومه ؛ تحقيقا لحقيّتهـــا ، وتأكيدا لوقوعها ، وتشويقا للسامعين إلى استماعها . والمعنى : بل أيقول هـــؤلاء الكـــافرون الجاحدون من قومك يا محمد : اختلق محمدٌ هذا القرآن وهذا الخبر عن نوح مع قومه ؟! ، قل لهم يا محمد : إن صحّ أني اختلقته فعلي إثمي ووبال إجرامي في افترائي ما افتريـــت علـــى ربي دونكم ، فلا تؤاخذون أنتم بجريرتي ، فلا داعي لكثرة ادعاء الافتراء كأنكم ســـتؤاخذون بتبعته . وأنا في المقابل بريء من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ ، إلى جانب غيـــره مـــن الشرك والتكذيب[٢] .

المقطع الثالث عشر : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾(الأحقاف :٨ – ١٠)

المعنى الإجمالي :

يضرب القرآن منتقلا من حكاية ما قاله كفار مكة في الآية السابقة لهذا المقطـــع مـــن فرية السحر التي وجهوها نحو القرآن ، إلى حكاية ما هو أشنع وأقبح منها ، وهو ادعـــاؤهم على النبي ﷺ الكذب عمدا على الله تعالى باختلاق القرآن ونسبته إليه ، فيقول : بل أيقولـــون اختلق محمد القرآن من تلقاء نفسه ؟! ، فليس وحيا من الله ولا كلامه ! . قل لهم يا محمد : لو افتريته – كما تدعون – لعاقبني الله على هذا الافتراء عقوبة لا تقدرون على كفه عز وجـــل عنها ، ولا تطيقون دفع شيء منها عنّي ، فكيف أجترئ على أن أفتري عليه تعـــالى كـــذبا ،

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢١ ، ص ١٠٣ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢١ ، ص ١٥٧ – ١٦١ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢١ ، ص ٢٠٥ – ٢١٠ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ١٠٦٢ .
(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٢ ، ص ٤٠ ، والنسفي ، **مدارك التنزيل** ، ص ٤٩٦ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٢ ، ص ٥٨٤ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٣٠٩، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٢ ، ص ٦٣ – ٦٤ ، وسيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٤ ، ص ١٨٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأعرّض نفسي للعقوبة التي لا مناص عنها ؟! . وهذا الأمر يقتضي أنه سبحانه أعلم منكم بحال هذا القرآن الذي تخوضون فيه بالقدح والتكذيب والفرى الباطلة ، فلو علم أنه كذب مختلقٌ عليه لعاجل في عقوبتي ولم يتركني هكذا . وعليه فإني أفوض الحكم بيننا إليه سبحانه ، فكفى به حاكما بيني وبينكم بما يعلمه من حالي وحالكم ، فيشهد لي بالصدق والتبليغ ، وعليكم بالكذب والجحود ، ثم يجزي كلاً بما عمل – وفي هذا وعيد شديد لهم – ، وهو سبحانه – مع ذلك – الغفور لمن تاب وآمن وصدّق بالقرآن وبي ، الرحيم بعباده ، فلم يعاجلكم بالعقوبة رغم عظم جرائمكم . ثم ارتقى القرآن في الرد عليهم إلى الرد على الدافع وراء نسبتهم إليه ﷺ اختلاق القرآن – وهذا أقوى من الأول – وهو إحالتهم صدقه ﷺ في دعوى النبوة والرسالة عن الله ، فقال : قل لهم يا محمد : ما كنتُ أول رسول من الله إلى الناس ، فقد بعث الله قبلي كثيرا من الرسل ، ولا جئت بأمر لم يجئ به الرسل ، بل جئت بما جاءوا به من الدعوة إلى التوحيد والإخبار بالبعث واليوم الآخر ، فلماذا تعجبون من دعوتي وتنكرونها ؟! . كما أن حالي ليس بحال مفترٍ متقول على الله كذبا ، فلا علم لي بما سيفعله الله بي وبكم في مستقبل الزمان ، وما سيفصل به بيني وبينكم في دار الدنيا من حكم وقضاء . ولو كنت مفتريا على الله – كما تزعمون– لافتريت عليه فعله فيّ وفيكم ؛ كي تسارعوا في اتباعي دون رفض أو تردد ، ولقلت لكم مثلا : إن لم تصدقوا بي خلال مدة كذا ، فسيبعث الله عليكم عذاب كذا ، أو سيبعث الله جيشا من الملائكة تنصّبني زعيما عليكم عنوة إن لم تتبعوني ، وما شابه هذا ، ولكني لم أفعل ذلك[١] . ما أتبع فيما أقوله لكم ولا فيما أفعله إلا ما يوحيه الله إليّ ، فلا اختلق من عندي شيئا . وما أنا في الحقيقة إلا نذير بيّن الإنذار لكم بما أيدني الله به من الآيات الباهرات ، أنذركم عقاب الله حسبما يوحي إليّ ، لا مفترٍ – كما تدعون – .

ثم وجه القرآن إليهم ردا آخر على فريتهم ، فقال : قل لهم يا محمد : أخبروني إن كان القرآن في الحقيقة من عند الله – وهذه مجاراة لحالهم واستنزالا لهم للتأمل والمحاورة – والحال أنكم قد كفرتم به ، وشهد شاهد عظيم الشأن من بني إسرائيل الواقفين على أسرار الوحي الإلهي بما أوتوه من التوراة ، على مثل القرآن ، وهو التوراة ، بأن محمدا ﷺ مكتوب فيها أنه نبيّ ، وأن المعاني المنطوية في التوراة من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك مطابقة لما في القرآن ، فسارع هذا الشاهد – وهو عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وذلك

---

(١) لم أعثر لدى المفسرين على وجه مرض في مناسبة جملة (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) للسياق العام للآيات ، والدور المناط بها في رد فرية المشركين ، فلجأت إلى الاجتهاد وإعمال الفكر بعد الدعاء والطلب من الله تعالى أن يفتح عليّ بما هو صواب في ذلك ، حتى فتح عليّ بما أوردته أعلاه ، والله أعلم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد الهجرة[١] – إلى الإيمان بالنبي ﷺ وبالقرآن ؛ لما علم أنه من جنس الوحي الناطق بالحق ، واستكبرتم أنتم يا كفار قريش عن الإيمان بذلك ، ألستم تكونون أضل النـــاس وأظلمهـــم ؟! ، بلى . وإذا كانت هذه حالكم فلا يرجى لكم معها هداية ، لأن الله لا يهـــدي القـــوم الظـــالمين أنفسهم بالكفر بعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان عليهم[٢] .

المقطع الرابع عشر : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الشورى : ٢٤)

المعنى الإجمالي :

أي : بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكة كعادتهم : افترى محمد على الله كـــذبا ، فجاء بهذا القرآن الذي يتلوه علينا اختلاقا من قبل نفسه ونسبه إلى الله ؟! . فـــرد الله علـــيهم مخاطبا نبيه ﷺ قائلا : لو كان هذا القرآن افتراء على الله لشاء عدم صدوره منك ، وإن يـــشأ ذلك يختم على قلبك ، بحيث لا يخطر ببالك معنىً من معانيه ، ولا تنطق بحرف من حروفه ؛ لأن الله لا يقرّ من يكذب عليه كلاما . ومن شأن الله تعالى وسنته الجارية أنه يمحو الباطـــل ويزيله ، ويثبت الحق ويظهره ، بكلماته الكونية التي لا تتبدل ولا تتغير ، وقضائه الـــذي لا مرد له ، ووعده الصادق بإظهار الحق وإزهاق الباطل ، وبكلماته الدينية التي هي ما يوحيـــه إلى أنبيائه من الكتب والشرائع – على رأسها هذا القرآن – . إنه سبحانه عليم بما تكنه قلوب الناس من النوايا والمقاصد ، فلا يخفى عليه افتراء مفترٍ ولا صدق محق[٣] .

المقطع الخـــامس عـــشر : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الحاقة : ٤٤ – ٤٧)

المعنى الإجمالي :

---

(١) كون الشاهد هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه مع أن الآية مكية تخاطب مشركي مكة ، وعبد الله بن سلام قد أسلم في المدينة بعد الهجرة ، توجيهه بأن يقال : إن هذه الآية المكية ذكرت ما سيكون واقعا فيما بعد ؛ " لأن قوله : (وشهد شاهد) معطوف على الشرط الذي يصير به الماضي مستقبلا ، فلا ضرر في شهادة الشاهد بعد نزولها " . الجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ١٦٢، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٦ ، ص ٢٣٥.

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٦ ، ص ١٠ – ١٧ ، والزمخشري ، **الكشاف** ، ص ١٠٠٩ – ١٠١١، وابن جزيّ ، **التسهيل** ، ج٢ ، ص ٣٣٢ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٦ ، ص ٦٨ – ٧١ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ١٥٩ – ١٦٢ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦٢٨ – ١٦٣٠ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٢٦ ، ص ٢٢٩ – ٢٣٥، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٦ ، ص ١٤ – ٢١ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ١٣٣٥ – ١٣٣٦ .

(٣) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ٢٥ ، ص ٣٤ – ٣٥ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٦ ، ص ١٦ – ١٧ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٥٨٨ ، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٧٠٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج٢٥ ، ص ٨٥ – ٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول الله تعالى : ولو اختلق محمد شيئا قليلا من الأقوال لم ننزلها عليه ، ونسبها إلينا ، لما أقررناه على ذلك ، ولأخذناه بقوتنا وعجّلنا بإهلاكه . أو لأخذنا بيده اليمنى ثم لقطعنا منه نياط قلبه – وهو عرق يتصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه – حتى يهلك ويمـوت . وهـذا تصوير للإهلاك بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه ، وهو أن يأخذ السـيّاف بيمينـه بحيث يجعله يرى لمع السيف ، فيزداد عذابه وهلعه ، ثم يضرب عنقه . ثم قال تعالى : فليس منكم أيها الناس من أحد يستطيع أن يمنعنا ويحجزنا حينئذ عن قتله وإهلاكه[١] .

المقطع السادس عـشر : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ (ص : ٨٦ – ٨٨)

المعنى الإجمالي :

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لمشركي قومه : لا أطلب على تبليغكم هذا القرآن وما فيه من عقائد وشرائع أي أجر دنيوي جلّ أو قل ، حتى تتهموني بالكذب والافتراء ؛ لأن من غير المتصور عقلا أن يكذب الرجل لغير نفع يرجوه لنفسه . كما أنني لست ممن يتـصنعون ويتحلّون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتموني قط متصنعا ولا مدّعيا ما ليس عندي حتى انتحل النبوة وأتقول هذا القرآن على الله . ما هذا القرآن إلا ذكر جليل الشأن من الله تعالى للثقلـين من الإنس والجن كافة ، يتذكرون به ربهم وكل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم . ولتعلمّن يا كفار مكة بعد زمان علما جزما حقيّته وصدق ما أخبر به من الوعد والوعيد وغيرهمـا ، فيزول شكّكم فيه[٢] .

المقطع الـسابع عـشر : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف : ١١١)

المعنى الإجمالي :

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ٢٩ ، ص ٧٩ –٨٠ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج ٨ ، ص ١٤٠ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٦ ، ص ٢٩٨، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٨٢١ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٩ ، ص ٨٦ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ١٤٥ – ١٤٧ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٣ ، ص ٢٢٠ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٣ ، ص ٣٠٤ ، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٦٦٣ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ٣٠٨ – ٣١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي : لقد كان في قصص الرسل مع أممهم وأقوامهم التي قصها القرآن فكرة وتذكرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، يستلهمون منها الدروس والعبر لحاضرهم ومستقبلهم ؛ ذلك لأن هذا القرآن المتضمن لذلك القصص خبره صدق مطابق للواقع – فهو بذلك محل للاعتبار بخلاف الخبر المكذوب والقصص الخيالي المستبعد الحصول في الواقع ، فليس محلا للاعتبار – ، فما هو – أي القرآن – بكلام مختلق ولا مصطنع ، ولكنه جاء موافقا لما سبقه من كتب الله كالتوراة والإنجيل والزبور ، وما تضمنته من قصص وأخبار ، وهذا كاف في الشهادة بصدقه وحقيّته في نفسه وأنه من عند الله . كما أنه جاء مفصّلا لكل شيء يُحتاج إليه من أمور الدين والدنيا والآخرة من العقائد والشرائع والأحكام ، ومن القصص والمواعظ والأمثال وغير ذلك ، وهو كذلك هدى من الضلالة في الدنيا ، وسبب لحصول الرحمة في الدنيا والآخرة ، لقوم يصدقون به وبما تضمنه ، ويعملون بما فيه ، وأمّا من عداهم فلا ينتفع به ، ولا يهتدي بهداه ، فلا يستحق ما يستحقونه[1] .

المقطع الثامن عشر : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ﴾(فاطر : ٣١)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : والذي أوحيناه إليك يا محمد من الكتاب المنزّل – وهو القرآن العظيم – هو الحق الذي لا شك في صدقه ، الكامل في الثبات ومطابقة الواقع ، حال كونه مصدقا موافقا لما سبقه من الكتب الإلهية المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور ، لا غيره من الكلام ؛ لأنه لمّا أتى ببيان ما في كتب الله دلّ على أنه مثلها منزل من عند الله . إنّ الله عليم بما دقّ وخفي وبما ظهر وبان من أحوال عباده وأمورهم ، وهو يصطفي منهم من علم أنه كفء لاصطفائه ؛ ولذا أوحى إليك يا محمد هذا الكتاب العظيم المعجز ؛ لأنه خبرك وأبصر أحوالك ، فرآك أهلا لذلك[1] .

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٣ ، ص ١٠٨ – ١٠٩ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٦ ، ص ٥٢٣ ، والقرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج٩ ، ص ١٨١ – ١٨٢ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٤ ، ص١١٦ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ٩٤ – ٩٥ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٨٧٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٣ ، ص ٩٢ – ٩٣ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٣ ، ص ٧١ – ٧٢ .

(١) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٨٨٦ ، وأبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٩ ، ص ٣٢ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٢٢٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٢ ، ص ٣١٠ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ١١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع التاسع عشر: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ ﴾ (هود : ٤٩)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ بعد أن قص عليه قصة نوح عليه السلام مع قومه : هذه القصة التي أنبأتك بها من قصة نوح وخبره مع قومه هي من أخبار الغيوب السالفة التي لم تشهدها ، نعلمك بها يا محمد بواسطة الوحي ، ما كان عندك ولا عند أحد من قومك من قريش علم بها على التفصيل الذي فصلناه ، من قبل هذا القرآن الذي أوحيناه إليك[٢] .

المقطع العشرون : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾ (يوسف : ٣)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : نحن نقص عليك يا محمد بسبب إيحاءنا إليك هذا القرآن أحسن القصص – على رأسها قصة يوسف عليه السلام وإخوته – ، فنخبرك فيه بالأخبار الماضية وأنباء الأمم السالفة ، وإن الحال والشأن أنك كنت من قبل أن نوحي إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن هذا القصص ، لم يخطر ببالك ولم يقرع سمعك ، ولا تعلم منه شيئا[٣] .

المقطع الحادي العشرون : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝١٠٢ ﴾ (يوسف : ١٠٢)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ بعد أن قص عليه قصة يوسف عليه السلام وإخوته : ذلك الذي قصصناه عليك يا محمد من أمر يوسف وإخوته هو من الأخبار التي كانت غائبة عنك ، أوحيناه إليك وأعلمناك به ، ولم يكن عندك قبل هذا الوحي علم شيء منه ؛ لأنك ما كنت حاضرا شاهدا حين عزموا جميعا على إلقائه في البئر وهم يمكرون به ويبغونه الشر في ذلك الفعل الذي فعلوه به[١] .

---

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٢ ، ص ٦٨ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٢ ، ص ٥٩٠ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٢ ، ص ٩٢ – ٩٣ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٥٩٤ .

(٣) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٢ ، ص١٧٨ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ٥ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٨٣٢ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١٢ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ٦١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع الثاني والعشرون : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (القصص : ٤٤ – ٤٦)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ بعد أن قصّ عليه قصة موسى عليه السلام من ولادته حتى إهلاك فرعون وقومه : وما كنت يا محمد حاضرا بالجانب الغربي من الجبل – وهو المكان الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام بعد قدومه من ديار مدين – حين أنفذنا أمرنا إلى موسى بالرسالة إلى فرعون وقومه ، وما كنت من الشاهدين لذلك الحدث العظيم ، فتعلمه فتخبر به قومك ، ولكنه صار إليك بوحينا ، فكان الواجب على قومك المسارعة إلى الإيمان بك ، ولكنا خلقنا بعد عهد الوحي – وهو رسالة إسماعيل عليه السلام للعرب قبل بعثة النبي ﷺ بأكثر من ألفي عام – إلى عهدك قرونا وأجيالا كثيرة ، فتطاول على آخرهم – وهو القرن الذي أنت فيهم – الزمان وأمد انقطاع الوحي ، فغابت عقولهم واستحكمت جهالتهم وضلالتهم ، فكفروا بك . وما كنت أيضا يا محمد ، وأنت تتلو على أهل مكة آياتنا المنبئة بخبر موسى عليه السلام مع الشيخ الكبير وابنتيه من أهل مدين ، مقيما قبل ذلك بينهم – أي بين أهل مدين – فتعلم ذلك الخبر منهم ، فيكون قصك له على أهل مكة من قبل نفسك ، ولكنا كنا مرسلين لك إليهم بوحينا وآياتنا المخبرة بذلك ، ولولا ذلك ما علمتها ولم تخبرهم بها . وما كنت أيضا بجانب ذلك الجبل – أي الذي كلم عنده موسى – حين وجهنا إليه ذلك النداء العظيم : ﴿ يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾(القصص : ٣٠) ، ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بذلك وغيره من الأخبار ؛ رحمة من ربك لتخوف وتحذر قوما – وهم العرب عموما وأهل مكة خصوصا – ما جاءهم رسول من قبلك يا محمد ينذرهم عذاب الله ؛ كي يتعظوا بما جئتهم به من آيات الله

وقصص كتابه ، فيدخلوا في دينك ، فيهتدوا وينجوا ويسعدوا(١) . والله أعلم .

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٣ ، ص٩١ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ٩٠ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٨٧٢ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٣ ، ص ٨١ .

(١) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٤٤٣ ، وابن جزي ، **التسهيل** ، ج٢ ، ص ١٤٥ – ١٤٦، وأبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج ٨ ، ص ٣٠٩ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٣ ، ص ٥١٩ – ٥٢٠ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٣٣ – ٣٤ ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطع الثالث والعشرون : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(آل عمران : ٤٤)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ذلك الذي أخبرناك به مما كان من امرأة عمران وابنتها مريم وزكريا وابنه يحيى عليهما السلام – مما ورد في سورة آل عمران – هو من أخبار ما غاب عنك وعن قومك مما لا يُعرف إلا بالوحي ، نوحيه – أي الغيب – إليك يا محمد ونعلمك به ، والحال أنك ما كنت حاضرا عند المتنازعين المتنافسين من بني إسرائيل على كفالة مريم والقيام بأمرها حين ألقوا سهامهم مقترعين لينظروا أيهم أولى وأحقّ بكفالتها ، وما كنت حاضرا عندهم كذلك حين اختلفوا وتنازعوا فيمن يكفلها منهم ، ما يدل على نبوتك وأنك لم تعلم بذلك إلا بوحي الله إليك(٢) .

المقطع الرابع والعشرون : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾(ص : ٦٧ – ٧٠)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : قل يا محمد للمكذبين من قومك بما جئتهم به من عند الله من هذا القرآن : إنّ هذا القرآن الذي جئتكم به ، المنبئ لكم عن التوحيد وتصديق الرسول ، ووقوع البعث والنشور والحساب والجزاء ، المخبر بقصص الأقدمين ، هو قول جليل عظيم الشأن – ما يقتضي الاعتناء به أمرا وائتمارا – ، أنتم يا كفار مكة عنه معرضون منصرفون ، تأبون سماعه والإيمان به والاهتداء بهديه ، بدعوى أني اختلقته وافتريته . إنّ مما يدل على صدق هذا القرآن وأنّه وحي من الله تعالى أنه ما كان لي فيما سبق علم بوجه من الوجوه بخبر الملأ الأعلى من الملائكة حين اختصموا واختلفوا في شأن آدم عليه السلام ، وما جرى من سجود الملائكة له ، وإباء إبليس واستكباره عن ذلك . هذا الخبر وغيره من أخبار الغيوب ما يوحيها الله إليّ لأمر من الأمور إلا لأنّي رسول مرسل من جهته تعالى إليكم لأنذركم إنذارا

والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٣٢٩ – ١٣٣٠ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٠ ، ص ٣٩٥ – ٣٩٦ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢ ، ص ١٠٠٠ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١١٠٨ – ١١٠٩ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٣ ، ص ٣١٢ – ٣١٥ ، وابن جزي ، **التسهيل** ، ج١ ، ص ١٤٥ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٢ ، ص ٨٧ – ٨٨ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج١ ، ص ٤٤٧ – ٤٤٨ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٣ ، ص ٢٠٩ – ٢١١، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج١ ، ص ١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واضحا صريحا عذاب الله المعدّ لمن كفر به وأشرك في عبادته وفسق عن طاعته[١] .

المقطع الخامس والعشرون : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾(الشورى : ٥٢)

المعنى الإجمالي :

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ومثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل – يا محمد – أوحينا إليك من شأننا العظيم الذي استأثرنا به وحجبناه عن الناس هذا القرآن العظيم الذي تحيا به القلوب . والحال أنك ما كنت تعرف من قبل الوحي إليك به ما هو القرآن، ولا كذلك كنت تعرف ما هو الإيمان على حقيقته الشرعية بتفصيلاته وحقائقه ومعالمه التي جاء بها الوحي[٢] .

المقطع السادس والعشرون : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(يونس : ١٦– ١٧)

المعنى الإجمالي :

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لمشركي قومه الذين اقترحوا عليه في الآية السابقة[٣] لهذه الآية أن يأتيهم بكتاب آخر غير القرآن ، بأساليب أخرى ، مثل كتب قصص الفرس وملاحمهم ، أو أن يغير معاني القرآن التي ينكرونها ، فيغير ما يشتمل على ذم الشرك بمدحه ، وذم الأصنام بالثناء عليها ، والوعيد لهم بالبشارة ، والبعث والنشور بنفيه ، إلى غير ذلك ، ما يستلزم رميهم له ﷺ بالكذب على الله فيما ادعى من إنزال القرآن عليه ، وأنّ القرآن إنما هو اختلاق منه ، أمره أن يقول لهم : لو شاء الله ما تلوت عليكم هذا القرآن – وذلك بأن لا ينزله عليّ فيأمرني بتلاوته عليكم وتبليغه إيّاكم – ولا أعلمَكم به . وقرأ البزي في أحد الوجهين له عن ابن كثير المكي : (ولأدراكم)[١] بلام التوكيد ، أي لو شاء الله ما تلوته عليكم

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٣ ، ص ٢١٤ – ٢١٦ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٤١٣ – ٤١٤ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٥٢٣ ،١٨٧٧ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٣ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٢١٢ ، والجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٣٢١ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢٥ ، ص ٥٥ – ٥٦ ، وابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ١٢٧٢ – ١٢٧٣ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ٧٥ – ٧٦ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٥٩٦ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٥ ، ص ٨١ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٥ ، ص ١٥٠ – ١٥٣ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٣ ، ص ١٢٩١ .

(٣) وهي قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله ﴾(يونس : ١٥) .

(١) ينظر : ابن الجزري ، **تقريب النشر** ، ص ١٢٢ ، ومحمد فهد خاروف ، **الميسر** ، ص ٢١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، ولأعلمكم به على لسان غيري ، فهو الحق الذي لا محيص عنه ، فلو لم أُرسل به لأُرسِل به غيري . ثم قال تعالى على لسان نبيه ﷺ مدللا على كون القرآن إنما نزل بأمر الله ومشيئته : قد أقمت فيما بينكم زمانا طويلا – وهو أربعون سنة – من قبل أن آتيكم بهذا القــرآن ، مـــا تكلّمت بشيء منه . وكنتم تعرفوني بالصدق والأمانة وأني لا أقرأ ولا أكتب ، وكنتم تحفظون تفاصيل أحوالي وتحيطون خبرا بأقوالي وأفعالي، أفلا تحكّمون عقولكم في ذلك بالتدبر والتفكر فيما كنتم تعرفون من حالي من اتصافي بالصدق والأمانة تلك المدة الطويلـــة ، ومـــن عـــدم قراءتي للكتب المنزلة على الرسل ، ولا تعلمي لما عند أهلها من العلم ، ولا طلبي لشيء من هذا الشأن ولا حرصي عليه ، ومن عدم مخالطتي للبلغاء في المحاورة ، ولا خوضي معهـــم في فنون اللغة وآدابها ، ثم مجيئي إليكم بهذا الكتاب الكاشف عن أسرار الغيب ، الحاوي على قصص الأولين ، المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة والمهيمن عليها ، الذي عجزتم عن الإتيان بمثل سورة منه ، وقصرتم عن معارضته ، وأنتم العرب المشهود لكم بكمال الفصاحة ، المعترف لكم بأنكم البالغون فيها مبلغا لا يصل إليه غيركم ، أفلا تحكّمون عقولكم في ذلـــك فتسلمون بصدقي ، وتؤمنون بأن هذا القرآن هو وحي الله وكلامه ، لا منتحلا من قِبلي . ثـــم لقّن تعالى نبيه ﷺ ما يتنصّل به مما نسبوه إليه من الافتراء على الله ، ويظهر براءته منـــه ، بقوله : لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما ممّن تقوّل على الله ما لم يقله . فلو لم يكن هذا القرآن حقا من عند الله ، لما كان في الدنيا أحد أظلم لنفسه منّي ، حيث افتريته على الله . وفي المقابل فلا أحد كذلك أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما ممّن كذّب بآيات الله الحقّة الصادقة حين جاءته . وعليه ، فلما أقمت لكم الأدلة على أنني صادق فيما جئتكم به ، وأنّ القرآن هو وحي الله وكلامه ، وجب أن يقال : إنّه ليس في الدنيا أحد أظلم لنفسه منكم ، حيث كذّبتم بآيات الله بإنكاركم أن يكون هذا القرآن المشتمل عليها من عنده تعالى ، وزعمتم أنّه مختلَق مفترى . ثم أكّد ما قاله لهم بقوله : إنّه لا يفلح المجرمون ، سواءً منهم المفترون أو المكذبون ، فلا ينجون من محذور ، ولا يفوزون بمطلوب(٢) .

المقطع السابع والعشرون : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾(الرعد : ٣٦)

المعنى الإجمالي :

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١١ ، ص ١١١ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٧ ، ص ٢٢٦ ، وابن جزي ، **التسهيل** ، ج١ ، ص ٣٧٧ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٢ ، ص ٥٣٩ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٥٣ – ٧٥٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ١١٥ – ١١٨ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ١١٦ – ١١٧ ، ١١٩ ، و**التفسير الميسر** ، ص ٢١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي : والذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى ممن آمن بك واتبعك يا محمد يفرحون ويسرّون وتنشرح صدورهم بالقرآن المنزل عليك ؛ لموافقته ما عندهم من الكتب ، ولأنه الكتاب الموعود المبشر به في كتبهم(١) .

المقطع الثامن والعشرون : ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾(الإسراء : ١٠٧ – ١٠٩)

المعنى الإجمالي :

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لكفار قومه : آمنوا بالقرآن أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به وعدم إيمانكم به سواء ؛ لأن إيمانكم لا يزيده كمالا ، وعدمه لا يورثه نقصا ، فقد آمن به أحسنَ إيمانٍ من هو خير منكم ، وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، فعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة ، كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل ونجاشي الحبشة ، فإذا يتلى عليهم هذا القرآن يهوون بسرعة إلى الأرض على وجوههم سجدا لله ؛ تعظيما لأمره وتكريما لكتابه وشكرا له على إنجاز ما وعد به في كتبهم من بعثة محمد ﷺ النبي الخاتم ، وعلى ما أنعم به عليهم أن جعلهم أهلاً لأن يدركوا هذا النبيّ فيكونوا من أتباعه وأمّته . ويقولون في سجودهم : تنزه ربنا عن إخلاف وعده في التوراة والإنجيل ببعث الرسول الخاتم ﷺ ، إنه كان وعده كائنا لا محالة . ويهوون بسرعة على وجوههم ساجدين سجودهم ذلك باكين من خشية الله ؛ لتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم ، ويزيدهم سماع القرآن وما فيه من المواعظ والعبر خشوعا وخضوعا لأمر الله وطاعته ، واستكانة له(٢) .

المقطع التاسع والعشرون : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾(الشعراء : ١٩٦ – ١٩٧)

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٣ ، ص ١٩٥ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ١٣ ، ص ٢٠٧ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج ٢ ، ص ٦٦٢ ، **والتفسير الميسر** ، ص ٢٥٤ .
(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ١٥ ، ص ٢٠٧ – ٢٠٩ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٣ ، ص٩٤ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٠٢٧ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٥ ، ص ٢٣٨ – ٢٤١ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٥ ، ص ٢٣٢ – ٢٣٥ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير** ، ج٢، ص ٧٥١ – ٧٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مر تفسير هذا المقطع في مبحث فرية الكهانة ، فلا حاجة لإعادته .

المقطع الثلاثون : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۝٥٣ ﴾(القصص : ٥٢ – ٥٣)

المعنى الإجمالي :

أي الذين آتيناهم الكتاب من قبل هذا القرآن ممن آمن بالنبي ﷺ وصدق برسالته ، كوفد نصارى الحبشة الذين قدموا مكة وجلسوا إلى النبي ﷺ فآمنوا به [١]، هم بهذا القرآن يؤمنون ، فيقرون بأنه حق من عند الله ، بخلاف المشركين من أهل مكة الذين جحدوا به . كما أنهم – أي مسلمي أهل الكتاب هؤلاء – إذا يتلى هذا القرآن عليهم يعلنون إيمانهم به قائلين : آمنا به وصدقنا بأنه كلام الله تعالى ووحيه ؛ لأنه الحق الذي نعرف حقيته وأنه منزل من عند ربنا ومولانا والمتصرف في أمورنا . وهذا الإيمان منا ليس أمرا محدثا وليد ساعته ، إنما هو أمر تقادم عهده عندنا ، فإنا كنا من قبل نزول هذا القرآن على دين الإسلام ، بإيماننا بمحمد ﷺ وبما جاء به قبل مبعثه ونزول القرآن عليه ؛ لما نعلمه من ذكره وصفته والتبشير به في التوراة والإنجيل ، وأنه سيبعث آخر الزمان وينزل عليه القرآن[٢] .

المقطع الحادي والثلاثون : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٧ ﴾(العنكبوت : ٤٧)

مر تفسير هذا المقطع في المبحث السابق ، فلا داعي لتكراره .

المطلب الأول : أسباب اختيار المشركين للفرية ودلالته

(١) قال ابن إسحاق في السيرة : " ثم قدم على رسول الله ﷺ و هو بمكة عشرون رجلا أو قريبا من ذلك من النصارى ، حين ظهر خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه فكلموه و ساءلوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله و تلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له و آمنوا به و صدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا : خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوا بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم ركبا أحمق منكم ، أو كما قالوا لهم ، فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا نألو أنفسنا خيرا . قال ابن إسحاق : ويقال أنّ النفر النصارى من أهل نجران ، فالله أعلم أي ذلك كان . ويقال - والله أعلم- أن فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ إلى قوله :﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ " . وقال ابن إسحاق أيضا بأنّه سأل الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت ؟ فقال : ما زلت أسمع علماءنا يقولون : نزلت في النجاشي و أصحابه . ينظر : ابن إسحاق ، **السيرة النبوية** ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ ، وابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٣ ، ص ٥٢٣ ، والجزائري ، **نهر الخير على أيسر التفاسير** ، ص ١١١١ .

(٢) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج ٢٠ ، ص ١٠٤ – ١٠٥ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٣٧ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٣٣١ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٠ ، ص ٤٠٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٠ ، ص ١٤٣ – ١٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الأسباب التي ذكرها القرآن فتتكوّن – كما سبق في الفرى الماضية – من شبهات أوردها القوم تمهيدا لفريتهم ، ودوافع دفعتهم إليها أثبتها القرآن لهم ، أما الشبهات فكان على رأسها شبهة وقوع النسخ والتبديل في آيات القرآن وأحكامه ، وهي إحدى ثلاث شبه أوردوها تمهيدا لفرية اختلاق القرآن ، قال تعالى في مقطع النحل : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزل ، قالوا إنما أنت مفتر﴾ ، فكان كفار مكة إذا نسخ الله حكم آية فأبدل مكانه في العمل حكما آخر بآية أخرى " يقولون : لو كان من عند الله لم يتبدل ، وإنما هو من افتراء محمد ، فهو يرجع من خطأ يبدو له إلى صواب يراه بعدُ "[١] . أما الشبهة الثانية فهي إنكار القوم لوحدانية الإله ، وترك عبادة الأصنام التي ورثوها عن آبائهم ، قال تعالى في مقطع سبأ الثاني : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ ، فبعد أن طعنوا في التالي طعنوا في المتلوّ . وأما الثالثة فهي إنكارهم إمكانية البعث بعد الموت وبلى الأجساد ، جاء هذا في مقطع سبأ الأول ، قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ۞ أفترى على الله كذبا ﴾ .

أما دوافعهم وراء هذه الفرية فمتعددة ، فقد ذكر القرآن لهم سبعة دوافع ، هي :

أولا : الكفر . وهذا الدافع أشار القرآن إليه في الفرقان والطور . ففي الفرقان قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ﴾ ، فأظهر الوصف الذي حملهم على هذه المقالة وهو الكفر ، قال السعدي : " أي : وقال الكافرون بالله ، الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول : إن هذا القرآن كذب كذبه محمد ، وإفك افتراه على الله"[٢]. والمعنى أنهم ما جرأهم على فريتهم هذه إلا كفرهم وإشراكهم وتصلبهم فيهما ، وليس لشبهة معقولة تبعثهم على القول بها[٣] . وقال تعالى في الطور:﴿ أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون ﴾ ، قال ابن كثير : " أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة "[٤] . وقال الزمخشري : " فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم ببطلان قولهم، وأنه ليس بمتقوّل ؛ لعجز العرب عنه ، وما محمد إلا واحد من العرب "[١] .

---

(١) ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١١١٥ .
(٢) السعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٥٢٦ .
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٨ ، ص ٣٢٢.
(٤) ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٤ ، ص ٣١١ .

(١) الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ١٠٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : الجهل . وورد هذا الدافع في مقطع يونس الأول في قوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ ، فبالإضافة إلى كون المشركين سارعوا إلى الطعن في القرآن قبل أن يتدبروا ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه من شواهد ربانيته – كما مر في التمهيد – فكذلك أنهم – كما قال الرازي – " لما رأوا القرآن مشتملا على أمور ما عرفوا حقيقتها ولم يطلعوا على وجه الحكمة فيها ، لا جرم كذبوا بالقرآن . والحاصل أن القوم ما كانوا يعرفون أسرار الإلهيات ، وكانوا يجرون الأمور على الأحوال المألوفة في عالم المحسوسات ، وما كانوا يطلبون حِكَمها ولا وجوه تأويلاتها ، فلا جرم وقعوا في التكذيب والجهل "[٢] . ومن ذلك جهلهم بالمراد من إيراد القصص القرآني ، وأن المقصود منه ليس هو نفس الحكاية ، بل أمور أخرى مغايرة ، كبيان قدرة الله تعالى على التصرف في هذا العالم وتصريف أموره ، ونقل أهله من العز إلى الذل وبالعكس ، إلى غير ذلك من العبر والعظات ، إضافة إلى الدلالة على حقية القرآن وصدق نبوة محمد ﷺ . ومما جهلوه أيضا حقية وقوع الحشر والنشر التي أثبتها القرآن ؛ لأنهم قد ألفوا المحسوسات وكانوا يقيسون الأمور عليها ، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ، فظنوا أن محمدا ﷺ إنما يذكر ذلك على سبيل الكذب ، وأن القرآن كلام مكذوب مختلق . وكذلك جهلهم بالحكمة من تنجيم القرآن ونزوله مفرقا لا جملة واحدة ، وجهلهم أيضا بالحكمة والمراد من الأمر بالصلاة والزكاة وسائر العبادات التي أمر بها القرآن ، فكانوا يقولون : الله غني عنا وعن طاعتنا ، وإنه تعالى أجلّ من أن يأمر بشيء لا فائدة فيه[٣] .

ثالثا : الكبر . وورد هذا الدافع في مقطع الأحقاف ، قال تعالى :﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾ ، فكان الحامل لهم على تماديهم في الكفر حتى نطقوا بتلك الفرية رغم الأدلة العديدة القاطعة بصدق القرآن وأنه من عند الله ، هو شماختهم وأنفتهم واستكبارهم عن الإيمان والاتباع[٤] .

رابعا : اتصافهم بالظلم . أشار إلى هذا الدافع قوله تعالى في الأحقاف بعد أن بين تعالى استكبارهم عن الإيمان بعد ظهور الدليل على حقية القرآن : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . قال الآلوسي : " ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم ، فتشعر هذه الجملة بأنّ كفرهم به لضلالهم المسبَّب عن ظلمهم "[١] .

---

(٢) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٧ ، ص ٢٥٦ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ج١٧ ، ص ٢٥٥.
(٤) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ١٢٣ .

(١) الالوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٦ ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : الحرص على متاع الحياة الدنيا من المال والجاه والمكانة . ويظهر هذا الدافع من دلالة السياق للآيات الواردة في سورة هود . فبعد أن قال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ إلى قوله : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ ، قال بعد هذا مباشرة : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ۞ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل وما كانوا يعملون ﴾(هود : ١٥ – ١٦) . فإرادتهم لمتاع الحياة الدنيا وزينتها كان دافعا وراء موقفهم من القرآن ودعوته . قال سيد قطب : لقد كان الحق واضحا ، ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان ، وتعبيد للناس كي لا يستجيبوا لداعي الحرية والكرامة والعدل والعزة ، داعي لا إله إلا الله ، لهذا يعقب السياق بما يناسب حالهم ويصور لهم عاقبة أمرهم فيقول : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا ... ﴾ الآيتين[(٢)] .

سادسا : اغترارهم بترك المعاجلة بعقابهم الذي توعدهم القرآن به إن هم أصروا على كفرهم وتكذيبهم ، فحسبوا عدم التعجيل به دليلا على الكذب ، وأن القرآن ما هو إلا اختلاق من قبل محمد ﷺ . ويظهر هذا الدافع في مقطع يونس الأول في قوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ .

سابعا : طول أمد انقطاع الوحي عن قريش خاصة والعرب عامة ، فلم يأتهم نبي ينذرهم ويبشرهم منذ عهد إسماعيل عليه السلام ، حتى استحكمت جهالتهم واستفحلت ضلالتهم . وعليه ، فقد غاب عن عقولهم وتصوراتهم أن يوحي الله إلى أحد البشر برسالة إليهم ، وأن ينزل عليه كتابا ليتحاكموا إليه في جميع شؤونهم ، فكان ذلك دافعا لهم إلى التكذيب بهذا الرسول وهذا القرآن . ويظهر هذا الدافع في مقطع القصص الأول في قوله تعالى :﴿ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ﴾ .

هذا ، ويمكن إضافة أسباب أخرى محتملة غير ما ذكره القرآن ، هي :

أولا : نسبة القرآن إلى الله . وهذا يخالف حال الساحر والشاعر والكاهن والمجنون والمتعلم من البشر ، فإن هؤلاء لم يُعهد عليهم أن ينسبوا ما يأتون أو يصدر عنهم إلى الله ؛ ولذلك قال

---

(٢) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٢ ، ص ١٨٦٢ (بتصرف يسير) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المشركون بأنه ﷺ – حاشاه – قد جاء بهذا القرآن على سبيل الاختلاق من قِبَل نفسه ، ونسبه إلى الله كذبا[١] .

ثانيا : ما جاء في القرآن من قصص وأخبار عن الأمم الماضية لم يكن لدى أهل مكة علم بها ، مع كون المبلغ لهذا القرآن ﷺ أميا لا يقرأ ولم يخالط غيرهم حتى يقال إنه تعلم تلك الأخبار من الكتب التي قرأها أو الناس الذين خالطهم ، فظنوه مختلِقا لها وللقرآن المشتمل عليها .

ثالثا : نزول القرآن منجما مفرقا بحسب الحوادث والنوازل ، فقالوا : لو كان هذا من عند الله ومخالفا لما يكون من عند الناس ، لم ينزل هكذا نجوما على حسب النوازل ووقوع الحوادث ، على سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقا حينا فحينا ، بحسب ما يظهر من الأحوال المتجددة والحاجات المختلفة ، فإن الشاعر لا يظهر ديوان شعره دفعة ، والمترسل لا يظهر ديوان رسائله وخطبه دفعة ، فلو أنزله الله تعالى لأنزله على خلاف هذه العادة جملة واحدة ، ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل هذا القرآن جملة واحدة ﴾(الفرقان : ٣٢)[٢] .

رابعا : ممارسة الحرب الدعائية ضده ﷺ تنفيرا للناس عنه وعن دعوته ، وطعنا في حجيّة القرآن ، وتمويها على المغفلين وضعفاء العقول ، وتبريرا لموقفهم المعادي له ﷺ ولدعوته .

أما ما تحمله هذه الفرية من دلالة ، فإنها تدل على مدى الخطر الذي شعر به كفار مكة من هذه الدعوة الجديدة . ويتجلى ذلك في أنهم نسبوا ما عجزوا جميعا عن معارضته – مع أنهم فرسان الميدان في الفصاحة والبيان – إليه ﷺ ، مسلّمين ضمنا بأنه قد فاقهم في ذلك الميدان وأتى بما عجزوا عنه جميعا ، مفضلين ذلك على أن يشهدوا له بالنبوة والرسالة . وهذا بدوره يدل على ما كان يتصف به ﷺ من طهارة نفس وسمو خلق ، كيف لا وهو النبيّ المصطفى ! ، حيث لم يكن ككثير من الناس الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلم تحدث هذه الفرية في نفسه عجبا أو سرورا ، بل إنه كان كما وصفه ربّه بقوله :﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾(الكهف : ٦) .

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٩ ، ص ١٤٥ .

(٢) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢ ، ص ٣٤٨ . وقد فند القرآن هذه الشبهة بقوله تعالى : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ (الفرقان : ٣٢) ، أي : " لنصحح به عزيمة قلبك ويقين نفسك ، ونشجعك به " . الطبري ، **جامع البيان** ، ج١٩ ، ص ١٦ . قال ابن الجوزي : " ذلك أنه كان يأتيه الوحي في كل أمر وحادثة ، فكان أقوى لقلبه وأنور لبصيرته وأبعد لاستيحاشه " . ابن الجوزي ، **زاد المسير** ، ص ١٠١٦ . وذلك خاصة أمام تعنت قومه وما كان يلاقيه منهم من طعون واعتراضات ومجادلات ، وما كان يلاقيه هو وأصحابه منهم من أذى ، فلا شك كان في تنزلات القرآن المتعددة تثبيتا لقلبه ﷺ وقلوب أصحابه ، وتقوية لعزيمته أمام تلك التحديات . وقد ذكر المفسرون وجوها أخرى لهذا التثبيت ، أجمعها ما أورده الرازي في تفسيره ، ج٢٤ ، ص ٤٥٧ . كما رد القرآن شبهتهم بقوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾(الإسراء : ١٠٦) ، أي إنما نزله تعالى مفرقا منجما ليقرأه ﷺ على الناس على تؤده ومهل ؛ ليكون حفظه أسهل ، ولتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أيسر . ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢١ ، ص٤١٧ ، والصابوني ، **صفوة التفاسير**،ج٢، ص٧٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الثاني : طريقة القرآن في عرض الفرية

لما كانت فرية اختلاق القرآن أكثر فرى المشركين التي اهتم القرآن بها إيـرادا وردا ، فقد تعددت هيئات عرضها فيه ، لكن مع التركيز على الرد لها أكثر من غيره مـن عناصـر الفرية . وفيما يلي بيان تلك الهيئات :

أولا : تقديم الشبهة الممهدة للفرية ، ثم الرد عليها ، ثم الفرية نفسها ، ثم الرد عليهـا وعلـى الشبهة ، ثم الرد على الفرية وحدها . جاء هذا في مقطع النحل ، فقوله تعالى : ﴿ وإذا بـدلنا آية مكان آية ﴾ هو مثار الشبهة . وقوله عقبه : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ هو الـرد عليهـا . وقول المشركين في جملة جواب الشرط : ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ هو الفرية . وقوله تعالى بعـده :﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾ هـو رد على الفرية بقوله : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك﴾ ، و ردّ على الشبهة بقوله : ﴿ بـالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾ . ثم قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ إنما يفتري الكـذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ هو رد على الفرية .

ثانيا : تقديم الشبهة ، ثم الفرية ، ثم الرد على الفرية ، ثم الرد على الشبهة . وجاء هذا فـي مقطع سبأ الأول ، فقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مـزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ هذه شبهتهم ، وقولهم بعدها : ﴿ أفترى على الله كذبا أم بـه جنة ﴾ هذه الفرية ، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ بل الذين لا يؤمنـون بـالآخرة فـي العـذاب والضلال البعيد ﴾ هو الرد على الفرية ، ثم قوله : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهـم من السماء والأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ هو الرد على الشبهة .

ثالثا : تقديم الشبهة ، ثم الفرية ، ثم الرد عليهما . وهذا جاء في مقطع سبأ الثـاني . فقولـه تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبـد آباؤكم ﴾ يبين شبهة القوم التي بنوا عليها فريتهم ، وهي إنكارهم عقيدة التوحيد وترك عبـادة الأوثان التي ورثوها عن آبائهم ، الذين هم في نظرهم الأسوة والقـدوة وأصـحاب العقـول السليمة والآراء السديدة . وقولهم بعد ذلك : ﴿ ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ هـو فـريتهم التـي وصموا بها القرآن الذي جاء معارضا لأهوائهم ولما ورثوه وألفوه . ثم قوله تعالى : ﴿ ومـا آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ هو الرد على ما قالوه من شـبهة وفرية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعا : تقديم الدافع وراء الفرية ، ثم الفرية نفسها ، ثم الرد عليها . وورد هـذا فـي مقطع الفرقان ، فقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يشير إلى الدافع وراء ما بهتوا بـه النبـي ﷺ والقرآن ، ألا وهو الكفر . وقولهم : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ هـو الفرية . أما قوله تعالى بعده :﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ فهو الرد على بهتانهم وفريتهم .

خامسا : تقديم الفرية ، ثم الرد عليها ، ثم الدافع وراءها . جاء هذا في مقطع الأحقاف . فقوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ مصرحٌ بفريتهم . وقوله بعده : ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا ﴾ إلى قوله : ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن ﴾ هو الرد عليها . وقوله تعالى : ﴿ واستكبرتم ﴾ يظهر الدافع وراء تكذيبهم وبهتانهم الذي رموا به هذا الكتـاب العظيم والمبلغ له ﷺ ، وهو دافع الاستكبار عن الإذعان للحق . ثم قوله بعد ذلـك : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ يشير إلى الدافع الأساس وراء استكبارهم وكفـرهم وبهتـانهم ، ألا وهو اتصافهم بالظلم ووضع الأشياء في غير مواضعها ، فلذا استكبروا عن التعديل وبطـروا الحق وبهتوه .

سادسا : تقديم الفرية ، ثم الدافع وراءها ، ثم الرد عليها . ورد هذا في مقطع الطور . فقوله تعالى : ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ مبيّن لفريتهم . وقوله بعده : ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ مصرح بالدافع وراءها ، وهو كفرهم وعدم إيمانهم . أما قوله بعد ذلك :﴿ فليأتوا بحـديث مثلـه إن كـانوا صادقين ﴾ فهو الرد عليها .

سابعا : تقديم الفرية ، ثم الرد عليها ، مع عدم التعرض لدافع أو شبهة . ورد هذا في ثلاثـة مقاطع ، هي : هود الأول ، والثاني ، والشورى الأول . ففي مقطع هود الأول قـال تعـالى مبينا فريتهم : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ، ثم قال ردا عليها : ﴿ قل فـأتوا بعـشر سـور مثلـه مفتريات ﴾ إلى قوله :﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ . وأما في مقطع هود الثاني فقال تعـالى مبينـا فريتهم : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ كالأول ، ثم قال ردا عليها : ﴿ قل إن افتريته فعلي إجرامـي وأنا بريء مما تجرمون ﴾ . وكذلك الحال في مقطع الشورى الأول ، فقال مصرحا بفريتهم : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا﴾ ، ثم رد عليها بقوله : ﴿ فإن يشأ الله يختم علـى قلبـك ، ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

ثامنا : الاقتصار على إيراد الفرية ، وطريقة الإيراد تغني عن الرد . وهذا جاء فـي مقطـع الأنبياء في قوله تعالى عن المشركين : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ . فاضطرابهم وتخبطهم في وصف النبي ﷺ والقرآن هو الدليل على بطلان ما قالوه في حقهما .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تاسعا : تقديم الرد ، ثم الفرية ، ثم الرد عليها ، ثم الدافع وراءها . جاء هذا في مقطع يونس الأول . فقوله تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ هو الرد على فرية اختلاق القرآن من خلال وصفه . وقوله بعد ذلك :﴿ أم يقولون افتراه ﴾ مبيّن لفريتهم . أما قوله بعده : ﴿ قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ، فهو الرد على فريتهم من خلال وصفهم هم ، بإظهار عجزهم عن معارضته . وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ مظهر لما دفعهم إلى التفوه بالفرية ، وهما دافع الجهل ودافع الاغترار بترك المعاجلة بعقابهم الذي توعدهم القرآن به .

عاشرا : تقديم الرد ، ثم الفرية ، ثم الرد عليها ، دون تعرض لدافع أو شبهة . وهذا خاص بمقطع السجدة . فرد تعالى على فرية اختلاق القرآن بقوله : ﴿ الم ۞ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ . ثم أورد الفرية بقوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ . ثم رد عليها بقوله : ﴿ بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ . قال الزمخشري : " أثبت أولا أن تنزيله من رب العالمين ، وأن ذلك ما لا ريب فيه . ثم أضرب عن ذلك إلى قوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ؛ لأن (أم) هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة ؛ إنكارا لقولهم وتعجيبا منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه . ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك . ونظيره أن يعلل العالم في المسألة بعلة صحيحة جامعة قد احترز فيها أنواع الاحتراز ... ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه ، فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك ، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته "(١) .

حادي عشر : الاقتصار على رد الفرية دون إيرادها ولا إيراد الشبه والدوافع وراءها . وهذا يشمل بقية المقاطع ذات الصلة ومحور الدراسة ، التي أُضربُ عن ذكرها هنا تجنبا للإطالة ، وسأوردها بالتفصيل في مطلب الرد على الفرية .

---

(١) الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٨٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الثالث : أسلوب المشركين في إلقاء الفرية كما يعرضه القرآن

ركز المشركون في إلقائهم لفرية اختلاق القرآن على أسلوبين هما : أسلوب التأكيد بالقصر ، وأسلوب التحقير ؛ تضليلا منهم للعامة عن التصديق بالقرآن والمبلغ له ﷺ ، وإظهارا لهم أنهم أهل الخبرة والنظر ، وأنهم واثقون مما يقولونه .

أما أسلوب التوكيد بالقصر فظهر في ثلاثة مقاطع ، هي النحل والفرقان وسبأ . ففي النحل قالوا : ﴿ إنما أنت مفتر﴾ " بصيغة قصر الموصوف على الصفة ، فجعلوه ﷺ لا صفة له إلا الافتراء ، وهو قصر إضافي ، أي : لست بمرسل من الله . وهذا من مجازفاتهم وسرعتهم في الحكم الجائر ، فلم يقتصروا على أن تبديله[١] افتراء ، بل جعلوا الرسول مقصورا على كونه مفتريا ؛ لإفادة أن القرآن الوارد مقصور على كونه افتراء "[٢] . وقالوا في الفرقان : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه﴾ ، وقالوا في سبأ : ﴿ ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ . والقصر في المقطعين قصر قلب ، قصروا القرآن على كونه إفكا وكذبا ، رادّين بذلك دعوى أنه منزل من عند الله[٣] .

وأما أسلوب التحقير فظهر في مقطعي الفرقان وسبأ السابقين ، وذلك باستعمال المشركين اسم الإشارة (هذا) المتوجه إلى القرآن ؛ حطّا منهم لرتبة المشار إليه وتحقيره[٤] ؛ للدلالة أمام عوامهم على أنه كلام لا قيمة له ، فلا ينبغي لهم الوقوف عنده والتفكر فيه ، بل ينبغي الإعراض عنه وعدم الالتفات إليه[٥] .

---

(١) هو الوارد في نفس المقطع قبل إيراد مقالتهم بقوله :﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ .
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ٢٨٣.
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ج١٨ ، ص ٣٢٢.
(٤) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٨ ، ص ٥٧٦ ، و ج٢٢ ، ص ٤٤٥ .
(٥) يضاف إلى حملة التشويه والتضليل هذه استعمالهم له ﷺ وصف الافتراء بدل الكذب ، قال ابن عطية : " والافتراء أخص من الكذب ، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرء وكابر وجاء بأمر عظيم منكر " . ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٩٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب الرابع : الردّ على الفرية

كان لفرية اختلاق القرآن من الردود القرآنية المبطلة لها ما ليس لغيرها من الفـرى ، فقد تنوعت وتعددت بشكل عجيب غير مسبوق ، حتى وصلت إلى خمسة عشر ردا متنوعة . وهذا أمر بدهيّ ؛ لكثرة ما ذكرت في القرآن واتصل بشأنها من آياته . وفيما يلي بيان هـذه الردود :

أولا : التحدي بالمعارضة . وهو أن يُطلب من أصحاب الفرية أن يعارضوا القرآن بأن يأتوا بمثله أو بمثل جزء منه . وورد هذا في خمسة مقاطع ، هي الطور والإسـراء الأول وهـود الأول ويونس الأول والبقرة . ففي الطور تحداهم الله تعالى بأن يأتوا من عند أنفسهم بمثـل القرآن دون تحديد قدر معين منه ، فقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[١] . قـال البقاعي : " لأن العادة تُحيل أن يأتي واحد من قوم وهو مساوٍ لهم بما لا يقدرون كلهم علـى مثله . والعاقل لا يجزم بشيء إلا وهو عالم به . ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل مـا يأتي به ، فإنه ﷺ مثلهم في الفصاحة والبلد والنسب ، وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشعر ومخالطة العلماء ، ومزاولة الخطب والرسائل وغير ذلك ، فلا يقدر على ما يعجزون عنه إلا بتأييد إلهي "[٢] . ووسع تعالى عليهم في المعارضة بأن جاء في هذا المقطع وغيره من مقاطع التحدي بفعل الإتيان دون أن يقول : فليقولوا مثله ونحوه ؛ لأن الإتيان بالشيء هو إحـضاره من مكان إلى آخر ، فطالبهم تعالى بجلب كلام مثل القرآن ولو من أحد غيرهم ؛ إعذارا لهـم وإقامة للحجة عليهم[٣] . ثم بين سبحانه عجزهم عن هذه المعارضة ، سواء أكان المتصدي لها كل واحد منهم على الانفراد ، أو كان المجموع بالمظاهرة بأن يعاونوا ويناصـروا بعـضهم بعضا على ذلك ، بقوله في الإسراء : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ . والمعنى أنهم لا يستطيعون الإتيـان بمثله على كل حال[٤] . ولمّا عجز القوم عن معارضته فعلا بأن لم يأتوا بما طولبوا به رغـم وفرة الدواعي وشدة الحاجة ، ورغم سماعهم التحدي والإخبار بعجزهم عن المعارضة ممـا يدفعهم دفعا إلى المعارضة لو كانوا يستطيعون إلى ذلك سبيلا ، أرخى تعـالى لهـم العنـان

---

(١) ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٧ ، ص ٥٠ ، ود. فضل عباس وسناء عباس ، **إعجاز القرآن الكريم** ، ص ٣١ .
(٢) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ٣٠٤ .
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٦٦ .
(٤) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٠٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاكتفى منهم بعشر سور مثل سور القرآن أن يأتوا بها ، فقال في هود : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[١] . فلما لم يفعلوا رغم هذا التخفيف معلنين بلسان حالهم عجزهم عن ذلك ، أرخى لهم العنان مرة أخرى وتحداهم بسورة واحدة مثل سور القرآن طالت أو قصرت ، فقال في يونس : ﴿ قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[٢] . لكنه سبحانه رغم تخفيفه للمتحدى به هنا ، إلا أنه لم يكتف بذلك ، بل وسع عليهم بأن دعاهم إلى الاستعانة بكل من يستطيعون من الخلق على هذه المعارضة ، قال الرازي : " وتقريره أن الجماعة إذا تعاونت وتعاضدت صارت تلك العقول الكثيرة كالعقل الواحد ، فإذا توجهوا نحو شيء واحد ، قدر مجموعهم على ما يُعجز كل واحد منهم . فكأنه تعالى يقول : هب أن عقل الواحد والإثنين منكم لا يفي باستخراج معارضة القرآن ، فاجتمِعوا وليعن بعضكم بعضا في هذه المعارضة . فإذا عرفتم عجزكم حالة الاجتماع وحالة الانفراد عن هذه المعارضة ، فحينئذ يظهر أنّ تعذّر هذه المعارضة إنما كان لأن قدرة البشر غير وافية بها ، فحينئذ يظهر أن ذلك فعل الله ، لا فعل البشر "[٣] . قال الشوكاني : " وسبحان الله العظيم ، ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول ، فإنهم لما نسبوا الافتراء إلى واحد منهم في البشرية والعربية ، قال لهم : هذا الذي نسبتموه إليّ وأنا واحد منكم ، ليس عليكم إلا أن تأتوا – وأنتم الجمع الجمّ – بسورة مماثلة لسورة من سوره ، واستعينوا بمن شئتم من أهل هذه اللسان العربية ، على كثرتهم وتباين مساكنهم ، أو من غيرهم من بني آدم ، أو من الجن ، أو من الأصنام . فإن فعلتم هذا بعد اللتيا والتي فأنتم صادقون فيما نسبتموه إليّ وألصقتموه بي . فلم يأتوا عند سماع هذا الكلام المنصف والتنزل البالغ بكلمة ، ولا نطقوا ببنت شفة ، بل كاعوا عن الجواب وتشبثوا بأذيال العناد البارد والمكابرة المجردة عن الحجة "[٤] . فدل هذا على أن القرآن كلام خارق للعادة لأنه ليس من كلام البشر ، بل هو من كلام خالق القوى والقدر[٥] . فأبطل تعالى بذلك دعوى افترائه .

ولما عجز أهل مكة عن المعارضة بسورة واحدة ، أطلق القرآن بعد الهجرة إلى المدينة ودخول الدعوة مرحلة جديدة تنطلق فيها في كافة أرجاء الجزيرة العربية حاملة القرآن المعجز بيد والسيف بيد ، تحديه العام للعرب كلهم ، أميهم وكتابيهم ، فقال تعالى في البقرة : ﴿ وإن

---

(١) ينظر : د. فضل عباس وسناء عباس ، **إعجاز القرآن الكريم** ، ص ٣١ .
(٢) ينظر : ابن جزي ، **التسهيل** ، ج١ ، ص ٣٩٢ ، ود. فضل عباس وسناء عباس ، **إعجاز القرآن الكريم** ، ص ٣٢ .
(٣) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٧ ، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .
(٤) الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٦٥ .
(٥) ينظر ، الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ١١ ، ص ١٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ، فتحداهم بأن يأتي كل من داخل نفوسهم ارتياب في شأن القرآن فظنوه مختلقا من عند محمد ﷺ وليس من عند الله ، بسورة واحدة من مثل القرآن من عند أنفسهم ، سواء كانوا مجتمعين أو متفرقين ، وليدعوا أعوانهم وأنصارهم ومن يشهد لهم من أكابر فصحائهم بأنهم قد أتوا بتلك السورة المماثلة ؛ وذلك تيسيرا عليهم في المعارضة ؛ لأن شدة تسجيل العجز إنما تكون بمقدار تيسير أسباب العمل[١] . ولما كانت آيات التحدي قد قرعت أسماع العرب ، وتواترت بها الأخبار بينهم ، وسارت بها الركبان ، بحيث لا يسع أحد منهم ادعاء جهلها ، ولما كانت دواعي المعارضة موجودة فيهم ، بما عندهم من أساطين البلاغة والفصاحة من الشعراء والخطباء ، وبما عندهم من مجامع التقاول ونوادي التشاور والتعاون ، ومع شدة حاجتهم لتلك المعارضة لدفع مسبة الغلبة عن قبائلهم ودينهم ، والانتصار لآلهتهم ، وإيقاف تيار دخول رجالهم في دين الإسلام ، مع ما عرف به العربيّ من إباءة الغلبة وكراهة الاستكانة[٢] ، فلمّا كان كل ذلك ثم تركوا المعارضة ، دل هذا على عجزهم ؛ ولذا قال تعالى بعد الآية السابقة : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ، فأوضح عجزهم على وجه التأبيد عن المعارضة ولو بسورة من مثل القرآن ، مخبرا عن ذلك خبرا جازما قاطعا غير خائف ولا مشفق ، فوقع الأمر كما أخبر[٣] . بل أذعنت للدعوة قبائل العرب ، ودخلوا في الإسلام ، تاركين دينهم ودين آبائهم ، مع ما هم عليه من قوة القول وقوة السنان . فثبت بذلك أن القرآن خارج عن قدرة البشر أن يعارضوه . فثبت أنّه ليس كلاما مختلقا من عند محمد ﷺ ، بل هو كلام الخالق الذي ليس كمثله شيء ، وأنّى لكلام المخلوقين أن يشبه كلام الخالق ؟![٤] .

قال الرازي : إنه عليه الصلاة والسلام وإن كان متهما عندهم فيما يتصل بالنبوة ، فقد كان معلوم الحال في وفور العقل والفضل والمعرفة بالعواقب ، فلو تطرقت التهمة إلى ما ادعاه من النبوة لما استجاز أن يتحداهم ويبلغ في التحدي إلى نهايته ، بل كان يكون رجلا خائفا مما يتوقعه من فضيحة يعود وبالها على جميع أموره – حاشاه من ذلك ﷺ – . فلولا معرفته بالاضطرار من حالهم أنهم عاجزون عن المعارضة ، لما جوّز من نفسه أن يحملهم على المعارضة بأبلغ الطرق . ثم إنه عليه الصلاة والسلام لو لم يكن قاطعا بصحة نبوته لما

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١، ص٣٤٠ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٤٣ .
(٣) ينظر : ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج١ ، ص ٩٢ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ج١ ، ص٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قطع في الخبر بأنهم لا يأتون بمثله ؛ لأنه إذا لم يكن قاطعا بصحة نبوته كان يجوز خلافــه ، وبتقدير وقوع خلافه يظهر كذبه . فالمبطل المزوّر لا يقطع في الكــلام ولا يجزم بــه ألبته ، فلما جزم دلّ على أنه ﷺ كان قاطعا في أمره ، فليس بمزور ولا مختلق[١] .

ثانيا : بيان أن الله لا يقرّ من يفتري عليه كلاما ، بل يعاقبه ويفضحه . جاء هذا في أربعــة مقاطع ، هي : هود الثاني ، والأحقاف ، والشورى الأول ، والحاقة . ففي هود قــال تعــالى مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ﴾ ، قال ابن كثير : " أي ليس ذلك مفــتعلا ولا مفترى ؛ لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه "[٢] . وفي الأحقاف قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا ﴾ ، قال البقاعي : " لأن الملك لا يترك من كذب عليه مطلق كذب ، فكيف بمن يتعمّد الكذب عليه فــي الرســالة بــأمور عظيمــة ، ويلازمه مساء وصباحا ، غدوا ورواحا ؟! . فأي حامل لي حينئذ على افترائه ، والمقصود به لا ينفعني ، والمكذوب عليه لا يتركني "[٣] . وأما في الشورى فقال تعالى له ﷺ :﴿ فإن يــشأ الله يختم على قلبك ﴾ ، قال ابن عطية : " كأنه يقول : وكيف يصح أن تكون مفتريــا وأنــت بمرأى من الله تعالى ومسمع ، وهو قادر لو شاء أن يختم على قلبك ، فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك "[٤] . " وحيث لم يكن الأمر كذلك ، بل تواتر الوحي حينا فحينا ، تبين أنه من عند الله عز وجل "[٥] . ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾ ، أي فلو كان ﷺ مفتريا – كما يزعم كفار مكة – لكشف الله افتراءه ومحقه ، وقذف بــالحق علــى باطله فدمغه ، لكن ما أتى به محمد ﷺ يزداد كل يوم قوة بتزايد أتباعه يوما بعد يوم ، وتمكنه في نفوسهم فلا يرتد أحد منهم عنه[٦] . فدل ذلك على أنّ محمد ﷺ ليس مفتريا على الله ، بــل هو مبلغ لوحي الله وكلامه . وأما في الحاقة فقال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويــل ۞ لأخذنا منه باليمين ۞ ثم لقطعنا منه الوتين ۞ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ . قــال البقاعي : " لكنّا لم نأخذه هذا الأخذ ، فثبت أنه ما تقوّل علينا شيئا ، فثبت أنّ ما قال كلامُنا ، ثبوتا تامّا بالبرهان على وجه لا يُرام نقضُه "[٧] .

---

(١) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢ ، ص ٣٥١ – ٣٥٢ (بتصرف يسير وزيادة يسيرة) .
(٢) ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٢ ، ص ٥٨٤ .
(٣) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ١٢٠ .
(٤) ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٦٦٧ .
(٥) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٥ ، ص ٤٩ .
(٦) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٩٧٨ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٥ ، ص ٤٨ .
(٧) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٨ ، ص ١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : إظهار براءته ﷺ من الافتراء على الله ببيان عظم جُرمه ، وأنهم الأولى به . جاء هذا في مقطعي هود الثاني ويونس الثاني . فقال تعالى في هود آمرا نبيه ﷺ أن يقول لقومه: ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ، وأنا بريء مما تجرمون ﴾ ، فبيّن لهم أن الافتراء على الله إجرام ، وأنه يعرف هذه الحقيقة فمستبعد عليه أن يفعله(١) . لكن الذي وقع في الإجرام على الحقيقة هو أنتم في نسبة ما أنا بريء منه إليّ ، مع كونكم تعرفون صدقي وأني لم أكن لأذر الكذب على الناس ثم أكذب على الله . كما أمره تعالى أن يقول لهم في يونس : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، إنه لا يفلح المجرمون ﴾ ، فكأنه يقول لهم : لو كنت متقولا هذا القرآن على الله ، لما كان أحد في الدنيا أظلم لنفسه مني حيث افتريته عليه سبحانه ، مع ما يتسبب عن ذلك من سوء العاقبة وفوات الفلاح ، فلا أجرؤ أن أقدِم عليه . فأقام بذلك البرهان القاهر الظاهر على أنّ زعمهم باطل . ولما قام الدليل القاطع على أن هذا القرآن هو من عند الله وقد كذبوا بآياته ، فلا أحد إذن أظلم منهم ، فتعين فيهم الظلم وحدهم دونه ﷺ(٢) . ويلحق بالمقطعين السابقين ما جاء في مقطع سبأ الأول في قوله تعالى ردا عليهم : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب ﴾ ، فلأن الذي يكذب على الله يتعرّض لعذابه ، قابل تعالى وصفهم له ﷺ بافتراء الكذب على الله بوصفهم أنهم في العذاب(٣) ، عانياً أنهم هم المجرمون المستحقون للعذاب بإنكارهم الآخرة وقدرته تعالى على بعث الموتى ، وحكمته في خلق العالم ، وتكذيبهم بوعده ووعيده ، لا محمد ﷺ الذي جاء بالصدق(٤) .

رابعا : بيان أن حاله ﷺ ليست بحال مختلق مفتر على الله . ورد هذا في مقطعي ص الأول والأحقاف . فقال تعالى في ص : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ ، أي أنه ﷺ لا يسألهم على تبليغهم هذا القرآن أي أجر مقابل ذلك حتى يظنوا أنه يختلق هذا الكلام تكسبا به لنفع نفسه ، قال ابن عاشور : " أي لو سألهم عليه أجرا لراج اتهامهم إياه بالكذب لنفع نفسه ، فلما انتفى ذلك وجب أن ينتفي توهم اتهامه بالكذب ؛ لأن وازع العقل يصرف صاحبه عن أن يكذب لغير نفع يرجوه لنفسه "(٥) . كما أنهم عرفوه ﷺ بأنه ليس من الذين يشتغلون بتزوير الكلام والتصنع فيه وترتيبه بنظم أو نثر ، أو سجع أو خطب أو غير ذلك ،

---

(١) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٢ ، ص ١٨٧٦.

(٢) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٧ ، ص ٢٢٦ ، وأبو حيان ، **البحر المحيط** ،ج٦ ، ص ٢٦ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٣ ، ص٣٥٥، والسعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٣١٧ .

(٣) ينظر : ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٢ ، ص ١٥١ .

(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ج ٢٢ ، ص ١٥١ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٢٢ ، ص ٣٩٠ .

(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص ٣٠٨ . وأقول : إنه لا أحد يتعمد الكذب إلا ابتغاء نفع مادي أو معنوي ، والآية ذكرت انتفاء النفع المادي ، أما المعنوي كحب الظهور وصرف الأنظار ونحو ذلك ، فهو منتف من الأساس بما لاقاه ﷺ من عداء وإيذاء من قبل قومه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا من الذين يتحلّون بما ليسوا من أهله من الأفعال والأقوال[٦] ، فما وجه اشتباههم فيه أنـه جاءهم بهذا الكتاب كذبا وافتراء واختلاقا من قبل نفسه ، وحاله ناصع بعيد كل البعد عن تلك الأخلاق الشنيعة ؟! . وأما في الأحقاف فقال تعالى فيما أمر نبيه ﷺ أن يقول لقومه : ﴿ ومـا أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ ، أي إن حالي ليس بحال مفتر متقوّل على الله كذبا ، فلا علم لي بما سيفعله الله بي وبكم في مستقبل الزمان ، وما سيفصل به بيني وبينكم في دار الدنيا من حكم وقضاء . فلو كنت مفتريا على الله – كما تزعمون – لافتريت عليه فعله فيّ وفيكم ؛ كي تسارعوا في اتباعي دون رفـض أو تـردد ، ولقلت لكم مثلا : إن لم تصدقوا بي وتتبعوني خلال مدة كذا فسيبعث الله عليكم عذاب كذا ، أو سيبعث الله جيشا من الملائكة تنصبني زعيما عليكم عنوة أو ما شابه ذلك ، ولكني لم أزعـم من ذلك شيئا ، بل إنّي على العكس من ذلك ، فما أبلغكم إلا ما يوحيه الله إليّ ، لا اختلق من عندي شيئا . وقد أوحى إليّ أن أنذركم عذابه دون تحديد زمانه أو مكانه أو شكله ، فبلغـتكم الإنذار كما هو دون زيادة أو نقص . إضافة إلى كوني مؤيدا من قبل الله بالآيات البـاهرات الدالة على صدقي . فحالي منافية لحال المفترين منافاة تامة .

خامسا : بيان أن القرآن بوصفه وحاله لا يصح أن يكون مختلقا . جاء هذا في ثلاثة مقاطع ، هي : يونس الأول ويوسف الأول وص الأول . ففي يونس بيّن تعالى ذلك بقوله : ﴿ ومـا كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين ﴾ . وفي يوسف بيّنه بقوله : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمـة لقوم يؤمنون ﴾ . أي لا يصح ولا يستقيم أن يكون هذا القرآن المعجز بسورة منـه مفتـرى مختلقا من قبل بشر ، مع كونه جامعا للأوصاف التي يستحيل مع وجودهـا فيـه أن يكـون كذلك[١] . فقد جاء موافقا للكتب الإلهية السابقة له في العقائد والقصص والعديد من الشرائع . هذه الكتب التي ثبتت حقيّتها وربانية مصدرها ، واشتهر بين الناس أمرها ، عربهم وعجمهم ، أميّهم وكتابيّهم ، فوافقها القرآن من غير أن يتعلم الآتي به ﷺ من أحد ، ولا خالط العلمـاء ، مع كونه أميّا لا يقرأ[٢] . قال ابن عطية : " وقيام البرهان على قريش حينئذ إنما كان فـي أن يصدق القرآن ما في التوراة والإنجيل ، مع أن الآتي بالقرآن ممن يقطعون أنه لم يطالع تلـك

---

(٦) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٤١٠ .
(١) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٦ ، ص ٥٧ .
(٢) ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ،ج ٨ ، ص ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكتب ، ولا هي في بلده ولا في قومه "[٣] ؛ ولذا قال تعالى في مقطع يوسف : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ ، فإضافة إلى ما مر في التمهيد من معنى ذلك ، فـإن فـي قصص الرسل التي أخبر بها القرآن عبرة ؛ لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قُص حديثهم . ومع كونه ﷺ لم يقرأ الكتب ولا تتلمذ لأحد ولا خالط العلماء ، فمن المحال ظن الافتراء في هـذه الحالـة ، وإنمـا هـو الـوحي الإلهي[١] . ويدل على أن القوم كانوا عالمين بهذا التصديق الذي حجهم القرآن به مـع أنّهـم كانوا في معظمهم أميين ، وما كانت مكة بلد العلماء ، ولا كان فيها شيء من الكتب الإلهيـة ولا غير الإلهية[٢] ، أنّ القوم كانوا في غاية العداوة له ﷺ ، وكان أهل الكتابين عنـدهم فـي جزيرة العرب على غاية القرب منهم ، كما أنهم كانوا يتجرون إلى بلاد الشام ، وهم متمكنون من سؤال أهل الكتاب هناك عن كل ما أتاهم به ﷺ ، فلو وجدوا مغمزا ما لقدحوا به فيه ، فدلّ عدم قدحهم على تحققهم من تلك المصادقة[٣] .

كما أن من أوصاف القرآن المنافية لفرية الاختلاق ما اشتمل عليه من التفصيل الـذي هو نهاية العلم ، فلقد أتى من العلوم الدينيّة بما لا مزيد عليه ولا يدانيه فيه كتاب . فهذه العلوم – كما قال الرازي – إمّا " أن تكون علم العقائد والأديان ، وإمّا أن تكون علم الأعمال . أمّـا علم العقائد والأديان فهو عبارة عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخـر . أمّا معرفة الله تعالى فهي عبارة عن معرفة ذاته ، ومعرفة صفات جلاله ، ومعرفـة صـفات إكرامه ، ومعرفة أفعاله ، ومعرفة أحكامه ، ومعرفة أسمائه . والقرآن مشتمل على دلائل هذه المسائل وتفاريعها وتفاصيلها على وجه لا يساويه شيء من الكتب ، بل لا يقرب منه شـيء من المصنّفات . وأما علم الأعمال فهو إمّا أن يكون عبارة عن علم التكاليف المتعلقة بالظواهر وهو علم الفقه ، ومعلوم أن جميع الفقهاء إنما استنبطوا مباحثهم من القرآن . وإمّا أن يكـون علما بتصفية الباطن أو رياضة القلوب ، وقد حصل في القرآن من مباحث هذا العلم ما لا يكاد يوجد في غيره ، كقوله : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾(الأعراف :١٩٩) ، وقوله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحـشاء والمنكـر والبغي ﴾(النحل :٩٠) . فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلـوم الـشريفة عقليّهـا ونقليّها ، اشتمالا يمتنع حصوله في سائر الكتب "[٤] . كما أنّه مع طوله واشتماله على العلـوم

---

(٣) ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٩٠٩ .
(١) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٦ ، ص ٣٣٧ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٨٧٤ .
(٢) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج ١٧ ، ص ٢٥٢.
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٤٣ .
(٤) المصدر نفسه ، ج١٧ ، ص ٢٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكثيرة لا يوجد فيه أي نوع من أنواع التناقض . وهذا لا يكون في مختلقات البشر ، كما قال تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا ﴾(النساء :٨٢)[٥] . فكان بذلك كله منافيا لأن يكون مختلقا مفترى من عند محمد ﷺ ، بل هو تنزيل من العليم الخبير سبحانه . ولذا قال تعالى بعد توصيفه للقرآن في مقطع يونس : ﴿ لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ ، قال ابن عاشور تعليقا على هذه الجملة : " مستأنفة ، ردت مزاعم الذين زعموا أنه مفترى باقتلاع دعوى افترائه ، وأنها مما لا يروج على أهل الفطن والعقول العادلة . فالريب المنفي عنه هو أن يكون من أحواله في ذاته ومقارناته ما يثير الريب "[١] . وكذلك فقد جاء في مقطع يوسف من أوصاف القرآن المناقضة لفرية اختلاقه وصفا الهدى والرحمة ، اللذان لا يتحصّل عليهما إلا المؤمنون . ومن المعلوم أن الأكاذيب والمختلقات لا تحقق هداية مطلقا[٢] ، بل هي طريق الضلالة ؛ لمخالفتها الحقيقة والواقع . والضلالة شقاء وعذاب ، فصاحبها بعيد عن الرحمة . والهداية راحة وطمأنينة ورشاد ، فصاحبها متقلّب في الرحمة . وإذا نظرنا إلى القرآن وجدناه يأمر بكل خير ، وينهى عن كل شر ، يظهر الحق وينصره ، ويعرّي الباطل ويدحضه . ومن كان هذا حاله تحقق له وصف الهداية ، فانتفى بذلك عنه وصف الكذب .

وأما ما جاء في مقطع ص من وصف القرآن المنافي لكونه مختلقا فبيّنه تعالى بقوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، أي ما هذا القرآن إلا ذكر للإنس والجن جميعا ، يتذكرون به ربهم ، وكل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم ، فلا يصلح إلا أن يكون واردا من ربهم وخالقهم المستحق لعبادتهم دون سواه .

سادسا : بيان اضطراب المشركين في وصف القرآن والمبلغ له ﷺ . ورد هذا في مقطع الأنبياء في قوله تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ ، فأظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم[٣] . قال ابن عاشور : " وذلك مؤذن باضطرابهم . وهذا الاضطراب ناشئ عن ترددهم ممّا ينتحلونه من الاعتلال عن القرآن . وذلك شأن المبطل المباهت أن يتردد في حجّته ، كما قيل : الباطل لجلج ، أي ملتبس مترَدَّد فيه "[٤] .

---

(٥) المصدر نفسه ، ج١٧ ، ص ٢٥٣.

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص ١٦٩.
(٢) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٣ ، ص ٢٠٣٧ .
(٣) ينظر : ابن جزي ، **التسهيل** ، ج٢ ، ص ٣٢ .
(٤) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٧ ، ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سابعا : بيان مناقضة المشركين للواقع والحال حين قالوا فريتهم . ورد هذا في مقطعي الفرقان والنحل . ففي الفرقان أشار تعالى إلى هذه المناقضة بقوله : ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ ، قال السعدي : " هم أشد الناس معرفة بحال الرسول ﷺ وكمال صدقه ، وأمانته وبره التام ، وأنه لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن [أي من عند أنفسهم] الذي هو أجل الكلام وأعلاه ، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك . فقد جاءوا بهذا الكلام ظلما وزورا "[١] . ظلما بجعلهم الكلام الذي أعجز بفصاحته وبلاغته جميع فصحاء العرب وبلغائهم إفكا مختلقا ، وزورا بما بهتوه ﷺ بنسبة ما هو بريء منه من الكذب والافتراء إليه[٢] . وفي النحل أشار تعالى إلى تلك المناقضة بقوله : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ ، فهم رموا النبي ﷺ بالكذب والافتراء وهو المعروف فيهم بأنه أصدقهم وأعظمهم أمانة حتى كان يُدعى بالصادق الأمين ، وبأنه أبرهم وأكملهم علما وعملا ، وإيمانا ويقينا[٣] ، كما وصفته السيدة خديجة رضي الله عنها في حديث بدء الوحي بقولها : " إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق "[٤] . فوقعوا بذلك في مناقضة الواقع والحال ، فالحق أنهم هم الأولى بوصفي الكذب والافتراء بعد أن رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله[٥] تأييدا لنبيه ﷺ ، ثم كذبوا بها واصفين لها كذبا وزورا بأنها مختلقة ملفقة مع كونها ظاهرة الإعجاز ، فهؤلاء هم الكاذبون على الحقيقة ، لا محمد ﷺ الذي هو على بينة من ربه وبينة من أمره . لكنّهم فعلوا كما قيل في المثل السائر : رمتني بدائها وانسلّت .

ثامنا : الرد المركّب . سميته بذا لأنه يتركب من مجموعة أدلة ، إذا تركّبت مع بعضها وتجمعت شكّلت ردا قالعا لجذور فرية اختلاق القرآن ومبطلا لها ، سادّا جميع الثغرات أمامها . وهذه الأدلة هي : **أولا** : جهل النبي ﷺ قبل البعثة بمضامين القرآن . **ثانيا** : موافقة القرآن لما جاء في كتب أهل الكتاب . **ثالثها** : شهادة أهل العلم والإنصاف من أهل الكتاب بحقيّة القرآن . هذه الأدلة وإن كان كل واحد منها يدل دلالة عظيمة واضحة على حقيّة القرآن وصدقه ؛ ولذا فرّقت فيه ، إلا أنه في مقابلة فرية اختلاق القرآن لابد من تجمّعها مع بعضها حتى تقلع هذه الفرية وتبطلها ، بحيث لا يكون هناك ثغرة قد ينفد منها أي اعتراض أو شبهة .

---

(١) السعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٥٢٦.
(٢) ينظر : البيضاوي ، **أنوار التنزيل** ، ج٤ ، ص ١١٨ ، وأبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ٨٢ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٥ ، ص ٣٣٤ .
(٣) ينظر : ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٢ ، ص ٧٧٥.
(٤) البخاري ، **فتح الباري** ، ج١ ، ص ٣٠ ، (رقم : ٣) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٢، ص ٢٥٤- ٢٥٥ (رقم :١٦٠) ، وزاد فيه : (وتصدُق الحديث) .
(٥) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٩٧٥ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٦٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإن إثبات جهل النبي ﷺ قبل مبعثه بمضامين القرآن وحده مثلا ، قد يقول قائل من المفترين ردا عليه : إن هذا هو أعظم دليل على أن محمدا اختلق تلك المعاني ولفقها من عند نفسه ؛ إذ ليس لها أصل عنده ولا عند قومه . لكن لما يُضمّ إليه دليل الموافقة لما جاء في كتب أهل الكتاب ، مع علم القوم بأمية النبي ﷺ وعدم مخالطته لأي عالم قط ، فحتما سيضعف ذلك الاعتراض وتلك الشبهة . لكن قد ينفذ اعتراض آخر ، وهو أن يقول قائلهم : إنا أناس في معظمنا أميّون ، وليس عندنا من كتب أهل الكتاب تلك شيء حتى نتوثق من صدق ما تقول – يا محمد – من موافقة ما جئت به لها . فيأتي الرد الثالث وهو شهادة أهل العلم من أهل الكتاب ، الذين كانوا يعرفونهم ويخالطونهم ويرجعون إليهم في أمور الديانة السماوية ، فيقال لهم : إن لم تكن عندكم تلك الكتب ، فأهل العلم بها يشهدون بحقيّة هذا القرآن . ولولا أنه جاء مصدقا موافقا لما فيها من أمور العقائد والقصص والعديد من الشرائع ، لما شهدوا له بالصدق والحقيّة . فيثبت بذلك أن هذا القرآن بعيد عن أن يكون مختلقا ، وإنما هو وحي من عند الله تعالى ، كسائر الكتب الإلهية الأخرى .

وأبدأ بالدليل الأول وهو غفلة النبي ﷺ قبل البعثة عن مضامين القرآن ، التي منها أخباره وقصصه ، فبيّن تعالى ذلك في عدة مقاطع . ففي مقطع هود الثالث قال تعالى بعد إيراده قصة نوح عليه السلام مع قومه : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ ، فأوضح أن تلك القصة بتفصيلاتها لم تكن معروفة لا لديه ﷺ ولا لدى أهل مكة الذين كان يعيش بينهم ولم يفارقهم إلا نادرا . فما كانوا يعلمون منها أكثر من مجملاتها ، وهي أنه قد كان في الزمن الغابر نبيّ يقال له : نوح ، أصاب قومه طوفان . وما عدا ذلك كان غائبا عنهم(١) . وفي مقطع يوسف الثاني قال تعالى عن قصص القرآن على رأسه قصة يوسف عليه السلام : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ ، فبيّن تعالى أن نبيه ﷺ كان قبل الإيحاء إليه بهذا القرآن غافلا عن هذا القصص الذي بلغ الذروة في الحسن ، فليس شيء من القصص أحسن منه أو مساو له . قال ابن عاشور : " فإن القصص الوارد في القرآن كان أحسن لأنه وارد من العليم الحكيم . فهو يوحي ما يعلم أنه أحسن نفعا للسامعين ، في أبدع الألفاظ والتراكيب ، فيحصل منه غذاء العقل والروح ، وابتهاج النفس والذوق ، مما لا تأتي بمثله عقول البشر "(٢). كما قال تعالى في مقطع يوسف الثالث تعقيبا على قصة يوسف وإخوته : ﴿ ذلك من أنباء

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٢ ، ص ٩٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص ٢٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ . ويشبهه ما جاء تعقيبا على قصة موسى عليه السلام في مقطع القصص الأول في قوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ ، ثم قوله تعالى : ﴿ وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾ ، ثم قوله تعالى: ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾. وكذا قوله في مقطع آل عمران تعقيبا على ما جاء في السورة من قصة مريم ، وما كان من أمها امرأة عمران حين نذرتها وهي في بطنها لعبادة الله تعالى وخدمة بيته ، ثم بعد ولادتها كفّلها تعالى نبيه زكريا عليه السلام يربيها في بيته على ما نُذِرت له ، ثم ما كان من كرامة الله لها من رزقها دون أسباب وهي تتعبد في المحراب ، وما كان من دعاء زكريا عليه السلام عندما رأى ذلك طالبا الولد والذرية الطيبة من ربه عز وجل مع كبر سنه وعقم زوجته ، ثم بشارة الملائكة له بيحيى عليه السلام ، وإعطائه الآية الدالة على استجابة الله له ، فقال تعالى عقب ذلك : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ . فأخبر تعالى في المقاطع الثلاثة أن نبيه ﷺ ما كان حاضرا ولا شاهدا تلك الأخبار عن نوح ويوسف وموسى وزكريا ومريم – عليهم السلام – وقت حدوثها ، مع أن حضوره ذلك ضرب من المستحيل ؛ للدلالة على أن أمر علمه ﷺ به مقطوع بانتفاء أسبابه عنه ﷺ لدى جميع قومه ، فقد كان من معلومهم أنه أميّ لا يقرأ ، وأنه لم يخالط العلماء ، وأنه ظل طيلة حياته قبل مبعثه في مكة بين قومه ، لم يخرج منها إلا نادرا . فلم يبق لديهم – على جهة التهكم بهم – لإتيانه بتلك الأخبار الحقة إلا احتمال واحد ، هو أنه كان حاضرا شاهدا لها وقت حدوثها قبل مئات أو آلاف السنين ، ثم جاءهم بها يتلوها على مسامعهم ! ، وهو أمر أكثر إحالة من سابقه[1] . فثبت أنه ﷺ ما كان يعلمها حتى أعلمه الله بها . كما بين تعالى انتفاء علمه ﷺ بما كان من أمر اختصام الملأ الأعلى – أي آدم والملائكة وإبليس – في قصة السجود ، قبل أن يعلمه الله بها ، فقال له في مقطع ص الثاني فيما أمره أن يقول لقومه : ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ .

وإضافة إلى جانب القصص والأخبار ، فهناك ما تضمّنه القرآن من جانب العقائد وتفصيلاتها ، التي كانت غائبة عنه ﷺ قبل الوحي إليه به ، فلا دراية له بها قبل ذلك . هذا فضلا عن القرآن نفسه بألفاظه ومعانيه الذي لم يكن ﷺ يعرف عنه شيئا قبل إنزاله عليه . فبيّن تعالى ذلك بقوله في مقطع الشورى الثاني مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب

(١) ينظر : أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج١ ، ص٣٦٨ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج١ ، ص ٤٤٧ – ٤٤٨ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٣ ، ص٢١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا الإيمان ﴾ ، قال ابن عاشور : " وهذا تحدٍّ للمعاندين ليتأملوا في حال الرسول ﷺ ، فيعلموا أن ما أوتيه من الشريعة والآداب الخلقية هو من مواهب الله تعالى التي لم تسبق له مزاولتها "[٢] .

وأشار تعالى إلى كل ما سبق بقوله في مقطع يونس الثاني فيما أمر نبيه ﷺ أن يقول لقومه : ﴿ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون ﴾ ، فبيّن لهم أنه ﷺ مكث بينهم وفيهم مدة أربعين سنة ، يطلعون فيها على أحواله ، ولا يخفى عليهم شيء من أسراره ، فلم يتكلم فيها بشيء من هذا القرآن ، لا من حيث قصصه ولا عقائده ولا جميع معانيه ، ولا حتى ألفاظه ونظمه المعجز ، ولا عرفه أحد بذلك ، حتى أقرب الناس إليه وألصقهم به . ما يدل على عدم درايته بذلك حتى أوحى الله إليه به . فلو كان عالما به قبل هذا فما الذي أقعده عن بثه والتكلم به تلك المدة الطويلة ؟![١] . فدل هذا قطعا على أنه ﷺ كان خالي الذهن من ذلك كله قبل أن يأتي قومه بهذا الكتاب .

ثم إنه ﷺ ومع خلو ذهنه ذلك ، ومع القطع بانتفاء أسباب التعلم من الغير عنه – كما مر – ، قد جاء قومه بكتاب فيه الكثير من المعاني والمضامين ، من قصص وعقائد وشرائع وآداب ... ، لم يكن عنده أي فكرة عنها مسبقا . ليس هذا فحسب ، بل إن تلك المضامين جاءت مطابقة لما جاء في كتب أهل الكتاب ، المشتهر أمرها بين الناس كالتوراة والإنجيل ، وأنها كتب أنزلها الله على رسله ، وأنّ أهلها هم أهل الخبرة بديانة السماء والرسالات الإلهية . بيّن القرآن هذا في عدة مقاطع ، فقال تعالى في مقطع يونس الأول : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ . وقال عن القرآن في مقطع يوسف الأول :﴿ ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بيت يديه ﴾ . وقال في فاطر : ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه ﴾ . وقال في الشعراء : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ . قال ابن عطية : " وقيام البرهان على قريش حينئذ إنما كان في أن يصدق القرآن ما في التوراة والإنجيل ، مع أن الآتي بالقرآن ممن يقطعون أنه لم يطالع تلك الكتب ولا هي في بلده ولا في قومه "[٢] . وقال الشوكاني : " ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة ؛ لأن

---

(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٥ ، ص ١٥٢ .

(١) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٤٥٩ ، وابن جزي ، **التسهيل** ، ج١ ، ص ٣٧٧ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ١١٦ ، وسيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج ١١ ، ص ١٧٧١ .
(٢) ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٩٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة ، مع أن النبي ﷺ لم يطّلع على ذلك ، ولا تعلّمه ولا سأل عنه ، ولا اتصل بمن له علم بذلك "[٣].

ولم يكتف القرآن بإيراد هذا الدليل الذي قد يكون مجهولا عند القوم ؛ نظرا لطغيان الأميّة عليهم ، وانعدام وجود تلك الكتب لديهم ، فضلا عن وجود نسخة معرّبة منها عندهم يمكنهم الرجوع إليها ، بل إنه أقام البرهان عليه بالاستدلال بشهادة أهل العلم والإنصاف من أهل الكتاب بحقيّة القرآن ، وأنّه منزل من عند الله تعالى مثله مثل كتبهم ؛ لأنه لو جاء مخالفا لتلك الكتب لما شهدوا له بالصحة . وقد بيّن القرآن هذه الشهادة في عدة مقاطع ، فقال تعالى في الأحقاف : ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ ، وقال في الشعراء : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ ، أي " الذين قد انتهى إليهم العلم ، وصاروا أعلم الناس ، وهم أهل الصنف . فإن كل شيء يحصل به اشتباه يُرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية ، فيكون قولهم حجة على غيرهم ، كما عرف السحرة الذين مهروا علم السحر صدق معجزة موسى وأنه ليس بسحر "[١] . قال أبو حيان : " كانت قريش ترجع في كثير من الأمور النقليّة إلى بني إسرائيل ويسألونهم عنها ، ويقولون : هم أصحاب الكتب الإلهية . وقد تهود كثير من العرب ، وتنصر كثير ؛ لاعتقادهم في صحة دينهم "[٢] . وقال تعالى في الرعد : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ﴾ ، قال ابن كثير : " أي من القرآن ؛ لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به "[٣] . وقال في مقطع الإسراء الثاني : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ۞ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ۞ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ . فهؤلاء لما قرؤوا الكتب الإلهية السابقة ثم سمعوا القرآن ، وجدوه مطابقا لها ، وأنه الكتاب الذي بشرت به ، فانعكس هذا على قلوبهم وهيآتهم ، فلم يتمالكوا أنفسهم حتى خروا سجدا لله تعالى شكرا على نعمته وتصديقا بكتابه ، مع تداخل خشوع القلوب ودموع العيون . وقال في مقطع القصص الثاني : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ۞ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ . وقد مرّ أن هذا المقطع نزل في وفد نصارى الحبشة الذين حضروا مكة وأعلنوا إسلامهم وإيمانهم بحقيّة القرآن . قال سيد قطب : " فالقرآن يردّ المشركين إلى حادث وقع ، يعلمونه ولا ينكرونه ؛ كي يقفهم وجها لوجه أمام نموذج من

(٣) الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٦٤ .

(١) السعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٥٤٧ .
(٢) أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ١٨٩ .
(٣) ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٢ ، ص ٦٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن وتطمئن إليه وترى فيه الحق ، وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب " ثم قال : " وهذه إحدى الآيات على صحته ، فالكتاب كله من عند الله ، فهو متطابق "(٤) . كما قال تعالى في العنكبوت :﴿ فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنـون بـه ﴾ ، قال السعدي : " لأنهم تيقنوا صدقه ، بما لديهم من الموافقات ، وبما عندهم من البشارات ، وبما تميّزوا به من معرفة الحسَن والقبيح ، والصدق والكذب "(٥) . وكذا " لأنهم أدرى بأساليب الكتب المنزلة على الرسل والأنبياء "(١) . فلما تحققت شهادة هؤلاء بحقية القرآن ، وثبت بها مطابقته للكتب الإلهية قبله ، مع تحقق غفلة النبي ﷺ عن مضامينه قبل مبعثه ، وانتفاء أسباب التعلم عنه ، ولمّا كان من المعلوم أن الأكاذيب لا توافق بعضها ، فكيف توافق المقطوع بصدقه ؟! ، دل توافق القرآن مع كتب أهل الكتاب على وحدة مصدرهما ، وأن كليهما وارد من جهة الله تعالى ، فبطل بهذا زعم افترائه من قبل محمد ﷺ .

تاسعا : بيان انعدام الشبهة الحقيقية وراء فريتهم . وجاء هذا في مقطع سبأ الثاني ، فقال تعالى: ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ ، أي فليس لفريتهم التي قالوها وجه ولا شبهة معقولة ، حيث لم ينزل الله عليهم قبل القرآن كتبا ، حتى إذا قارنوا بينه وبينها وجدوه مخالفا لها ، فحكموا عليه بأنه كذب مفترى . ولا أرسل إليهم سبحانه قبل محمد ﷺ أيّ رسول ، حتى إذا قارنوا بين دعوته ودعوة محمد ﷺ وجدوهما متناقضتين ، فحكموا على محمد ﷺ بالكذب والافتراء . كما أنّهم لم يكونوا على هدى ولا دين منسوب إلى الله تعالى حتى يكون تمسكهم به وخشية الوقوع في الضلالة إن فرّطوا فيه يحملهم على التردّد في الحق الذي جاءهم ، وصدق الرسول الذي أتاهم به ، فيكون لهم في الصد عنهما ونعتهما بالكذب والافتراء بعض العذر وإن كان باطلا(٢) . ولذا قال أبو حيان : " فليس لتكذيبهم وجه مثبت ولا شبهة تعلّق "(٣) . فثبت بطلان ما قالوه ، وأنه ليس وراءه إلا العناد والمكابرة .

عاشرا : الرد على شبهتهم الممهدة للفرية . وهذا جاء في مقطع النحل ومقطعي سبأ . أما شبهتهم في النحل فكانت وقوع النسخ في القرآن ، قال تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزل ، قالوا إنما أنت مفتر﴾ . فردّ الله تعالى على هذه الشبهة بقوله : ﴿ قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ . كما أن في قوله

---

(٤) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٠ ، ص ٢٧٠٠ – ٢٧٠١ .
(٥) السعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٥٨٢.

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢١ ، ص ٨ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج ٢٢، ص ٢٢٨ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٢٤٢ .
(٣) أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٨ ، ص ٥٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعالى في نفس الآية الأولى : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ ردّا كذلك على شبهتهم . وقد جاء الرد على هذه الشبهة من أربع جهات : المُنزِّل ، والمنزَّل ، والمنزّل له ، وصاحب التنزيل . فأما المنزِّل وهو الملك جبريل عليه السلام ، فوصفه بأنه روح القدُس ، أي المطهّر المنزّه عن كل دواعي الهوى[٤] ، فما ينزله إذن من الوحي ، بما فيه الناسخ والمنسوخ ، لا يمكن أن يكون ناشئا عن هوى ، فلا يصحّ أن يُقدح فيه بقادح . وأما من حيث المنزّل وهو آيات القرآن عامة والناسخ والمنسوخ منها خاصة ، فوُصِفت بأنها الحقّ ، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيها بقدح صحيح ؛ لأنه إذا عُلِم أنها الحقّ ، عُلِم أن ما عارضها وناقضها باطل[١] . وأمّا من حيث المنزّل له ولأجله ، فلمّا كان وقوع النسخ في القرآن لحكم جليلة عظيمة ، بطُل اعتراضهم عليه ؛ ولذا بيّن تعالى تلك الحِكَم من ثلاثة وجوه هي : تثبيت المؤمنين ، والهداية ، والبشارة للمسلمين . أمّا تثبيت المؤمنين بالنسخ فيحصل بأن يتمرّنوا على حسن الانقياد لأحكام الشرع مع ما فيه من ترك المألوفات ، فيتخلّصوا بهذا من شوائب الهوى[٢] ، فيكونوا أكثر ثباتا في إيمانهم أمام جميع التقلبات والفتن . كما أنهم لمّا يسمعوا الناسخ ويتدبروا ما فيه من رعاية المصالح ، ترسخ عقائدهم وتطمئن قلوبهم إلى هذا الدين وهذه الشريعة . ثم إن النسخ سواءٌ أكان ببدل أخفّ من المنسوخ أم بمساوٍ له أم بأشدّ منه ، فعلّة التثبيت ظاهرة فيه . أمّا النسخ بالحكم الأخفّ ، فلا ريب أنه يرفع الحرج والمشقة والعنَت عن المؤمنين ، الذين التزموا الحكم الأشد تنفيذا للأمر الإلهي به ، فلمّا يأتي الحكم الأخفّ تنشرح الصدور ، وتطمئن القلوب ، ويزداد الإيمان ويزداد رسوخه ؛ لأن الشدة فيها الفتنة والاختبار والتمحيص ، أمّا الخفة والسهولة ففيهما الطمأنينة والثبات . وأما النسخ بالحكم المساوي للمنسوخ – ويضرب العلماء مثالا عليه الأمر بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام في مكة – فكذا فيه تثبيت للمؤمنين على إيمانهم ، بما يجعل لهم من الاستقلالية في الشخصية والطريق ، يدلّ عليها قوله تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾(البقرة :١٥٠) ؛ لأن اليهود – عليهم لعائن الله – كانوا يحتجّون على رسول الله ﷺ وأصحابه عندما كانوا يتوجّهون في صلاتهم إلى بيت المقدس ، فكانوا يقولون : ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم نحن . ويقولون أيضا : يخالفا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا[٣] . فكان في تحويل القبلة دفع لشبهات الخصوم عن المؤمنين . ومن شأن ذلك أن يثبتهم على إيمانهم ومنهاجهم . وأما النسخ بالحكم الأشد فكذلك ؛

---

(٤) ينظر: البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٤ ، ص ٣١٢ .

(١) ينظر : السعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٤٠١ .
(٢) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٤ ، ص ٣١٢ .
(٣) ينظر : الطبري ، **جامع البيان** ، ج٢ ، ص ٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالله عز وجل لم يكلفنا بشيء إلا لخير يكون لنا أو شر يدفعه عنا . فتحريم الخمر بعد إباحتها مثلا ، تتجلى فيه علة التثبيت إذا علمنا أن الخمر هي أم الخبائث ، وأنها قد تؤدي بشاربها إلى اقتراف شتّى المنكرات والكفريات ، وانتهاك شتى المحرمات وهو لايدري ، فقد يتزلزل إيمانه ويصيبه القنوط من رحمة الله ، وقد يرتدّ عن دينه بعدما يرى ما اقترفته يداه خارج إرادته وتمييزه . ففي تحريم الخمر قطع لدابر ذلك كله . ومثال آخر هو فرض مقاتلة الكفار المحاربين بعد فرض مسالمتهم ، فكذلك فيها حماية للدعوة وأهلها من شرور أعدائها ، الذين قال الله عنهم : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾(البقرة :٢١٧) . ففي مقاتلتهم ثبات لإيمان المؤمنين وحفظ لدينهم . إلى غير ذلك من الأمثلة .

وأما حصول الهداية بالنسخ فلأن الحكم المنسوخ إنما شُرع لفترة محدودة ، ولظرف معيّن وحكمة معيّنة . فلمّا استُنفِد الغرض منه صار الأصلح للناس هو التحوّل إلى الحكم الناسخ . فلا ريب أن في الأمر بالتحول إليه هداية ورشادا ، يعرفهما من استسلم لله في العمل بالحكم المنسوخ دون غيره ممن أعرض عن الإيمان واستكبر عن الإسلام ؛ ولذا خصت الهداية به .

وأمّا حصول البشارة فهي ظاهرة في النسخ بالحكم الأخفّ . وكذا المساوي كالأمر بتحويل القبلة ، فالنبي ﷺ كان يقلّب وجهه في السماء يحبّ أن يصرفه الله عز وجل إلى الكعبة بعد أن سمع مقالة اليهود ، ولأنه كان يحب قبلة إبراهيم عليه السلام[1] ، قال تعالى : ﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السماء ، فلنولينّك قبلة ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾(البقرة :١٤٤) . ولا ريب أن أصحابه ﷺ ورضي عنهم كانوا يشعرون بشعوره ، كيف لا وقد كان أحبّ إليهم من آبائهم وأمهاتهم وحتى من أنفسهم . فعندما جاء الأمر بتحويل القبلة لا ريب كان ذلك بشرى له ﷺ ولأصحابه معه ، يتخلّصون به من طعن الطاعنين ومكر الماكرين . وأما حصول البشارة بالحكم الأشد فلا يكون إلا لأصحاب القلوب المؤمنة والنفوس المستسلمة لربها وخالقها ؛ لمعرفتها أنه سبحانه لا يأمرها إلا بما يحقق لها الخير العظيم ، ولا ينهاها إلا عما يسبّب لها الشر الوخيم . ولقد استشعر الصحابة – رضي الله عنهم – مفاسد الخمر قبل تحريمها[2] ، حتى طالب بعضهم ببيان شرعي شاف فيها يقطع عنهم شرها ووبالها . تلك المفاسد التي أخبر الله عنها بقوله : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة ﴾(المائدة :٩١) . لقد

---

(١) ينظر : الطبري ، **جامع البيان،** ج٢ ، ص ٢٦ – ٢٧ .
(٢) ينظر : الأحاديث والآثار التي أوردها الحافظ ابن كثير في واقعة تحريم الخمر ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٢ ، ص ١٢٦ – ١٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عايش الصحابة ذلك كله ، ولا ريب أن قلوبهم كانت تتألم حينما يرى الواحد منهم أنه اعتدى على أخيه الذي كان قبل قليل يصلي إلى جواره ، ويفرح لفرحه ويحزن لحزنه ، فينشأ بينهما من العداوة والتباغض بسبب هذه الخمر ما يجعله يعافها ، ويتمنى زوالها وفناءها من الوجود . وكذا حينما يرى أنه قد فاته خير عظيم من صلاة أو ذكر لله بسببها ، فيصيبه من الغمّ والهمّ ما يتمنى معه أنه لم يشربها ولم يعرفها طيلة حياته . فلا جرم أن يكون تحريمها بعد هذا كله بشارة عظيمة لهم ، ما يفسر لنا سرعة امتثالهم له ، حتى جرت الخمر في سكك المدينة بعدما أراقوها . وحتى فرضية القتال بعد الأمر بمسالمة الكفار هي بشارة تستقبلها القلوب المؤمنة والنفوس المستسلمة لخالقها ومعبودها بالاستبشار والفرح ؛ طمعا في أن تكون كلمة الله هي العليا ، واستقرابا لدخول الجنة من أقصر طريق ألا وهي الشهادة . يدلّ على ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا وهم في مكة يتحرّقون ويودّون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم(١) ، حتى كانوا يقولون كما قال الله عنهم : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزّلت سورة ﴾(محمد: ٢٠) ، " أي مشتملة على حكم القتال "(٢) .

وبذلك وضحت الوجوه الثلاثة التي علل بها القرآن وقوع النسخ فيه ، فبطل طعن المشركين فيه ، وما بنوه عليه من زعمهم السخيف وفريتهم المتهافتة من كون هذا القرآن مفترى مختلقا من عند محمد ﷺ .

أما الرد القرآني من حيث صاحب التنزيل وهو الله جل جلاله ، فهو في قوله تعالى : ﴿ والله اعلم بما ينزل ﴾ ، أي أن الله تعالى أعلم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت ما يشاء بحكمته(٣) . قال الآلوسي : " فكلّ من الناسخ والمنسوخ منزل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة . فإن كل وقت له مقتضى غير مقتضى الآخر ، فكم من مصلحة تنقلب مفسدة في وقت آخر لانقلاب الأمور الداعية إليها ، ونرى الطبيب الحاذق قد يأمر المريض بشربة ثم بعد ذلك ينهاه عنها ويأمر بضدها . وما الشرائع إلا مصالح للعباد وأدوية لأمراضهم المعنوية ، فتختلف حسب اختلاف ذلك في الأوقات . وسبحان الحكيم العليم "(٤) . فثبت إذن بطلان شبهتهم من كل وجه ، فبطلت فريتهم لبطلانها .

وأما شبهة القوم في مقطع سبأ الأول فكانت استبعادهم وإنكارهم لما أخبرهم به ﷺ وقرره القرآن من حتمية البعث بعد الموت ، فقالوا على سبيل التعجب والاستهزاء والتضاحك

---

(١) ينظر : ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج١ ، ص ٦٩٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٢٢٨ .
(٣) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٥٨٤ .
(٤) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ١٤ ، ص ٦٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيما بينهم : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ ، فـردّ الله عليهم بقوله : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ . وقد مـرّ في مبحث فرية الجنون بيان وجه هذا الرد القرآني ، فلا داعي لتكراره هنا . وأمّا شبهتهم في مقطع سبأ الثاني فكانت إنكارهم وحدانية الإله والأمر بترك عبادة الأوثان التي ورثوها عـن آبائهم ، الذين هم في نظرهم الأسوة والقدوة فيما يأتون ويذرون ، قال تعالى : ﴿ وإذا تتلـى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عمّا كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ . ففنّد الله شبهتهم بقوله : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، ومـا أرسـلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ ، فليس لشركهم حجة صحيحة ، فتقليد الآباء ليس في نفسه حجة ، إنما الحجة في رسالات الله إلى البشر ، فما صوبته من سلوك الناس فهو صواب ، وما خطّأته فهو خطأ . وهم لم يأتهم قبل محمد ﷺ أيّ رسول ، ولا أنزل الله عليهم قبل القرآن أيّ كتاب ، فمن إذن الذي شرع لهم هذا الشرك الذي هم به مستمسكون ؟! . فثبت أن شركهم ليس له وجـه ، فلا يصحّ لهم التمسك به في مواجهة الوحي الإلهي الذي قامت الأدلة على حقيّته . ولما بطلت شبهتهم بطلت تبعا لها فريتهم . والله أعلم .

حادي عشر : الرد ببيان الدوافع الحقيقية وراء الفرية . وجاء هذا في أربعة مقاطع ، هي : النحل والطور ويونس الأول والأحقاف . فأثبت تعالى لهم في مقطعي النحل ويـونس الأول دافع الجهل ، فقال في النحل بعد أن أورد احتجاجهم بالنسخ على رمـي النبـي ﷺ بـافتراء القرآن : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ، أي أنهم " لا يعلمون أن التنزيل من عنـد الله لا ينـافي إبطال بعض الأحكام إذا اختلفت المصالح أو روعي الرفق "(١) ، " ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف "(٢) . " ومن المعلـوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به ، فإن القدح في الشيء فرع عن العلم بـه "(٣) . قـال سـيد قطب : " إنّ المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب . لا يدركون أنه جاء لإنـشاء مجتمـع عالمي إنساني ، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي ، وأنه الرسالة الأخيرة التي ليست بعدها من السماء رسالة ، وأن الله الذي خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادئ والشرائع ، فإذا بدلّ آية انتهى أجلها واستنفدت أغراضها ، ليأتي بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها الأمة ، وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه إلا هو ، فالشأن له . ومثـل

---

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ٢٨٤.
(٢) الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٩٧٤.
(٣) السعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٤٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آيات هذا الكتاب كمثل الدواء ، تعطى للمريض منه جرعات حتى يشفي ، ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية العادية في الظروف العادية . إنّ المشركين لا يدركون شيئا من هذا كله ، ومن ثم لا يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول ﷺ ، فحسبوها افتراء منه ، وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذبا قط "(٤) . وأما في يونس فقال تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ ، أي أنهم سارعوا إلى الطعن في هذا القرآن قبل أن يتدبروه ويفهموا معانيه وما اشتمل عليه من الشواهد الدالة على ربانيّته ، وأنه من غير الممكن أن يكون كلام مخلوق ، فكلامهم فيه بأنه مفترى مختلق من عند محمد ﷺ – كما قال الآلوسي – " كلام ناشئ عن عدم علمهم بكنه أمره والاطلاع على شأنه الجليل "(١) ، " فهو من باب (من جهل شيئا عاداه) "(٢) . وفي مقطع الطور أثبت لهم تعالى دافعا آخر هو دافع الكفر ، بقوله تعالى :﴿ بل لا يؤمنون ﴾ ، أي إنّ دلائل تنزيه النبي ﷺ عن تقوّل القرآن بينّة لديهم ، ولكن الزاعمين ذلك يأبون الإيمان ويصرون على الكفر ، فهم يبادرون إلى الطعن دون نظر أو تأمل أو تفكر(٣) . قال سيد قطب : " فعدم استشعار قلوبهم للإيمان هو الذي ينطقهم بمثل هذا القول ، بعد أن يحجبهم عن إدراك حقيقة هذا القرآن ، ولو أدركوها لعلموا أنه ليس من صنع بشر ، وأنه لا يحمله إلا صادق أمين "(٤) . وأما في الأحقاف فبين تعالى من دوافعهم دافعي الكبر والظلم بقوله : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ، فأوضح أنهم ما وقفوا موقفهم من هذا الكتاب حتى قالوا إنه اختلاق محمد ﷺ وليس من الله ، رغم الأدلة القاطعة الحاسمة على حقيّته وأنه من عند الله ، إلا لاستكبارهم عن الإيمان والاتباع ، الناشئ عن اتصافهم بالظلم ووضع الأمور في غير مواضعها ، حتى استكبروا عن تعديل أحوالهم وأوضاعهم ، فبطروا الحق وبهتوه وحاربوه .

كما بين تعالى لهم دافعا خامسا وراء فريتهم هو اغترارهم بترك معاجلتهم بالعقوبة التي توعدهم القرآن بها حال إصرارهم على الكفر والتكذيب ، فحسبوا عدم التعجيل بها دليلا على أن القرآن كلام مختلق من قبل محمد ﷺ . جاء هذا في مقطع يونس الأول في قوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتيهم تأويله ﴾ ، فلم يكن ما قالوه في القرآن ناشئا عن

---

(٤) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٤ ، ص ٢١٩٤ .

(١) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ١٥٩ .
(٢) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ٤٤٥ .
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٦٥ .
(٤) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج ٢٧ ، ص ٣٣٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شبهة معقولة أو حجة قوية ، لكنْ قلة فقههم ، وضيق أفق تفكيرهم ، وقصر أنظارهم ، جعلتهم يظنون ضرورة أن يكون العذاب الموعود عاجلا حتى يكون صدقا وحقا ، ومن ثــمّ أطلقــوا حكمهم الجائر في القرآن . ولم يفقهوا أن الأمور منوطة بالحكمة الإلهية وليس وفق حساباتهم ، وأن الله حدد آجالا للأمم لا تتأخر عنها ولا تتقدم .

ثاني عشر : الرد على الدافع الظاهر والمباشر وراء الفرية . إن تلك الدوافع آنفة الذكر من الجهل والكفر والكبر والظلم والاغترار بترك المعاجلة بالعقوبة ، مع أنهــا تــشكل الــدوافع الحقيقية وراء فرية اختلاق القرآن ، إلا أنها تبقى خفية في نفوس أصحابها ، أما الدافع الظاهر والمباشر وراءها فكان عدم تصديق القوم بأنه ﷺ رسول من عند الله ؛ ولذا كذبوا بما جــاءهم به زاعمين أنه اختلقه من عند نفسه . لكن لما كان هذا الدافع معلوما بديهة ، ردّ القرآن عليه دون إشارة إليه ، بقوله تعالى في الأحقاف : ﴿ قل ما كنتُ بدعا من الرسل ﴾ ، أي : قل لهم يا محمد بأنك لست أول رسول يرسله الله إلى الناس حتى يصدر عنهم ذلك التكذيب ، فقد بُعث قبلك كثير من الرسل . وكذا فإنك لم تأت بأمر لم يأتوا به ، بل جئت بما جاءوا به من الدعوة إلى التوحيد ، والإخبار بالبعث واليوم الآخر ، والوعد والوعيد ؛ فلا مــسوغ لهــم لتكــذيبك ورميك بالاختلاق والافتراء .

ثالث عشر : إظهار الثقة بحقيّة القرآن بتفويض الأمر إلى الله . وهذا جاء في مقطع الأحقاف ، قال تعالى آمرا نبيه ﷺ أن يقول لأولئك المفترين من قومه : ﴿ كفى به شهيدا بيني وبينكم ﴾ ، أي إني أفوض الحكم بيننا إلى الله عز وجل ، فكفى به حاكما بيني وبينكم بما يعلمــه مــن حالي وحالكم ، فيشهد لي بالصدق والتبليغ ، وعليكم بالافتراء والتكذيب ، ثم يجزي كلاً بمــا يستحقه . وهذا التفويض منه ﷺ يظهر ثقته بما يقوله ويبلغه لهم ، فلو كان مفتريا – وحاشاه – لم يجرؤ على ذلك ، ولتلعثم لسانه قبل أن يقوله ؛ لأنه يعلم حينئذ فــي قــرارة نفــسه أنــه – وحاشاه – كاذب في مدّعاه ، فكيف إذا أطلق تفويضه ذلك بكل ثبات وثقة وتحدّ ، فهو بــلا ريب رد قوي مدوٍّ على فريتهم الشنيعة .

رابع عشر : إظهار الثقة بحقيّة القرآن بالوعد بظهورها لهم بعد حين من الزمان . ورد هذا في مقطع ص الأول ، في قوله تعالى فيما أمر نبيه ﷺ أن يقوله لقومه : ﴿ ولتعلمُنّ نبأه بعــد حين ﴾ ، أي ستعلمون علما جزما حقيّة هذا الكتاب الذي جئتكم به وصدق ما أخبَرَ به – لأنه كلام الله ووحيه وليس مفترى من عندي – عندما ترون ظهور الإسلام وفشوّه وعلو أمــره ، بعد أن كان ضعيفا في عيونكم ، تتربصون زواله وانطفاء نوره . هذا لمن عاش منكم لــذلك الحين ، أما الذين لن يعيشوا إليه فسيعلمون ذلك عندما يرون عذاب السيف الذي وقع بهم يوم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بدر ، وعند الموت[١] حين تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم قائلين لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . إنّ هذه الثقة في الخطاب والوعد والإخبار بالمصير ، لا يمكن أن تكون إلا في واثق بما يقوله وحقية ما هو عليه من العقائد والمبادئ . فلو كان ﷺ مفتريا مزورا – وحاشاه – لما جرؤ على إطلاق ذلك الوعد فضلا عن الجزم به ، مع ما هو وأتباعه عليه في مكة من حالة الضعف والاستضعاف .

خامس عشر : الرد ببيان حاجتهم الملحّة لهذا الكتاب . وقد جاء هذا في مقطعي السجدة والقصص الأول . ففي السجدة قال تعالى : ﴿ بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ . وفي القصص قال : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ . فبيّن تعالى أنهم في حالة ضرورة وفاقة لإرسال الرسول وإنزال الكتاب[١] ، فلم يأتهم رسول منذ أمد بعيد . قال سيد قطب : " والعرب الذين أُرسل إليهم محمد ﷺ لم يرسل إليهم أحد قبله ، ولا يعرف التاريخ رسولا بين إسماعيل – عليه السلام – جد العرب الأول وبين محمد ﷺ "[٢] . فكان الأجدر بهم أن يتنافسوا في الانتفاع بهذا الكتاب الذي أنزله الله إليهم ، لا أن يبادروه بالطعون والافتراءات ، فهم كانوا أحوج إلى اتباعه من اليهود والنصارى ؛ لأنهم لم تسبق لهم رسالة مرسل ، فكانوا أبعد عن طرق الهدى ، بما تعاقب عليهم من القرون دون دعوة رسول ، فكان ذلك كافيا لحرصهم على التمسك به وشعورهم بمزيد الحاجة إليه رجاء أن يهتدوا[٣] ، فتدركهم رحمة الله قبل أن يأخذهم العذاب بما هم عليه من الشرك والكفر وسائر الضلالات[٤] . ويمكن أن يلحق بهذا الرد ما جاء في مقطع سبأ في قوله تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ ، بأن يقال : إنّ هذا وارد تحميقا لهم لجهالتهم وتعجيبا من حالهم ؛ لأنهم " لم يدركوا ما ينالهم من المزية بمجيء الحق إليهم ، إذ هيأهم الله به لأن يكونوا في عداد الأمم ذوي الكتاب ، وفي بدء حال يبلُغ بهم مبلغ العلم ، إذ هم لم يسبق لهم أن أتاهم كتاب من عند الله أو رسول منه . فيكون معنى الآية : فكيف رفضوا اتباع الرسول وتلقي القرآن ، وكان الأجدر بهم الاغتباط بذلك "[٥] .

---

(١) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٩٣٣ ، وابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ١٦٠٨ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٥٢٦ .

(١) ينظر : السعدي ، **تيسير الكريم الرحمن** ، ص ٦٠١ .
(٢) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢١ ، ص ٢٨٠٦ .
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢١ ، ص ٢٠٨ .
(٤) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج ٢٠ ، ص ٢٦٩٨ .
(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٢ ، ص ٢٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا ما يتصل بالردّ القرآني على فرية اختلاق القرآن . وقد أورد العلماء العديد من المفندات التي تظهر زيف هذه الفرية وتعود عليها بالإبطال ، منها :

أولا : مفارقة أساليب الأداء القرآني لأساليب البشر ، ويظهر هذا من خلال عدة أمور منها :

۞ أن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول ، وأدق تعبير وأجمله وأحياه .

۞ التناسق العجيب في الأداء القرآني بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو .

۞ أن الأداء القرآني يجمع بين جمال التعبير ودقة الدلالة في آن واحد ، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه ، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ، ولا الدقة على الجمال . ويبلغ في وجازته مع سعة مدلوله ، وتناسقه وجماله ودقته ، مستوى يدرك من يزاول فن التعبير بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعا .

۞ يتميز الأداء القرآني كذلك بأن النص الواحد يحوي مدلولات ومعاني متنوعة متناسقة في النص ، وكل مدلول ومعنى منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات . وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها ، بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى ، ويبدو في كل مرة أصيلا في الموضع الذي استشهد به فيه ، وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الموضع .

۞ الطابع البارز للأداء القرآني في استحضار المشاهد والتعبير المواجه ، كما لو كان المشهد حاضرا ، بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر ، ولا يملك الأداء البشري تقليدها ؛ لأنه يبدو في هذه الحالة مضطربا غير مستقيم مع أسلوب الكتابة . ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ ، إلى هنا هي قصة تُحكى . ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد حاضر : ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ۞ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ . ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر : ﴿ وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾(يونس : ٩٠ – ٩٢) . فهذه الالتفاتات المتكررة في مثل هذا المقطع– ومثله كثير في القرآن – هي أسلوب متميز تماما عن الأسلوب البشري .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

❁ أنّ القرآن مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظَيْن في الدراسات العلمية والتأملات الفلسفية والومضات الفنية جميعا . فهو لا يفرد كل جانب من جوانب حديثه بكلام مستقل ، كما تصنع أساليب الأداء البشرية ، وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب ، وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية ، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة ، وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى ، في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده ؛ لأن الأسلوب البشري عندما يحاول تقليده في هذه الخاصية تبدو فيه الحقائق مختلطة مضطربة غامضة ، غير واضحة ولا محددة ولا منسقة ، كما تبدو في المنهج القرآني .

❁ أنّ القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها . فلا يخاطب مرة ذهنها المجرد ، ومرة قلبها الشاعر ، ومرة حسها المتوفز ، ولكنه يخاطبها جملة ، من أقصر طريق ، فيطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها . وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها ، لا يملك الأداء البشري أن ينشئها بهذا العمق والشمول ، والدقة والوضوح ، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب .

❁ أنّ القرآن يعرض الحقيقة – كحقيقة الألوهية وتوحيدها مثلا – بأسلوب شمولي يكشف كل زواياها وجوانبها ، وكل ارتباطاتها ومقتضياتها . وبحيث لا يعقّد هذه الحقيقة ، ولا يلفها بالضباب ، بل يخاطب بها البشر بكل مستوياتهم .

❁ توازن القرآن في عرضه للتصور الإسلامي حول حقيقة الألوهية والعبودية مع الحقائق التي يقوم عليها . وهو خاصية قرآنية لا يملكها الأداء الإنساني . فمثلا لا ينتهي الإعجاب بالكون المادي ودقة نواميسه وتناسق أجزائه وقوانيه إلى تأليهه – كما فعل مؤلهة الظواهر المادية قديما وحديثا – . وفي المقابل لا ينتهي الإجلال للحقيقة الإلهية في ذاتها إلى إنكار وجود العوالم المادية أو احتقارها أو احتقار الكائن الإنساني – كما هو عند بعض المذاهب كالبوذية والنصرانية المحرّفة – .

❁ يقدّم القرآن حقائق العقيدة – أحيانا – في مجالات لا يخطر للفكر البشري عادة أن يلمّ بها ؛ لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة ، أو يلتفت إليه على هذا النحو . ومثال ذلك تصويره لحقيقة العلم الإلهي وسعته في قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾(الأنعام : ٥٩) . فالفكر البشري لا يهتم بتقصّي وإحصاء الورق الساقط من الشجر في كل أنحاء الأرض ، وهي مسألة لا تخطر على باله أصلا ، خاصة وأن هذه الآية المكية قد نزلت في واد غير ذي زرع ، والشجر وورقه ليس في تفكير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهله ومنهم محمد ﷺ ، وكذلك الرطب واليابس ، والحبة المخبوءة ، وحفظ ذلك وتسجيله في كتاب ، إنما الذي يعبّر عن هذه الأشياء هو الخالق لها ، صاحب الملك المطلق الذي لا يندّ عنه شيء في ملكه ، الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل ، والمخبوء كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب . فهذه الآية وأمثالها في القرآن تكفي وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم .

۞ استدلال القرآن بأشياء وأحداث مثيرة ، صغيرة في ظاهرها ، وهي ذات حقيقة ضخمة تناسب الموضوع الضخم الذي يستدل بها عليه . كما يبدو في قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ۞ ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ۞ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ۞ على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ۞ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾(الواقعة : ٥٨ – ٦٢) . فالقرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية الموجودة ، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة ، وتصورا كاملا لهذا الوجود ، فلا يكلُ الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة . إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره ، إنه المصدر الذي صدر منه الكون ، فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون ، فمن أبسط المواد الكونية – كالذرة والخلية والبذرة والحيوان المنوي – تنشأ أعقد الأشكال وأضخم الخلائق(١) .

ثانيا : كمال القرآن في نُظُمه ومناهجه وتشريعاته ، في مقابل قصور ما يصنعه البشر من نُظُم ومناهج وتشريعات . قال سيد قطب : " القرآن منهج حياة متكامل . منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التي تصرّف النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها ، والتي تصرّف الجماعات الإنسانية في كل ظروفها وأطوارها . ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة ، بالقوانين الملائمة للفطرة ، المتغلغلة في وشائجها ودروبها ، ومنحنياتها الكثيرة ، يعالجها علاجا متكاملا متناسق الخطوات في كل جانب ، في الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ، ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة في حياة الفرد وحياة الجماعة ؛ لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة في كل أحوالها وملابساتها المتشابكة . أما النظم البشرية فهي متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته ، ومن ثم فهي تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات في الوقت الواحد ، وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدي بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد . إن إعجاز

---

(١) ينظر ، سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١ ،ص ١٧٨٧ – ١٧٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه ، وعجزُ الأنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به "[٢] . وبالتالي فلا يمكن أن يكون هذا القرآن مختلقا مفترى من قبل بشر ، بل هو كلام الله خالق البشر .

ثالثا : الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهات القرآن كلها ، مما لا يعهد إطلاقا في منـاهج البشر وتشريعاتهم ، التي لا تحيط بجميع الجوانب ، ولا تملك التوازن المطلق الذي لا زيـادة فيه ولا نقص ، ولا إفراط ولا تفريط ، وليس فيها التناسق المطلق الذي لا تعارض فيـه ولا تصادم ، سواء في ذلك الأصول العقدية والفروع التشريعية[١] .

رابعا : ما يتميز به الأداء القرآني من سلطان عجيب على القلوب ليس للأداء البشري ، حتى ليبلغ أحيانا أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفا[٢] .

خامسا : ما أخبر القرآن به من الغيوب المستقبلية – وهو كثير فيه – التي وقعت مطابقة لذلك الإخبار ، كقوله تعالى : ﴿ غلبت الروم ۞ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ۞ في بضع سنين ﴾(الروم : ٢ – ٤) . وكقوله : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾(القمر : ٤٥) ، وهو ما حدث للمشركين في غزوة بدر ، حيث ولّوا منهزمين هاربين إلى مكة[٣] . وكقولـه : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾(الفتح :٢٧) ، وهو ما تم للمسلمين في عمرة القضاء بعد عام من صلح الحديبية التـي منـع المـسلمون بموجبه من أداء العمرة حينئذ . وكقوله أيضا : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾(النور:٥٥) . وهذا يدل على أن الإخبار عن هذه الغيوب المستقبلة إنما حصل بالوحي من الله تعالى[٤] . فثبت بهذا أن القرآن المتضمن تلك الغيوب ليس مـن عنـد محمد ﷺ ، إنما هو من عند علام الغيوب – سبحانه وتعالى – .

سادسا : ما أخبر القرآن به من أخبار الأمم الماضية مع أمية الرسـول ﷺ . فهـذه الأخبـار الصادقة لا تكون إلا ممن عرف التاريخ واستوعب أنباء الأمم ، والنبي ﷺ لم يكن شأنه كذلك ، فكان أميا لا يقرأ ، ولم يخالط عالما ، ولم تكن بلده موئل العلماء ، وكان قومه أهل جاهلية جهلاء ، فمن الذي علمه ذلك إلا العليم الخبير[٥] .

---

(٢) المصدر نفسه ، ج١٥ ، ص ٢٢٥٠.

(١) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٧ ، ص ٣٣٩٩.
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج١١ ، ص ١٧٨٦.
(٣) ينظر : الجزائري ، **أيسر التفاسير** ، ص ١٥٥٦ .
(٤) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج ١٧ ، ص ٢٥٣.
(٥) ينظر: الباقلاني ، **إعجاز القرآن** ، ص٤٨- ٤٩ ، ود. فضل عباس وسناء عباس ، **إعجاز القرآن الكريم**، ص ٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سابعا : قال الإمام الخطابي : " واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمنا أصح المعاني ، من توحيد له – عزت قدرته – ، وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ، من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعا كل شيء منها موضعه الذي لا يُرى شيء أولى منه ، ولا يُرى في صورة العقل أمر أليق منه . مودعا أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم . منبئا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان . جامعا في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم "[١] .

ثامنا : مجيء القرآن على نسق واحد في البلاغة وإحكام الرصف ، مع طوله ومع تعدد موضاعاته ، ما يجعله يختلف عن أساليب البشر ، حيث إنّ أمزجتهم المتقلّبة تنعكس على أساليبهم[٢] .

تاسعا : إن مثل هذا الحال من الجمع بين أمية النبي ﷺ والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه ، لا يكون إلا حال من أفاض الله عليه رسالته ؛ إذ لا يتأتّى مثل هذا الحال ولا ما يقاربه في العادة لأحد ، إلا بعد مدارسة العلماء ومناظرتهم ، ومطالعة الكتب السالفة ، ومحاورة أهل البلاغة من الخطباء والشعراء ، زمنا طويلا وعمرا مديدا ، فكيف تأتّى ما هو أعظم من ذلك المعتاد دفعة لمن قضى عمره بين قومه في بلده ، يرقبون أحواله صباح مساء ، وما عُرف بلدهم بمزاولة العلوم ، ولا كان فيهم من أهل الكتاب إلا من عكف على العبادة ، وانقطع عن معاشرة الناس[٣] .

عاشرا : أنّ القرآن هو أصل العلوم كلها . فعلم العقيدة ، وعلم الفقه ، وعلم أصول الفقه ، وعلم النحو واللغة ، وعلم الزهد وأخبار الآخرة ، وعلم الأخلاق[٤] ، إضافة إلى العلوم المادية والطبيعية كعلم الفلك وعلم البحار وعلم النبات والحيوان ، إلى غير ذلك ، كله أصوله في

---

(١) الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ، (ت:٣٨٨ هجرية) . الرسالة المسماة (**بيان إعجاز االقرآن**) ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي) ، ط٤ ، (تحقيق : محمد خلف الله ، ود. زغلول سلام) ، دار المعارف ، ص ٢٧ – ٢٨ . وأقول : إن هذا الكلام للإمام الخطابي – رحمه الله – هو من أجمع ما قيل في وجه إعجاز القرآن ، ولذا آثرت نقله هنا .

(٢) ينظر: الباقلاني، **إعجاز القرآن،** ص٥١- ٥٢ ، والرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** ، ط١،(تحقيق : عبد الله المنشاوي) ، مكتبة الإيمان، المنصورة ،١٩٩٧م، ص١٧٢، ود.فضل عباس وسناء عباس، **إعجاز القرآن الكريم،** ص٩٢ .

(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص ١٢٣.

(٤) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج ٢ ، ص ٣٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرآن . فالقرآن على هذا لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ الرجل الأميّ الذي لا يقرأ ، والذي لم يخالط عالما ، وظل ملازما قومه الأميين وبلدهم طيلة عمره قبل أن يأتي بهذا القرآن ، بل هو كلام المحيط بكل شيء علما – سبحانه – .

حادي عشر : لو قدر محمد ﷺ على اختلاق القرآن دون أمة العرب – وغيرها من الأمم أعجز منها – لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة ، فليس من شأن أحد من الخلق أن يكون فائقا على جميعهم ، ولا من شأن كلامه أن لا يستطيع مثله أحد منهم . وإذا كانت قدرته عليه معجزة كانت تصديقا من الله له ، والحكيم لا يصدق الكاذب ، فلا يكون مفتريا ، بل مبلغا عن ربه ، صادقا فيما يقوله(١) .

ثاني عشر : أن القرآن قد جاء على شكل لم يألفه العرب من قبل . فلقد عرف العرب الشعر والرجز والسجع ، والكلام المرسل غير المسجوع ولا المقفى ، ولكن الشكل الذي جاء عليه القرآن يختلف عن ذلك كله ، فلو كان مختلقا لجاء على ما هو متعارف عليه بين العرب أو قريب منه(٢) .

ثالث عشر : مجيء القرآن على فصاحة وبلاغة ما عهد مثلها فحول بلغاء العرب ، في وقت كانوا فيه متوافرين متكاثرين ، حتى لقد سجد بعضهم لبلاغته(٣) ، واعترف بعضهم بأنه ليس بكلام بشر(٤) ، وكانوا لا يملكون أنفسهم من التأثر به(٥) . وقد اشتمل من المعاني على ما لم يطرقه شعراؤهم وخطباؤهم وحكماؤهم ، بل وعلى ما لم يبلغ إلى بعضه علماء الأمم(٦) . ما يعني أنه كلام خارق للعادة ، وإذا كان كذلك لم يصح أن ينسب إلى بشر .

رابع عشر : لو كان القرآن مختلقا من عنده ﷺ – كما زعموا – وهو بشر ، لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه إما مجتمعين أو منفردين ، بعد أن تُحدوا بذلك ، إثباتا لصدقهم في اتهامهم . وهذا ناقض ظاهر لفريتهم ؛ لأنهم كانوا في معرفة اللغة والاطلاع على قوانين

---

(١) ينظر القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٦ ، ص ١٢٣ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١١ ، ص١٢٠ .

(٢) ينظر : الرماني ، **النكت في إعجاز القرآن** ، ص ٧٥ ، ود. فضل عباس وسناء عباس ، **إعجاز القرآن الكريم** ، ص ٤٤ .

(٣) أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " سجد النبي ﷺ بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس" . البخاري ، **فتح الباري** ، ج٩ ، ص ٥٦٦٠ ، (رقم : ٤٨٦٢) . ومعنى (بالنجم) أي السجدة التي في آخر سورة النجم في قوله تعالى : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ . ينظر : ابن كثير ، **تفسير القرآن العظيم** ، ج٤ ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

(٤) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : " إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيﷺ ، فقال : اقرأ عليّ . فقرأ عليه : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ الآية (النحل : ٩٠) . فقال : أعد ، فأعاد ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلوا ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته ، وما يقول هذا بشر " . محمد بن عبد الوهاب ، **مختصر سيرة الرسول ﷺ** ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – السعودية ، ١٤١٨ هجرية ، ص ١٠٦ . وأورد القرطبي مقولة الوليد تلك بعد استماعه لمقطع من سورة غافر ، وليس المقطع آنف الذكر ، والله أعلم بالصواب . ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١٩ ، ص ٤٩ .

(٥) ولذلك قال كبراؤهم لعوامهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (فصلت : ٢٦) . وذلك خشية أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن فيؤمنون ؛ لأنهم أيقنوا أن كل من يسمعه ، وتداخل نفسَه جزالة ألفاظه وبلاغة تراكيبه وسموّ أغراضه ، أيقن أنه الحق ، واتبعه . ينظر : ابن عاشور ، **التحرير التنوير** ، ج٢٤ ، ص ٢٧٦ – ٢٧٧ . وقد ورد في الصحيح أنهم لما استمعوا إلى قراءة أبي بكر رضي الله عنه - وكان رقيق القراءة – قالوا : إنا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا . ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٥ ، ص ٢٩٢٢ (رقم : ٢٢٩٧) ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٤ ، ص ٢٧٨ .

(٦) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص ٣٣٦ ، وج١١ ، ص١٢٠، وسيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٩، ص٢٥٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصاحة في الغاية ، وكانوا في محبة إبطال أمره ﷺ في الغاية ، حتى بذلوا النفوس والأموال وارتكبوا ضروب المهالك والمحن ، وكانوا في الحمية والأنفة على حد لا يقبلون الحق فكيف بالباطل ؟! . وكل ذلك يوجب الإتيان بما يقدح في قوله ، والمعارضة أقوى القوادح . فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها ، فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم ، وأن التفاوت بينه وبن كلامهم ليس تفاوتا معتادا ، فهو إذن تفاوت ناقض للعادة، فليس من كلام بشر ، إنما من كلام رب البشر[٧].

خامس عشر : إسلام جميع قبائل العرب وتعاقبهم في الوفادة على النبي ﷺ بعد فتح مكة معلنين إسلامهم ، دليل عظيم على حقية هذا القرآن وناقض لفرية اختلاقه ؛ لأنه ليس مما عرف في عوائد الأمم وأخلاقها أن تنبذ قبائل عظيمة كثيرة أديانا تعتقد صحتها ، ويجيء جميعها طائعا نابذا دينه ، بعد مدة قصيرة من فتح مكة ، لم يجمعهم على ذلك ناد ، ولم تسر به بينهم سفراء ، لولا أنهم كانوا متهيّئين لهذا الأمر ، ومعتقدين صحة هذا الدين وهذا القرآن ، مع أنهم كانوا يستطيعون الثبات للمقارعة أكثر من قريش ؛ فقد كانت تلك القبائل أهل بأس وشدة ، كعرب نجد وطيء وغيرهم ، وكانوا مخاطبين بالتحدي مثل قريش[١] .

سادس عشر : إن بلغاء العرب كانوا من علو الهمة ورجاحة الرأي بحيث لا يعرّضون أنفسهم للافتضاح ، ولا يرضون لأنفسهم بالانتقاص ؛ لذلك رأوا الإمساك عن المعارضة أجدى بهم ، واحتملوا النداء عليهم بالعجز عن المعارضة ، فلعلهم رأوا أن السكوت يقبل من التأويل بالأنفة مالا تقبله المعارضة القاصرة عن بلاغة القرآن ؛ فثبت أنه كلام خارج عن قدرة البشر[٢] .

سابع عشر : لو كان القرآن مختلقا من قبل محمد ﷺ ، لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه ، ولأمكن أن يدعي به الألوهية أو منزلة قريبة منها ، ولكان مقدسا في نظر الناس أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبيّ[٣] ، لكنه ﷺ قال لهم كما أمره ربه : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾(الكهف : ١١٠) .

ثامن عشر : أنّ كل من أوتيَ حظا من حسن البيان وذوق البلاغة ، يجد فرقا كبيرا بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي ، يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق . فلو كان القرآن من صياغة محمد ﷺ وأسلوبه ، لتماثل أسلوبه مع أسلوب الحديث

---

(٧) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢ ، ص ٣٤٧ .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص ٣٤٨ – ٣٤٩ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٦ .
(٣) ينظر : الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، **مناهل العرفان في علوم القرآن** ، ط٣ ، ٢م ، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه ، ج١ ، ص ٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النبوي ، أو لكانا متقاربين على أقل تقدير . وإذ لم يكونا كذلك ثبت أن مصدر هذا غير مصدر ذاك[٤] .

تاسع عشر : أنه ﷺ كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه على القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم ، بحيث لو كان الأمر إليه في هذا القرآن لأنشأ منه مقالا يقضي به حاجته ، ويرفع نازلته ، ولكنه كانت تمضي عليه الأيام والليالي ولا يجد في شأنها قرآنا يقرؤه على الناس . ومثال ذلك حادثة الإفك المشهورة المتصلة بزوجه عائشة رضي الله عنها ، التي أبطأ فيها الوحي ، وطال الأمر والناس يخوضون ، حتى نزل الوحي بصدر سورة النور معلنا براءتها ، حاملا على المنافقين والمرجفين الذين أذاعوا تلك الكذبة الشنيعة[١] .

عشرون : أنه ﷺ كان يجيئه الوحي أحيانا على غير ما يحبه ويهواه ، فيخطئه في الرأي ، ويعاتبه العتاب القاسي . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ﴾(التحريم :١) ، وقوله : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾(الأحزاب : ٣٧) ، وقوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾(التوبة : ٤٣) ، إلى غير ذلك من الآيات . فلو كان القرآن من اختلاقه ﷺ – كما زعموا – لما صاغ أمثال هذه الآيات ، ولو صاغها لم يجعلها بهذا التهويل والتغليظ . ولكنه الوحي الذي لا يستطيع ولا يجوز له كتمانه[٢] .

حادي وعشرون : أنه ﷺ كان يجيئه الأمر القرآني – أحيانا – قولا مجملا أو مشكلا ، لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه . فلو كان الكلام كلامه ﷺ ، أيمكن أن يختلق كلاما لا يفهم هو معناه أو لا يعقل وجه حكمته ؟! . إن هذا الأمر لمن الأدلة الواضحة على أنه ﷺ ناقل لا قائل ، مأمور لا آمر . ومثال ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾(البقرة: ٢٨٤) ، انزعج الصحابة انزعاجا شديدا ؛ لأنهم فهموا من هذه الآية أنهم سيحاسبون على كل شيء ، حتى حركات قلوبهم وخطراتها . فأمرهم ﷺ أن يقولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات ، حتى أنزل الله بيان الآية بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ (البقرة :٢٨٦) . فعلموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب ، من النيات

---

(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٨ .

(١) ينظر : د. دراز ، **النبأ العظيم** ، ص ٢٣ – ٢٤ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المكسوبة والعزائم المستقرة ، لا الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار[٣] .
والشاهد أنه ﷺ لو كان يعلم تأويل الآية من أول الأمر لبيّن لهم معناها ولأزال اشتباههم من البداية ، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها ، الذي تأخر لحكمة إلهية[٤] .

ثاني وعشرون : ما كان يتصف به ﷺ من خلق عظيم ، فكان أكرم شخصية عرفتها البشرية طهرا ونبلا، مشهورا بين قومه بالصدق والأمانة، فأنى من مثله التزوير أو التغرير! . والعقل المنصف يقول : ما كان هذا الأمين الصدوق ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله[٥].

المطلب الخامس : أسلوب القرآن في رد الفرية

كما كان الرد القرآني متعدد الوجوه في تعامله مع فرية اختلاق القرآن ، فكذا كان في أسلوبه أنه كان متنوعا متعدد الأساليب ، حتى وصلت إلى أكثر من عشرين أسلوبا ، وهي :
أولا : الإضراب . وهو وارد بنوعيه الإبطالي والانتقالي . أما الإبطالي فورد في أربعة مقاطع هي : النحل والسجدة وسبأ الأول والطور . ففي النحل قال تعالى بعد أن أورد فريتهم متعللين بوقوع النسخ في القرآن : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ، فأضرب عن قولهم مبطلا له[١] وانتقل إلى الدافع الحقيقي وراءه وهو جهلهم بالحِكَم البالغة للنسخ الذي تعللوا به . وفي السجدة قال بعد أن أورد طعنهم في القرآن : ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ ، فأضرب عن فريتهم مبطلا لها وأثبت أن القرآن حق من عند الله[٢] . وأما في سبأ الأول فأضرب عن وصفهم له ﷺ بالافتراء على الله الموجب للعذاب فأبطله ، وأثبت أنهم هم المستحقون للعذاب بإنكارهم ما جاء به من الإخبار الصادق بالبعث والحساب والآخرة وأحوالها فقال : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ . وأما في الطور فأضرب عن فريتهم بقوله : ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ ، فأبطلها وأثبت الدافع الحقيقي وراءها وهو كفرهم وانعدام إيمانهم بالله وآياته .

وأما الإضراب الانتقالي فقد ورد في تسعة مقاطع . فقال في كل من يونس الأول وهود الأول والثاني والسجدة والأحقاف : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ . ففي يونس أضرب منتقلا من الحديث عن نفي افتراء القرآن بقوله : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ إلى الاستفهام الإنكاري التعجيبي من تفوههم به ، وهو ارتقاء بإبطال دعواهم[٣] . وفي هود الأول

---

(٣) ينظر : القصة بتمامها : مسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٢ ، ص ٢٠٧ – ٢٠٩ (رقم : ١٢٥ ، ١٢٦) .
(٤) ينظر : د. دراز ، **النبأ العظيم** ، ص ٢٨ – ٢٩.
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ص ٣٢ ، والزرقاني ، **مناهل العرفان** ، ج١ ، ص ٨٠ .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص ٢٨٣ .
(٢) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ١٣٩ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢١ ، ص ٢٠٧ .
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج١١ ، ص ١٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أضرب عما تقدمه في قوله : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ﴾(هود :١٢) المتضمن لتهاونهم بالقرآن وعدم قنوعهم بما جاء فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على حقيته وصدق من جاء به ، وشرَع في ذكر ارتكابهم لما هو أشد وأعظم من ذلك وهو افتراؤهم عليه ﷺ بأنه افتراه[٤] . أما في هود الثاني فأضرب عما فصّله من قصة نوح عليه السلام مع قومه الدالة دلالة قاطعة على صدق محمد ﷺ وحقيّة ما جاء به ، بدليل أن هذه القصة بتلك التفاصيل كانت مجهولة لديه ﷺ ولدى جميع قومه من قبل حتى أعلمه الله بها ، وشرع في الإنكار والتعجيب من دعواهم رغم ذلك افتراءه لما جاءهم به . وفي السجدة أضرب عن بيانه وضوحَ انتفاء الريب عن كون القرآن منزلا من رب العالمين ، وانتقل إلى التعجيب والإنكار لدعواهم افتراءه من قبله ﷺ رغم ذلك الوضوح[١] . وأما في الأحقاف فأضرب عن وصفهم الشنيع للقرآن بأنه سحر مبين ، وانتقل إلى ما هو أشنع وأعجب منه وهو زعمهم اختلاقه ﷺ من قبل نفسه ، مع أن في وصفه بالسحر اعترافا منهم بعجزهم عنه ، وهو مناقض لكونه مختلقا من قِبَل واحد منهم[٢] . كما أن الكذب على الله عمدا أشنع من السحر ؛ لأن الأول متفق على قبحه حتى إن كل أحد يشمئز منه بخلاف السحر ، فإنه وإن قبح فليس بهذه الرتبة ، حتى تكادَ معرفته تُعَدّ من الأمور المرغوبة[٣] .

وقال تعالى في مقطع الشورى الأول : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ﴾ ، فأضرب عن إنكار ما هم عليه من الشرع والشرك الوارد في قوله تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾(الشورى:٢١) ، وانتقل إلى إنكار ما هو أطمّ من ذلك من نسبة أصدقهم وأنبلهم وأعظمهم فضلا وعقلا ونفسا وهو محمد ﷺ إلى الافتراء ، على من ؟ على الله عز وجل ، الذي هو أقبح القبائح ، فارتكبوا بهذا أعظم الفرى وأفحشها[٤] . كما قال تعالى في الطور : ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ ، فبعد أن أنكر عليهم أقوالهم المتناقضة في وصفه ﷺ تارة بالكهانة وتارة بالجنون وتارة بالشعر بقوله : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ ، أضرب عنه منتقلا إلى ما هو أفحش عارا من التناقض[٥] ، وهو رميهم له ﷺ بأنه تقوّل القرآن واختلقه من تلقاء نفسه مع علمهم أنه كلام معجز خارج عن قدرة البشر . وعلى عكس هذا الإضراب فقد

---

(٤) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٩٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٢ ، ص ٣٠٨ .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢١ ، ص ٢٠٧ .
(٢) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ١٥٩ – ١٦٠ .
(٣) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٦ ، ص٢٢٩ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٥ ، ص ٤٧ – ٤٨ .
(٥) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص ٣٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أضرب في الأنبياء عن وصفهم القرآن بالسحر ، وانتقل إلى ما هو أعجب منه وهو وقوعهم في الإضطراب والتناقض في وصفه ، فقال تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ ، فـ(بل) الأولى هي من كلامه عز وجل ، وهي للإضراب الانتقالي ، وأما الأخيرتان فمن كلامهم ، وهما إبطاليتان ؛ لترددهم وتحيّرهم فيما يزورون في وصف القرآن[٦] .

وكما استعمل القرآن الإضراب الانتقالي إنكارا لفريتهم ، استعمله أيضا في الرد عليها . جاء هذا في مقطع يونس الأول في قوله تعالى : ﴿ بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله ﴾ ، فأضرب منتقلا من إظهار بطلان ما قالوه بالتحدي بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، إلى إظهاره ببيان أنه كلام ناشئ عن جهلهم بهذا القرآن واستعجالهم العذابَ الموعود فيه . لكنّ علة الإضراب هنا هي بيان أن حالهم في المبادرة بالتكذيب قبل التأمل والنظر في أدلة صحة وحقيّة القرآن ، أعجب من أصل التكذيب المفهوم من قولهم (افتراه)[١] .

ثانيا : الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجيب . جاء هذا في قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ بمواضعه الخمسة آنفة الذكر ، وفي قوله : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ﴾ ، وقوله : ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ بموضعيهما آنفي الذكر أيضا ، فالهمزة في هذه المقاطع هي لإنكار عليهم ما قالوه وتوبيخهم عليه مع التعجيب منه[٢] . كما جاء هذا الاستفهام في مقطع الشعراء في قوله تعالى : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ ، فأنكر عليهم إعراضهم عن الأدلة الدامغة على حقيّة هذا القرآن وأنه من عند الله ، موبخا لهم[٣] ، ومعجبا من هذا السلوك المناقض لمقتضى العقل والمنطق السليم . وكذا جاء في مقطع سبأ الأول في قوله تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ ، قال ابن عاشور: " والاستفهام للتعجب الذي يخالطه إنكار على انتفاء تأملهم فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض"[٤] ، أي قبل أن يطعنوا في أمر البعث ثم في المخبر به ﷺ .

وفي مقطع يونس الثاني قال تعالى مخاطبا لهم : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ، ثم قال بعده : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته ﴾ . فالاستفهام الأول للإنكار والتقريع والتوبيخ[٥] ؛ لأنهم مع نهوض الدليل عليهم وقد خالفوه بما قالوه ولمّحوا إليه من دعوى

---

(٦) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٧، ص ١٥ .
(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص ١٧١ .
(٢) ينظر ما قاله المفسرون كالزمخشري والرازي والقرطبي وأبي حيان والبقاعي والجمل والشوكاني والآلوسي وابن عاشور .
(٣) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٥ ، ص ٤١٧ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٢٨٧ .
(٤) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج٢٢، ص ١٥٢.
(٥) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٧٥٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص ١٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الافتراء ، ظهروا كمن لا يعقل[٦] ، فاستحقوا التقريع والتوبيخ . وأما الثاني فهو استفهام إنكاري[٧] تبرؤا منه ﷺ من الافتراء على الله ، وحصرا للظلم فيهم .

ثالثا : الاستفهام التقريري لإلزام الحجة أو للتوبيخ . يمكن اعتبار الاستفهام الوارد في قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ في مقطعي هود ويونس خاصة ، وقوله في الشورى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ﴾ ، وقوله في الشعراء : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ – على قول بعض المفسرين[٨] – تقريرا ؛ لإلزام القوم ودمغهم بالحجة . ففي قوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ كأنه يقول : أيقولون ذلك حقا ؟ إذن فليعارضوا هذا القرآن إن كانوا صادقين في قولهم بأنه مختلق من قبل محمد ﷺ . وفي قوله : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ﴾ كأنه يقول : أيقولون عنه ﷺ ذلك حقا ؟ لو كان صحيحا لشاء الله عدم صدوره منك – يا محمد – فلا تنطق منه بحرف . أما في قوله : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ فكأنه يقول : أليس قد كانت لأهل مكة آية على صدق محمد ﷺ تصديقُ علماء بني إسرائيل بما جاء به ؟ بلى .

أما التقرير للتوبيخ فجاء في مقطع الأحقاف في قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾ . فالاستفهام في (أرأيتم) تقريري للتوبيخ ، والتقدير: أرأيتم أنفسكم ظالمين[١] ، بدلالة قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ، أي ألا ترون أنفسكم ظالمين بذلك . والله أعلم .

رابعا : الأمر للتعجيز . وورد هذا في أربعة مقاطع ، هي البقرة ويونس الأول وهود الأول والطور . فقوله تعالى في البقرة : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ ، وقوله : ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ ، الأمرُ فيهما معناه التعجيز[٢] ؛ إبطالا لفرية المكذبين وإظهارا لحقيّة القرآن . وكذا الأمر في يونس : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾[٣] ، والأمر في هود : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾[٤] ، والأمر في الطور : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾[٥] .

---

(٦) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص ١٢٢ .
(٧) ينظر : المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٢٤ .
(٨) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٩٣٤ ، ١٦٦٧ ، والزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٤٦٤ ، وأبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج ٦ ، ص ٥٨ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ١٥٧ ، و ج١٩ ، ص ١٦٩ .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٦ ، ص ١٩ .
(٢) ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١ ، ص ١٦١ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ١ ، ص ٢٦٥ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص ١٧٠ .
(٤) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٣ ، ص ٥١١ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ج٧ ، ص ٣٠٤ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٧ ، ص ٣١٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٧ ، ص ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : النفي . وورد هذا في العديد من المقاطع . ففي سبأ قال تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ ، وفي النحل قال: ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ، وفي الطور قال :﴿ بل لا يؤمنون ﴾ ، وفي الإسراء : ﴿ لا يأتون بمثله ﴾ ، وفي يونس الأول : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ ، وقال أيضا : ﴿ لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ ، وفي البقرة قال : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ ، وفي السجدة قال : ﴿ لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ ، وقال : ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ ، وفي الأحقاف قال : ﴿ فلا تملكون لي من الله شيئا ﴾ ، وقال : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ ، وقال : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ، وفي ص الأول قال : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر، وما أنا من المتكلفين ﴾ ، وفي يوسف الأول قال : ﴿ ما كان حديثا يفترى ﴾ ، وفي هود الثالث قال : ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك ﴾ ، وفي يوسف الثالث قال : ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ ، وفي القصص الأول قال : ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ ، وقال : ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ ، وقال : ﴿ وما كنت ثاويا في أهل مدين ﴾ ، وقال : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ ، وقال : ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ ، وفي آل عمران قال : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ ، وفي ص الثاني قال : ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ ، وفي الشورى الأول قال : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾.

سادسا : التوكيد . وقد جاء في أكثر المقاطع . ففي الفرقان أكّد الرد بـ(قد) الدالة على التحقيق في قوله تعالى : ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ . ومثله قوله في يونس الثاني : ﴿ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ﴾ . وفي سبأ أكّد النفي في قوله تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ بأن جاء بـ(من) الاستغراقية فقال : (من كتب) و(من نذير)[١]. واستُعمل في مقطع النحل عدد من المؤكدات ، ففي قوله تعالى : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أكد الخبر بتقديم الفاعل على فعله من حيث المعنى ، لأن الأصل : لا يعلم أكثرهم[٢] . وفي قوله : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ أكد بأداة القصر (إنما) ، فقصر افتراء الكذب على الطاعنين المكذبين بالقرآن ، أي هم المفترون لا محمد ﷺ . وأردفت جملة القصر هذه بجملة قصر أخرى هي قوله : ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ ، وذلك بطريق ضمير الفصل (هم) ، وتعريف المسند بـ(ال) في لفظ (الكاذبون)

(١) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ١٩١- ١٩٢ .
(٢) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ١٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمسند إليه حيث جاء اسم إشارة ، فقصر صفة الكذب عليهم دونه ﷺ . فالقصران إضافيان يحصران الكذب والافتراء فيهم دون محمد ﷺ . والقصر – كما مر – من طرق التأكيد . إضافة إلى مجيء الجملة الثانية اسمية المقتضي للثبوت والدوام ، وهو مؤكد آخر لها[٣] . وزاد الجلالان في تفسيرهما مؤكدا ثالثا هو التكرار بين الجملتين[٤] ، قال الشارح : " بالتكرار ، أي بين الكذب والكاذبون ، وبين الموصول وهو (الذين لا يؤمنون) واسم الإشارة وهو (أولئك) "[٥] . قال ابن عطية : " وكرر المعنى في قوله : ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم ؛ إذ الصفة بالشيء أبلغ من الخبر به ؛ لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر ، فبدأ في هذه الآية بالخبر ثم أكد بالصفة " . وقد بولغ في التأكيد هنا ردا على مقولتهم التي أكدوها وهي : ﴿ إنما أنت مفتر﴾ الواردة في المقطع نفسه[١] . وفي الإسراء الأول أكّد باستعمال اللام الموطئة للقسم الداخلة على أداة الشرط في (لئن) ، فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ ، وجملة (لا يأتون بمثله) جواب القسم المحذوف[٢] . كما أن تكرر لفظ (مثل) في قوله (لا يأتون بمثله) هو على سبيل التأكيد والتوضيح[٣] . وفي هود الأول أكد بالقصر بأداة الحصر (أنما)[٤] في قوله تعالى : ﴿ فأعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ ، فقصر إنزال القرآن على كونه معلوما من قبل الله ، لا خارج علمه فيكون مختلقا لا منزلا . وفي يونس الأول أكّد بالقصر بـ(لكن) العاطفة في قوله تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب ﴾ ، فقصر القرآنَ على كونه تصديق الكتب الإلهية قبله وتفصيل ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأحكام ، لا مختلقا كما يزعمون[٥] . وفي مقطع البقرة استُعملت (لن) في قوله تعالى: ﴿ ولن تفعلوا﴾ ، وهي " تفيد تأكيد النفي المؤبد "[٦] . قال أبو حيان معلقا على هذه الجملة : " وفيها من تأكيد المعنى ما لا يخفى ؛ لأنه لما قال : ﴿ فإن لم تفعلوا﴾ ، وكان معناه نُفيَ في المستقبل ، مخرجا ذلك مخرج الممكن ، أخبر أن ذلك لا يقع ، وهو إخبار

---

(٣) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج ٦ ، ص٥٩٧ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ٢٨٢ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص٢٩٠ – ٢٩١ .
(٤) ينظر : الجمل ، **متن الحاشية للجلالين** ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ .
(٥) المصدر نفسه ، **الحاشية** ، ج٤ ، ص ٢٨٢ .

(١) ينظر : الجمل ، **متن الحاشية** ، ج٤ ، ص ٢٨٣ .
(٢) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ،ج ٧ ، ص ١٠٩ ، والبقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٤ ، ص ٤٢٤ ، ود. محمد التونجي وأ. راجي الأسمر ، **المعجم المفصل** ، ج١ ، ص ٤٩٥ .
(٣) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ،ج ٧ ، ص ١١٠ – ١١١ .
(٤) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٣ ، ص ٤٣٠ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٢ ، ص ٢١ .
(٥) ينظر : المرادي ، **الجنى الداني** ، ص ٥٩٠ ، ود. عبد العزيز عتيق ، **علم المعاني** ، دار النهضة العربية ، بيروت – لبنان ، ص ١٥١ .
(٦) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص ٣٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صدق ، فكان في ذلك تأكيد أنهم لا يعارضونه " أي القرآن . ثم قال : " وكان النفي بـ(لن) في هذه الجملة دون (لا) وإن كانتا أختين في نفي المستقبل ؛ لأن في (لن) توكيدا وتشديدا ، تقول لصاحبك : لا أقيم غدا ، فإن أنكر عليك قلت : لن أقيم غدا "[٧] . وفي السجدة أكّد بالجملة الاسمية في قوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ . وبالجملة الاسمية وبالقصر بتعريف طرفي الجملة في قوله : ﴿ هو الحق ﴾ ، قال ابن عاشور : " وفي تعريف المسند بلام الجنس ذريعة إلى اعتبار كمال هذا الجنس في المسند إليه ، وهو معنى القصر الادعائي للمبالغة ، نحو أنت الحبيب وعمرو الفارس "[٨] . وكذا بتأكيد النفي بـ(من) الاستغراقية في قوله تعالى : ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ ، فقال : ﴿ من نذير ﴾ . وفي هود الثاني جيء بجملة جواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ﴾ مؤكدة بالجملة الاسمية وبالقصر بتقديم ما حقه التأخير من الجار والمجرور (عليّ) على المبتدأ (إجرامي) ، أي إجرامي عليّ لا عليكم[١] . كما أكدت الجملة الثانية المعطوفة عليها وهي قوله : ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ بمجيئها جملة اسمية . وفي الأحقاف جاء التأكيد بالقصر في قوله تعالى : ﴿ إن اتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ . كما جاء بالجملة الاسمية وبالقصر في قوله : ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ . فقصر في الجملة الأولى أفعاله وأقواله ﷺ على اتباع الوحي[٢]، وقصر في الثانية نفسَه على الإنذار . قال ابن عاشور : " والمعنى: وما أنا إلا نذير مبين لا مفتر، فالقصر قصر إضافي ، وهو قصر قلب لرد قولهم : (افتراه) "[٣] . كما أكّد بـ(إنّ) التوكيدية في قوله : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[٤] . وفي الشورى أكّد بـ(إنّ) التوكيدية والجملة الاسمية في قوله تعالى : ﴿ إنه عليم بذات الصدور﴾ ، تأكيدا على إحاطة علمه سبحانه ، فلا يخفى عليه افتراء مفتر ولا صدق محقّ – كما مر– . وفي الحاقة : أكّد تعالى باللام الواقعة في جواب (لو) في قوله : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ۞ لأخذنا منه باليمين ۞ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ، فقال (لأخذنا) و(لقطعنا) . كما أكد بـ(من) الاستغراقية في قوله :﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ، قال

---

(٧) أبو حيان ، **البحر المحيط** ،ج ١ ، ص ١٧٤ ، وينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٦١ .
(٨) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢١ ، ص ٢٠٧ .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير**، ج١٢ ، ص ٦٤ ، ود. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٣٦٧ .
(٢) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٦ ، ص ٢٣٣ .
(٣) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٦ ، ص ١٨ .
(٤) يقول الدكتور عبد العزيز عتيق في كتابه علم المعاني : " والجملة الاسمية لا تفيد الثبوت بأصل وضعها ولا الدوام والاستمرار بالقرائن إلا إذا كان خبرها مفردا أو جملة اسمية ، أما إذا كان خبرها جملة فعلية فإنها تفيد التجدد " . د. عبد العزيز عتيق ، **علم المعاني** ، ص ٤٩ . وعليه فلم أورد الجملة الاسمية كمؤكد لهذه الجملة وما ماثلها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن عاشور : " و(من) في قوله (من أحد) مزيدة لتأكيد النفي وللتنصيص على العموم "[٥] . وكذا أكد بالقصر المفهوم من تقديم ما حقه التأخير وهو الجار والمجرور (منه) في قوله : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ ، أي منه خاصة دون غيره[٦] . وكذا (منه) الثانية في قوله : ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ، و(عنه) في قوله : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ ، أي عنه خاصة لا عن غيره ممن لم تتوجه إرادتنا إليه بالإهلاك حاجزين . وفي مقطع ص الأول جاء تعالى في قوله : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ بـ(من) الاستغراقية تأكيدا للنفي[٧] . كما أكد بالجملة الاسمية قوله : ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ ، وأكد بالجملة الاسمية وبالقصر في قوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، وهو قصر قلب إضافي ردا على المشركين ما وسموا به القرآن من الاختلاق وغيره[١] . وكذا أكد بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة في قوله : ﴿ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ﴾ ، أي والله لتعلمنّ[٢] . وفي مقطع يوسف الأول أكد تعالى بـ(لقد) في قوله : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ المكوّنة من لام جواب القسم المحذوف على تقدير (والله لقد) ، و(قد) الدالة على التحقيق . كما أكد بالقصر فجاء بـ(لكن) العاطفة في قوله : ﴿ ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ ، فقصر القرآنَ وقصصه على كونه تصديق الكتب السماوية التي قبله ، وأنه هدى ورحمة للمؤمنين به ، لا مختلقا كما يزعمون . وفي مقطع فاطر أكد بالجملة الاسمية وضمير الفصل والقصر المستفاد منه ومن تعريف طرفي الجملة من المسند والمسند إليه ، فقال : ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ﴾[٣] . وقوله بعده : ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ " حال مؤكدة[٤] لكونه حقا ؛ لأن الحق إذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله ، يكون خاليا من احتمال البطلان "[٥] . وفي مقطع يوسف الثاني في قوله : ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ أكد تعالى بـ(إنْ) المخففة من الثقيلة ، واللام الفارقة التي هي – على قول البعض – لام ابتداء مفيدة لتوكيد مضمون الجملة[٦] . وفي مقطع القصص الأول أكد بـ(من) الاستغراقية تأكيدا للنفي في قوله : ﴿ ما أتاهم من نذير﴾ . وفي مقطع ص الثاني أكد بالجملة الاسمية : ﴿ هو نبأ عظيم ﴾ ، ومثلها : ﴿ أنتم عنه

---

(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٩ ، ص ١٤٧ ، وينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج ٨ ، ص ١٠٧ .
(٦) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج ٨ ، ص ١٤٠ .
(٧) ينظر : المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٤١٠ .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٣ ، ص٣١٠ .
(٢) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص٤٢١ ، ود. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ١٢٠ .
(٣) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٢ ، ص ٣٠٩ .
(٤) الحال المؤكدة " هي التي لا تفيد معنى جديدا ، بل تقوي المعنى الموجود قبل مجيئها " د. محمد التونجي، وأ. راجي الأسمر ، **المعجم المفصل** ، ج١ ، ص ٢٦٠ .
(٥) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج ٢٦ ، ص ٢٣٨ .
(٦) ينظر : المرادي ، **الجنى الداني** ، ص ١٢٤ ، ١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معرضون ﴾ ، مع القصر بتقديم ما حقه التأخير من الجار والمجرور (عنه) ، والمعنى أنتم عنه خاصة لا عن غيره معرضون ، والحال أن غيره من المهملات التي لا يصح الانشغال بها عنه[٧] . كما أكد النفي بـ(من) الاستغراقية في قوله : ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى ﴾ . وأكد بالقصر في قوله : ﴿ إن يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين﴾ . وقد ركبت هذه الجملة من طريقين للقصر ، إحداهما طريق النفي والاستثناء بقوله : ﴿ إن يوحى إليّ إلا ﴾ ، والآخر طريق (أنّما) المفتوحة الهمزة ، المفيدة للحصر مثل (إنّما) ، بقوله : ﴿ أنما أنا نذير مبين ﴾[٨] . وهو قصر إضافي ، أي لا كذاب كما زعمتم[٩] . وفي الشورى الثاني أكد تعالى النفي في قوله : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ ، قال ابن عاشور : " وإدخال (لا) النافية في قوله (ولا الإيمان) ؛ تأكيدا لنفي درايته إياه ، أي ما كنت تدري الكتاب ولا الإيمان ؛ للتنصيص على أن المنفي دراية كل واحد منهما[١] . وفي مقطع الإسراء الثاني جاء بـ(إنّ) التوكيدية في قوله :﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ﴾ ، وبـ(إنْ) المخففة من الثقيلة واللام الفارقة في قوله : ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾. وأكد في الشعراء بـ(إنّ) التوكيدية واللام المزحلقة في قوله : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ . وفي مقطع القصص الثاني في قوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ أكد بضمير الفصل (هم) والقصر الإضافي الناشئ عنه ، أي هم يؤمنون بخلاف كفار مكة[٢] . كما أكد بـ(إنّ) التوكيدية والجملة الاسمية في قوله : ﴿ إنه الحق من ربنا ﴾ ، وبـ(إنّ) أيضا في قوله : ﴿ إنّا كنا من قبله مسلمين ﴾ . وفي العنكبوت أكد بالقصر في قوله : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ .

سابعا : التعجيب . مرّ سابقا ذكر هذا الأسلوب ضمن الأسلوب الثاني ، أي أسلوب الاستفهام الوارد للإنكار والتوبيخ والتعجيب . ويضاف إليه هنا ما جاء في مقطع سبأ في قوله تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ ، والمعنى على أحد الوجهين – كما مر – هو التعجيب من سلوكهم تجاه القرآن ومبلغه ﷺ ، وما رموهما به من فرى وأباطيل ، حين لا مانع يصدهم عن الإيمان بهما واتباعهما ، حيث لم يكونوا على هدى

---

(٧) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٦ ، ص ٤٠١ .
(٨) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٨.
(٩) ينظر : الجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٤١٤ .

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٥ ، ص ١٥٣ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٠ ، ص ١٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا دين منسوب إلى الله تعالى حتى تكون تمسكهم به وخشية الوقوع في الضلالة إن فرّطوا فيه يحملانهم على التردد في الحق الذي جاءهم به ﷺ ، وإن كان هذا ليس بعذر صحيح(٣) .

ثامنا : التشنيع . ويظهر من خلال بعض المقاطع . ففي قوله تعالى في يونس الأول : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ ينفي تعالى قول من قال من كفار مكة بأن محمدا ﷺ يفتري القرآن وينسبه إلى الله كذبا ، معبّرا عن هذا بما يتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر ، حيث إنّ المعنى والقرائن والبراهين تقتضي استحالته(٤) . وفي مقطع سبأ يكرر القرآن فعل القول المنسوب إلى المشركين فيقول : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ ، فإعادة فعل القول هنا مع كون جملة القول الثاني معطوفة على جملة القول الأول ، فكلاهما مشترك بظرف التلاوة ، هو للاهتمام بكل قول من القولين الغريبين ؛ تشنيعا لهما في نفس السامعين(١) . ومن التشنيع أيضا ما جاء في قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ، وقوله : ﴿ أم يقولون تقوله ﴾ ، وقوله : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ﴾ في المواضع سالفة الذكر ، حيث عبّر القرآن عن قولهم بصيغة المضارع (يقولون) الدالّ على استمرارهم على هذا القول ، وفي هذا من التشنيع ما فيه ، فإنّ استمرارهم على قولهم هذا مع ظهور دلائل بطلانه ، ومع نكوصهم عن التحدي الذي بارزهم القرآن به ، فيه من الشناعة ما فيه ، فإذا كان قولهم نفسه شنيعا ، فاستمرارهم عليه أشنع(٢) .

تاسعا : التقريع والتوبيخ . إضافة إلى ما مر في الأسلوب الثاني ، فإن هناك مقطعين يظهر فيهما التقريع والتوبيخ من غير طريق الاستفهام ، هما مقطع النحل ومقطع ص الثاني . ففي النحل قال تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ ، فجاء بالجملة المعترضة : ﴿ والله أعلم بما ينزل ﴾ توبيخا للكفرة وتنبيها على فساد رأيهم(٣) . قال الرازي : " أي هو أعلم بجميع ذلك في مصالح العباد . وهذا توبيخ للكفار على قولهم : ﴿ إنما أنت مفتر﴾ ، أي إذا كان هو أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا ﷺ إلى الافتراء لأجل التبديل والنسخ ؟! "(٤) . وفي مقطع ص الثاني قال تعالى : ﴿ قل هو نبأ عظيم ۞ أنتم عنه معرضون ﴾ ، فجملة (أنتم عنه معرضون) توبيخ لهم وتقريع لكونهم أعرضوا عن هذا

---

(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٢ ، ص ٢٢٨ .
(٤) ينظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز** ، ص ٩٠٨ – ٩٠٩ .
(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٢ ، ص ٢٢٦ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٥ ، ج ٨٥ .
(٣) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص ٦٢٨ .
(٤) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص ٢٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النبأ العظيم ولم يتفكروا فيه فيعلموا صدقه(٥) . قال البقاعي : " بكّتهم بقوله واصفا له : ﴿ أنتم عنه ﴾ أي خاصة لا عن غيره ، والحال أن غيره من المهملات " ثم قال : وقد كان ينبغي لكم الإقبال عليه خاصة والإعراض عن كل ما عاداه ؛ لأن في ذلك السعادة الكاملة "(٦) .

عاشرا : التخجيل . قال تعالى في مقطع البقرة : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ ، قال الآلوسي : " والتنوين في (سورة) للتنكير ، أي ائتوا بسورةٍ ما ، وهي القطعة من القرآن التي أقلها ثلاث آيات ، وفيه من التبكيت والتخجيل لهم في الارتياب ما لا يخفى "(٧) .

حادي عشر : التجهيل والتحميق . ويظهران من قوله تعالى في سبأ : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ ، إذ يحتمل معناه وجها آخر غير وجه التعجيب سالف الذكر ، وهو أن يكون ذلك تحميقا لهم لجهالتهم بالمزية التي سينالونها إن هم آمنوا بهذا القرآن وهذا الرسول ؛ لأنهم بذا يكونون في عداد الأمم ذوي الكتاب ، والحال أنهم لم يسبق لهم أن أتاهم كتاب أو رسول من عند الله ، فكان الأولى بهم أن يُسَرّوا ويغتبطوا بذلك(١) . كما أن فيه وجها ثالثا ، هو تجهيلهم وتسفيه رأيهم ، حيث إنه ليس لديهم أي مستند يستندون إليه في تكذيبهم بهذا الكتاب وهذا الرسول ، لا من كتاب سماويّ يرجعون إليه ، ولا من نبيّ مرسل يتمسكون بتعاليمه(٢) . ويظهر التجهيل كذلك في مقطع النحل ، فبعد أن رمى المشركون النبي ﷺ بأنّه مفترٍ احتجاجا منهم بالنسخ وتبديل الأحكام ، قال تعالى ردّا عليهم : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . وفي هذا من التجهيل لهم ما لا يخفى ، فبيّن أن أكثرهم جهلة بالحكم البالغة من وراء ذلك النسخ ؛ ولذا قالوا ما قالوه . كما أنه يظهر من قوله تعالى في يونس الأول : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ ، وفيه – كما قال ابن عاشور – " مبالغة في تجهيل الذين بادروا إلى التكذيب من دون تأمل في شيء حقيق بالتأمل بعد التأمل "(٣) . وكذلك أظهر تعالى حمقهم وقلة عقلهم في قوله في مقطع ص الثاني : ﴿ قل هو نبأ عظيم ۞ أنتم عنه معرضون ﴾ ، فزيادة على ما فيه من توبيخ وتقريع لهم – كما مر – فإن فيه تحميقا

(٥) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٥٢٣ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٣ ، ص ٢٩٧ .
(٦) البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج ٦ ، ص ٤٠١.
(٧) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١ ، ص ٢٦١.

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٢ ، ص ٢٢٨ .
(٢) ينظر : البيضاوي ، **أنوار التنزيل** ، ج٤ ، ص٢٥٠ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص ٢٤٢ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٢٢ ، ص ٤٤٦ .
(٣) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص١٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهم[٤] ، حيث أعرضوا عن هذا النبأ العظيم الذي فيه السعادة الكاملة ، لا عن غيره الذي هو من المهملات ، وقد كان ينبغي لهم الإقبال عليه خاصة والإعراض عن كل ما عاداه .

ثاني عشر : التهكّم . ويظهر من خلال عدد من المقاطع . فقوله تعالى في مقطع يوسف الثالث : ﴿ وما كنتَ لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ ، وقوله في القصص الأول : ﴿ وما كنتَ بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنتَ من الشاهدين ﴾ ، ثم قوله : ﴿ وما كنتَ ثاويا في أهل مدين ﴾ ، ثم قوله : ﴿ وما كنتَ بجانب الطور إذ نادينا ﴾ ، وقوله في آل عمران : ﴿ وما كنتَ لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنتَ لديهم إذ يختصمون ﴾ ، يظهر فيها أسلوب التهكم جليّا واضحا ؛ لأن كونه ﷺ حاضرا تلك الأحداث قبل مئات أو آلاف السنين لهو أمر ظاهر الاستحالة ، فكان نفيه في هذه المقاطع على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي الزاعمين اختلاقه من قبل محمد ﷺ[٥] ، فكأنه تعالى يقول لهم : " إن رسولنا أخبركم بما لا سبيل إلى معرفته بالعقل ، مع اعترافكم بأنه لم يسمعه ولم يقرأه في كتاب ، وتنكرونه أنه وحي ، فلم يبق مع هذا ما يحتاج إلى النفي سوى المشاهدة ، التي هي أظهر الأمور انتفاءً لاستحالتها المعلومة عند جميع العقلاء "[١] ، فبان بذلك وجه التهكم بهم .

كما يظهر هذا الأسلوب في مجيء القرآن بأداة الشرط (إنْ) المستعملة فيما هو مشكوك في وقوعه ، مكان (إذا) المستعملة فيما هو محقق الوقوع[٢] ، في مقطعي البقرة وهود الأول . أما مقطع البقرة فقال تعالى فيه بعد أن تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن : ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ ، قال الآلوسي : " وأتى بـ(إن) والمقام لـ(إذا) لاستمرار العجز – وهو سبحانه وتعالى اللطيف الخبير – ؛ تهكما بهم ، كما يقول الواثق لخصمه : إن غلبتك لم أُبقِ عليك "[٣] . وأما في هود ، فبعد أن تحداهم تعالى بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن وأن يدعوا لذلك من استطاعوا من أصنامهم التي يعبدونها ويرجون نفعها قال : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ ، قال الآلوسي : " وإيراد كلمة الشك مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة من يدعونه ، تهكمٌ بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل "[٤] .

---

(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ج ٢٣ ، ص٢٩٧ .
(٥) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ١٧٢ ، ٥٣٢ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٨ ، ص٢١٩ ، وج١٨ ، ص٥١٨ ، وأبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٣ ، ص١٥٠ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج١ ، ص٤٤٧ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٣ ، ص٢١٠ ، وج١٣ ، ص٨٢ .

(١) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٣ ، ص٢١٠ .
(٢) ينظر : د. فضل عباس، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٣٣٨ .
(٣) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ١ ، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٣١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالث عشر : التحقير . وجاء هذا في مقطعي النحل والإسراء الثاني . ففي النحل قال تعـــالى ردّا على زعمهم كون القرآن مختلقا من عند محمد ﷺ : ﴿ قل نزّله روح القدس من ربك ﴾ ، ولم يقل : من ربكم ، مع كون الخطاب موجها إليهم للرد على فريتهم ؛ لأن في ترك خطابهم من حطّ قدرهم وتحقيرهم ما فيه(٥) . وفي الإسراء قال تعالى : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ﴾ ، قال الرازي : " واعلـــم أن المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم ، وعدم الاكتراث بهم وبإيمـــانهم وامتناعهم منه ، وأنهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم "(٦) .

رابع عشر : التعريض . وجاء في ثلاثة مقاطع هي : النحل والبقرة والإسراء الثاني . ففـــي النحل علّل تعالى تنزيل كتابه الملتبس بالحق الثابت في أخباره وتشريعاته بما فيهـــا الناســـخة والمنسوخة بقوله : ﴿ ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، قال ابن عاشور: " وفي تعلّق الموصول وصلته بفعل التثبيت إيماء إلى أن حصول ذلك لهم بـــسبب إيمـــانهم ، فيفيـــد تعريضا بأن غير المؤمنين تقتصر مداركهم عن إدراك ذلك الحق ، فيختلط علـــيهم الفهـــم ، ويزدادون كفرا ويَضِلّون ، ويكون نذارة لهم "(١) . فهم إذن " متزلزلون ضالون ، موبَّخون ، منذرون بالخزي والنّكال واللعن في الدنيا والآخرة "(٢) . فهو تعريض بحصول أضداد الأمور المذكورة لمن سوى المذكورين من الكفار ، على رأسهم أولئـــك الطـــاعنون فـــي الـــوحي ، المفترون عليه(٣) . ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون ﴾ . وفيه تعريض بكفار قريش أنهم هم الكاذبون المفترون لا محمد ﷺ . وهذا الأسلوب أبلغ من أن يقال : أنتم يا معشر قريش مفترون كاذبون ؛ لما فيه مـــن إقامـــة الدليل على أنهم كذلك مع الوسم عليهم به ، وأنّ من رموه به لا يجوز أن يتعلق بذيله نـــشب منه . أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ؛ لأنه لا يترقّب عقابا عليه ، وقريش كـــذلك ، فهم الكاذبون(٤) . أما ما جاء في مقطع البقرة من التعريض فهو في قوله تعـــالى : ﴿ فـــاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين ﴾ ، قال ابن عاشور : " وفي هذه الآيـــة تعريض بتهديد المخاطبين . والمعنى المعرّض به : فاحذروا أن تكونوا أنتم وما عبدتم وقـــودَ

---

(٥) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٦ ، ص ٥٩٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ١٤ ، ص ٦٢٩ .
(٦) الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢١ ، ص ٤١٨ ، وينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٧ ، ص ١٢٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٥ ، ص٢٤٠ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٥ ، ص ٢٣٢ .

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٤ ، ص٢٨٥ .
(٢) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص٦٣٠ .
(٣) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٠ ، ص٢٧٠ ، وأبوحيان ، **البحر المحيط** ، ج٦ ، ص٥٩٤ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٤ ، ص٦٣٠ .
(٤) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ١٤ ، ص ٦٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النار . وقرينة التعريض قوله : ﴿ فاتقوا ﴾ ، وقوله : ﴿ والحجارة ﴾ ؛ لأنهم لما أُمِروا باتقائها أمرَ تحذير ، علِموا أنهم هم الناس ، ولمّا[٥] ذكرت الحجارة علِموا أنها أصنامهم ، فلزم أن يكون الناس هم عبّاد تلك الأصنام "[٦] . كما أن في قوله :﴿ أعدت للكافرين ﴾ أيضا تعريض بأن هذه النار قد أعدت لهؤلاء المخاطبين من قريش ووثنيي العرب ابتداء ؛ لأن المحاورة معهم[٧] . وأما التعريض الوارد في مقطع الإسراء ، فهو في قوله تعالى : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرّون للأذقان سجدا ﴾ ، قال ابن عاشور : " وفي هذا تعريض بأن الذين أعرضوا عن الإيمان بالقرآن جهلة وأهل جاهلية "[٨] .

خامس عشر : التهديد والترهيب . وورد هذا الأسلوب في ثلاثة مقاطع هي : البقرة والأحقاف وص الأول . أما ما جاء في البقرة فهو في قوله تعالى بعد أن أظهر عجز القوم عن معارضة القرآن : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين ﴾ . وقد بينت آنفا ما فيها من تعريض بتهديد المخاطبين . كما أن فيها تهويلا لصفة النار ، فهي نار تأكل الحجارة ، فكيف بأجساد الناس ؟! ، ففيه من التخويف والترهيب ما لا يخفى . والمعنى : إذا ظهر عجزهم عن معارضة القرآن ، صحّ عندهم صدق محمد ﷺ ، وإذا صح ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار ، فاتقاء النار يوجب ترك العناد . فجعل قوله : ﴿ فاتقوا النار﴾ قائما مقام قوله : فاتركوا العناد . ففيه ترهيب من العناد لا يخفى ؛ لإنابة اتقاء النار منابه ، مُثبِعا ذلك بتهويل صفة النار[١] . وأما ما جاء في الأحقاف ففي قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . فالقوم لما كانوا ظالمين بجعلهم الحق الأبلج التي تظاهرت عليه الأدلة مفترى مختلقا ، حُرموا الهداية لأجل ذلك الظلم . ولا يخفى ما في هذا من ترهيب من ذلك الظلم ، وتهديد لهم بعدم الهداية في المستقبل إن هم أصرّوا عليه[٢] . وأما التهديد الوارد في مقطع ص فهو في قوله تعالى : ﴿ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ﴾ ، ففيه من التهديد والتخويف والترهيب ما لا يخفى[٣] ؛ لأن كفار مكة وهم في تمام اختيارهم وبحبوحة حالهم ، لم يؤمنوا بهذا القرآن رغم تظاهر الأدلة على حقيّته ، فلا يتصور منهم الاقتناع بهذه الحقيّة إلا أمام أمر عظيم يلجئهم إلجاءً إليه رغما عن عنادهم وأنفتهم وكبريائهم . وهذا إمّا

(٥) هي في الأصل (إما) ولعله خطأ طباعي ، والصواب (لمّا) وهو الذي أثبتّه أعلاه .
(٦) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١ ، ص ٣٤٥.
(٧) ينظر : المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٤٥ .
(٨) المصدر نفسه ، ج١٥ ، ص ٢٣٣ .

(١) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٨ ، ص ١٢ (بتوسّع) .
(٣) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٩٣٣ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٢٦ ، ص ٤١٧ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٦ ، ص٤٢١ ، والألوسي ، **روح المعاني** ، ج٢٣ ، ص ٣٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين يرون عذاب السيف يقطع رؤوسهم دون قدرة على المقاومة كما حدث في بـدر ، وإمّـا حين تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ، فعند ذلـك يقتنعـون ، ولكـن حـين لا تنفـع القناعة !! .

سادس عشر : التحسير مع إظهار الرأفة والعطف . إن قوله تعالى في مقطع ص الثـاني : ﴿ قل هو نبأ عظيم ۞ أنتم عنه معرضون ﴾ كما أنه محتمِل أن يكون مسوقا للتقريع والتوبيخ أو للتحميق – كما مر– ، فهو محتمِل أيضا أن يكون للتحسير ، وهو الإيقـاع فـي الحـسرة والندم على ما فات من الخير[٤] . وهو ما ذهب إليه الإمام الآلوسي حيث قـال : " والكـلام بجملته تحسير لهم ، وتنبيه على مكان الخطأ ، وإظهار لغاية الرأفة والعطف الـذي يقتـضيه مقام الدعوة "[٥] . والمعنى : أن هذا القرآن نبأ عظيم شأنه ، فهو شرف وخير وبركة وسؤدد لمن آمن به واتبعه ، لكنكم يا معشر قريش عن هذا الشرف والخير معرضون غير ملتفتـين إليه ، ففاتكم بذلك الفضلُ العظيم ، الذي لو نلتموه لسدتم الناس ، ولكنتم القادة ، ولفزتم بخيري الدنيا والآخرة . وفي هذا تحسير لهم ما بعده تحسير ، إلى جانب ما فيه من الرأفة والعطـف والشفقة التي أشار إليها الآلوسي ، والله أعلم .

سابع عشر : الترغيب في النظر والاستدلال . كما أنّ في مقطع ص آنف الذكر وجها رابعـا قد ذكره الإمام الرازي في تفسيره ، وهو أن يكون ذلك ترغيبا لهم فـي النظـر والاسـتدلال والتأمل والتفكر والبعد عن التقليد الأعمى . فكأنه تعالى يقول : هذا القرآن نبأ عظيم الشأن ، أنتم يا معشر قريش عنه معرضون لا تتفكرون ولا تتأملون فيه فتعرفون حقيّته ، فتنالون بذلك سعادة الدارين وتنجون من شقاوتهما ، فإن مثل هذا الأمر مما يوجب صـريح العقـل علـى الإنسان أن يأخذ فيه بالاحتياط التامّ ، ولا يكتفي بالمساهلة والمسامحة[١] .

ثامن عشر : الاستدراج والكلام المنصف . ويظهر هذا في قوله تعالى في مقطع هود الثاني : ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ﴾ ، قال ابن عاشور : " وهذا جارٍ على طريقة الاستدراج لهم والكلام المنصف "[٢] . وهو أسلوب من أساليب المناظرة ، ويسمى إرخاء العنان ، وهـو أن يجاري المجادلُ خصمَه ويداريه في الكلام ، بحيث يتجنّب كل ما يوجب تغيّظه واحتداده فـي الجدال ، دون أن يتنازل المجادلُ عن ثوابته ، وبحيث يشهد له كل من سمعه مـن مـوال أو

---

(٤) ينظر : الفيروز آبادي ، **القاموس المحيط** ، ص ٤٠١ ، والراغب ، **المفردات** ، ص ١٢٥ .
(٥) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ٢٣ ، ص ٢٩١ .

(١) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج ٢٦ ، ص ٤٠٧ .
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٢ ، ص ٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مخالف بالإنصاف مع خصمه ، وذلك كي يستدرج خصمه إلى التأمّل فيما يقوله دون أن يتعجل في ردّه[٣] ، والله أعلم . فالتسليم الجدلي باحتمال صدق ما قالوه في حقه ﷺ بقوله تعالى : ﴿ قل إن افتريته ﴾ هو من إرخاء العنان لهم لاستدراجهم . كما أنّ قوله : ﴿ فعليّ إجرامي ﴾ هو كلام منصف لا ينكره أحد ، أي إن صحّ أني افتريته فعليّ وحدي وزر ذلك وتبعته دونكم ، فلا تسألون عن عملي ، كما أني لا أسأل عن أعمالكم . لكنهم حين يتأملونه يجدونه ردا عليهم ونقضا لفريتهم . كما يظهر هذا الأسلوب في قوله تعالى في مقطع هود الأول : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ ، فنعْتُ السور بـ(مفتريات) ليس له دور أو غرض في مقام التحدي الذي سيقت له الآية ، وإنما ذكر على سبيل المساهلة وإرخاء العنان ، أي: إن صحّ أنّي اختلقته من عند نفسي فأتوا أنتم بعشر سور مثله مختلقات من عند أنفسكم[٤]. فهو كلام قمّة في الإنصاف وإرخاء العنان ، ووسيلة عظيمة لاستدراج عقولهم للتأمل . وكذا يظهر في قوله تعالى في مقطع يونس الثاني : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته ، إنه لا يفلح المجرمون ﴾ ، أي " أن المفتري على الله كذبا والمكذبين بآياته كلاهما أظلمُ الناس ، لا أحد أظلم منهما . وذلك من مجاراة الخصم ليعثُر ، يخيّل إليه من الكلام أنه إنصاف بينهما ، فإذا حصحص المعنى وجد انصبابه على الخصم وحده "[١] . ومن هذا الأسلوب أيضا ما جاء في مقطع الأحقاف في قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ﴾ ، فأتى بـ(إنْ) المستعملة لما هو مشكوك في وقوعه ، مستعمِلا بهذا أسلوب التشكيك لا أسلوب الجزم ، يريد به هنا زعزعة الإصرار والعناد في نفوس أهل مكة ، وإثارة التخوّف والتحرّج فيها من المضيّ في التكذيب ، ما دام هذا القرآن يحتمل أن يكون من عند الله حقا كما يقول محمد ﷺ ، وفي هذه الحالة تكون العاقبة وخيمة ، فأولى لهم أن يحتاطوا لهذا الاحتمال الذي قد يصحّ ، خاصة وأن بعض أهل الكتاب يشهد بصدق هذا القرآن ويؤمن به[٢].

عشرون : الإلهاب وشحذ الهمم . ويظهر هذا في عدة مقاطع . ففي الطور وهود الأول ويونس الأول والبقرة قال تعالى بعد أن تحدى قريشا وسائر العرب بمعارضة القرآن أو جزء منه : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ ، وهذا إلهاب لعزيمتهم وإثارة لحماسهم ؛ إذ عرّض بعدم صدقهم

---

(٣) هذا التعريف هو ما فهمته من كلام المفسرين الذين ذكروه وأشاروا إليه في تفاسيرهم ، كالزمخشري والآلوسي وابن عاشور . ولم أجد له تعريفا فيما بحثت فيه من الكتب المصنفة في علم الجدل والمناظرة . ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٨٧٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢١ ، ص١٦ ، وج٢٢ ، ص ١٩٢ . وعبّر عنه السيوطي بالقول بانه " مجاراة الخصم ليعثر، بأن يسلّم بعض مقدماته ، حيث يراد تبكيته وإلزامه " . السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت : ٩١١ هجرية) . **الإتقان في علوم القرآن** ، ط١، مجلد واحد ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٤م ، ص ٥١١ . كما سمّاه الزركشي في البرهان :" إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسم العناد " . الزركشي ، **البرهان** ، ج٣ ، ص٤٦٥ .

(٤) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٢ ، ص ٣٠٩ .

(١) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص ١٢٣ .

(٢) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج٢٦ ، ص ٣٢٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باستعمال أداة الشرط (إن) الدالة على عدم الجزم بالشيء ، مما يحفزهم ويوفر من دواعــيهم على معارضة القرآن[٣] ، إذ لو لم يعارضوه فهم كاذبون . كما يظهر هذا الأسلوب في مقطع البقرة في قوله تعالى بعد أن تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ ، وهذا – كما قال القرطبي – " إثارة لهممهم ، وتحريك لنفوسهم ؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع "[٤] .

حادي وعشرون : التدرج بالخصم في درجات النظر . جاء هذا في مقطع الأحقاف ، فبادأهم تعالى فيه بالأمر لنبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾ ، ثم قـال : ﴿ قـل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنـي إسـرائيل علـى مثلـه فـآمن واستكبرتم ﴾ ، قال ابن عاشور : " وهذا استدراج لهم للوصول إلى الحق في درجات النظر ، فقد بادأهم بأنّ ما أحالوه من أن يكون رسولا من عند الله ليس بمحال ؛ إذ لم يكن أول النـاس جاء برسالة من الله ، ثم أعقبه بأن القرآن إذا فرضنا أنه من عند الله وقد كفرتم بذلك ، كيـف يكون حالكم عند الله تعالى ؟ . وأقحم في هذا أنه لو شهد شاهد مـن أهـل الكتـاب بوقـوع الرسالات ونزول الكتب على الرسل ، وآمن برسالتي ، كيف يكـون انحطاطكم عن درجتـه وقد جاءكم كتاب فأعرضتم عنه ؟ "[٥] .

ثاني وعشرون : الترقي . ويظهر في قوله تعالى في مقطع هود الثالث : ﴿ تلك مـن أنبـاء الغيب نوحيها إليك ، ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ ، قال الآلوسي : " وذِكْـر القوم معه ﷺ من باب الترقي ، كما تقول : هذا الأمر لا يعلمه زيد ولا أهل بلده ؛ لأنهم مـع كثرتهم إذا لم يعلموا ذلك فكيف يعلمه واحد منهم ، وقد عُلم أنه [ﷺ] لم يخالط غيـرهم "[١] . ومن الترقّي كذلك في إبطال دعوى القوم ما جاء في مقطع يونس الأول ، حيث ارتقى القرآن من نفي فريتهم بقوله تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ إلى الاسـتفهام الإنكاري التعجبي منها[٢] ، بقوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ . ولا ريب أن الثـاني أقـوى فـي الإبطال من الأول .

ثالث وعشرون : التفنيد قبل التعجيب . ذلك لأن التفنيد يُظهر بطلان الفرية للـسامع ، فـإذا أُعقِب بالتعجيب منها أشعره ذلك بمزيد الاشمئزاز والتعجّب من حماقة قائلها . وقد ورد هـذا في مقطع يونس الأول ، فبدأ فيه تعالى بالقول : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله

(٣) ينظر : البقاعي ، **نظم الدرر** ، ج٧ ، ص٣٠٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١ ، ص٣٤١ ، وج٢٧ ، ص٦٧ .
(٤) القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج١ ، ص ١٦٣ .
(٥) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٦ ، ص ١٨ – ١٩ .

(١) الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج ١٢ ، ص ٣٨٠ .
(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص ١٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العــالمين ﴾ ، ثــم أعقبــه بقوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ، قال ابن عاشور : " ومن بديع الأسلوب وبليغ الكلام أن قُــدّم وصف القرآن بما يقتضي بعده عن الافتراء ، وبما فيه من أجلّ صفات الكتــب ، وبتــشريف نسبته إلى الله تعالى ، ثم أُعقِب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراءه ؛ ليتلقى الــسامع هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز والتعجب من حماقة أصحابها ؛ فلذلك جُعلت دعواهم افتراءه في حيّز الاستفهام الإنكاري التعجيبي "[٣] .

رابع وعشرون : التشريف مع إظهار الرعاية والعناية بالمفترى عليه . وورد هذا في أربعة مقاطع ، فقال تعالى في النحل : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ﴾ . وقال في السجدة : ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ ، وقال في القصص الأول : ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ . فإضافة الربّ إلى كاف الخطاب هو تشريف للرسول ﷺ باختصاص الإضافة ، كما أن فيه معنــى التــدبير والعناية به عناية الربّ بالمربوب[٤] . قال سيد قطب : " إنما هذه الإضافة هنا للتكريم ، تكريم الرسول الذي يتهمونه بالافتراء ، وإلقاء ظلال القربى بينه وبين ربه رب العالمين ؛ ردا على الاتهام الأثيم ، وتقريرا للصلة الوثيقة التي تحمل مع معنى التكريم معنــى وثاقــة المــصدر وصحّة التلقي ، وأمانة النقل والتبليغ "[١] . كما يظهر هذا التشريف في مقطع البقرة في قولــه تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ ، فوصف تعــالى رسوله ﷺ بالعبودية له . وهو تشريف وتقريب له ﷺ بإضافة عبوديته لله تعالى ؛ ذلك لأن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى به بشر[٢] .

خامس وعشرون : التفخيم والتعظيم لشأن المطعون فيه . وأقصد بالمطعون فيه القرآن ، فقد جاء تفخيمه وتعظيمه في مقطع ص الثاني ، بقوله تعالى عنه : ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ . وكذا بالإشارة إليه باسم الإشارة (هذا)[٣] في مقطع الإسراء الأول بقوله تعالى : ﴿ قل لو اجتمعــت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ ، وبقوله فــي مقطــع يــونس الأول : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ ، وبقوله في مقطع يوسف الثــاني : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ .

---

(٣) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص١٧٠ .
(٤) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٦ ، ص ٥٩٤ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١٤ ، ص ٢٨٤ ، وج٢٠ ، ص ١٣٤ .

(١) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج ٢١ ، ص ٢٨٠٦ .
(٢) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١ ، ص ٤٨ .
(٣) ينظر : أبو حيان ، **البحر المحيط** ، ج٦ ، ص ٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المطلب السادس : أنموذج من بلاغة القرآن في إيراد الفرية وردّها

إنه بالنظر إلى طول هذا المبحث ، فإني رأيت أن أختار لهذا المطلب مقطعا أراعي فيه القِصر والوجازة ، مع كونه مشتملا على الحد الأدنى من عناصر الفرية ، وهو إيرادها وردها ، وهما الركنان الأساسيان من كل فرية ؛ ولذا وقع اختياري من بين المقاطع على مقطع هود الثاني ليكون أنموذجا لهذه الدراسة .

قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾(هود : ٣٥)

التحليل البياني للنص :

جاءت هذه الآية معترضة أثناء حديث القرآن عن خبر نوح عليه السلام وما جرى بينه وبين قومه ، والمصير الذي انتهى إليه الفريقان من إنجاء نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، وإغراق الباقين . وقد جيء بها في تضاعيف هذه القصة لما للقصة من تفاصيل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عجيبة تدعو المنكرين إلى تذكّر إنكارهم لحقيّة الوحي الإلهي المتمثل في القرآن العظيم النازل على محمد ﷺ ، والمخبر بهذه القصة بتفاصيلها ، وأنّ كون ذلك مطابقا لما حصل في زمن نوح عليه السلام ، تشهد له كتب بني إسرائيل وعلماؤهم ، مما يدل على صدق محمد ﷺ ؛ لأن علمه بذلك مع أميّته ، وبعد قومه عن أهل الكتاب آية على أنه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[١] . فأضرب الله تعالى عما سبق مما قصه من هذه القصة منتقلا إلى إنكار ما زعمه كفار مكة من كون هذا القرآن من افتراء محمد ﷺ رغم مجيئه بتلك الأخبار الصادقة الحقة ، القاطعة بأنها وحي من الله تعالى . فكأنه يقول : وبعد هذه القصة وتفاصيلها العجيبة القاطعة بصدقك يا محمد وحقية ما جئت به ، أما زالوا يرددون فريتهم وبهتانهم بأن هذا القرآن الذي أنزل عليك من افترائك واختلاقك ؟! . فحرف (أم) هنا للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض . والاستفهام الذي تؤذن به همزته المقدرة[٢] للإنكار والتوبيخ والتعجيب – كما مر– . قال ابن عاشور : " وموقع الإنكار بديع لتضمنه الحجة عليهم "[٣] . أي إنّ مجيئه تعالى بهذا الإنكار وسط قصة نوح عليه السلام يذكّر كفار مكة بأنها دليل على بطلان فريتهم ليتأملوا حالهم ويراجعوا حساباتهم . كما أن هناك مناسبة أخرى لمجيء هذا الاعتراض في ثنايا القصة ذكرها أبو السعود حيث يقول : " فكأنه إنما جيء به في تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيّتها ، وتأكيدا لوقوعها ، وتشويقا للسامعين إلى استماعها ، لا سيما وقد قُصّ منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه من المحاجّة ، وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم "[١] . وجيء بالفعل (يقولون) بصيغة المضارع المفيد للتجدد والاستمرارية ليتوجه التوبيخ لاستمرارهم على هذا القول الشنيع مع ظهور دلائل بطلانه ، فإذا كان قولهم هذا شنعا من القول ، فاستمرارهم عليه أشنع[٢] . واستعملوا في رميهم له ﷺ بالكذب فعل الافتراء الذي هو في الأصل اللغوي من (فري الأديم) أي : قطع الجلد ؛ لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود[٣] ، أو لأنه يصطنع قولا منقطعا ليس له أصل[٤] ، فهو كذِب ، وصاحبه يسمى مفتريا أو مختلقا له

---

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١٢ ، ص ٦٣- ٦٤ .
(٢) (أم) هنا منقطعة ، تقدّر بـ(بل) والهمزة ، وتدل على الإضراب مع الاستفهام ، أي : بل أيقولون ... ؟! . ينظر : المرادي ، **الجنى الداني** ، ص ٢٠٥ .
(٣) ابن عاشور ، **التحرير والتنور** ، ج١٢، ص ٦٤ .

(١) أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٣٠٩ .
(٢) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ٢٥ ، ص ٨٥ .
(٣) ينظر : الراغب ، **المفردات** ، ص ٣٨٠ ، والرازي ، **التفسير الكبير** ، ج٨ ، ص ٢٩٤ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج١ ، ص ٤٩٠ .
(٤) وهو ما فهمته من خلال قراءتي لما قاله العلماء ، خاصة ابن منظور في **لسان العرب** ، ينظر : ج١١ ، ص ١٧٦ – ١٧٧، مادة (فرا) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، وتسمى كذبته فرية . فاتهموه ﷺ بالافتراء ليبيّنوا أنّ ما جاءهم به من القرآن كلام مكذوب لا أصل له عن الله . واستعملوا فعل الافتراء دون الكذب مع أن الافتراء هو الكذب ؛ لأن الكذب أعمّ من الافتراء ، والافتراء أخصّ منه . فالكذب هو الخبر المخالف للواقع سواءً وافق ذلك اعتقاد المخبر به أم كان مخالفا له ، أما الافتراء فهو كذب متعمّد مخالف لاعتقاد المخبر به قطعا(٥) . فلو وصفوه ﷺ بالكذب لم يتحقق لهم هدفهم من التنفير عنه كما يحققه وصفه بالافتراء ؛ لأن الأول قد يجد له من يهوّن من أمره ، معلّلا له بحصول الوهم والخطأ لفاعله ، فلا يستحق الذّمّ الشديد . أما الثاني فلا يعطي مجالا لأي تهوين أو تساهل ، وصاحبه يستحق الذم الشديد الذي لا مسامحة معه . وجاءوا بفعل الافتراء بصيغة الماضي (افترى) رغم أن القرآن كان لا يزال ينزل على النبي ﷺ ، فكان الأوْلى لهم أن يعبّروا عنه بصيغة المضارع المفيدة لمعنى التجدد والاستمرارية ، وهي المطابقة للواقع ، فيقولوا : (يفتريه) ، لكنهم لم يستعملوها لا في هذا المقطع ولا في غيره ؛ لأنهم – والله أعلم – لم يكونوا يريدون بدافع كبريائهم وأنفتهم الاعتراف الضمني له ﷺ بأنه يفوقهم في ميدان الفصاحة والبيان بعد ما تُحدّوا مرارا بأن يعارضوا القرآن بمثله أو بجزء منه ، ولم يستجيبوا بسبب عجزهم عن ذلك ، فقصروا كلامهم على ما نزل من القرآن دون التفات إلى ما سينزل ؛ لأنهم لو قالوا : (يفتريه) لوصموا أنفسهم بالعجز أمامه ﷺ ؛ لأنهم بهذا يقرّون بأنه يستطيع أن يأتيَ بذلك الكلام متى شاء ، لكنهم مع توفر الدواعي وشدة الحاجة لم يأتوا بمثله من شيء ! . وجيء بضمير النصب وهو هنا هاء الكناية العائدة على القرآن ؛ لكونه – أي القرآن – مفهوما من السياق(١).

وجيء بجملة (قل...) مفصولة عن التي قبلها ، والتقدير أن تكون معطوفة بالفاء ، أي : فقل ... ، لكنها فصِلت لوقوعها في سياق المحاورة ، جريا على طريقة القرآن الغالبة في حكاية المحاورات ، وهي طريقة اتبعتها العرب ، فحذفوا العاطف في ذلك كراهية تكريره بتكرير أفعال القول ، فإن حكاية المحاورة تقتضي إعادتها في الغالب . وإذا عطفوا بالفاء في بعض الأحيان فلنكتة بيانية تقتضي مخالفة الاستعمال(٢) . ولمّا فُصِلت هذه الجملة بحذف العاطف صارت مستأنفة استئنافا بيانيا للإجابة عن سؤال مفهوم من الجملة التي قبلها تقديره أن يقول ﷺ : وبماذا أردّ عليهم يا ربّ ؟ ، فيقول تعالى له : قل إن افتريته ... الآية(٣) . قال ابن عاشور : " وأُمِر النبيُّ ﷺ أن يُعرِض عن مجادلتهم بالدليل لأنهم ليسوا بأهل لذلك ؛ إذ

---

(٥) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٤ ، ص١٠ .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٢ ، ص ٦٤ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٤٠١ ، وج١٢ ، ص ٦٤ .
(٣) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها - علم المعاني** ، ص ٤١٤ – ٤١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقيمت عليهم الحجة غير مرة ، فلم تغن فيهم شيئا ؛ فلذلك أجيبوا بأنه لو فرض ذلــك لكانــت تبعة افترائه على نفسه لا ينالهم منها شيء "[٤] . وجيء بــ(إنْ) الشرطية المفيــدة لاحتماليــة وقوع فعلها وعدم الجزم به ؛ لأن المراد هنا هو الفرض البحت[٥] ، أي : إن صح وثبت أني افتريته[٦] . والفاء في (فعليّ) هي الرابطة لجواب الشرط . واستُعمِل الحرف (علــى) المفيــد للاستعلاء والتمكن ، مع الإجرام وهو اكتساب السيئة والذنب وما يوجب الإثم[٧] ؛ لأنّ (على) مؤذن بالمؤاخذة وتحمل الأعباء[٨] ، والذنب عبء ثقيل على فاعله متمكّن منه ، فهو مؤاخَذ به لا محالة[٩] ، كما في قوله تعالى: ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ﴾(فصلت : ٤٦) ، فجاء بــ(على) في مقام السيّئة وباللام المؤذنة بالعطاء في مقام الحسنة[١٠] . " وتقديم (عليّ) مؤذن بالقصر ، أي إجرامي عليّ لا عليكم ، فلماذا تكثرون ادعاء الافتراء كأنكم ســتؤاخذون بتبعَته . وهذا جار على طريقة الاستدراج والكلام المنصف "[١١] ، مجاراة لهــم واســتنزالا لطائر جماحهم كي يتأمّلوا فيما يقوله لهم دون احتداد أو تعجّل في الردّ ، فيخيّــل إلــيهم أنــه إنصاف بينه وبينهم ؛ لأن أصل الكلام : إن كنت افتريته فعليّ وبال جرمي ، وإن كنت صادقا وكذبتموني فعليكم وبال ذلك التكذيب ، إلا أنه حُذفت هذه البقية لدلالة الكلام عليهــا[١] . فــإذا حصحص المعنى لهم وجدوه منصبّا عليهم وحدهم ، وأنهــم هــم المتــصفون بــالإجرام لا هو ﷺ[٢] . والقصر هنا إضافي ، وهو قصر إفراد ، فعوملوا كأنهم يعتقدون أنهــم ســيلحقهم وزر من ذلك الافتراء المزعوم اشتراكا مع مفتريه[٣] . وعُبّر بالإجرام دون الذنب ، فلم يقل : فعليّ ذنبي ؛ لأنّ الإجرام في حقيقته فعل الذنب العظيم[٤] ؛ ولذا لم يُضَف في القرآن وصــفا ثابتا إلا إلى الكافرين والعتاة منهم ، أما الذنب فأضيف إلى المؤمن والكــافر[٥] . كمــا عبّــر بالإجرام دون الافتراء المتفق في مادته اللفظية مع فعل الشرط (افتريته) ، فلم يقــل : فعلــيّ

---

(٤) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٢ ، ص ٦٤ .
(٥) ينظر : أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٣٠٩ .
(٦) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٤٨٣.
(٧) ينظر : القرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج٩ ، ص ٢١ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٣٠٩ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٨٠١ ، وابن عاشور ، **التحري والتنوير** ، ج١٢ ، ص ٦٤ .
(٨) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٤ ، ص ٣١٩ .
(٩) ينتظر : المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص ٦٤ .
(١٠) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٤ ، ص ٣١٩ .
(١١) المصدر نفسه ، ج ١٢، ص ٦٤ .

(١) ينظر : الرازي ، **التفسير الكبير** ، ج١٧ ، ص ٣٤٣ ، والقرطبي ، **الجامع لأحكام القرآن** ، ج٩ ، ص ٢١ ، والجمل ، **الحاشية** ، ج٣ ، ص ٤٤٤ .
(٢) مر بيان ذلك في المطلب السابق ضمن أسلوب الاستدراج والكلام المنصف .
(٣) ينظر : د. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم المعاني** ، ص ٣٦٥ .
(٤) ينظر : أبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٢٦٥ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١١ ، ص ٢١٦ ، وابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج ١١ ، ص ٢٤٨ ، وج٣٠ ، ص ٢١٠ .
(٥) ينظر : محمد فؤاد عبد الباقي ، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ، ص ٢١١ – ٢١٢ ، مادة (جرم) ، وص ٣٥٠ – ٣٥١ ، مادة (ذنب) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إفترائي ؛ كي يبيّن لهم أن الافتراء ذنب ، بل ذنب عظيم ، وهو ﷺ يعلم أنه كذلك ، فمستبعد أن يرتكبه[٦] . وهذا أوجز وأبلغ وأبيَن للمقصود ؛ لما فيه من إقامة الإجرام مكان الافتراء . وأطلق تعالى الإجرام وأراد تبعته ووباله ، على سبيل المجاز المرسل ، وعلاقته السببية ؛ لأن الإجرام وكسب الإثم سبب في العقاب والوبال[٧] .

وجملة (وأنا بريء مما تجرمون) معطوفة على الجملة الشرطية . وهي تأييد وتأكيد للكلام بمقابله ، فإن الشيء يؤكّد بضده . والمعنى : فعليّ وحدي تبعة إجرامي ، كما أن إجرامكم لا تنالني منه تبعة[٨] . وإيرادها بصيغة الجملة الاسمية تأكيد لمضمونها . ونظمها هكذا دون أن يقول : (وعليكم إجرامكم) مقابلة لقوله : (فعليّ إجرامي) مع كونه أوجز ؛ لأن في ذلك غرضا بديعا ، هو إفادة تبرئة نفسه ﷺ من أن يفتري القرآن[٩] . وإعلان البراءة التي هي لغةً الخلاص والسلامة مما يضرّ أو يشقّ أو يكلف كلفة ، والدفع للتبعة[١٠] ، فيه إشعار لهم بأنه ﷺ عالم بما للافتراء على الله من ضرر وتبعة تلحق صاحبها ؛ ولذا فمستبعد أن يفعله ، وهو بريء منه . وهذا كما أعلمهم سابقا أنه إجرام وذنب عظيم مشعرا لهم كذلك باستبعاد ارتكابه له . وكلا الإشعارين مكملان لبعضهما في إثبات براءته ﷺ من تهمة الافتراء ، فتجريم الفعل لا يكفي وحده في إثبات ذلك ؛ لأن المجرم قد يعترف بجرم الفعل ، لكنه يبقى مُصِرّا على اقترافه لشعوره بأنه غير محاسب ولا مؤاخذ عليه ، كأن يكون ممنوعا بوجه ما . أمّا إذا أقر بالتجريم مع العقاب والمؤاخذة على فعل الجرم فقد أثبت أنه بعيد عما رمي به من تهمة .

و(ما) إمّا مصدرية ، وإمّا موصولة مع حذف العائد ، وهو مشهور في القرآن . فباعتبارها مصدرية يكون ﷺ قد استدرجهم للتأمل بقوله : (إن افتريته فعليّ إجرامي) ، ثم خلص نفسه من فريتهم وألصقها بهم بقوله : (وأنا بريء مما تجرمون) ، أي من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ ، فلا وجه لإعراضكم عنيّ ومعاداتكم لي[١] ، فالإجرام منكم لا مني . وهذا هو السر في أنه لم يقل : (وأنا بريء من افترائكم) أي نسبتكم إياي إلى الافتراء ، بل عدل عنه إدماجا لكونهم مجرمين وأن المسألة معكوسة[٢] . وأما باعتبار (ما) موصولة فيكون معنى

---

(٦) ينظر : سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ج١٢ ، ص ١٨٧٦ .
(٧) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٢ ، ص ٣٤٤ ، ود. فضل عباس ، **البلاغة فنونها وأفنانها – علم البيان** ، ص ١٤٩ .
(٨) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج١٢ ، ص ٦٥ .
(٩) ينظر : المصدر نفسه ، ج١٢ ، ص ٦٥.
(١٠) ينظر : المصدر نفسه ، ج١٠ ، ص ١٠٣ ، وج٢٧ ، ص٢١٠.

(١) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٤٨٣ ، وأبو السعود ، **إرشاد العقل السليم** ، ج٣ ، ص ٣٠٩ ، والشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٨٠١ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٢ ، ص ٣٤٤ .
(٢) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٢ ، ص ٣٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكلام : إن كنت افتريت هذا القرآن ، فعليّ تبعة هذا الجرم دونكم ، كما أنه ليس عليّ تبعة من وراء ما تفعلونه من جرائم . فظاهر الكلام أنه منصف بينه وبينهم ، لكنهم بعد التأمل فيه يجدون فيه تعييرا لهم وتشنيعا لسلوكهم ، اعتمادا على ما يفيده الفعل المضارع من معنى التجدد والاستمرارية ، فكأنه يريد أن يقول لهم : أنتم تنسبون إليّ جرما واحدا ، في حين أنكم ترتكبون الجرائم ، فحالكم – إن صح ما تنسبونه إليّ– أقبح من حالي ، أفلا تستحيون وتخجلون من صنيعكم هذا فتتركونني وشأني وتلتفتون إلى أنفسكم ؟! . وهذا المعنى يؤيده قول الشاعر الذي صار مثلا سائرا :

لا تنهَ عن خلُقٍ وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلتَ عظيم [٣]

فكيف بمن يفعل أمثاله ! ، بل كيف بمن يفعل أمثاله ويفتري على غيره ما هو بريء منه ؟! ، كما هو حال كفار مكة مع النبي ﷺ ، فلا ريب أن هذا من القبح بمكان لا ينكره كل ذي عقل سليم وفطرة سليمة . والله أعلم .

المطلب السابع : شبهة وردّ

متابعة لسلسلة الفِرى التي نطقت بها ألسنة المستشرقين الحاقدين من كفرة الغرب من يهود وصليبيين ، المشابهة لما نطقت بها قبلهم ألسنة العتاة من مشركي مكة قبل مئات السنين ، فإني أورد هذه المرة فرية أخرى من فراهم القديمة الجديدة ، التي تعدّ تطويرا وتجديدا لما قدّمه كفار مكة قديما من حيث زعمهم أن القرآن ما هو إلا كلام مختلق من قبل محمد ﷺ ، وليس وحيا إلهيا . وهي فرية تعددت فيها مسالكهم ، وتناقضت فيها نظراتهم ، كما سيظهر فيما يأتي . ومن القائلين بها على اختلاف مسالكهم (أندرسون) و(إميل درمنغم) و(جب) و(جولد زيهر) و(جوستاف لوبون) و(مونتغمري واط) و(براديه) و(إدمون باور) و(واشنجتن إرفنج) و(لودي) . وهؤلاء انقسموا فيما زعموه إلى ثلاث اتجاهات : **الأول** : القول بأنّ محمدا ﷺ كان – وحاشاه – كذابا مخادعا ، وأن القرآن طائفة من الأخاديع لفقها ليسوّغ ما اقترفه حتى يبلغ ويحقق مطامعه . زعم هذا الأفّاك (براديه)[١] . **الثاني** : التفريق بين

---

(٣) البيت من شعر المتوكل بن عبد الله الليثي ، وهو من شعراء الإسلام . ينظر ، الأصبهاني ، **الأغاني** ، ج ١١ ، ص ٤٣٢٦ .

(١) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المرحلتين المكية والمدنية . ففي مكة كان ﷺ صادقا مخلصا في دعوته وما جاء به ، أما في المدينة فيرى صاحب هذا الاتجاه وهو المدعو (إدمون باور) أنه ﷺ – وحاشاه – قد أعماه نجاحه لدرجة أنّه أخذ يخترع الوحي تلو الوحي لتحقيق شهواته وتسويغ انتهازيّته . وتابعه على هذا الكاتب الأمريكي (واشنجتن إرفنج) الذي يرى بأن النصف الأول من دعوته ﷺ يكذب هذه التهمة ؛ فمال خديجة رضي الله عنها كان عنده ، كما كان هو شريفا في قومه ، محترما لذكائه وأمانته وصدقه ، ومكانة أسرته ، فلماذا يغامر بفقدان كل هذا ؟ ، ولماذا يتحمل كل ألوان الاضطهاد إذا كان نبيا مزيفا ؟! . أما في المدينة فقد تغيّر ، فبعد أن كان همّه أن يجد من يحميه إذا به يرى أتباعه يقدّسونه ، ويرى حوله جموعا بها رغبة إلى الحرب ، عندئذ ثار طموحه الدنيويّ ، وأصبح القرآن يسوّغ له كل شيء ، ووقع في كثير من المتناقضات ، باختصار : زال عنه صدقه وإخلاصه ، على حد زعمه(٢) . **الثالث** : أنه ﷺ – وحاشاه– كان واهما مخدوعا . وفسّر أصحاب هذا الاتجاه – وهم من تبقى ممن سلف ذكرهم باستثناء أصحاب الاتجاهين الأول والثاني(٣) – ما جاء به من القرآن بأنه ناتج عما يسمى بـ(الوحي النفسي) . وفحوى هذه الشبهة هو أن القرآن ناتج عن تأملات الرسول الشخصيّة ، وخواطره الفكرية ، وسبحاته الروحية(١) ، والخيال الخصب الخلاق الذي كان يتمتع به . وهو ما سمّاه (أندرسون) بـ(التفكير الرغبيّ) . حتى كان من نتيجة هذه التأملات والخواطر أن يخيّل إليه أن شيئا ما قادم من خارج عقله ، وهو في الواقع آتٍ من عقله الباطن(٢) . وما كان ذلك ليكون لولا عبقريّته الفذّة ، ونفسه السامية ، وفطرته السليمة(٣) . فنفسه إذن هي منبع ما جاء به ؛ لأنه لم يثبت علميا أن هناك غيبا وراء المادة يصح أن يفيض منه علم أو يأتي منه دين(٤) ؛ فمحمد إذن – بحسب زعمهم – مخطئ في اعتقاده أن القرآن رسالة إلهية ، بل هو من عند نفسه بطريق الإلهام ، فهو فيض عقله الباطن وليس من عند الله(٥) . يقول الشيخ محمد رشيد رضا ملخصا شبهتهم : " الوحي إلهام كان يفيض من نفس النبيّ الموحى إليه لا من الخارج . ذلك أن منازع نفسه العالية ، وسريرته الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما

---

(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ص ١٥– ١٦ .
(٣) ينظر : د. محمد خليفة ، **الاستشراق والقرآن العظيم** ، ص ٤٠ – ٤١ ، وهدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٨٥ ، ود. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ١٤٨ .

(١) ينظر : د. فضل عباس ، **قضايا قرآنية** ، ص ٢١٣ .
(٢) ينظر : د. محمد خليفة ، **الاستشراق والقرآن العظيم** ، ص ٤٠ – ٤١ .
(٣) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٨٤ .
(٤) ينظر : الزرقاني ، **مناهل العرفان** ، ج٢ ، ص ٣٢٠ .
(٥) ينظر : د. محمد خليفة ، **الاستشراق والقرآن العظيم** ، ص ٤١ ، و هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص٤٨٤.
(٦) أي ما يعتقده ملكا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سواها من عبادة وثنية وتقاليد وراثية رديئة ، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلّى في ذهنه ، ويُحدِث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية ، فيتصوّر ما يعتقد وجوبه إرشادا إلهيا نازلا عليه من السماء بدون وساطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب ، وقد يسمعه يقول ذلك ، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده[٦] في اليقظة ، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء " . ثم قال : " يقول هؤلاء الماديّون : نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عمّا رأى وسمع ، وإنما نقول أنّ منبع ذلك من نفسه ، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب "[٧] . كما يدعي هؤلاء المستشرقون أن هناك أمورا أخرى إلى جانب نبوغه وعبقريته قد أثرت في نفسه وساعدت في إيجاد تلك التأملات والخواطر والإلهامات ، كظروف البيئة الرديئة الفاسدة التي كان يعيش فيها ، سواء الدينية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، وكذلك الأديان المنتشرة في الجزيرة العربية وبلاد الشام كاليهودية والنصرانية والصابئية وغيرها . كل ذلك اثر في نفسه وانطبع في ذهنه ، فلجأ إلى الخلوة بعيدا عن الناس للتفكير فيما يدور حوله بحثا عن دين جديد لإصلاح حال الناس ، على رأسهم قومه الذي يعيش بينهم ، حتى خُيّل إليه نتيجة ذلك أنه مرسل من الله إلى الناس لإصلاحهم ، ثم ألف القرآن من خواطره وإلهاماته[١] . وهذا بسبب ما اطّلع عليه من النصرانية واليهودية ، فعرف أنّ الله يبعث للأقوام كلّما ضلوا رسولا ينقذهم ، فشعر أنّه نبي يتمّم برسالته سلسلة رسل التوراة ، وأنّ عليه ما عليهم من إنذار أمثاله في الإنسانية وإنقاذهم من الضلال . فالرسول ﷺ في نظر هؤلاء المستشرقين إذن متعلم مفكر ، إلى جانب أنه رجل الرؤى والأوهام والخيالات التي ملكت عليه نفسه حتى توهّم أنه يتلقى خطاب ملك الوحي يبلغه بأنه رسول الله[٢] ، ويلقي عليه كلاما على أنه وحي من الله ، فهو بهذا واهم مخدوع ، ولم يكن متعمدا أو قال بذلك عن وعي منه[٣] – كما يزعمون– . هذا هو ملخص قولهم في شبهة الوحي النفسي .

---

(٧) محمد رشيد رضا ، **الوحي المحمدي** - ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام ، ط٦ ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٦٠م ، ص ٦٦ ، وهدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٨٤ – ٤٨٥ .

(١) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٨٥ .
(٢) ينظر : أ.د. حسن عتر ، **وحي الله** ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٧ .
(٣) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ١٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما القائلون بأنه ﷺ كان كذابا مخادعا ، سواء منهم من أطلق في فريته أم من فرّق بين المرحلتين المكية والمدنية ، فيرد عليهم بالردود التالية(٤) :

أولا : ما كان يتصف به ﷺ من صفات جليلة عظيمة كريمة ، اشتُهر بها بين قومه ، وشهد له بها العدو والصديق والقريب والبعيد ، فهو المعروف في قومه بالصدق والأمانة ، حتى لقبوه بـــ(الأمين) . ووصفته زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها قبل أن تعلــم أنـــه رســـول الله بقولها : " فوَالله إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث ، وتحمل الكــلّ ، وتكـسِب المعــدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق "(٥) . كما شهد له أبو سفيان قبل أن يــسلم ، عنــد هرقل ملك الروم ، عندما سأله بقوله : " فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قـــال ؟ ، فقال أبو سفيان : لا . ثم رد هرقل بالقول : فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب علـــى النـــاس ويكذب على الله(٦)(٧) . وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلا نسّابة يعلم ماضي كل إنسان مـــن قريش وأسرته وأخلاقه ، فلو كان يعرف أقل مغمز في شخصيته ﷺ ما تبعه ودخل في الإسلام ، فضلا عن أن يسارع فيه دون تردد . ثم إنه قد بلغ من ثقة قريش به ﷺ أنهم كانوا يأتمنونه على أموالهم وودائعهم حتى بعد بعثته واستحكام عداوتهم له . وفي المقابل لـــم تدفعـــه تلـــك العداوة التي بلغت حد التآمر على قتله على أخذ تلك الودائع معه في هجرته إلى المدينة ، بل لم يستحلّ منها درهما واحدا ، ووكّل ابن عمه عليا رضي الله عنه بإيصالها إلى أصحابها . ثم إنّ أمانته وصدقه لم يفارقاه حتى بعد الهجرة إلى المدينة ، على عكس ما زُعِم من أنه فتن بعد الهجرة ومال إلى الخداع والكذب ، يثبت ذلك – على سبيل المثال لا الحصر– قصة الأســـود الراعي التي رواها ابن هشام في السيرة فقال : " قال ابن إسحاق : وكان من حديث الأســـود الراعي ، فيما بلغني : أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر ، ومعه غنم له ، كان فيها أجيرا لرجل من يهود ، فقال : يا رسول الله ، اعرِض عليّ الإسلام ، فعرضه عليه فأسلم – وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحدا أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه – فلمـــا أسلم قال : يا رسول الله ، إني كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم ، وهي أمانة عنـــدي ، فكيـــف أصنع بها ؟ . قال : اضرب في وجوهها ، فإنها سترجع إلى ربها – أو كمـــا قـــال – فقـــال الأسود : فأخذ حفنة من الحصى ، فرمى بها في وجوهها وقال : ارجعي إلى صاحبك ، فوالله

---

(٤) آثرت الإجمال على التفصيل في ذكر الردود طلبا للاختصار أولا ، ثم لكون الردود في معظمها صالحة لكلا الاتجاهين ، خاصة وأن معظم الأدلة التي سأوردها هي من سيرته ﷺ في المدينة .
(٥) البخاري ، **فتح الباري** ، ج٩ ، ص ٥٧٩٢ ، (رقم : ٤٩٥٣) .
(٦) ينظر : المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٤٤ ، (رقم : ٧) .
(٧) ينظر : د. فضل عباس ، **قضايا قرآنية** ، ص ٢١٣ ، ود. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا أصحبكِ أبدا ، فخرجت مجتمعة ، كأن سائقا يسوقها ، حتى دخلت الحصن"[١] . والشاهد أنه ﷺ لم يُرِد أن يُلوِّث مسلمٌ جديدٌ إسلامه بخيانة الأمانة ، مع العلم بأنه ﷺ بعد انتصاره على يهود خيبر قد حاز من أموالهم وأراضيهم وماشيتهم أضعاف أضعاف هذا القطيع من الغنم ، ولكن غنم الأموال في حرب شريفة شيء ، والاستيلاء الغادر عليها شيء آخر لا تقبله أخلاق الصادقين المطبوعين على الأمانة والوفاء ، حتى مع ألدّ الأعداء[٢] . ومن يكون حاله هكذا طيلة حياته من الصدق والأمانة والوفاء وحسن الخلق والسعي في حاجات الآخرين ، فهل يمكن أن يكون مخادعا أو وصوليّا ؟! كلا ؛ لأن الخداع وما لفّ لفيفه صفة من همّه نفسه دون غيره ، وتحقيق أهدافه ومصالحه وحده دون غيره ، فهو يتقلّب تقلب الرياح ، لا يستقرّ على حال ، فيصدق ويكذب ، ويوفي ويغدر ، ويعطي ويمنع ، ويجبر ويكسر ، كل ذلك بحسب ما يحقق له مصالحه وأغراضه وشهواته .

ثانيا : ذمّه ﷺ الشديد للكذب . ففضلا عما جاء في القرآن العظيم الذي يزعمون اختلاقه ﷺ له ، من ذم الكذب والكاذبين في آيات عديدة ، كقوله تعالى : ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾(النحل:١٠٥) ، وقوله :﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾(غافر: ٢٨) ، وقوله : ﴿ ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾(الأنعام :٢١) ، فقد جاء في حديثه ﷺ نفسه ما ينفّرُ من الكذب ويغلّظ من أمره ، منه قوله ﷺ : " وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار ، وإنّ الرجل ليكذب حتى يُكتبَ عند الله كذابا "[٣] . وقوله : " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان "[١] . ولم يجز ﷺ الكذب حتى على الأطفال ، فعن عبد الله بن عامر قال : " دعتني أمّي يوما ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا ، فقالت : ها تعالَ أعطيك . فقال لها رسول الله ﷺ : وما أردت أن تعطيه ؟ قالت : أعطيه تمرا . فقال لها رسول الله ﷺ : أما إنّك لو لم تعطيه شيئا كُتبت عليك كذبة "[٢] . وكذا لم يجز ﷺ الكذب حتى في مدح الأخ لأخيه والثناء عليه حيث قال : " من كان منكم مادحا أخاه لا محالة فليقل : أحسبُ فلانا ، والله حسيبه ، ولا أزكي على الله أحدا ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك منه "[٣] . فمن يعلم لا يجوز له الجزم بما يمدح به ، فكيف بمن لا يعلم أو

---

(١) ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، ج٣ ، ص ٣١٨ .
(٢) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ١٨ – ٢٠ .
(٣) البخاري ، **فتح الباري**،ج١٢ ، ص٧٢٩١، (رقم:٦٠٩٤) . ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي**،ج٨، ص٢١٠ ،(رقم :٢٦٠٧) .
(١) البخاري ، **فتح الباري**،ج١٢، ص٧٢٩١ ،(رقم:٦٠٩٥) . ومسلم، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج٢، ص١٢٤– ١٢٥،(رقم:٥٩).
(٢) أخرجه أبو داوود ، **السنن** ، ص٥٤٠ ، (رقم : ٤٩٩١) ، وأحمد ، **المسند** ، ج٢٤ ، ص٤٧٠ ، (رقم : ١٥٧٠٢) . قال محقق المسند عنه : حسن لغيره .
(٣) البخاري ، **فتح الباري** ، ج٦ ، ص ٣٢٨١ ، (رقم : ٢٦٦٢) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٩ ، ص ٢٤٢ ، (رقم : ٣٠٠٠) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعلم خلاف ما يمدح به ؟ ، فلا شك أنه أولى بعدم الجواز . إذن فهو ﷺ لا يجوّز الكذب قط مهما كانت الظروف ، إلا فيما لا يمكن لعاقل صادق بالغا ما بلغ من تحرج وتأثم أن يدّعي أن الصدق مقدمٌ فيه ، وذلك في الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها[٤][٥] . فهل رجل بمثل هذه الحساسية من الكذب والتشدد فيه يمكن أن يكون في نفسه كاذبا ؟! .

ثالثا : التحوّل الضخم المفاجئ الذي حدث في حياته ﷺ بنزول الوحي عليه ، إذ تحوّل من رجل عادي لا يمتاز عمن حوله بشيء إلا بحسن السيرة والسلوك ، والبعد عما يشينُ من الأعمال ، ولا يختلف حظّه عن حظّهم في معرفة القصص الديني ، كما قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾(هود:٤٩) ، ولا كان يَتوقع أن يُكلّف بدور المرسل من عند الله ، كما قال تعالى : ﴿ وما كنتَ ترجو أن يلقى إليك الكتابُ إلا رحمة من ربك ﴾(القصص : ٨٦) ، ولم يكن يعرف كيف يرشد نفسه إلى الطريق القويم ، كما قال تعالى له : ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾(الضحى :٧) ، إلى نبيّ ورسول[٦] ، ينذر ويبشر ، ويبلغ ويعلّم ، ويدعو ، ويأتي بالآيات المصدقة له ، وبكتاب لم تسمع العرب بمثله ، فيه الحكمة وفصل الخطاب . ولما كانت النهايات لا بد لها من مقدمات وممهدات ، وكان من السنن الكونية التدرّج في الأمور ، ولم يكن هذا في حالته ﷺ ، عرفنا أن ذلك اصطفاء إلهي ، لا تصنّع بشري .

رابعا : ثباته ﷺ واطمئنانه لحقيّة ما جاء به رغم كل ألوان الأذى والمؤامرات وتتالي الحروب وتألب الناس عليه[١] من داخل الجزيرة العربية وخارجها . فلو كان كاذبا مخادعا لم يصبر على كل ذلك ، ولترك دعوته من أول الطريق .

خامسا : ما تجلى منه ﷺ من العظمة النبوية والثقة بالنفس وبالطريق حين جعل يرسل الرّسُل والكتب إلى أباطرة العالم وملوكه يدعوهم إلى الإسلام ، محمّلا لهم وزر أتباعهم إن لم يستجيبوا لدعوته ، مما حدا بكسرى ملك الفرس أن يمزق كتابه ويرسل إلى عامله في اليمن

(٤) هذا من كلام محمد بن شهاب الزهري . قال النووي : " قال القاضي : لا خلاف في جواز الكذب في هذه الصور" . ينظر : مسلم ، **صحيح مسام بشرح النووي** ، ج٨ ، ص ٢٠٨ ، (باب تحريم الكذب وما يباح منه) .
(٥) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ٩٤ – ٩٥ .
(٦) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٦٥ – ١٦٧ .

(١) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يأتيه برأس محمد ﷺ[٢] . فهذه الخطوة لا يمكن تفسيرها إلا بأنه رسول موحى إليه من عند الله ، وإلا لما فكّر مجرد تفكير في إرسال تلك الكتب إلى أولئك الجبابرة[٣] .

سادسا : أنه ﷺ كان أكثر الناس وأشدهم التزاما بمبادئ الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ، وكان ذكر الله لا يفارق لسانه في كل وقت وحين ، يذكره إذا أكل أو شرب ، وبعد الأكل والشرب ، وإذا آوى إلى فراشه ، وإذا استيقظ من نومه ، وإذا دخل الخلاء ، وإذا خرج منه ، وإذا لبس وإذا ركب ... . فلو كان كاذبا دجالا فهل يمكن أن يَفنى في ربه على هذا النحو العجيب ؟![٤].

سابعا : تقديسه ﷺ العظيم للقرآن ، حتى أعلن أنه ما يكون لــه أن يُــدخل عليــه أي تغييــر أو تبديل ، فهو متّبع ما يوحى إليه من ربه لا يخرج عنه بحال ، قال تعالى : ﴿ قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾(يونس : ١٥) . والكــذاب المخــادع دائر مع هواه ومصالحه ، لا يلتزم بمبدأ ولا اعتقاد ، فلو كان ﷺ كذلك لاستجاب لرغبة قومه فبدل وغيّر بما يحقق له أهدافه وأغراضه[٥] .

ثامنا : بكاؤه ﷺ عند سماع القرآن . ومنه – على سبيل المثال لا الحصر– ما رواه عبــد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال : " قال لي النبي ﷺ : اقرأ عليّ . قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ قال : نعم . فقرأت سورة النساء حتى أتيــت علــى هــذه الآيــة : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾(النساء :٤١) ، قال : حسبك الآن . فالتفتُّ إليه ، فإذا عيناه تذرفان "[٦] . وفي رواية : " فرفعتُ رأسي ، فرأيت دموعــه تسيل "[٧] . وهل رُؤيَ كاذب يبكي لسماعه كلاما يعلمُ في قرارة نفسه تمام العلم أنه هو الذي زوّره ونسبه إلى الله ؟! . كما أنّ تحليل شخصيته ﷺ واستقصاء دقائق حياته يُبعدان عنه تماما شبهة التظاهر بالبكاء من غير تأثر حقيقي[١] .

تاسعا : حبّه ﷺ وتعلقه بالصلاة ، بما في ذلك صلاة الفجر وصلاة الليل ، وما تتطلبانه مــن ترك الفراش الدافئ خاصة في ليالي الشتاء القارس ، واســتعمال المــاء البــارد للوضــوء أو الغسل . فأي كاذب مخادع يكلف نفسه عناء ذلك[٢] ؟! . بل إنه يُعفي نفسه وأتباعه من ذلك كي يرغّب الناس في دعوته والالتفاف حوله .

---

(٢) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٨ ، ص ٥٠٣٢ ، (رقم : ٤٤٢٤) ، وتعليق الحافظ ابن حجر عليه : ص ٥٠٣٤.
(٣) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ٩٨ – ٩٩ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ص ٨٢ – ٨٥ .
(٥) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٦٩ .
(٦) البخاري ، **فتح الباري** ، ج١٠ ، ص ٥٩٤٧ ، (رقم : ٥٠٥٠) .
(٧) مسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٤ ، ص ١١٦ ، (رقم :٨٠٠) .
(١) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ٨٦ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ص ٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاشرا : إخراج كل ما يصله من مال على كثرته وتصدقه به . فعن ابن عبـــاس رضـــي الله عنهما قال : " كان النبي ﷺ أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريـــل . وكان جبريل عليه السلام يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القـــرآن ، فلرســـول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[٣] . وعن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال : " صلى بنـــا النبي ﷺ العصر فأسرع ، ثم دخل البيت ، فلم يلبث أن خرج ، فقلت – أو قيل – له ، فقال : كنت خلّفتُ في البيت تبرا[٤] من الصدقة فكرهت أن أبيّته فقسمتُه "[٥] . وتـــوفي ﷺ ودرعـــه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهله[٦] . فلم يكن لديه مال يشتري بـــه ، فـــأين هـــي الأطماع والأهداف التي حققها من خلال دعوته ؟! . إن حاله ﷺ مخـــالف لحـــال الكـــذابين المخادعين الذين يتوسّلون بدعواتم وأكاذيبهم لأكل أموال الناس والتنعم بهـــا خلـــف أســـوار قصورهم المبنيّة من عرق الكادحين المخدوعين[٧] .

حادي عشر : أنّ القرآن لم يكن يعكس شخصيته ﷺ ولا يعبّر عن مشاعره الشخصية من فرح وحزن وغيرهما ، إلا في إطار ما يتصل بما يلاقيه في دعوته من أذى وصدود ، وما يَضبط علاقة أصحابه به . أما غير ذلك فلا نجد له ذكرا في القرآن ، كحادثة وفاة زوجـــه خديجـــة رضي الله عنها وعمه أبي طالب ، التي سُمّيَ عامُها بعام الحزن . وكوفـــاة ابنـــه إبـــراهيم ، وكاستشهاد عمه حمزة في أحد ، إلى غير ذلك . فلو كان مختلقا للقرآن لوُجدَ ذلك فيه ، كمـــا هو حال الشعراء الذين يعبّرون عن مشاعرهم في قصائدهم ومراثيهم . كما أن القـــرآن فـــي معظمه وأغلب آياته لا يشير إليه بمدح أو تمجيد ، بل لا يذكر عنه شيئا[٨] . فلو كان كلامـــا مكذوبا من عند نفسه لشُحِن بالمدائح له والتمجيدات وذكر المفاخر الصادق منها والكـــاذب ، كما هو حال الطواغيت وفراعنة العصور ؛ كي يعطي نفسه نوعا من القداسة لتخـــضع لـــه الجماهير غافلة عن كل خِدَعه ودَجَلِه .

ثاني عشر : حادثة الإفك . وهو الذي لفقه أعداؤه ﷺ من المنافقين لمس شرفه العائلي برمـــي زوجه الشريفة الطاهرة العفيفة عائشة رضي الله عنها بالفاحشة ، حتى سارت بذلك الشائعات ، وكانت الحاجة ملحّة لكشف الحقيقة في أقصى سرعة ، لكن الوحي تأخر شهرا كاملا ، ولم يكن في مقدوره ﷺ أن يتعجّله أو حتى يؤكد أو ينفي الشائعات . ألم يكن يـــستطيع لـــو كـــان

---

(٣) البخاري ، **فتح الباري** ، ج٧ ، ص ٤١٤١ (رقم : ٣٥٥٤) . ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٧ ، ص ٤٠٨ ، (رقم : ٢٣٠٨) .
(٤) التبر : هو الذهب .
(٥) البخاري ، **فتح الباري** ، ص ١٩١٢ ، (رقم : ١٤٣٠) .
(٦) ينظر : المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٣٥٦٦ ، (رقم : ٢٩١٦) ، والترمذي ، **السنن** ، ص٢١٦ ، (رقم : ١٢١٤- ١٢١٥) .
(٧) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ٨٧ – ٨٨ .
(٨) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٧٠ ، (بتصرف وزيادة) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– كما يزعمون – كذابا وكان الأمر متوقفا على تحكمّه الشخصيّ ، أن يفضّ الموضوع بلباقة ثم ينسب قوله إلى الوحي[١] .

ثالث عشر : ما جاء في القرآن من تصويب لبعض السلوكيات والاجتهادات التي صدرت منه ﷺ مع معاتبته على بعضها . كما في قصة الصحابي عبد الله ابن أم مكتوم ، بقوله تعالى : ﴿ عبس وتولى ۞ أن جاءه الأعمى ۞ وما يدريك لعله يزّكى ﴾ الآيات (عبس : ١– ١٢) ، وكما في قوله تعالى له ﷺ : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾(الأنعام :٥٢) ، وكقوله له : ﴿ وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ، وإذاً لاتخذوك خليلا ۞ ولولا أن ثبتناك لقد كدتَّ تركن إليهم شيئا قليلا ۞ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾(الإسراء:٧٣– ٧٥) . هذا في مكة ، أما في المدينة فكان من ذلك عتابه ﷺ على أخذ الفدية من أسرى بدر بقوله تعالى : ﴿ ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ۞ تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ۞ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾(الأنفال:٦٧– ٦٨) . وكذا عتابه على إذنه للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك بقوله تعالى : ﴿عفا الله عنك لمَ أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾(التوبة:٤٣) . وكذا على تحريمه بعض الأطعمة على نفسه بقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرّمُ ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك﴾(التحريم: ١) ، إلى غير ذلك من الأمثلة . فلو كان ﷺ – كما يزعمون– كاذبا مخادعا أيمكن أن يخطئ نفسه ويعاتبها ؟! ، فإن من مصلحة الكاذب أن يُبقي صورته أمام أتباعه ثابتة لا تتزعزع ؛ كي لا يثير انتباههم إلى كذبه وخداعه فيفتضح أمره ، ويضيع جهده في خداعهم سدىً[١] .

رابع عشر : ما جاء في القرآن من الوعيد الشديد له ﷺ لو وقع منه – وحاشاه– أيّ كذب وتقوّل على الله ولو قليلا ، كقوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ۞ لأخذنا منه باليمين ۞ ثم لقطعنا منه الوتين ۞ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾(الحاقة : ٤٤ –٤٧) ، وقوله : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذبا ، فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾(الشورى : ٢٤) ، وقوله : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ، وإذاً لاتخذوك خليلا

---

(١) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٦٨ .

(١) ينظر : د. فضل عباس ، **قضايا قرآنية** ، ص ٢١٣ – ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

۞ ولولا أن ثبتناك لقد كدتَّ تركن إليهم شيئا قليلا ۞ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾(الإسراء :٧٣ –٧٥) . فهل يمكن لو كان ﷺ – وحاشاه – كذابا أن يوعدَ نفسه ويهدّدها بهذه التهديدات العنيفة المزلزلة ؟!(٢) .

خامس عشر : إخبار القرآن المكي بأن هناك رصدا من الملائكة يحيطون به ﷺ ويراقبونه على تبليغ الوحي والرسالة ، قال تعالى : ﴿ عالمُ الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ۞ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ۞ ليعلمَ أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾(الجن :٢٦ – ٢٨) . فكيف بعد هذا يقال بأنه فتن وصار يختلق الأكاذيب ؟!(٣) .

سادس عشر : وفاء أصحابه له ﷺ وإيمانهم بما جاء به ، في حياته وبعد وفاته بعشرات السنين إلى أن قُبِضوا . فلو كان مخادعا كاذبا فمن المستحيل أن يحتفظ بمثل هذه الصداقات النادرة المتنوعة ؛ لأننا لا نرى حاكما أو زعيما من أهل الكذب والخداع في الماضي أو الحاضر ، إلا وتسوء العلاقة بينه وبين هذا أو ذاك ، ممن وقفوا معه وآزروه وأتوا به إلى الحكم ، فينقلب أحدُهما على الآخر(٤) .

سابع عشر : انتفاء المانع من نسبة القرآن إلى نفسه ﷺ لو كان حقا نابعا منها . بل على العكس فلو نسبه إلى نفسه لازداد بذلك رفعة وعلوّ شأن في نفوس أتباعه ، كحال أصحاب المبادئ والأفكار على مدى التاريخ . ثم إنه لا يوجد أحد من الناس ينسب إلى غيره أنفسَ آثار عقله ، وأغلى ما تجودُ به قريحته(٥) .

ثامن عشر : عدم ادعائه ﷺ علم الغيب ، خلافا لحال أدعياء الدين المتسلقين عليه كذبا وخداعا كي يجمعوا حولهم أكبر عدد من الأتباع . فما يوحى إليه من ذلك يبلغه ، وما لم يوح إليه منه يتوقف فيه ، كما قال : ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾(الأحقاف :٩) ، وقوله :﴿ إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا ﴾(الجن:٢٥) ، وقوله : ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إنْ أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾(الأعراف:١٨٨) .

ومن الأحاديث ما جاء في قصة وفاة الصحابي عثمان بن مظعون رضي الله عنه في حياته ﷺ وفيها : " فوجع وجعه الذي توفي فيه . فلما توفي وغسّل وكفن في أثوابه ، دخل رسول الله ﷺ ، فقلت [أي أم العلاء ، وهي إمرأة من الأنصار] : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال النبي ﷺ : وما يدريك أنّ الله قد أكرمه ؟ فقلت : بأبي

(٢) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٦٩ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .
(٤) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ٩٩ – ١٠٠ .
(٥) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٤٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنت وأمي يا رسول الله ، فمن يكرمه الله ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين . والله إني لأرجو له الخير . والله ما أدري – وأنا رسول الله – ما يفعل بي . قالت : فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا "[١] . فأين حاله ﷺ من حال أولئك ؟! .

تاسع عشر : عدم تطويعه ﷺ الدين لرغباته الشخصية . مثال ذلك ما جاء في قصة زيارته قبر أمه ذات يوم ، وفيها أنه بكى وأبكى من حوله ، ثم ذكر لأصحابه أنه استأذن ربه في زيارة قبر أمه فأذن له ، واستأذنه أن يستغفر لها فلم يأذن[٢] . كما أنه رفض أن يفسر كسوف الشمس الذي حدث في اليوم الذي مات فيه ولده إبراهيم[٣] بأنه مشاركة للكون في أحزانه[٤] ، كما هو متصور لو كان – وحاشاه– كذابا مخادعا ؛ لأن الكذابين المخادعين باسم الدين دائما يحاولون أن يجعلوا لأنفسهم هالة وقداسة في نفوس أتباعهم كي يستولوا على عقولهم ومشاعرهم ، فيسوقوهم سوق الماشية إلى حيث يريدون ، ويحققوا بهم أطماعهم . وكذلك أنه ﷺ نهى عن تفضيله على بعض الأنبياء كيونس وموسى عليهما السلام[٥] ، ووصف يوسف عليه السلام بأنه اكرم الناس[٦] ، ولما سئل عن أحب الصلاة والصيام إلى الله بيّن بأنه صلاة داود عليه السلام وصيامه[٧][٨] . ولو كان كذابا لجعل نفسه في المرتبة الأولى في كل شيء ليحوز تلك الهالة والقداسة في نفوس أتباعه .

عشرون : مراقبته ﷺ لله في أفعاله ، رغم ما قد يسبّبه ذلك له أحيانا من الإحراج أمام أصحابه . ومن ذلك أنه قد أقيمت الصلاة ذات مرة ، وعدلت الصفوف ، ثم خرج النبي ﷺ ، فلما قام في مصلاه ذكر أنه جنُب ، فقال لأصحابه : مكانكم ، ثم رجع فاغتسل ، وخرج إليهم ورأسه يقطر ماء ، فأمّهم في الصلاة [١][٢]. فلو كان نبيا مزيفا لصلّى بهم جنبا ، ولا أحد منهم

---

(١) البخاري ، **فتح الباري** ، ج٣ ، ص ١٦٧٨، (رقم : ١٢٤٣) .
(٢) ينظر : مسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٤ ، ص ٢٩٠ ، (رقم : ٩٧٦) .
(٣) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٣ ، ص ١٤٥٣ ، (رقم : ١٠٤٣) .
(٤) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ٩٣ .
(٥) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٧ ، ص ٣٩٩٨ – ٣٩٩٩ ، (رقم : ٣٤١٢ – ٣٤١٥) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٧ ، ص ٤٦٢ – ٤٦٥ ، (رقم : ٢٣٧٣، ٢٣٧٤) . مع التنبيه بأنه من الثابت أنه ﷺ هو أفضل الخلق على الإطلاق ، وتأويل هذا النهي كما قال الحافظ ابن حجر أنه :" إنما قال ﷺ ذلك تواضعا إن كان قاله بعد أن علم أنه أفضل الخلق ، وإن كان قاله قبل علمه بذلك فلا إشكال " ابن حجر ، **فتح الباري**، ج٧ ، ص٤٠٠٠ ، وينظر كذا النووي ، **شرح صحيح مسلم** ، ج٧ ، ص٣٨١ – ٣٨٢ .
(٦) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٧ ، ص ٣٩٥٦ ، (رقم : ٣٣٨٣ ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٧ ، ص ٤٦٧، (رقم :٢٣٧٨) . ومعنى (أكرم الناس) أي من جهة الشرف بالنسب الصالح . ينظر : ابن حجر ، **فتح الباري** ، ج٧ ، ص ٣٩٥٢ .
(٧) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٧ ، ص ٤٠٠٥ ، (رقم : ٣٤٢٠) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٧ ، ص ٤٩٦، (رقم :٢٧٣١- ١٨٩) .
(٨) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ٩٦ – ٩٧ .

(١) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج٢، ص ٩٣٠، (رقم : ٦٤٠) ، ومسلم ، **صحيح مسلم بشرح النووي** ، ج٣ ، ص ٤١٣- ٤١٤، (رقم :٦٠٥) .
(٢) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدري بحقيقة الحال ، لكنّه يخاف الله ويتّقيه في السّر والعلن . ومن كان مراقبا لله فكيف يكذب عليه ؟! .

حادي وعشرون : ما حدث من فترة الوحي وانقطاعه في بداية دعوته ﷺ في مكة ، فوجدها قومُه فرصة لإيذاء مشاعره مدّعين أن شيطانه قد هجره ، حتى نزل الوحي بسورة الضحى مطمئنا له ﷺ بأن ربه ما ودعه وما قلاه ، بعد أن أثّر كلامُهم – كما تشي بذلك سورة الضحى – في نفسه . فلو كان كاذبا دجالا فما الذي يجعله يتوقف عن ادعاء الوحي ؟ . ثم لماذا يتأثر من كلام قومه ما دام يعلم من نفسه أنه كاذب ، وأن الأمر كلّه لا يعدو أن يكون تلفيقا في تلفيق ؟ . إن ما داخله ﷺ من حزن من تقوّلاتهم إنما هو حزن الصادقين(٣) .

ثاني وعشرون : بقاؤه ﷺ في مكة مع أبي بكر وعلي رضي الله عنهما ، حتى هاجر كل من أراد الهجرة إلى المدينة من المسلمين . فلو كان دجالا مخادعا لنجى بجلده هو أولا ، ولينجُ من يريد النجاة بعد ذلك !(٤) ؛ لأن الدجّال – كما مر– همه نفسه دون الآخرين .

ثالث وعشرون : إنّ اتهام المستشرقين له ﷺ بالكذب والخداع ليس مبتكرا ، بل سبقهم إليه قديما كفار قومه ، حتى آل أمره إلى الظهور والانتصار ، وأمرهم إلى الأفول والخسران(٥). كما ردّ القرآن عليهم بالردود الشافية القاطعة لمزاعمهم وافتراءاتهم . فهؤلاء إنما يأكلون ما قاءه الآخرون قبلهم ! .

وأما القائلون من المستشرقين بشبهة الوحي النفسي ، فيُردّ عليهم بالردود التالية :

أولا : ما أخبر به القرآن من أحداث ماضية ومستقبلية ، فإن التأمّلات العقلية وحدها مهما بلغت من القوة والصفاء ، لا يمكن أن تُطلعَ صاحبها على تلك الأخبار ؛ لأن الإخبار عن أحداث واقعية لا بد له من وسيلة ناقلة(٦) .

ثانيا : إنّه لا يوجد خيال مهما كانت درجة خصوبته يستطيع أن يولّد مثل هذه المعجزة المتمثلة في القرآن ، أو حتى جزءا منها(١) ، وهو الذي أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم أن يعارضوه .

ثالثا : إنّ العقل النيّر المنطلق من فطرة سليمة بمقدوره أن يُثبت ضلال الوثنية ، والخرافات وفراغها وعدم جدواها ، وأن يتوصل إلى معرفة الله باعتباره الخالق الموجد لهذا الكون وما

---

(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ص ٢٤ – ٢٥ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ص ٢٥ – ٢٦ .
(٥) ينظر : د. محمد خليفة ، **الاستشراق والقرآن العظيم** ، ص ٤١ .
(٦) ينظر : د. فضل عباس ، **قضايا قرآنية** ، ص ٢١٣ ، ود. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٤٧ .

(١) ينظر : د. محمد خليفة ، **المستشرقون والقرآن العظيم** ، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه ، وأنه المستحق للعبادة لا غيره ، لكنه لا يستطيع أن يخترق حدوده فيكتشف صـفات الله العديدة وأسماءه الحسنى ، وعلاقته بالكون المنظور وغير المنظور ، والمصير الذي ينتظـر الإنسان بعد الموت ، إلى غير ذلك من الحقائق التي أخبر بها القرآن ، من غير أن يتراجـع محمد ﷺ عن حقيقة فيه سبق أن أعلنها ، ومع احتفاظ القرآن في نفس الوقت بتوافقه العجيـب مع حقائق الكتب السماوية السابقة . إلى جانب ما فيه من تلك المنظومة التشريعية الأخلاقيـة التي أعجزت البشر أن يقدموا مثلها إلى عالَم الناس . فلا شك أن هذا العقل مهما بلـغ مـن الصفاء والقوة لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في هذا السبيل بمثل هذه الثقة وهذا الوضوح ، ما لم يكن له عون ومدد من تعاليم إيجابية خارج نطاق البشر[٢] .

رابعا : إنّ مما قرره القرآن أنّ محمدا ﷺ لم يكن يدري قبل نزول الوحي عليه﴿ ما الكتاب ولا الإيمان ﴾(الشورى: ٥٢) ، وقال الله له في سورة الضحى: ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾(الضحى :٧) ، فهل كان في استطاعته هداية غيره في الوقت الذي هو عاجز فيه عن هداية نفسه في أمور دينه ؟![٣] .

خامسا : لم يكن الوحي الذي يأتيه ﷺ مجرد أفكار قد تكون نابعة من داخل نفسه ، وإنما كان بالنسبة إليه صوتا مسموعا صافيا ، يشهد لذلك أنه كان في بداية تلقيه له وأثناء هـذا التلقـي يكرر النص القرآني الموحى به كلمة كلمة ، وظل كذلك حتى نُهيَ عنه ، مع ضـمان أن الله سيجمع له القرآن في قلبه دون حاجة إلى ترداده ، فقال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجـل به ۞ إنّ عينا جمعه وقرآنه ۞ فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ﴾(القيامة : ١٦ – ١٨) . كما أنه ﷺ قـد رأى ملك الوحي بعينيه ، بوضوح كامل ، في شكله العظيم على هيئته التي خُلق عليها ، قال تعالى : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾(التكوير: ٢٣) . وإذا ثبت ذلك فلا يجـوز أنْ يُنكـر علـى إنسان مشهود له بسلامة البدن والعقل ما رآه وسمعه[٤] .

سادسا : إنّ رجلا تتراءى له الأخيلة ، وتدخل في نفسه الأوهام ، هل هو إنسان عاقل ؟ أم أن في عقله لَوثة إن لم نقل إنه مجنون ؟ ، والمجنون ومَن هذا حاله لا يمكن أن تـصدر عنـه تشريعات الإسلام والقرآن وما فيها من حكم ومواعظ وأحكام تشريعية سامية وأخلاق رفيعة . ثم إنّ الناظر في سيرته ﷺ يجده قد بنى مجتمعا قويا على دعائم وطيدة وقاد معارك النـصر

---

(٢) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٤٨ ، وهدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية** ، ص ٥٠١ .
(٣) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٤٨ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ص ١٦٩ ، ١٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والظفر ، وأسس دولة عظيمة على أسس منيعة . ومن كان هذا حاله في نباهته ويقظته وذكائه ، لا تختلط عليه الأمور ، ولا تغلبه الأوهام والهواجس(١) .

سابعا : لا يمكن لأيّ حماس شخصي ، أو معارف مبهمة وغير مباشرة عن الكتب المقدسة ، أن تضمن للنبيّ العربي هذا التوافق والتطابق العجيب بينها وبين تعاليمه ، وكأن التوراة كانت تحت بصره دائما ، أو أنه حفظها عن ظهر قلب ، حتى يمكنه أن يستخرج منها ما يلزمه في كل مناسبة من قصص وغيره . ومع هذا التطابق المدهش ، نلاحظ استقلالا في لهجته وفي طريق عرض الدروس والمواعظ القرآنية(٢) .

ثامنا : أنه ﷺ قد عاش في قومه كأي فرد منهم ، مشغولا بتحصيل الرزق ، يرعى الغنم بالأجر ، أو يتاجر بالأجر ، أمّيا لم يُؤثر عنه علم ما ، ولا حتى شعر أو خطابة ، وقد أمضى أربعين سنة على هذا الحال . فهذا الحال من البساطة والأمّية لا تؤهلان صاحبهما إلى أن يأتيَ بهذا الكتاب العظيم من عند نفسه وفيض خاطره(٣) .

تاسعا : عدم تطلّعه ﷺ للنبوة قبل أن يوحى إليه ، خلافا لما زعمه المستشرقون ، فلم يرد في الأخبار الصحيحة ما يثبت ذلك التطلع ، كما ورد مثلا بشأن أمية بن أبي الصلّت ، الذي كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر ، بل على العكس فقد جاء في القرآن خلاف ذلك ، قال تعالى : ﴿ وما كنتَ ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾(القصص:٨٦) . فالنبوة كانت رحمة من الله حلّت عليه ﷺ باصطفائه وإنزال القرآن عليه ، ولم ينلها باجتهاده في العلم والعمل(٤) .

عاشرا : إنّ دعوى تأثره ﷺ من الظروف الدينية والاجتماعية والاقتصادية الفاسدة السائدة في بيئته حتى جاء بما جاء به ، لا أساس لها من الصحة ؛ لأن معرفته بفساد تلك الأوضاع لا تكفي لتأليف هذا القرآن العظيم ، بما فيه من عقائد وتشريعات عظيمة فاقت كل ما عرفه البشر(٥) .

حادي عشر : ما جاء الوحي فيه معارضا معارضة صريحة لا لبس فيها ولا تأويل لرغباته ﷺ العميقة ، كنهيه عن الاستغفار لعمه أبي طالب وأمه اللذين ماتا على الشرك ،

---

(١) ينظر : أ.د حسن عتر ، **وحي الله** ، ص ٢١٧ – ٢١٨ .
(٢) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٧٤ .
(٣) ينظر : هدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية**، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ص ٥٠١ – ٥٠٢ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه ، ص ٥٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكآيات العتاب ، ومثل عدم تحريم ما لا تميلُ نفسه إليه كلحم الضبّ . فلو كان الوحي انعكاسا لميوله ورغباته كما يقول من يقول بشبهة التفكير الرغبيّ لكان الوحي على عكس ذلك[١] .

وأورد الآن بعض الردود العامة على الشبهة باتجاهاتها الثلاث ، وهي :

أولا : إعجاز القرآن من وجوه عديدة ، من حيث لغته وأسلوبه ، وطريقة تأليفه ، وعلومه ومعارفه ... . ففي كل وجه منها دفع كافٍ لهذه الشبهة عند التأمل والإنصاف ؛ لأن الإنسان محدود القوى والمواهب ، فلا يستطيع خرق نواميس الكون العاديّة ، وفي كل وجه من وجوه إعجاز القرآن دليل على خرقه لتلك النواميس المعتادة ، وخرقُها لا يملكه إلا القاهر للكون ونواميسه ، ومن له السلطان المطلق على العالم وما فيه ، وهو الله جل جلاله ، لا محمدّ ﷺ ولا غيره ، لا بالعقل الباطن ولا الظاهر ، ولا بالوحي النفسي ولا بالانفعال العصبيّ[٢] .

ثانيا : ما كان يصاحب نزول الوحي عليه ﷺ من العوارض الخارجية الخارجة عن إرادته ، كنزول العرق وتغير لون الوجه وثقل الجسد ... ، التي كانت تظهر عليه ويراها أصحابه وقت حدوثها ، دون أن يكون له ﷺ قدرة على الهروب من هذا الوحي عند مجيئه ، ولا في استطاعت أن يتهيأ له إذا احتاج إليه . مما يؤكد أنه أمر خارج عن ذاته ، وينفي عنه شبهة الكذب والخداع ، كما ينفي أن يكون ذلك فيضَ خاطره وعقله الباطن المعبّر عن رغبات اللاوعي عنده[٣] .

ثالثا : أنه ﷺ كان طالما ليس لديه أمر أو تعاليم صريحة من الوحي في أمر ما ، ذا طبيعة خجولة حيية ووديعة ﴿ إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم﴾(الأحزاب : ٥٣) ، حساسا لما قد يقال عنه ﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾(الأحزاب :٣٧) ، ولا يقطع دون أصحابه برأي ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾(الشورى :٣٨) . لكنه بمجرد أن يتلقى علمه من الوحي نراه يبلغ ما أوحي إليه بكل ثقة وقوة ، لا تستطيع قوة في الأرض أن تضلله . كما أنه يقف موقف المعلم المربي لجميع الناس ، المتعلمين منهم والجهلة ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ ﴾(آل عمران :٢٠) . ومنذ قبل الهجرة يعلن أنه مُرسل إلى الناس كافة ، بمن فيهم أهل الكتابين من اليهود والنصارى ، وأنه مبلغهم الحقيقة في منازعاتهم وخلافاتهم ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا

---

(١) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ١٤٨ – ١٥٣ .
(٢) ينظر : الزرقاني ، **مناهل العرفان** ، ج٢ ، ص ٣٢٠ .
(٣) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٦٨ ، و د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص ١٨١ ، وهدى عبد الكريم ، **الأدلة على صدق النبوة المحمدية ، ص** ٥٠٦ – ٥٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه ﴾(النحل : ٦٤) ، ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيــه يختلفــون ﴾ (النحل :٧٦) . وعندما يصدر حكمه لا يجامل فيه أحدا منهم ، بل يسير في خطــوات ثابتــة راسخة ، فيفصل في الأمور ويعلن الحقيقة . فهذه الثقة القوية في الطرح والمواجهة لا يمكن أن تكون نتاج أخيلة وأوهام ، كما لا يمكن أن تكون نتاج كذب وافتعال ؛ لأن الكــذب ريبــة وشك لا يؤهل صاحبه لتلك الثقة وذلك الثبات مهما بلغ من قدرة على التقمّص . فهذه الحالــة منه ﷺ إنما تدل دلالة قاطعة وبسهولة على أن وراءها قوة عظيمة ليست قوة هذا الإنسان(١) .

رابعا : أنّ القرآن لا يقع في الأخطاء الموروثة التي كانت في العصور القديمة ، والتي كانت تتميز بها الجزيرة العربية وقت نزول القرآن . كما أنه لا يتوقف عند تفاصيل حقيرة أو دارجة أو تحمل طابع البيئة التي نزل فيها ، إلا ما كان فــي حيّــز التــصويب والتقــويم لــبعض السلوكيات . وكذا فإنه في الأغلب لا يذكر أسماء الأشخاص ولا الأماكن التي يتحدث عنها ، ولا يركّز إلا على العبر والدروس التي تفيد في تربية الإنسانية جمعاء ، لا قريش أو العــرب وحدهم(٢) . والشاهد في ذلك أن الوحي لو كان أخيلة وأوهام ناتجة عن ظــروف محيطــة ، لسيطرت تلك الظروف بشكل أو بآخر عليها ، ولأثرت فيها ، ولكان لها فيها حيّز واسع . ولو كان كذبا وخداعا لسخره صاحبه في ذكر مفــاخره ، وهجــاء أعدائــه بأســمائهم ، ومــدح المخلصين له بأسمائهم كذلك .

خامسا : ما كان منه ﷺ من شك ورعب حين جاءه الوحي أول مرة وهو في غــار حــراء ، حتى عاد إلى بيته قائلا لأهله : زملوني زملوني(٣) . فلو كان كاذبا في أمر جبريل عليه السلام والوحي ، لكانت له في ميدان الكذب سعة من ذلك ، ولكان الأحرى به أن يدعي أن جبريــل عليه السلام قد أخذ بيده أخذا رفيقا حانيا ، وسمر معه ، بدل أن يقول بأنه قــد غطــه ثــلاث مرات حتى كادت روحه تزهق ، ولكان الأحرى به أيضا أن يعود إلى بيته مبتسما منــشرح الصدر ، ما دام يزعم أنه قد نزل عليه وحي رب العالمين مصطفيا له خليلا ورسولا . بل إنه في هذه الحالة سيشفع هذه الكذبة بكذبة أكبر منها ، فيدعي أن ربه قد تجلى لــه شخــصيا ، وكلمه مشافهة ! . كما أنّ هذا الشك قد استمر معه ﷺ وقتا طويلا بعد أن فتر الوحي عنه حتى كان يهمّ أن يلقي بنفسه من قمم الجبال(١) ، مما يثبت أنه ﷺ لم يكن يتطلع قبل الــوحي إلــى

---

(١) ينظر : د. دراز ، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، ص ١٧١ – ١٧٢ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه ، ص١٨٠- ١٨١ .
(٣) ينظر : الحديث بتفاصيله : البخاري ، **فتح الباري** ، ج١٤ ، ص ٨٦١٠ – ٨٦١١ ، (رقم :٦٩٨٢) .

(١) ينظر : البخاري ، **فتح الباري** ، ج١٤ ، ص ٨٦١٠ – ٨٦١١ ، (رقم :٦٩٨٢) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النبوة والرسالة ، خلافا لما زعمه المستشرقون من أن تطلعه للنبوة جعله يتخيل فيما بعد أنــه حقيقة[٢] .

سادسا : هناك ثلاث مصافٍ لا بد أن تمرّر منها حياة وشخصية أيّ إنسان يدّعي أنه يــوحى إليه ، أو يرى مخلوقات من عالم الغيب ، أولاها : التحقق من صدقه . والثانية : التحقق مــن أنه لا يجوز عليه الوهم . والثالثة : أن تكون هناك أعراض ظاهرة مصاحبة للوحي لا يمكن تفسيرها على أساس أنها مرض أو تصنّع[٣] . وإذا نظرنا في حالته ﷺ نجدها قد تحققــت فيها الشروط الثلاثة ، فثبت أنه رسول الله ، وأن ما كان يأتيه هو وحي الله[٤] .

المطلب الثامن : ردود قرآنية عامّة على جميع فِرى المشركين

---

(٢) ينظر : د. إبراهيم عوض ، **مصدر القرآن** ، ص٢١ ، ٢٣ – ٢٤ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ص ١٧٩ .
(٤) يضاف إلى هذه الردود أيضا ما سبق بيانه من الردود القرآنية وغيرها في مطلب الرد على الفرية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أفرد القرآن كل فرية من فِرى المشركين من السحر والشعر والكهانة ... بالردّ والإبطال ، فقد أورد ما يعمّها جميعها من الردود العامّة المبطلة لها ، وهي كما يلي :

أولا : بيان أنّ القرآن لو كان من عند غير الله لكان فيه الاختلاف والتناقض ، ولتطرق إليه الباطل بشكل أو بآخر ، قال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾(النساء:٨٢) . قال الشوكاني : " المراد اختلاف التناقض والتفاوت وعدم المطابقة للواقع . وهذا شأن كلام البشر ، لا سيما إذا طال ، وتعرض قائله للإخبار بالغيب ، فإنه لا يوجد منه صحيحا مطابقا للواقع إلا القليل النادر "[(١)] . إضافة إلى أنه لو كان من عند غير الله لاختلف وتفاوت نظمه وبلاغته ، فكان بعضه بليغا ، وبعضه قاصرا عنه ، وبعضه دالا على معنى صحيح ، وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم ، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة ، ومعانٍ صحيحة ، وأخبارا صادقة ، عُلِم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره ، عالم بما لا يعلمه سواه – سبحانه – [(٢)] . ويشير إلى هذا المعنى أيضا قوله تعالى ﴿ وإنه لكتاب عزيز ۞ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴾(فصلت :٤١ –٤٢) . قال ابن عاشور : " فمعنى ﴿ لا يأتيه الباطل﴾ لا يوجد فيه ولا يداخله ، فلا مطعن في لفظه ولا في معناه "[(٣)] .

ثانيا : الوعد الجازم الواثق بإراءة المشركين من الآيات ما يقطعون بعده أنّ القرآن حق من عند الله ، وبطلان ما قالوه فيه ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحقّ ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾(فصلت :٥٣) . فوعد بأنه تعالى سيريهم دلالات صدق هذا القرآن وأنه من عند الله في نواحي السماء والأرض ، وما يحدثه الله فيهما ، وفي ذواتهم . كيف لا وهو المطلع على كل شيء في هذا الكون حدث أو سيحدث ، غيبا كان أو شهادة ، فموعوده سبحانه متحقق الإنجاز كأنه مشاهد بالعين[(٤)] .

ثالثا : بيان اختلاف المشركين وتناقضهم واضطرابهم في وصف القرآن والمبلغ له ﷺ ، المفضي إلى بطلان ما زعموه فيهما ، قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بالحق لمّا جاءهم ، فهم في أمر مريج ﴾(ق:٥) ، أي مختلط مضطرب ، يقولون مرة أنه سحر ، ومرة شعر ، ومرة

---

(١) الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ٣٩٩ .
(٢) ينظر : الزمخشري ، **الكشاف** ، ص ٢٤٩ ، والآلوسي ، **روح المعاني** ، ج٥ ، ص ١٢١ – ١٢٢ .
(٣) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٤ ، ص ٣٠٩ .
(٤) وهذه الآيات رآها المشركون بحصول النصر لهذا الدين ، بما يسر الله لرسوله ﷺ والمسلمين من الفتوح والغلبة على أعدائهم ، على قلة عددهم وضعفهم ، مما هو خارق للعادة . وكذلك بما رأوه من أحوالٍ تصيب ذواتهم كالجوع الذي دعا عليهم به النبي ﷺ حتى أكلوا العظام . ومثل ما شاهدوه من مصرع كبرائهم يوم بدر تصديقا لما توعدهم القرآن به . ينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٥ ، ص ١٨–٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كهانة ...[١] ، قال ابن عاشور : " وهذا تحميق لهم بأنهم طاشت عقولهم فلم يتقنوا التكـذيب ، ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذبوا به "[٢] . كما قال تعالى : ﴿ والسماء ذات الحبك ۞ إنكم لفي قول مختلف ﴾(الذاريات:٧-٨) ، فأقسم تعالى تأكيدا على اضطراب أقـوالهم الطاعنـة في القرآن والرسول ﷺ المقتضي بطلانها جميعا . والقول المختلف هو المتناقض الذي يخالف بعضه بعضا ، فيقضي بعضه إبطال بعض[٣] . كما بيّن تعالى هذا الإضطراب بقوله : ﴿ عمّ يتساءلون ۞ عن النبأ العظيم ۞ الذي هم فيه مختلفون ﴾(النبأ : ١ - ٣) .

رابعا : إيضاح سبب تكذيبهم وطعونهم في القرآن والرسول ﷺ ، وهو ما جعله الله من موانع الفهم لديهم جزاء كفرهم حتى قالوا ما قالوه ، قال تعالى : ﴿ إنّا جعلنا على قلـوبهم أكنّـة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ﴾(الكهف :٥٧) ، وقال : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهـوه وفـي آذانهم وقرا ﴾(الأنعام :٢٥ ، والإسراء :٤٦) ، وقال : ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهـو عليهم عمىً ﴾(فصلت :٤٤) . فبيّن أنه تعالى قد حال بينهم وبين فهم القرآن مجازاة لهـم علـى كفرهم ، فجعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه ، وفي آذانهم صمما وثقـلا فـي الـسمع فـلا يسمعونه السماع النافع لهم ، مما حجبهم أن يُدركوا حقيقة ما هو عليه ﷺ من النبوة وجلالـة القدر ، وحقيقة هذا القرآن الخارق للعادة ، الخارج عن طاقة الخلق ؛ ولذا اجترؤوا على التفوّه بتلك القبائح من الرمي بالسحر وبالشعر وبالكهانة ...[٤] .

خامسا : إبطال فِراهم بنفي الضلالة والغِواية والهوى عنه ﷺ ، مع الإشارة إلى أنهم أعـرف الناس بذلك . جاء هذا في قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ۞ ما ضل صاحبكم وما غوى ۞ وما ينطق عن الهوى ۞ إن هو إلا وحي يُوحى ﴾(الـنجم ١-٤) . فالجنون من الضلال ؛ لأن المجنون لا يهتدي إلى وسائل الصواب . والكذب والسحر ضلال وغواية . والشعر المتعارف بينهم غواية ، كما قال تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾(الشعراء : ٢٢٤) ، أي يحبّـذون أقوالهم لأنها غواية . وكذا الكهانة ضلال وغواية . فبنفيه تعالى المؤكّـد بالقـسم الـضلالة والغواية عنه ﷺ انتفت تلك الأوصاف جميعها عنه . وبنفيه أن يكون الكلام الصادر عنـه ﷺ – وهو القرآن – عن هوى نفسه ، ينتفي أن يكون مختلقا منه أو منقولا عن غيره مع نـسبة ذلك إلى الله ؛ لأن هذا إن حدث فهو ناشئ عن هوى النفس ، أي ميلها إلى ما تحبّـه ممـا لا يقتضيه العقل السليم ولا تقرّه الفطرة السوية . وإيثار التعبير عنه ﷺ بصاحبكم تعريض بأنهم

---

(١) ينظر : الشوكاني ، **فتح القدير** ، ص ١٦٦٩.
(٢) ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٦ ، ص ٢٨٥ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ج٢٦ ، ص ٣٤٠- ٣٤١ .
(٤) ينظر : الآلوسي ، **روح المعاني** ، ج١٥ ، ص ١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهل بهتان ، إذ نسبوه إلى ما ليس فيه مع شدة اطلاعهم على أحواله وشؤونه ، إذ هو بينهم في بلد صغير لا تتعذر فيه إحاطة علم أهله بحال أي واحد منهم[١] .

(١) ينظر : ابن عاشور ، **التحرير والتنوير** ، ج٢٧ ، ص ٩٢ – ٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستنتاجات والتوصيات

وأخيرا أختم هذه الرسالة بذكر عدد من الاستنتاجات التي توصلت إليها من خلال ما سبقت دراسته من مباحث ومطالب ، وهي :

أولا : الحرب الإعلامية أسلوب أصيل في مواجهة أهل الباطل لأهل الحق في كل زمان . وهي ذات أشكال وألوان متعددة ؛ ذلك لأن الحق أبلج ظاهر ، ما يدفع أهل الباطل أن يغيروا ويبدلوا في أساليبهم وتكتيكاتهم كي يتمكنوا من تزوير الحق وتشويهه أمام طالبيه لينفضّوا عنه .

ثانيا : اغترار معسكر الباطل بقوته وجبروته ، فلا يبالي بما يصدر عنه في سبيل القضاء على الحق وحزبه .

ثالثا : أنّ الحق لابد له من قوة تحميه ، وتزهق الباطل وتنحّيه ، فإن لم تكن له قوة مادية ، فلا أقل من قوة الحجة والبرهان ، فهي كفيلة بتثبيت أهل الحق على حقهم ، وإضعاف الباطل وأهله ولو بعد حين .

رابعا : القرآن كتاب الله الخالد المعجز ، ما نازله منازل إلا غُلِب ، وما طعن فيه طاعن إلا خاب وفشِل ، قد تحطّمت على صخرته فرى المفترين في القديم والحديث ، وما زال صامدا شامخا . وإنّ عجز قريش والعرب وكافة الإنس والجن عن معارضته من وقت نزوله حتى وقتنا هذا ، إنما يدل على تهافت فرى المفترين عليه الطاعنين فيه ، كما يدل على أنه الحقّ من عند الله .

خامسا : لقد جعل الله تعالى من سيرة نبيه ﷺ منبعا للبراهين والأدلة على صدقه وحقيّة ما جاء به من عند ربه عز وجل ، فما أن ينظر الناظر في أي حلقة من حلقاتها أو حدث من أحداثها ، إلا ويجد فيد دليلا دامغا على أنه رسول الله .

سادسا : ما قاله المشركون قديما في شأن القرآن ردّده المستشرقون حديثا ، فلم يأتوا بجديد ، فصدق الله إذ يقول : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ .

سابعا : إنّ معظم ما كتبه المستشرقون حول الإسلام إن لم يكن كله ، كان بغير اللغة العربية من اللغات الأوروبية ، ما يعني أنه لم يكن موجها أساسا إلى المسلمين ، وإنما عرفه المسلمون من الترجمات وما أورده بعض العلماء في كتبهم نقلا عنه ، وهذا ليس له إلا تفسير واحد هو أنهم أرادوا بذلك صد الشعوب الغربية عن التعرف على الصورة الصحيحة للإسلام ، بعد أن تحررت عقولهم من قيود الكنيسة ورجالاتها ، وتفتحت أذهانهم للبحث عن الحقائق ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكانت تلك الكتابات تعطيهم صورة عن الإسلام مشوهة تصدهم عن اعتناقه ، دون أن يعلموا أن هذه الكتابات ما هي إلا حفنة من الأكاذيب .

ثامنا : التحليل البياني للنصوص القرآنية له دور بالغ الأهمية في الكشف عن كنوزها وعجائبها وأساليبها البليغة ، ومن ثم إعجازها المبين .

وأما التوصيات التي أودّ أن أوجهها إلى الباحثين في مجال القرآن وعلومه ، والقائمين على تدريسه ، والأمة جمعاء ، فهي :

أولا : أن يتوجه الباحثون إلى دراسة الموضوعات القرآنية ، على رأسها موضوع الاعتراضات التي واجه بها خصوم الدعوة هذا الدين ، وهي ذات أنواع وأشكال متعددة ، وما موضوع الافتراءات إلا واحدٌ منها ، فهناك الاحتجاجات ، وهناك الطعون ، وهناك الاقتراحات ، وهناك المزاعم والأمانيّ الباطلة .

ثانيا : ضرورة التركيز في الأبحاث العلميّة المتّصلة بالقرآن على الدراسات التفسيرية ، التي تعتني باستخراج كنوز القرآن وهداياته .

ثالثا : ضرورة التأسيس السليم لطلبة علم التفسير ، لغة ونحوا وبلاغة ، إلى غير ذلك من أصول هذا العلم ؛ حتى تنعم الأمة بمن يشرح لها كتاب ربها شرحا مفصلا ، يطربُ قلوب أبنائها ويملأ عقولهم ، ويدفع جوارحهم إلى امتثال ما فيه من أحكام وشرائع وأخلاق .

رابعا : على الأمة ألا تجزع أو تَهن ، رغم كل المؤامرات والافتراءات الموجهة إلى الإسلام ونبي الإسلام ﷺ ، فإن القرآن فيه أعظم عبرة ودلالة على أن العاقبة لهذا الدّين لا محالة .

هذا وصلى الله على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

انتهى الباحث من كتابة هذه الرسالة ليلة الأحد ، التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة ، من عام ألف وأربعمئة وثمانية وعشرين للهجرة ، الموافق للتاسع من شهر كانون الأول ، من عام ألفين وسبعة ميلادية . وانتهى من ضبطها وتصحيحها ليلة الأربعاء ، السابع من شهر محرّم ، من عام ألف وأربعمئة وتسعة وعشرين للهجرة ، الموافق للسادس عشر من شهر كانون الثاني ، من عام ألفين وثمانية ميلادية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

الآلوسي ، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ، (ت : ١٢٧٠ هـ) . **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني** ، ط١ ، م١٥ ، (تحقيق : محمد أحمد الأمد وعبد السلام السلامي) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٩م .

ابن إسحاق ، محمد بن يسار ، (ت : ١٥١ هـ) . **المبتدأ والمبعث والمغازي** ، المعروف **بسيرة ابن إسحاق** ، ط٢ ، ١م ، (تحقيق : محمد حميد الله) ، الوقف للخدمات الخيرية ، قونية – تركيا ، ١٩٨١م .

الأصبهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي ، (ت: ٣٥٦ هـ) . **الأغاني** ، (تحقيق : إبراهيم الأبياري) ، دار الشعب ، القاهرة .

الألباني ، محمد ناصر الدين ،(١٩٩١م) . **صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها** . (ط١) ، الرياض : مكتبة المعارف .

الألباني ، محمد ناصر الدين ، (١٩٩١م) . **ضعيف سنن الترمذي** . (ط١) ، (١م) ، بيروت ، ودمشق ، وعمّان : المكتب الإسلامي .

الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب ،(ت : ٤٠٣هـ) . **إعجاز القرآن** ، ط١ ، دار الأمين ، القاهرة ، ١٩٩٣ م .

البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، (ت : ٢٥٦ هـ) . **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه** ، بشرح ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني ، (ت :٧٧٣هـ) ، المسمى : **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ، ١٥م ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت ، ٢٠٠١م .

البقاعي ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر ، (ت : ٨٨٥ هـ) ، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** ، ط٣ ، ٨م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٦م .

بني عامر ، محمد أمين حسن محمد ، (٢٠٠٤م) . **المستشرقون والقرآن الكريم** . (ط١) ، إربد : دار الأمل للنشر والتوزيع .

البيضاوي ، ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي ، (ت :٦٩١هـ) . **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** ، المعروف **بتفسير البيضاوي** ، ط١ ، ٢م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٨م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي ، (ت : ٤٥٨ هـ) . **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** ، ط١، (تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان) ، المكتبة السلفية – المدينة المنورة ، ودار النصر– القاهرة ، ١٩٦٩م .

البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين ، (ت : ٤٥٨ هـ) . **السنن الكبرى** ، ط١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد – الهند ، ١٣٤٦ هـ .

الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، (ت : ٢٧٩هـ) . **الجامع المختصر من السنن عن النبي ﷺ ، ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل** ، المعروف بـ**(جامع الترمذي)** أو **(سنن الترمذي)** ، ١م ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض .

التونجي ، محمد ، والأسمر ، راجي ، (٢٠٠١م) . **المعجم المفصل في علوم اللغة** . (ط١) ، (٢م) ، بيروت : دار الكتب العلمية .

الثعالبي ، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف ، (ت : ٨٧٥ هـ) . **الجواهر الحسان في تفسير القرآن** ، ط١ ، ٣م ، (تحقيق: أبو محمد الغُماري الإدريسي الحسني) ، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان ، ١٩٩٦م .

الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر ابن عبد الرحمن بن محمد ،(ت : ٤٧١ أو٤٧٤ هـ) . **دلائل الإعجاز** ، مطبعة المدني ، مكتبة الخانجي للنشر ، القاهرة .

الجزائري ، أبو بكر جابر ، (٢٠٠٢م) . **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير** . (ط١) ، (١م) ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم .

ابن الجزري ، محمد بن محمد بن محمد ، (ت :٨٣٣ هـ) . **تقريب النشر في القراءات العشر** ، ط٢ ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٩٢م .

ابن جزيّ ، أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي ، (ت : ٧٤١ هـ) . **التسهيل لعلوم التنزيل** ، ط١ ، ٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٥م .

ابن الجوزي ، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد ، (ت : ٥٩٧ هـ) . **زاد المسير في علم التفسير** ، ١م ، ط١ ، المكتب الإسلامي ودار ابن حزم ، بيروت ، ٢٠٠٢م .

الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي الرازي ، (ت : ٣٧٠ هـ) . **أحكام القرآن** ، ٣م ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٤م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجمل ، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي ، الشهير بالجمل ، (ت : ١٢٠٤ هـ) ، **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية** ، المعروف **بحاشية الجمل** ، ط١، ٨م ، دار الفكر ، بيروت ،٢٠٠٣م .

ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ، (ت : ٣٢٧ هـ) . **تفسير القرآن العظيم مسندا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين** ، ط٢ ، ١٠م ، (تحقيق : أسعد محمد الطيب) ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٩٩٩م .

الحاكم ، أبو عبد الله محمد بن محمد النيسابوري ، (ت: ٤٠٥ هـ) . **المستدرك على الصحيحين** ، وبذيله التلخيص للذّهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، (ت : ٧٤٨هـ) ، ٤م ، دار المعرفة ، بيروت .

ابن حبان ، أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، (ت : ٣٥٤ هـ) . **المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها** ، المعروف بـ**(صحيح ابن حبان)** بترتيبه المسمّى : **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان** ، لأبن بلبان ، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ،(ت :٧٣٩ هـ) . ط١ ، ١٦م ، (تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرناؤوط) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٨م .

ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني ، (ت : ٨٥٢ هـ) . **الإصابة قي تمييز الصحابة** ، ٨ م ، (تحقيق : علي محمد البجاوي) ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .

الحديثي ، بهجت عبد الغفور ، (١٩٧٥م) . **أمية بن أبي الصلت : حياته وشعره (دراسة وتحقيق)** . بغداد : مطبعة العاني .

الحلي ، محمد علي حسن ، (١٩٧٨م) . **الكون والقرآن في علم الفلك** . (ط٣) ، بغداد : مطبعة أسعد .

الحميدان ، عصام بن عبد المحسن ، (١٩٩٩م) . **الصحيح من أسباب النزول** . (ط١) ، بيروت : دار الذخائر ومؤسسة الريان .

ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني ، (ت :٢٤١ هـ) ، **المسند** ، ط١ ، ٤٥م ، (تحقيق وتخريج وتعليق : شعيب الأرناؤوط وجماعة معه) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢٠٠١ م .

أبو حيان ، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي ، (ت : ٧٥٤هـ) . **البحر المحيط في التفسير**، ١٠م ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاروف ، محمد فهد ، (١٩٩٥م) . **الميسر في القراءات الأربعة عشرة** . (ط١) ، دمشق ، وبيروت : دار ابن كثير ، ودار الكلم الطيب .

الخازن ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي ، (ت : ٧٢٥ هـ) . **لباب التأويل في معاني التنزيل** ، المعروف بـ(**تفسير الخازن**) ، ط١ ، ٤م ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٥م .

الخضر ، أسامة علي ، (٢٠٠٤م) . **القرآن والكون : من الانفجار العظيم إلى الانسحاق العظيم** . (ط١) ، اليمن : وزارة الثقافة والسياحة .

الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ، (ت : ٣٨٨ هـ) . الرسالة المسماة **(بيان إعجاز القرآن)** ضمن كتاب **(ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي)** ، ط٤ ، (تحقيق : محمد خلف الله ، وزغلول سلام) ، دار المعارف .

خليفة ، محمد ، (١٩٩٤م) . **الاستشراق والقرآن العظيم** . (ط١) ، القاهرة : دار الاعتصام .

أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، (ت : ٢٧٥ هـ) . **سنن أبي داود** ، ١م ، بيت الأفكار الدولية ، عمان .

دراز ، محمد عبد الله ، (١٩٨٩م) . **مدخل إلى القرآن الكريم : عرض تاريخي وتحليل مقارن** . الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية .

دراز، محمد عبد الله ، (١٩٨٨م) . **النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن** . (ط٣) ،الكويت: دار القلم .

درويش ، محي الدين ، (٢٠٠٢م) . **إعراب القرآن الكريم وبيانه** . (ط٧) ، (٩م) ، دمشق ، وبيروت : اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ، ودار ابن كثير ، وحمص : دار الإرشاد للشؤون الجامعية .

الرازي ، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الشافعي الطبرستاني الأصل ، (ت : ٦٠٦هـ) . **مفاتيح الغيب** ، المعروف بـ**(التفسير الكبير)** ، ط٤ ،١١م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠١م .

الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد ، (ت : ٥٠٢ هـ) ، **المفردات في غريب القرآن** ، ط٤ ، (تحقيق : محمد خليل عيتاني) ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٥م .

الرافعي ، مصطفى صادق ، (١٩٩٧م) . **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** . (ط١)، (تحقيق : عبد الله المنشاوي) ، المنصورة : مكتبة الإيمان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رضا ، محمد رشيد ، (١٩٦٠م) . **الوحي المحمدي : ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام** . (ط٦) ، القاهرة : مكتبة القاهرة .

الرماني ، أبو الحسن علي بن عيسى ، (ت : ٣٨٦ هـ) . الرسالة المسماة (**النكت في إعجاز القرآن**) ، ضمن كتاب (**ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي**) ، ط٤ ، (تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام) ، دار المعارف .

الروضان ، عبد عون ، (٢٠٠١م) . **موسوعة شعراء العصر الجاهلي** . (ط١) ، عمان : دار أسامة للنشر والتوزيع .

الزرقاني ، محمد عبد العظيم . **مناهل العرفان في علوم القرآن** . (ط٣) ، (٢م) ، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي وشركاه .

الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله ،(ت : ٧٩٤هـ) . **البرهان في علوم القرآن** ، ٤م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١م .

الزمخشري ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ، (ت : ٥٣٨هـ) . **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** ، ط٢ ، ١م ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٥ م .

السعدي ، عبد الرحمن بن ناصر ،(١٩٩٩م) . **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** . (ط١) ، (١م) ، بيروت : مؤسسة الرسالة .

أبو السعود ، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ، (ت : ٩٨٢هـ) . **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ، المعروف بـ(**تفسير أبي السعود**) ، ط١ ، ٦م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٩م .

السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي ، (ت: ٦٢٦ هـ) . **مفتاح العلوم** ، ١م ، ط١، (تحقيق : عبد الحميد هنداوي) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠م .

السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي ، (ت : ٥٨١ هـ) . **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام** ، ط١ ، ٤م ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٧م .

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت : ٩١١ هـ) . **الإتقان في علوم القرآن** ، ط١، ١م ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٤م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت: ٩١١ هـ) . **لباب النقول في أسباب النزول** ، ط١ ، دار ابن الهيثم ، القاهرة ، ٢٠٠٥م .

الشريف ، عدنان ، (١٩٩٣م) . **من علم الفلك القرآني : الثوابت العلمية في القرآن الكريم** . (ط٢) ، بيروت : دار العلم للملايين .

الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ،(ت:١٢٥٠هـ) ، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، ط١ ،١م ، دار ابن حزم ، بيروت– لبنان ، ٢٠٠٠م .

ابن أبي شيبة ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم ، (ت: ٢٣٥هـ) . **المصنف** ، ط١ ، ١٤م ، (تحقيق : حمد بن عبد الله الجمعة ومحمد بن إبراهيم اللحيدان) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ٢٠٠٤ م .

الصابوني ، محمد علي ، (١٩٩٦م) . **صفوة التفاسير** . (ط١) ، (٣م) ، القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع .

الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام ، (ت : ٢١١ هـ) . **تفسير القرآن** ، ٢م ، ط١ ،(تحقيق : مصطفى مسلم محمد) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٩٨٩م .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت : ٣١٠ هـ) . **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، ط١ ، ١٦م ، (ضبط وتعليق محمود شاكر) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠١م .

طبل ، حسن ، (٢٠٠٤م) . **علم المعاني في الموروث البلاغي : تأصيل وتقييم** . (ط٢) ، المنصورة : مكتبة الإيمان .

طرفة بن العبد ، **ديوان طرفة بن العبد** ، دار صادر و دار بيروت ، بيروت ، ١٩٦١م .

ابن عاشور ، محمد الطاهر . **التحرير والتنوير من التفسير** . (١٢م) ، تونس : دار سحنون للنشر والتوزيع .

عباس ، فضل حسن ، وسناء فضل . **إعجاز القرآن الكريم** . عمان : دار الفرقان .

عباس ، فضل حسن ، (١٩٩٦م) . **البلاغة فنونها وأفنانها : علم البيان والبديع** . (ط٢) ، عمان : دار الفرقان للنشر والتوزيع .

عباس ، فضل حسن ، (١٩٩٧م) . **البلاغة فنونها وأفنانها : علم المعاني** . (ط٤) ، عمان : دار الفرقان .

عباس ، فضل حسن ، (١٩٨٨م) . **قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية : نقد مطاعن ورد شبهات** . (ط١) ، عمان : دار البشير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبد الباقي ، محمد فؤاد ، (١٩٩٤م) . **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** . (ط٤) ، بيروت : دار المعرفة .

ابن عبد الوهاب ، محمد ، (ت : ١٢٠٩هـ) . **مختصر سيرة الرسول ﷺ** ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، السعودية ، ١٤١٨هـ .

عتر ، حسن ضياء الدين ، (١٩٩٩م) . **وحي الله – حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة نقض مزاعم المستشرقين** . (ط١) ، دمشق : دار المكتبي .

عتيق ، عبد العزيز . **علم المعاني** . بيروت : دار النهضة العربية .

ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله ، (ت : ٥٤٣ هـ) . **أحكام القرآن** ، ٤م ، (تحقيق : علي محمد البجاوي) ، دار المعرفة ودار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧م .

عطية ، محمد هاشم . **تراجم الشعراء** .

ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق الأندلسي ، (ت : ٥٤١ هـ) . **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ، ط١ ، ١م ، دار ابن حزم ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٢م .

العلماء ، نخبة من ، (١٤١٩هـ) . **التفسير الميسر** . المدينة المنورة : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .

العلي ، إبراهيم محمد ، (٢٠٠٣م) . **صحيح أسباب النزول** . (ط١) ، دمشق : دار القلم .

عناية ، غازي ، (١٩٩٦م) . **شبهات حول القرآن وتفنيدها** . (ط١) ، بيروت : دار ومكتبة الهلال .

عوض ، إبراهيم ، (١٩٩٧م) . **مصدر القرآن : دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي** . القاهرة : مكتبة زهراء الشرق .

الغوري ، إبراهيم حلمي ، (٢٠٠٢م) . **العلوم الفلكية في القرآن الكريم** . (ط١) ، حلب : دار القلم العربي .

الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، (ت : ١٧٠ هـ) . **كتاب العين** ، ط١، ٤م ، (تحقيق : عبد الحميد هنداوي) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣م .

الفندي ، محمد جمال الدين ، (١٩٩٢م) . **مع القرآن في الكون** . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، (ت : ٨١٧ هـ) . **القاموس المحيط** ، ط١ ، ١م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤م .

الفيل ، توفيق . **بلاغة التراكيب : دراسة في علم المعاني** . القاهرة : مكتبة الآداب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي المقري ، (ت : ٧٧٠ هـ) . **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي** ، ط٤ ، ١م ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٢١م .

ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، (ت : ٢٧٦ هـ) . **الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء** ، ط١ ، (تحقيق : مفيد قميحة ، ومحمد أمين الضناوي) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠ م .

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، (ت :٦٧١هـ) . **جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان** ، المعروف بـ**(الجامع لأحكام القرآن)** ، ط١ ، ١٠م ،(تحقيق سالم مصطفى البدري) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠م .

قطب ، سيد ، (٢٠٠٣م) . **في ظلال القرآن** . (ط٣٢) ، (٦م) ، القاهرة : دار الشروق .

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، (ت : ٧٧٤هـ) ، **تفسير القرآن العظيم**، ط١ ، ٤ م ، دار الفيحاء– دمشق ، دار السلام – الرياض ، ١٩٩٤ م .

الكفوي ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني ، (ت : ١٠٩٤ هـ) . **الكليات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية –** ، ط١،٢م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت– لبنان ، ١٩٩٣م .

ابن ماجة ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، (ت : ٢٧٣ هـ) . **سنن ابن ماجة** ، ١م ، بيت الأفكار الدولية ، عمان .

مارديني ، عبد الرحيم ، (٢٠٠٣م) . **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم** . (ط١) ، دمشق : دار المحبة ، وبيروت : دار آية .

المباركفوري ، صفي الرحمن ، (١٤٢٣هـ) . **الرحيق المختوم : بحث في السيرة النبوية** . (ط٢) ، الرياض : دار السلام للنشر والتوزيع .

المرادي ، الحسن بن قاسم ، (ت : ٧٤٩هـ) . **الجنى الداني في حروف المعاني** ، ط١ ، (تحقيق : فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م .

مرعي ، هدى عبد الكريم ، (١٩٩١م) . **الأدلة على صدق النبوة المحمدية ، ورد الشبهات عنها** . عمان : دار الفرقان .

مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري ، (ت : ٢٦١هـ) . **الجامع الصحيح** ، بشرح النووي ، أبي زكريا محي الدين يحيى بن شرف الدمشقي الشافعي ،(ت: ٦٧٦هـ) ، المسمى بـ**(المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)** ، ط٩،١م ،(تحقيق : عرفان العشا حسونة) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٠م .

المسيّر ، محمد سيد أحمد . **النبوة المحمدية** . نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المشني ، مصطفى . **محاضرات مخطوطة في مادة التفسير التحليلي** .

ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري ، (ت :٧١١هـ) . **لسان العرب** ، ط٤، ٩م ، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٥م .

النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ، (ت: ٣٠٣ هـ) . **كتاب السنن الكبرى** ، ط١ ، ٦م ، (تحقيق : عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩١م .

النسفي ، عبد الله بن أحمد بن محمود ، (ت: ٧١٠ هـ) . **مدارك التنزيل وحقائق التأويل** ، المعروف بـ(**تفسير النسفي**) ، ١م ، ط١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠٠٠م .

النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف ، (ت : ٦٧٦ هـ) . **الأذكار** ، ط١ ، دار المعرفة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٨م .

ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك المعافري ، (ت : ٢١٨هـ) . **السيرة النبوية** ، ٤ م ، (تحقيق : محمد علي القطب ومحمد الدالي بلطه) ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ٢٠٠١ م .

ابن هشام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري ، (ت :٧٦١ هـ) . **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ، ٢م ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٩٨٧م .

الواحدي ، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري ، (ت : ٤٦٨ هـ) . **أسباب النزول** ، ط١، دار ابن الهيثم ، القاهرة ، ٢٠٠٥م .

الوادعي، أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي ، (١٩٩٤م) . **الصحيح المسند من أسباب النزول** . (ط٢) ، بيروت : دار ابن حزم ، وصنعاء : مكتبة دار القدس .

أبو يعلى ، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي ، (ت : ٣٠٧ هـ) . **المسند الصغير** ، المعروف بـ(**مسند أبي يعلى الموصلي**) ، ط١ ، ٦م ، (دراسة وتحقيق : مصطفى عبد القادر عطا) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨ م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

SLANDERS OF THE PROPHET AND THE QUR’AN

- QUR’AN STUDY -

By
Tariq Asfour

Supervisor
Dr.Ahmad Nofal

ABSTRACT

This study has considered the Slanders done by the infidels of Mecca to the Prophet Muhammad at the beginning of his massage, they were six fabrication : magic, poetry, Priesthood, insanity, learn from humans and fabrication of the qur’an . the study aimed to indicates the way that the qur’an dealt with to Mention and to response these fabrications, besides some demands which related strongly to them, like the explanation of the selection of their owners, and its meaning, and purpose the suspicions and motives behind them, and with what Mentioned again by some opponents who came after the era of having the qur’an already came, especially Orientalists in the modern age, and replay on them the appropriate reply .

The study has come to some of the most important results : First : all the spoken fabrications are responsed by mental and links evidence. Second : The main motivation behind these fabrications were the envy and the stubbornness and the pride, and the purpose of misleading the public and maintain the fortunes. Third : the Orientalists have fuller in the same contradictions that occurred by the infidels Mecca in the past, and chose the same rotten fabrications.

The study has also come to some conclusions : First : that the inability of human beings throughout the ages opposition qur’an shows the reality of this book and being the merical of the Prophet . Second : The events of the Prophet's biography are a compelling evidence on the honesty of Mohammed . Third : the media war is an inherent style of the bad people to face the good people at all times. As well as the study has come to some recommendations : First : the researchers should have in considerations the objections of the opponents which the qur’an mentioned and reply on them . Second : the need to the correct building to the qur’an explanation students. Third : the Islamic nation should not feel humiliated or scared in spite of the conspiracies directed towards Islam .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit